مُحاضرات الوائلي

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الأول

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر





إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الأول

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر



مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب:	محاضرات الوائلي (رحمه الله)/الجزء الأول
إشراف:	مصطفى الشيخ عبد الحميد
الناشر:	مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر
المطبعة:	شريعت
عدد النسخ:	(١٠٠٠) نسخة
الطبعة الأولى:	١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

قم/إيران/ ٥٩٨- ٣٧١٨٥ ـ هاتف: ٧٧٣٥٦٤٦ - ٧٧٤٦٥٤٦

info@Omalqora.net

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾.

آمين رب العالمين وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد وآله الطاهرين وأصحابه الأخيار الأبرار المنتجبين.

المؤلف

الإهداء

إلىٰ سيد الشهداء عليه السلام

إلىٰ أبي الأحرار عليه السلام

إلىٰ ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إلىٰ ابن أمير المؤمنين عليه السلام

إلىٰ ابن سيدة نساء العالمين عليها السلام

إلىٰ أخي الحسن المسموم عليه السلام

إلىٰ الحسين المظلوم عليه السلام

أُهدي هذه البضاعة المزجاة من محاضرات ربّ المنبر الحسيني، الدكتور الشيخ أحمد الوائلي (تغمده اللّه بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنّته).

﴿فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّـهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

يوسف: ٨٨.

مصطفىٰ الشيخ عبد الحميد آل مرهون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

صدق الله العظيم

هذا الكتاب..

باسمه تعالىٰ

أرجو أن أكون موفّقاً فيما بذلته من مجهود متواضع في سبيل إنجاز هذا العمل المبارك الذي كنت قد بدأته في بلدي أم الحمام ـ القطيف ـ بكتابة مجموعة من محاضرات زعيم المنبرﷺ، ثمّ واصلت العمل فيه في مدينة قم المقدّسة بتفريغ الأشرطة المسجّلة علىٰ يد جملة من الإخوة المؤمنين، وتنضيدها بهذا الشكل الجميل، شاكراً لهم تعاونهم وجهودهم، وأخصّ بالشكر والتقدير أخي العزيز الشيخ عبد الستار فرج اللّه علىٰ ما بذله من جهود متواصلة، ونرجو أن يكون ما قدّمناه في ديوان الأعمال.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

البقرة: ٢٠١

مصطفىٰ الشيخ عبد الحميد آل مرهون

المقدمة

قراءة في المنهج

جدير بنا ونحن نقف هذا الموقف الباكي ـ موقف النعي والرثاء ـ أن نقرأ معالم المنهج الخطابي لشيخ الأدب والمنبر العلّامة الوائلي ﷺ، فالوائلي لم يكن فرداً ولا مجموعة من القصائد الرائعة، وإنما هو مدرسة متنقّلة تحمل بين ثناياها المشرقة أطياف النور والعطاء.

مرجعيّة الذكر الحكيم: لقد تبنّىٰ الوائلي أن يفتتح حديثه بآي من الذكر، ليربّي الأُمة علىٰ أن يكون متن الكتاب منطلقاً لثقافتها ومفتاحاً لمعارفها في مختلف الحقول.

التعدديّة الفكريّة: إن ما يتميز به منبر الوائلي اهتمامه بثقافة الجمهور من خلال توسعة ذهن المستمع؛ لكي يستوعب المدارس الفكريّة المتنوعة ويعيش روح المرونة والانفتاح علىٰ الآراء المختلفة.

العقلانيّة: ربما يسترسل الخطيب في طرح البحوث الخلافيّة ذات اللمسات العاطفيّة لينتهي باختيار ما هو أقرب لذوقه وأوفق بمزاجه الفكري، غير أن الوائلي دأب علىٰ طرح أقوىٰ الآراء بأقوىٰ الأدلة، فلا يجده المستمع تائهاً في دهاليز المعارك العاطفيّة، ولا متشبثاً بالنتائج الموهونة، ولا مرتكزاً علىٰ خبر ضعيف أو

رأي شاذ أو عرف شائع أو نحوه حرصاً منه علىٰ زرع مبدأ العقلانيّة في ثقافة الأُمة وبنيتها الفكريّة.

الروح الأدبيّة: إنّ النفس الأدبي عنصر ضروري في جاذبيّة المنبر، فهو الرافد الذي ينهل منه الخطيب طلاقة لسانه وسحر بيانه، وهو منطلقه الذي يبعثه لاختيار أجزل الألفاظ وأسلسها وانتخاب أجود الشعر وأعذبه، بل ربما يتدخل الذوق الأدبي في مختاراته الفكريّة فينتقي من الفكر والثقافة ما ينسجم مع الفطرة السليمة والسليقة المستقيمة. والشاعر الوائلي ـ الذي امتزج الأدب بروحه وجرىٰ في دمه وتدفق علىٰ لسانه كالجدول الرقراق ـ كانت خطابته قصيدة نثريّة رائعة بمضامينها وطرائفها وقوافيها، أو حديقة يانعة غنّاء بديعة الألوان زاهية الأفنان والورود.

مرجعيّة المنبر وأبوّته: لقد نأى ملك المنبر وسيّد الأعواد الوائلي بالخطابة عن القضايا المرحليّة، فلم تقتحم المعترك السياسي ولم تتلوث بمستنقع التشنجات الشخصيّة والزوبعات الخلافيّة، ولم تتقوقع في إطار الهموم أو الأمجاد العائليّة أو الإقليميّة؛ من أجل أن يرتقي بالمنبر إلىٰ أفق الطموح في المسيرة الخالدة للفكر الإسلامي، ولكي تظل الأعواد مرجع الاتجاهات المتعددة وملتقى الخطوط المختلفة، تغدق العطاء الوافر علىٰ أبنائها وتلامذتها، وتحتضن بأبوّتها أفلاذ كبدها مهما تنوعت مشاربهم وتباينت مواقفهم.

فن العرض والأداء: إن لحقل الخطابة فناً يختلف عن حقل المحاضرة والتعليم ولهذا الفن الجميل ملامح جميلة:

١ ـ **حركيّة البيان**: فإن مهارة الخطيب تتجلّىٰ في قدرته علىٰ التفنن والتنوع في أساليبه بين الترغيب والترهيب والتعظيم والتوهين.

٢ ـ **جاذبيّة الإيقاع**: فكما أن لكل مقام مقالاً فلكل مقام لحن يحكيه وإيقاع

يلائمه فإن لحن الرثاء غير لحن الثناء، ونبرة الصوت عند الشرح والتحليل غيرها عند التفخيم والتهويل.

٣ - **التبويب والترتيب:** فإن تسلسل الفكرة وتقسيمها مفتاح هضمها واستيعابها.

٤ - **القصة:** توسط القصة بين ثنايا الأسطر ومقاطع البحث يوقظ الغافل ويبعث الكاسل، مع ما فيه من ترويح القلوب وتقريب الأفكار وتجلية الأنظار.

٥ - **التمركز على الخلاصة:** قد ينحدر الخطيب في تفاصيل المطلب الواحد واستعراض مقدماته ولوازمه وملزوماته، مما يثقل ذهن المستمع ويؤدي إلى تبخر جوهر الموضوع ونكتته الأساسيّة في ركام التفاصيل الجزئيّة. غير أن الخبير بالأساليب التقنية في مجال التعليم يجد أن التمركز حول جوهر المضمون وروحه دون هوامشه وتفاصيله هو الأداة الفاعلة في غرس الفكرة وترسيخها.

والخطيب الوائلي ممّن أمسك بأزمة الخطابة الرائدة وجسّد ملامحها الجميلة بما هو أجمل منها، مما جعله النجم المتألق بين عمالقة المنبر.

ولعل أهم العوامل المؤثرة في توفيقه واشتهار صيته عشق أبي الأحرار والولع به، ونقاء السيرة وصفاء السريرة، فلم ينبهر بشهرة ولم يجرِ خلف بريق الألقاب والعناوين، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً في موكب سيد الشهداء عليه السلام.

السيد منير الخباز

نظرات في سيرة الوائلي وحياته العلمية

اسمه ونسبه وولادته

أحمد ابن الشيخ حسّون ابن الشيخ سعيد بن حمود الليثي النجفي.

ولد في النجف الأشرف سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م)، وواصل دراسته بجدّ واجتهاد في المدارس الرسميّة، ثم التحق بكليّة الفقه وتخرج منها، وانتقل إلى بغداد لمواصلة دراسته في معهد العلوم الإسلاميّة، ونال منه شهادة الماجيستير. ثم سافر إلى القاهرة وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلاميّة أيضاً. وهو مع جميع هذه المراحل الدراسيّة الشاقّة كان يصعد أعواد المنابر للتوجيه والإرشاد والدعوة، ويساهم في المؤتمرات والمهرجانات الأدبيّة، ويشنّف الأسماع بأدبه الجمّ وقريحته الوقّادة، وشاعريّته الحيّة التي تهزّ النفوس وتطرب المشاعر.

أقام ﷺ في السنين الأخيرة في الشام لدوافع سياسيّة، واستمر في التأليف والتصنيف والبحث. وهو عالم وخطيب ومتكلّم وشاعر مجيد وأديب متضلّع، عرف بجودة البيان والاطّلاع الواسع والأُسلوب العلميّ الرصين، وعذوبة المنطق وحلاوته. والتحدّث حسب متطلّبات الظرف ومقتضيات العصر بكلّ ما في هذه الألفاظ من معنى رفيع ودلالة جامعة.

الوائلي سيرة خطيب وإبداع مفكر

مكونات شخصيّته

لقد استطاع الشيخ الوائلي ﷺ أن يحقّق إنجازاً عظيماً في الخطابة الإسلاميّة والمنبر الحسيني، ويعود ذلك إلى أن شخصيّته تفاعلت فيها عدّة مكوّنات؛ منها:

١ - دراسة العلوم الإسلاميّة في الحوزة العلميّة، فاكتسب عمقاً ومعرفة كبيرين في الفقه والأُصول والبلاغة والسيرة والتاريخ والتفسير وعلوم الحديث. فهو ﷺ لم يدخل هذا المدخل اعتماداً على الحفظ أو الصوت أو اللياقات الجسميّة، بل حاز نصيباً كبيراً من العلوم الدينيّة مكّنه من أن يطوّر قدرته على التحليل والمقارنة والاستدلال مثله كمثل أي فقيه آخر. كما أن دراسته المعمّقة للتاريخ الإسلاميّ وسّعت من رؤيته التي انفتحت على كلّ المشهد الإسلامي بتاريخه الذي يمتدّ إلى خمسة عشر قرناً.

٢ - دراساته الأكاديميّة وحصوله على درجة الدكتوراه من القاهرة، فقد جعلته هذه الدراسات ينحى منحىً منهجيّاً وموضوعيّاً في طريقة تفكيره وأدائه، وأن يقولب ذلك بصورة بعيدة عن التحيّز والأحكام المسبقة.

٣ - اطّلاعه الواسع على مؤلّفات كبار علماء أهل السنة في السيرة والتاريخ والحديث، وكذلك تفاسيرهم المشهورة للقرآن الكريم مثل تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) وتفسير الرازي (التفسير الكبير) اللذين كان يستشهد بهما كثيراً في محاضراته.

٤ – نشوؤه في النجف الأشرف، وهو بيئة غنيّة بالفكر والفقه والأدب، وكان يتموّج بتيّارات فكريّة وثقافيّة وشعريّة متنوّعة لاحصر لها.

٥ – أنه نفسه كان شاعراً مفوّهاً مقتدراً، وكثيراً ما ينشد من أشعاره في محاضراته. وله دواوين شعر ومطارحات شعريّة مع كبار الشعراء.

٦ – أنه متابع جيّد لآخر النظريّات العلميّة وخاصّة في مجالات الطبّ والكيمياء والفيزياء والفلك والمخترعات والاكتشافات العلميّة. وكان يوظّف هذه المعلومات في محاضراته لتخدم الفكرة التي يناقشها.

٧ – كان الوائلي مطّلعاً على الأفكار والفلسفات الغربيّة والعلمانيّة والاشتراكيّة والشيوعيّة، الأمر الذي مكّنه من عقد مقارنات موفّقة بينها وبين الفكر الإسلاميّ أو الأحكام والمفاهيم الإسلاميّة.

٨ – له ملكات شخصيّة انفرد بها و ميّزته عن الخطباء الآخرين، كالحضور الفكري، وسرعة البديهة، واقتناص الشاهد التاريخي والإسلامي، وبلاغة في الكلام، والعبارات المسبوكة.

كل هذا جعل من الدكتور ﴿ القمة في أُسلوبه وعطائه.

مدرسة الوائلي في الخطابة

لم يقلّد الوائلي من سبقوه في الخطابة، بل ابتكر مدرسة بدأت به واستمرّ بها طوال النصف الثاني من القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين. وقد أبدع ﴿ في ترسيخ معالم هذه المدرسة العريقة، حيث قام بتغيير الخطابة التقليديّة التي كانت سائدة قبله بشكل جذري. وقد شمل التغيير الشكل والمضمون، فقد ابتكر نمطاً جديداً، فهو بعد أن يفتتح المجلس الحسيني بقراءة آية من القرآن، يبدأ بتفسير هذه الآية بشكل علمي حديث، متناولاً الآراء المتعدّدة التي وردت في

تفسيرها أو أسباب نزولها، ثم يتوسّع فيما تتضمّن الآية من مفاهيم اجتماعيّة وفكريّة وفقهيّة وأخلاقيّة وسياسيّة واقتصاديّة. وغالباً ما يعزّز رأيه بقصص تاريخيّة أو أحداث من واقع الحياة المعاصرة من أجل تقريب الفكرة للسامع. كما أنه قد يذكر بعض القضايا العلميّة التي تحثّ العقل على التفكير بين آيات الخالق وابتكارات المخلوق.

هذا الأُسلوب حبّب المجلس الحسيني للناس؛ حتى باتت جميع طبقات الشعب ومن مختلف الشرائح الاجتماعيّة تحرص على سماع محاضراته. فتجد فيهم المثقّف والأكاديميّ والعسكريّ والموظّف والعامل والكاسب والتاجر والطالب؛ من نساء ورجال، كلّهم يتّفقون على حبّهم واحترامهم لهذا الشيخ الذي يبشّر بالتعاليم الإسلاميّة وبمبادئ الثورة الحسينيّة إلى جانب المنجزات العلميّة والطبيّة. لقد استطاع الوائليّ أن يحقّق نقلة نوعيّة في المنبر الحسيني، ونقلة كميّة عندما اجتذب هذه الجموع الشعبيّة إليه.

كما أنه قام بتشذيب المنبر الحسيني وتخليصه من الخرافات والأساطير والأخطاء والأقاويل. وقام بتهذيب الحزن والبكاء وحوّله إلى أُسلوب جديد في الوعي السياسي والفكري والتربية والأخلاق. فهو لم يلغِ البكاء على الحسين‌عليه‌السلام ـ وهو ما اعتاده السامعون والحاضرون للمنبر الحسيني على مدى التاريخ ـ لكنه قدّم مصيبته وأهل بيته‌عليهم‌السلام من خلال التعريج عليها في ختام المحاضرة عبر الربط بينها وبين مشهد معيّن من حادثة الطفّ، ثم يقرأ أبياتاً من الشعر العمودي والشعبي يهزّ بها مشاعر الحاضرين ويؤجّج عواطفهم، بعد أن كان قد حلّق بهم في سماء الفكر والعلم والأخلاق.

لقد برز علماً لا يبارى في فترة الخمسينيّات والستينيّات، وهي فترة امتازت باجتياح المدّ القومي والشيوعي والطائفي للمشهد السياسي والاجتماعي العراقي،

فكانت مسؤولياته جساماً تجاه هذه القضايا من أجل تنبيه الجماهير المؤمنة إلى هذه الأخطار، وتوجيههم إلى عدم الخضوع لها أو خوض غمارها؛ فحافظ بذلك على توازن الشخصيّة العراقيّة الملتزمة. لقد نجح في مهمّة التوعية الجماهيريّة من خلال تحسين أداء المنبر الحسيني، وجعله مدرسة عامّة لكلّ الراغبين في الاستزادة من الوعي والاستقامة والإيمان. كما استطاع بأُسلوبه الخاصّ الرصين أن يكمل ما كان يقوم به علماء الحوزة العلميّة والمرجعيّة الدينيّة من توجيه الأُمة نحو الإسلام وتعاليمه ومبادئه، ونحو التمسك برمز التشيّع الإمام الحسين‌ﷺ، وثورته التي أضحت مناراً لكل الثوّار والأحرار[١].

كما أنه‌ﷺ كان منفتحاً على جميع قطّاعات الأمة، فكان الجميع يحترمه، حتى المختلفون معه في الرأي..كان يحظى بثقة واحترام الشيعة والسنّة .. العراقيّين وغير العراقيّين. فقد كان متواصلاً مع كلّ المسلمين في بقاع كثيرة.. في سوريا ولبنان والكويت والإمارات ومصر وأوربا وغيرها. ولم يكن يُشعر سامعه بأنه يختلف عنه لا في الوطن ولا في المذهب؛ لأنه كان من الوعي والعبقريّة بمكان يجعل حتّى غير الشيعيّ يحترم موضوعيّته وإنصافه.

وأغلبنا كان يشاهد الآلاف من الناس التي تأتي لسماع محاضراته حرصاً على الاغتراف من علمه وأدبه. وكانت المساجد تمتلئ والشوارع المجاورة تغصّ بالناس، وكثيراً ما كانت حركة السير تتوقّف فيها؛ لزحمة هؤلاء الناس القادمين للاستزادة من منهله العذب، بل وحتى باصات نقل الركاب وسيارات الأُجرة والسيارات الخاصّة كانت تتوقّف عن الحركة حتى تنتهي المحاضرة التي حرص

---

(١) كما ينقل عن محرر الهند غاندي أنه كان يقول: تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر.

الشيخ على أن تبقى محددة بثلاثة أرباع الساعة فقط. وكان إقبال أصحاب السيّارات هؤلاء إقبالاً طوعياً، وليس من أجل أن الطرق قد غصّت وأُغلقت بالمستمعين.

وهكذا نجد أن أُسلوب الدكتور الوائليﷺ كان يفرض على كل من يسمعه أن يتابع خطبته حتّى النهاية. وهكذا ظلّت أشرطة محاضراته جزء هامّاً من التراث الإسلامي المعاصر، وهي تعبّر عن مرحلة هامّة من الصحوة الإسلاميّة من خلال التأكيد على مفردات المنبر الحسيني الذي لعب دوراً هامّاً في بناء وعي الجماهير. وللأسف لم تحوّل إلى الآن إلى كتب أو سلسلة كتيّبات مبوّبة في موضوعات مختلفة؛ ليسهل تناولها على الجميع؛ ولذا فإننا نرمي في مشروعنا هذا إلى القيام بهذا الدور، ونحرص عليه غاية الحرص، وهو دور ثقيل العبء؛ نسأل الله تعالى أن يوفّق لإتمامه ونشر تراث هذا العلَم الفذّ.

وكان الشباب الجامعيّون غالباً ما يراجعونه بعد انتهاء المحاضرة ليسألوه عن تلك الفكرة أو ذلك المفهوم الذي قام بعرضه في محاضرته، فيجدوا منه صدراً مفتوحاً ووجهاً مستبشراً، يستمع لهم ويستمعون له، يحاورهم ويحاورونه، يسألونه عن مصادر الأفكار التي طرحها فيمحاضرته، فيجيب بلا تثاقل أو عجلة. هكذا كانت أخلاقه.. أخلاق العالم المتواضع مع حنين أبوي لكلّ الناس.

تجاربي مع المنبر

كان لابدّ للشيخ صاحب المنبر العريق أن ينقل تجاربه؛ سواء إلى الخطباء الذين يسيرون على دربه في خدمة الإسلام ونشر الوعي الاسلامي، أو إلى الجماهير من مختلف فئاتها من مثقّفين وعلماء ومتديّنين؛ كي يتعرّفوا بشكل أوسع على هذه المدرسة الإسلاميّة، فأصدر كتابه (تجاربي مع المنبر) ليُودع فيه حصيلة عمره

وثمرة جهوده في خدمة الثقافة الإسلاميّة.

ففي (تصوراته حول المنبر) يحذر الشيخ الوائلي﵀ من المتطفّلين على المنبر أو ممّن لا يتثبّتون ممّا ينقلونه لجمهورهم، خاصّة أن هناك من يتربّص بهم، فيكونون مادة للتشهير والطعن: «ومن المؤسف أن بعض مرتقي المنابر قد لا يكون متثبّتاً في نقله، أو يكون متسرّعاً في أحكامه، أو ليس على علم بما يعالجه من موضوعات. وقد جاءني أكثر من واحد منّا ومن غيرنا يحملون بأيديهم شرائط مسجلة لخطباء سلفيّين، يحملون فيها على بعضهم فينعتونه أولاً بأنه من علماء الشيعة، وهو لا صلة له بالعلم. إنهم يحسبون أن من لبس عمّة كبيرة ويحسن أن يصوغ بعض الألفاظ، من العلماء، وقد تتبّعوا أقوال هؤلاء وما ينقلونه عن بعض المؤلّفات لأهل السنة فلم يجدوا له أثراً، فانتزعوا حكماً مفاده أن كبار علماء الشيعة يكذبون. كما أشاروا إلى نظريّات في مختلف أبعاد العلوم ليست صحيحة، وإحصائيات ليست مضبوطة، وقالوا: هذه هي منابركم. فقلنا لهم: أن كل فئة تختصّ بعلم أو عمل لابدّ أن يوجد فيها أُنموذج من هذا القبيل، فليس من الصحيح أن يُحكم على فئة كاملة بتصرّفات فرد. وأتذكر أن أحدهم قال: لم لا يتصدّى علماؤكم لمنع أمثال هؤلاء من الخطابة؟ فقلت لهم: لأنهم لا يملكون قوّة تنفيذيّة كما تملكون أنتم؛ ولذلك لا قدرة لهم على ضبط أمثال هذه الأمور».

أخلاقيات المنبر

يذكر الشيخ الوائلي للمنبر أخلاقيات هي:

١ - أن يستهدف عمل المنبر وجه الله تعالى قبل وبعد كلّ شي، فإن حاد عن هذا الهدف تحوّل إلى دكّان لعرض بضاعة. وسوف لا يرتفع صاحبه به ولا يرتفع هو بصاحبه عن هذا المستوى، بل سيعجّل في نهايته.

٢ - الارتباط بالصالح العام والسموّ إلى هذا المستوى بعيداً عن التحوّل إلى مُدية بيد فئة أو فرد ضدّ فئة أو فرد آخر بدوافع شخصيّة.

٣ - سموّ ممارسة العمل المنبريّ عن إرضاء القاعدة الهابطة على حساب الحقائق والقيم، وعلى أشلاء العقل والذوق، وكلّ ذلك لتحصيل مكانة أو سمعة أو استقطاب جمهور من أجل سحب البساط من تحت رجل آخر.

نصائح لخطيب المنبر

وبعد أن يوضّح الدكتور الوائليﷺ أهميّة الخطابة ودورها في المجتمع، يقدّم باقة قيّمة من نصائحه للخطيب لكي يتمكّن من عرض خطبة جيدة. ومن هذه النصائح:

١ - أُسلوب الطرح، وهو أمر هامّ يكون له أبلغ الأثر على السامع، كما يحدّد مكانة الخطيب ومنزلته من نفوس السامعين، ومن سكب المضمون الذي يريد إيصاله في عبارات مناسبة ومهذّبة خالية من التبجّح والادّعاء.

٢ - ارتباط أُسلوب الطرح بظروف الأداء، فما يطرح في زمان قد لا يصلح للطرح في زمان آخر، وكذلك بعض ما يطرح في بعض الأمكنة قد لا يصلح لأن يطرح في مكان آخر. فليس من الذوق في شي أنْ تطرح في مجلس كلّه من عامّة الناس الأدلّة الأُصوليّة أو الفقهيّة على الغسل أو المسح في الوضوء.

٣ - يتعيّن تتبّع العلامات البارزة والأحجام المرموقة التي لها إسهام في المشاركة بالطفّ. فذلك بالإضافة إلى كونه مادّة دسمة في مضمون المنبر، فإنه يثبت معنى القدوة في نفوس قد تكون ضعيفة تشعر بالتذمّر من ممارسة أمثال هذا اللون من الشعائر. فعلى سبيل المثال إذا عرف السامع أن شرائح متنوّعة ولامعة في تاريخنا كانت تقيم مجالس العزاء للحسينﷺ كالفاطميّين والبويهيّين

والحمدانيّين وبعض حكّام الهند من غير المسلمين، وإسهامات الكتّاب الغربيّين في تأبين الحسين﵇، فإن ذلك حتماً سيساهم في تحقيق الهدف المطلوب من أهميّة الواقعة وتأصيلها في النفوس.

٤ - العمل بمهارة على وضع المستمع المسلم أمام مسؤوليته في عدم التحرّج من عمل يحبّذه الإسلام بتشريعه وأشخاصه: نظرية وممارسة، ودعوة المسلمين إلى فهم ذلك جيّداً لإدخالهم في هذه الأجواء، ومنع ابتعادهم عن أمر يحقّق لهم أجراً وإفادة في فهم خلفيّاتنا التاريخيّة، وتصحيح كثير من المسارات التي أخذ المنبر يساهم في إلقاء الضوء عليها: «فأنا واثق من أن كثيراً من المسلمين يجهلون أدلّة مشروعيّة المجالس الحسينيّة وإباحة البكاء على مطلق الموتى من المؤمنين والحزن عليهم ورثائهم بدليل بكاء النبيﷺ على عمّه أبي طالب وعلى عمّه حمزة﵇، ويوم شهادة شهداء معركة مؤتة ويوم وفاة ابنه إبراهيم»[١].

---

(١) قال الشيخ عبد الحميد المرهون في كتابه (رائق الضمير): «وبما أننا أصبحنا أمام أمر تنابزنا به الأعداء، وتسخر بنا من أجله البسطاء، ألا وهو إقامة مجالس العزاء علىٰ مصيبة بطل الإسلام، ومنقذ الشريعة أبي عبدالله الحسين﵇، والبكاء والتباكي من أجل رزيّته، فعلينا أن نستحضرَ الدليل، ونستمدَّ البرهان من كتاب الله وسنّة رسولهﷺ على استحباب ذلك، أو جوازه علىٰ الأقلّ.

وإذا أردنا أن نوجد الدليل ونستحضر البرهان فعلينا قبل ذلك أن نعرِّف أولئك المعارضين أنّ الشيعة لا تقيم مجالس العزاء من أجل الحسين﵇ لقصد البكاء والتباكي عليه فقط، وإن كان ذلك قد أصبح طابعاً خاصّاً لتلك المجالس الفاضلة، بل أنّ الشيعة الكرام إنما تحتفل بذكرىٰ فاجعة الحسين﵇ طيلة أيّام السنة، وعلىٰ الأخصّ في أيام عاشوراء، لأنّ فيها ما فيها من الأجر والثواب، علىٰ ما تعتقده هذه الطائفة المحقّة إن شاء الله، ولأنها تعطي لسامعها دروساً مفعمة بالفوائد والعظات، إذ أنّها تمثّل الحقائق الراهنة والحياة الحقيقيّة الّتي يحياها الإنسان فتكسبه خير الدنيا والآخرة.

حتىٰ إنّ المستشرق الفرنسيّ جوزف لمّا درس حادثة الطفّ، أبدىٰ الدهش والاستغراب من عظيم دخلها في إحياء الدين، فقال في كتابه (الإسلام والمسلمون) ما معرّبه: ومن المعلوم أنّ

....

☚ إقامة المآتم، وذكر الأخبار الواردة في فضل البكاء علىٰ مصائب أهل البيت عليهم السلام، تكون عديدة الأثر، وتوجب رسوخ العقائد في خواصّ هذه الفرقة وعوامّها فوق حدّ التصوّر، فالحسين عند الشيعة الّذين يقيمون عزاءه قتيل عِبرَة، قبل أن يكون قتيل عَبرَة.

ولذلك فإنهم لا يألون جهداً في إقامة مجالس الذكرىٰ من أجل مصيبته عليه السلام، لاسيما وقد اتّضح لهم الدليل علىٰ رجحان ذلك من طريقين: الكتاب والسنة.

فأمّا من الكتاب، فإنّ يعقوب بكىٰ علىٰ يوسف حتّىٰ ابيضت عيناه من الحزن، قال تعالىٰ: ﴿وتَوَلَّىٰ عنْهم وقالَ يَا أَسَفَىٰ علَىٰ يُوسُفَ وابيضَّت عَيْنَاهُ مِنَ ٱلحُزنِ فهُو كَظِيمٌ﴾. يوسف: ٨٤.

فإذا جاز البكاء ليعقوب علىٰ يوسف حتىٰ بلغ منه ذلك المبلغ ولم ينافِ منصب النبوّة، فكيف لا يجوز للشيعة أن تبكي حبيب رسول الله صلى الله عليه وآله وأحبَّ أهل الأرض إلىٰ أهل السماء؟

وأمّا من السنة الشريفة، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بكىٰ علىٰ عمّه الحمزة، وعلىٰ ابن عمّه جعفر، وقال صلى الله عليه وآله: «علىٰ مثل جعفر فلتبكِ الباكية». الطبقات الكبرىٰ ٨: ٢٢٠.

وبكىٰ علىٰ ولده إبراهيم وقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الربّ وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون». صحيح مسلم ٤: ١٤٤٢ / ٢٣١٥.

ثم إنّ بكاء النبي صلى الله عليه وآله علىٰ الحسين نفسه أمر معلوم. وقد ورد في (مستدرك الصحيحين) بسنده عن شدّاد بن عبدالله، عن أُمّ الفضل بنت الحارث زوجة العبّاس بن عبدالمطلب، أنّها دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يارسول الله إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة. قال: «وما هو؟». قالت: إنّه شديد. قال: «وما هو؟». قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري. فقال صلى الله عليه وآله: «رأيتِ خيراً، تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك».

فولدت فاطمة الحسين عليه السلام، فكان في حجري، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخلت يوماً علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تهريقان من الدموع، قالت: فقلت: يا نبيَّ الله بأبي أنت وأُمّي مالك؟ قال: «أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أُمّتي ستقتل ابني هذا»، فقلت: أيكون هذا؟ فقال: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء». المستدرك على الصحيحين» ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧.

قال صاحب (المستدرك): «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين».

أقول: إنّ صاحبة الرؤيا هي أُمّ أيمن، وليست أُمّ الفضل، لأنّ أُمّ الفضل لم تهاجر مع زوجها إلّا عام الفتح، وقد جاء في (الأمالي) للشيخ الصدوق ما يؤيّد ذلك. الأمالي: ٧٦ / ١.

وفي (كنز العمّال) قال: عن المطّلب بن عبدالله بن حنطب، عن أُمّ سلمة قالت: كان النبيُّ صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: «لا يدخلنّ عليّ أحد». فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام،

كيف تطور المنبر الحسيني

أولاً: الهيكل التراثي الموروث الذي رافق بدايات المنبر بالشكل والمضمون، والذي نحرص أشدّ الحرص على الاحتفاظ بكثير من جوانبه كآليّات متوارثة لها مكانتها في عمق الوجدان. وضرورتها لكونها جذوة لا نريد لها أن تخبو، ولكن في الوقت نفسه نبحث عن أُسلوب يجمع بينها وبين الإطار السليم الأكثر قبولاً عند الزمن وأهله. ولتوضيح ذلك نقول:

١ - ينبغي انتقاء مادّة المنبر خالية من الشوائب والتهافت، ولتكن المادّة غاية في البساطة فهي خير من مادّة يحسب البعض أنها دسمة ولكنها غير سليمة في أجزائها.

٢ - لا داعي لأن تستوعب المناسبة كلّ وقت المحاضرة، وإنما تُجعل مجرّد خاتمة في نهاية المحاضرة شرط ألّا نلتمس لها صنفاً من الشعر الهابط أو النصوص

☚ فسمعت نشيج النبيّ ﷺ يبكي، فاطّلعت فإذا الحسين في حجره، أو إلىٰ جنبه يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت به حتىٰ دخل، فقال النبي ﷺ: «إنّ جبرئيل كان معنا في البيت، فقال: أتحبّه؟ فقلت: أما من حُبّ الدنيا فنعم. فقال: إنّ أُمّتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء». فتناول جبرئيل من ترابها فأراه النبيّ ﷺ. كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦. وقال: «أخرجه الطبراني». المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧.

ولا يتوهّم من له أدنىٰ شعور أنّ النبيّ ﷺ يبكي لقتله قبل أن يحدث، ويكره البكاء عليه بعد قتله، فالقول بتحريم البكاء علىٰ الحسين من المنكرات، كيف؟ وقد بكاه جماعة من الصحابة والتابعين رجالاً ونساءً، وكلّهم ممّن يُعتمد عليه، ويُقتدىٰ به ولا يمكن الطعن فيه، كالزهراء ﷺ، وأمير المؤمنين ﷺ، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وجابر بن عبدالله الأنصاريّ، وسهل بن سعيد الساعديّ، وزين العابدين ﷺ، وغيرهم ممّن يطول ذكرهم.

وفي (ينابيع المودة) عن الزهري، أنّه لمّا بلغ الحسنَ البصريَّ خبر مقتلُ الحسين ﷺ بكىٰ حتىٰ اختلج صدغاه، وقال: «أذلّ الله أُمّةً قتلت ابن بنت نبيها». ينابيع المودّة ٢: ٣٩٨.

انظر رائق الضمير ١: ٦٠ ـ ٦٢.

المتّسمة بالركّة ممّا لا يتناسب وأهميّة الموقف وكرامة أهل البيت عليهم السلام.

٣ - أن نستفيد من حشود الذكرى، فنطرح موضوعاً من المواضيع التي تعالج موقفنا من جسم الأُمة الذي يتعرّض لافتراءات لا نهاية لها، أو موضوعاً أخلاقياً أو عقائدياً يشدّنا إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ويحقق مطلب الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «أحيوا أمرنا»[1].

٤ - إن تكريس اليوم العاشر لقراءة المقتل واستعراض الواقعة كلّها من مقدّماتها حتى النهاية - في حين أنها مرت مفصّلة خلال الأيام العشرة وتكرّر سماعها في أكثر من مجلس حتى أصبح السامع يكرّر مقاطعها قبل الخطيب - يزاحم ما قد نراه أهمّ من ذلك، ألا وهو شرح أسرار نهضة الحسين عليه السلام وأهدافها وتسليط الأضواء على الخلفيّات، وردّ الافتراءات ومحاولات تفريغ الواقعة من محتواها الاجتماعي، أو ربطها أحياناً بأمر شخصيّ رخيص أو عداوة قبليّة، أو تصوير إحياء مراسم الطفّ بأنه نمط من أنماط الشعوبيّة التي تستهدف الإسلام والعرب، وكأن الحسين عليه السلام ليس ابن سيّد العرب، ولا سيّد شباب أهل الجنّة. إن لفت انتباه الأُمة الإسلاميّة لذلك أهمّ وأجدى من تكريس مقتل مرّ مضمونه مفصّلاً. ثم بعد ذلك تكرّس فترة لشرح فظاعة المأساة وبشاعة المجزرة التي استهدفت قتل رسالة النبي صلى الله عليه وآله بتمزيق صدور حامليها، وإعطاء اللوعة حصّة يبرد معها الغليل.

ثانياً: وسائل استدعاء الحزن، فإن الخطيب قد يبذل جهداً بصورة مبالَغ فيها أحياناً، تحشد فيها صنوف الشعر بلغتيه الدارجة والفصحى، وبشكل يبدو عليه التكلّف، وتضاف إليه مقاطع من بعض النصوص لتتضافر جميعها في إبكاء

---

(١) الكافي ٨: ٨٠ / ٢، الخصال: ٢٢ / ٧٧.

الحاضرين. إن مسألة البكاء والدمع ونشر الظلامة وُظّفت من أهل البيت لتكون وسيلة فاعلة في لفت النظر لما جرى في واقعة الطفّ، وتجنيد النفوس لاستشعار مصيبة أهل البيت، لا لتكون غاية في ذاتها تطغى على الهدف الأهمّ. إننا إذا أسرفنا وأكّدنا على الدمع على حساب الأهداف الأُخرى وقعنا فيما لا ينفع، بل يضرّ، فإن لذلك نتائج هي:

١ - حصر الإمام الحسين في نطاق الدمع والمأساة على حساب أنه ثورة حقّ على الباطل، ومنهج سلك الشهادة لبناء مجتمع، وردّ طغيان، ووقوف بوجه باطل.

٢ - أن تكريس ردود فعلنا عن واقعة الطفّ بالدمع ومداومتنا عبر قرون على هذا الجانب فقط له مردود سلبيّ على عنفوان متوقّع ورجولة نريد لها الاستمرار.

٣ - حينما يطغى الدمع في مراسم الواقعة فإنه سوف يستأثر بامتلاك المزاج الشعبيّ.

ثالثاً: الخروج بالمنبر عن ساحة طائفة خاصّة إلى الساحة الإسلاميّة، بل والإنسانيّة.

رابعاً: التخصّص في أبعاد المنبر، أي الدائرة العلميّة والإسلاميّة وما يرتبط بها من علوم وفنون تخدم الهدف.

شخصية الوائلي

من العوامل المؤثّرة في صياغة شخصيّة الدكتور الوائلي، عامل المجتمع الذي عاصره، فالوائلي ابن النجف الأشرف، نشأ في محيطه تربية وتعليماً، والنجف من أعرق البيئات الثقافيّة الإسلاميّة قدماً. يقول الدكتور علي جواد الطاهر: النـجف مدينة العلم الديني المنقطع النظير، ثم الأدب والشعر، وهي فيهما نادرة من النوادر وأعجوبة من الأعاجيب، يُعنى أهلها بقول الشعر وسماعه والحديث عنه عنايتهم بالمسائل اليوميّة من أكل وشرب، إنهم أُدباء كما يتنفّس المرء الهواء. ولا تسل بعد ذلك عن الكتب والمكتبات، والأُسر العريقة في العلم والأدب والشعر ومجالسها الخاصّة والعامّة، وما يُتلى من شعر في الأفراح والأحزان، وفي مآتم الحسين بن علي عليه السلام، وما يتفاخر به الشعراء ويسمر به الناس.

إن الشعر في النجف حياة، وهو لدى أبنائها ليس شيء أسهل ولا أيسر منه، أو أنه فيها كالماء والهواء: استسهالاً واستعظاماً، جدّاً وهزلاً، وهو علامة فارقة لا تكاد تضاهيها فيه بلدة أُخرى في العالم العربي.

ومن خصائص النجف التي تذكر لها بالإعجاب والإكبار أنها سايرت التطوّرات الدينيّة والأدبيّة في العالم العربي بصدر رحب وأُفق واسع، فهي مع محافظتها على أصالة الفكر الإسلامي لم تتزمّت فترفض المعاصرة، وإنما أخذت من وسائلها وأسبابها ما رأته ضرورياً نافعاً، حتّى إنّ الكتب الحديثة لا تكاد تدخل العراق حتّى تتّجه رأساً إلى النجف فتتلقّفها الأيدي هي وكتابات أكثر حداثة كشعر شوقي وحافظ وإيليا أبي ماضي، وفيهما ما يناقض الفكر النجفي المناقضة كلّها.

على كلّ حال نشأ الدكتور الوائلي ﷺ في هذا العصر الذي يعتبر قمّة نضج المدرسة العلميّة النجفيّة وسعتها في مختلف أبعاد المعرفة، وكان من عناية الله تعالى بالحوزة أن تتابع جيل من المراجع المحقّقين والعلماء الأكفاء لقيادة الحوزة، وقد ضمّت هذه الفترة على تعاقب واجتماع جملة علماء منهم الميرزا حسين النائيني، والسيد أبو الحسن الاصفهاني، والسيد محسن الحكيم، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد أبو القاسم الخوئي، والشيخ محمد حسن المظفّر، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد حسين الحمّامي، والسيد محمد تقي آل بحر العلوم، والشيخ محمد رضا آل ياسين، وأضرابهم من فحول العلماء الأعلام. وهؤلاء مجرد أنموذج وليس الأمر على نحو الاستيعاب.

وتليهم طبقة أُخرى ضمّت مجموعة، منهم الشيخ مرتضى آل ياسين، والشيخ محمد رضا المظفّر، والسيد موسى آل بحر العلوم، والسيد محمد باقر الصدر، والسيد محمد تقي الحكيم، والشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي، والسيد الميرزا حسن البجنوردي، وأمثالهم. وهذه المجموعة هي الأُخرى مجرّد أُنموذج من عدد كبير.

وحفل عصره أيضاً بعدد من الخطباء المبرّزين، منهم الشيخ محمد علي اليعقوبي، والشيخ محمد علي قسّام، والسيد صالح الحلّي، تليهم طبقة أُخرى نسجت على منوال السابقين ممّن ذكرناهم من الأُدباء والشعراء، فكانوا يشكّلون كمّاً كبيراً لهم طابعهم النجفي الخاصّ، وأدبهم الناضج والرائد، ابتداءً من شيخ الأدب الشيخ محمد جواد الشبيبي، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ علي الشرقي، ومحمد مهدي الجواهري، والسيد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ صالح الجعفري، والدكتور عبد الرزاق محيي الدين، وكثير غيرهم ممّن صقلت بهم أبعاد النجف الحضاريّة.

ومن الجدير بالذكر أن معظم أهل العلم شعراء ولكنهم لا يرغبون بذكر ذلك عنهم لرغبتهم في الاحتفاظ بالنهج العلمي والاشتهار بذلك، أما المحقّقون في الأبعاد الفكريّة الأُخرى فيوجد منهم عدد كبير ورد ذكرهم في كثير من الموسوعات والمراجع المختصّة. ومن أراد الاستزادة فعليه بالرجوع إليها؛ لأنّ كلّ زقاق من أزقّة النجف عبارة عن معهد علميّ، وكلّ نادٍ من أنديتها ومجلس من مجالسها هو عبارة عن مؤسّسة ثقافيّة تحفل بعطاء علميّ ناضج.

ومثل هذا الجوّ لابد أن يفعل فعله في شخصيّة الوائلي، فقيهاً وشاعراً وخطيباً، ويعمل على صقله وتهذيبه، وبالتالي تكوينه بالشكل اللائق. ولاشك أن للاستعداد الفطري لدى الدكتور أثراً في توجّهه وحرصه على الانتهال من هذا الغدير الذي يحمل سمات المعلم الثاني بالوجود الإمام أمير المؤمنين، ومن قدس روحانيّة مرقده السامي الرابض كالأسد على الذكوات البيضاء من الغريّ الأغرّ.

ومن فيض نفحاته وبركاته أن عايش الوائلي وأقرانه هذه الأجواء الرائعة التي قد لا يجود الدهر بمثلها، وعاصروها وتفاعلوا معها فكراً وعقلاً وروحاً، واستطاعوا أن يعطوا ويؤثّروا في الأوساط العلميّة والاجتماعيّة. وفي المقابل كان للنجف في شخصيّة الوائلي أثر بليغ محفور في ذاكرته، ورنين يوميّ أبديّ الحضور في شعوره وتصوّراته، يُملي على ذاته تمثّلها في حركاته وسكناته، ولم تزده الغربة إلاّ تعلّقاً وتولّهاً وهياماً وشوقاً مضرم اللهب، جيّاش العواطف، لن يهدأ ولا يستكين:

صور أقمن بمقلتيّ إقامة الـ	ـمعمود في ربع الحبيب النائي
يزددن حسناً كلّما بعُد المدى	ويلفّهنّ البعد في لألاءِ
وتراب أوطاني ربيعٌ أخضر	ولوَ انّها في بلقعٍ جرداءِ

صـافحته بـالخَدّ عـند ولادتـي ورسمت منه بجبهتي طغرائي

(وادي الغريّ) وحقّ رملك وهو ما أشـتاقه فـي غدوتي ومسائي

الحوزة في توجّهات الوائلي

حقّق الوائلي ﷺ تفوّقاً منقطع النظير في كلّ صنف من صنفي دراسته الحوزويّة والأكاديميّة؛ فقد التحق بالكتاتيب مثل بقيّة أقرانه، وكانت علامات النبوغ والتفوّق واضحة عليه، ففي السابعة من عمره أكمل القرآن الكريم، ولا شكّ أن ذلك ترك أثره الكبير على شخصيّته وثقافته وتوجّهاته الإسلاميّة الأصيلة. والشيخ الوائلي حريص أشدّ الحرص على الحوزة العلميّة وضرورة الحفاظ عليها من المندسّين الذين يتزيّون بزيّ العلماء وليسوا منهم. وله قصيدة في هذا المجال يقول فيها:

وفـريق تـيمّموا عـتبة الأسـ ـياد فـي حقل سيّد ومسودِ

ربضوا حولهم كما كان أهل الـ ـكـهف فيه وكلبهم بالوصيدِ

لفظتهم شتّى المجالات إذ ضـ ـاقت بـهم من بلاهة وجمودِ

فاستراحوا إلى التفيّؤ بالحو زة أكـرم بـظلّها المـمدودِ

فاستحالوا فطاحلاً في شهور واسـتطالوا هياكلاً من جليدِ

واسـتفادوا مـضيرة وسـمتهم بشـعار فـي جـبهة أو فـودِ

والدكتور الوائلي عندما يتحدّث عن هؤلاء الدخلاء في الحوزة العلميّة، فإنما يتحدّث من حرصه على هذه المؤسّسة الدينيّة التي رفدت الأُمة بالعطاء المستمرّ على مدى قرون متعاقبة من الزمن. كما أن هذه الأبيات تعكس التوجّه الإصلاحي الذي يختزنه الوائلي في نفسه تجاه الحوزة العلميّة.

فترة الخطابة الثرة

عندما برز الشيخ الوائلي في عالم الخطابة كانت الفترة التي عاشها تتميّز بوجود ثلّة من الخطباء الواعين الذين ساهموا في نشر الوعي الإسلامي في مختلف مناطق العراق، وقد تصدّوا بشكل مكثّف للموجات الإلحاديّة والماديّة والقوميّة التي كانت تُدعم من قبل السلطات الحاكمة. وقد كان لهم الدور الفاعل في التبليغ الإسلامي، وكان لهم حضورهم الميداني في مدن وقرى العراق المختلفة، فكان الوعي ينتشر حيث حلّوا وألقوا خطبهم ومارسوا عملهم التبليغي الحركي.

وفي تقديرنا أن وجود خطباء بارزين لهم مكانتهم وقدراتهم العالية في المجال الخطابي كان يمثّل عامل تحفيز لولادة أجيال من الخطباء الذين يتمتّعون بمقدرة وكفاءة في المجال الخطابي؛ لأن الحاجة إلى التطوير والابداع تصبح ملحة من أجل أن يأخذ الخطيب مكانته في الساحة. وهذا ما نلاحظه في تجربة الشيخ محمد علي اليعقوبي الخطابيّة. فقد كان الخطيب الذي يشغل الموقع الأوّل قبله هو السيد صالح الحلي الذي كان يمتلك قدرات عالية في مجال الخطابة والتأثير على المستمعين بشكل كبير. وكان الخطباء الآخرون لا يرقون إليه بأي حال من الأحوال. لكن مشكلة السيد صالح الحلي أنه كان قاسياً على من يخالفه الرأي، وقد دخل بقوّة في المعركة التي شنّت ضد السيد الأمين والسيد أبو الحسن الأصفهاني في موضوع الشعائر الحسينيّة. وأخذ يؤجّج المعركة من على المنبر مستغلاً قدراته الخطابيّة، ممّا دفع السيّد الأصفهاني إلى تحريم مجالسه إذا استمرّ على هذا النحو.

وكانت مشكلة السيّد الأصفهاني هي في إيجاد الخطيب البديل الذي يستطيع

أن يشغل مكان الحلي، ويستقطب الأضواء منه. وكان البديل هو الشيخ محمد علي اليعقوبي الذي مثّل في زمانه ظاهرة خطابيّة جديدة، نتيجة ما يتمتع به من علم وثقافة وأدب، إلى جانب قدرة خطابيّة عالية مؤثرة في نفوس المستمعين. وقد تمكّن اليعقوبي خلال فترة وجيزة من أن يكون هو الخطيب المبرّز في عالم الخطابة، والبديل الكفوء للسيد الحلي.

وقد أسدى الشيخ اليعقوبي خدمة كبيرة للمنبر الحسيني وثبّت المرتكزات الصحيحة في عالم الخطابة، وكان في زمانه أمير المنبر بلا منازع طوال الأربعينيات والخمسينيات.

إن اليعقوبي ما كان بإمكانه أن يكون هو الخطيب المطلوب للمرحلة، لو لم يتمتّع باللياقات المطلوبة من علم وأدب وبيان؛ مما يعني أن البديل لا بد أن يكون أفضل من سابقه حتّى يفرض نفسه ومنهجه، وهذه مسألة مسلّمة بشكل عامّ ولا تنحصر في عالم الخطابة. وربما لم يكن من السهل في الذهنيّة العامة تصوّر بروز خطيب يخلف الشيخ اليعقوبي، نظراً للمستوى الرفيع الذي وصل إليه، والذي كان يشير إلى أن البديل أو الخلف لا يمكن أن يأتي بسهولة، ولا بد أن يتمتّع بمواصفات عالية تمكّنه من الجلوس في درجة اليعقوبي.

لكن المفاجأة كانت كبيرة بظهور الشيخ أحمد الوائلي الذي نال الإعجاب منذ بداية ارتقائه المنبر الحسيني، وكانت طريقته الإبداعيّة، ومنهجيته في الطرح، وثقافته الموسوعيّة تشير بشكل لا يقبل الشكّ أنه الخليفة المنتظر للشيخ اليعقوبي. بيد أن الشيخ الوائلي ومع مرور الزمن كان يعطي صورة أُخرى أكثر قوّة وبريقاً، فلقد كان ينتزع الإعجاب بشكل أكبر ممّا كان عليه سلفه الشيخ اليعقوبي.

لقد برز الوائلي في فترة زمنيّة حسّاسة شهدت سيطرة الاتّجاهات الماديّة على الساحة، وكان للمدّ الشيوعي والقومي تأثير كبير على الثقافة العامة. ممّا يعني أن

مهمة الخطيب ستكون صعبة في عمليّة التوعية الجماهيريّة. لكن الدكتور الوائلي استطاع بفضل كفاءته ومقدرته العلميّة أن يفرض منهجه وسط المجتمع، وتمكّن من استقطاب الأضواء بدرجة ملفتة للنظر، وكان منبره مدرسة متحدّية تتناول الأفكار المادّيّة بالنقد والتفنيد وفق منهج علمي موضوعي.

لم يمرّ الشيخ الوائلي بفترة طويلة من أجل أن يصل إلى القمّة في الخطابة، فإن الفاصلة بين انطلاقته وبين تربّعه على قمّة هرم الخطابة كانت وجيزة جدّاً، بحيث إنه يمكن لنا أن نقول: إن الوائلي ظهر منذ بدايته كبيراً، ثم سرعان ما صار لامعاً.

هذه جوانب من الشخصيّة الشعريّة للدكتور الوائلي عميد المنبر الحسيني المعاصر، وهي تكشف عن الملكات الكبيرة التي يتمتّع بها في المجال الأدبي. والحق أن خطيباً يمتلك هذه الموهبة الشعريّة المرهفة لخليق بأن يكون رائد المنبر الحسيني المعاصر وعميده.

شعر الدكتور الوائلي

الشعر عند الدكتور الوائلي أحد السمات البارزة في شخصيته، فقد تحرّك من خلال الشعر على الكثير من القضايا والشؤون السياسيّة والاجتماعيّة وعالجها معالجة إسلاميّة واعية. وكان شعر الوائلي مثل خطابته وثيقة من وثائق التوعية الجماهيريّة، فهاهو يخاطب الإمام الحسينعليه السلام، ويعرّض بعبد الكريم قاسم لتقريبه الشيوعيّين، بقصيدة بعنوان:

الإمام الحسينعليه السلام

لم لا يلذّ على ألحاني السمرُ	وأنت لي في نشيد حالم وترُ
غنّيت باسمك فاهتزّ الوجود إلى	دنيا يمتّع فيها السمع والبصرُ
إلى فتى ليس مجدُ الواهبين سوى	قدر ضئيل إلى جدواه يفتقرُ
إلى البطولة يستضري بها وهج	وعي الشعوب إذا استشرى بها الخوَرُ
إلى الصلابة من أجل الحياة ترى	حرب المقادير أو يستسلم القدرُ
إلى وريف من الأفياء رفّ على الـ	ـضاحين حيث هجير البغي يستعرُ
إلى الحسين وهل غير الحسين إذا	ما التاث فكر وضاع الورد والصدرُ
آمنت أنك حقل ما تمتّع إذ	يُستاف عطر وإذ يُستقطف الثمرُ
يمّمت يومك أستجلي روائعه	فأشبعت ناظري موّارة صورُ
ما رمت رائعة إلا وجدت به	كأن كلّ سموّ فيه منحصرُ
هو المدى ميّز الشوط البعيد به	أعنّة الركب من جدّوا ومن قصروا

يؤذيه أنّا دأبنا أن نطالعه   من عبرة وهو فيما يحتوي عبِرُ

لو شئت قلت وما زهو الفتوح سوى   دنياك إنك دنيا ملؤها ظفرُ

لقد رأيتك فيها ألف قادمة   تهوى الشواهق إذ تستوبأ الحفرُ

ومارداً زحم الأعصار منكبه   حتى لواه وما ألوت به الغيرُ

وفكرة تستشفّ الغيب ما وهبت   إلّا لتخلد والطغيان ينتحرُ

قد يخدع الوهم سكراناً فيجعله   يظنّ أن الذي في كأسه قمرُ

أنبيك أن دماً أهرقت ألوية   شمّ إذا ما استحرّ الخطب تنتشرُ

ولوعة في رضيع أثكلوك به   وجبهة وسموا أو خنصراً بتروا

قذائف قد أذلّت من عروشهمُ   ورحت وحدك في الميدان تنتصرُ

فارو الخلود فما كان الخلود سوى   وثيقة وقّعتها باسمك العُصرُ

مولاي عاد إلى ستار مجلسهم   وعاد يبعث فينا اللذةَ الخدرُ

وعاد يزأر في النادي الوديع فتىً   مفيهق صوته كالصخر ينحدرُ

يحكي البطولات كالصبيان إن ركبوا   عصيّهم حسبوها الخيل تبتدرُ

وحوله نفر يروون من خدع   له الهدير ليُروى أنهم هدروا

وهو الذي كان لا يسطيع من هلع   أن تستقرّ على أعطافه الأزرُ

أيّام لا نحن في سلم فيمنعنا   ولا بحرب فندري كيف نعتجرُ[1]

أغراب لا نحن من قيس فتمنعنا   ولا قريش فيحمي رحلنا مضرُ

مشى لنا غرماء لو بساعدهم   لهان لكنهم ظلٌّ لمن أمروا

تقسّمونا فإغراء لمن رقصوا   رقص القرود وضغط للذي صبروا

حتى تداركنا كالرعد منطلقاً   صوت الفتاوى على أفواه من زأروا

---

(١) اعتجر بالعمّة: لفّها على رأسه وردّ طرفها على وجهه. المعجم الوسيط: ٥٨٥ ـ عجر.

دوّي بها نفر من خير قادتنا ... عند الخطوب فمرحى أيها النفرُ

فانجاب ليل وولت ظلمة ومشى ... ضوء ورفرف فتح أبلج نضِرُ

فإن ذبذبة الأنواء ما برحت ... والبوق للنفخ ما ينفكّ ينتظرُ

وشيمة النفر المسعور تخبرنا ... بأنهم يهلكون الحرث لو قدروا

فأجّجوا الدم عزماً في ترائبنا ... باسم الحسين ليوم الهول يدّخرُ

يا أيها النشء يا نبعاً تبرعم من ... أكبادنا وربيعاً نبته عطِر

إنا نراك الغد المرجوّ نطلعه ... صبحاً إذا ما ظلام الخطب يعتكرُ

لا تُخدعن بأحلام مزوّقة ... كَذوبة ليس في أخلافها دَرَرُ[1]

كعاجز لم ينل في يقظة وطراً ... فيستجيب له في حلمه الوطرُ

في كل يوم تلاقي من سرابهمُ ... خوادعاً فلماذا ليس تعتبرُ

صبّوك في ألف شكل من قوالبهم ... حتّى كأنك للتزييف مختبرُ

وأشرعوك سلاحاً لا تجذّ به ... إلّا يداك وجسراً فوقه عبروا

كم واعدوك وحادي العيس طال به ... حدواً وليس لما يحدو به أثرُ

ما زلت تطوي الضلوع الخافقات طوى ... في حين تُنحت من أضلاعك السررُ

فرُحت تخبط حيناً هاهنا وهنا ... حيناً كتائهة يعشو لها نظرُ

يا نشء عد للحمى الأسمى فأرضك من ... خصب زهت وسماك الثرّ ينهمرُ

ألست من وهب الليل الشروق فما ... تنمى لغير سناه الأنجم الزهرُ

فالروح جامع والأفكار جامعة ... والعدل مجتمع ينمو فيزدهرُ

مشى ربيعك سمحاً في غوادقه ... يفيض بالبشر حتّى يبسم الزهرُ

---

(١) الأخلاف: حلمات الضرع، واحدتها: خِلف. المعجم الوسيط: ٢٥١ ـ خلف.
والدرر: الدرّ، وهو اللبن. المعجم الوسيط: ٢٧٩ ـ درّ.

أيّامَ أسكرت الدنيا الفتوحُ لنا — في كلّ دالية للمجد معتصرُ
واليوم تهدي إلى تشريعنا فكراً — يا واهب التمر لا تحتاجه هجرُ[1]
متى افترقنا وقد أغنى موائدنا — محمد واهتدى من وحينا البشرُ
سقيت ذكراك والصهباء قافية — هذي الوفود فما ذنبي إذا سكروا
وطالعتْهم وما أسمى الجلال بها — رؤاك في جنبات الحقل تنتشرُ
هنا يلألئ باللنجم منتصباً — من الشموخ جبين شجّه الحجرُ
وما هنا يشجب الظلماء منبلجاً — ثغر تشظّى عليه العود ينكسرُ
وما هنا قدم سارت وما عثرت — في حين عاف السرى بالدرب من عثروا
وما هنا وعليه النبل أوسمة — صدر يحلّي العوالي منه مشتجرُ
وماهنا أشرعت مخضوبة بدم — كفاك تلطم خدّاً كلّه صعَرُ
وما هنا وهنا من جانحيك مشت — روح تَوثَّبُ كالبركان تنفجرُ
منها نسجت فلِمْ لا يزدهي نغمي — وأنت فيّ نشيد حالم وترُ

وهذه آخر قصيدة له ﷺ عند إصابته بمرض في الرئة بعنوان:

رسالة للحسين عليه السلام

أيها الرملة التي حضنت جسـ — ـم حسين ولفّعته رداءا
بلّغي عنيَ السلام حسيناً — واحمليني استغاثةً ونداءا
واسكبيني دمعاً على رملك الأسـ — ـمر يجري محبّة و ولاءا
وامزجيني بآهة نفثتها — زينب يوم قاست الأرزاء
أو بآهات نسوة منذ يوم الـ — ـطف الآن ألهبت كربلاءا

---

(١) فيه إشارة إلى المثل القائل: كحامل التمر إلى هجر.

وأخـــبريه بأنـــني لم أعـــد أقـ	ـــوى عـلى حـمل مـا أردت أداءا
ألمُ ذلك النـــعيّ الذي يــــحـ	ـــمل ذكـــراه لوعـــة وشـجاءا
ويـــناغي بــوجده ســاجعاتٍ	كـــم حـملن الحـنين والأصـداءا
وأواســي بــه النـبيّ وأشـجي	لعــــليّ وأســـعد الزهـــراءا
عشـــرات السـنين وهـو بـثغري	نـــغَم عـــاش يسـحر الأجـواءا
نـــغمٌ يـــحمل البـطولة والأمـ	ـــجاد فـي كـلّ مـابـها والفـداءا
ويـــحث الدنـــيا لتـــزرع أغـلى	تــــضحيات وتـــحصد الآلاءا
رَغـم أن المـصاب شـيء يـفوق الـ	ـوصف وقـعاً ويـعجز الإحـصاء
أثـــمار الســـرّاء لا تـــتأتّى	دون أن يــحتسي الفـتى الضـرّاءا
ســــيدي إنـــني إليك انـتماء	ولوَ انـــــي لا أبـــلغ الانـتماءا
فـطموحات الطـين والحـمأ المسـ	ـــنون هـــيهات تـبلغ الجـوزاءا
غـير أنـي أدعـى بكـم وأمـني الـ	ـنفس أن تسـعد الفـتى الادعـاءا
فأعـــدني إلى رحـــابك يـــا مـن	يـحمل النُـبل كُـلّه والوفـاءا[1]
واسأل اللــه يــا دمـاً بـارك الأر	ض وأرضـي بـما تـوخّي السـماءا
سَـلهُ دفـع السُـقام عـنّي بـلطف	مـنه عـمّ الدنـيا ويشـفي الداءا
فـيداه مـبسوطتان لمـثلي	يـنفق الفـضل فـيهما كـيف شاءا
يا حسينٌ يـا مـن شـدوتُ بـه صـبـ	ـحاً ونـاجيته بـوجدي مسـاءا
لك مـني رسـالة مـن أنـينٍ	فـي تـضاعيفه سكـبتُ الرجـاءا
أتـــقرّى بــها جـداك مُـلحّاً	وأرجّـي مـن الحـضور الدُعـاءا

---

(١) ولقد حققّ سيد الشهداء له هذه الأمنية، فكان أن عاد إلى العراق لينتقل منه إلى جوار ربّه راضياً مرضياً بعد أن أدّى دوره الذي أناطته به السماء على أكمل وجه.

وأُنـادي أيّ مـن تـخِذت ضحايا ... سُـلّم المـجد سـادةٌ شـهداءا

إن أجـواءنـا ظـلامٌ فـعلّمـ ... ـنا بأن نسرج الدماء ضياءا

وتـقبّل مـنا مـواسمَ قـامت ... لتـواسـي الأيـمّة الأصـفياءا

وأعـدنا للـصاعداتِ وألهـمـ ... ـنا بأن نـحمل الحسـين لواءا

وحول بغداد واستنكار الأعمال التي قام بها العارفيّان يكتب:

معلّقة بغداد

لقـد سـخيّ الفـتح مـا نـتجمّعُ ... ومـدى كـريم العـيش مـا نـتوقّعُ

يـامهرجـان الشـعر عـبؤك مـجهد ... فـإذا نـهضتَ بـه فـإنك أروعُ

إنـا نـريدك والأمـاني جسّدت ... بك رائـداً يـبني وفكـراً يُـبدعُ

أنـا إن شـدا بك مـزهري فـلأنك الـ ... ـلحن المـحبّب والنشـيد الأروعُ

ولأن أهـدافـاً تـوحّد أو دمـاً ... غـمر العـروق قـرابـة لا تـقطعُ

بـالأمس والحـقد اللـئيم يسـومنا ... فـيجفّ فـي يـده الأغـضّ الأيـنعُ

فـابعث بـروح مـنك فـي تـلعاتنا ... لتـرفّ مـجدبة ويـورق بـلقعُ

لسـنا بـمعهود عـلى أبـعادنا ... يـبس فـدنيانا الربـيع المـمرعُ

قـدنا الفـتوح فـما تشكّـى وطأنـا ... فكـر ولا ديـن ولا مـن يـتبعُ

حـتى الرقـيقُ تـواضـعت أحسـابنا ... كـرماً فـأولـيناه مـا لا يـطمعُ

عـفوا إذا جـمح الخـيال فـلم أجئ ... للأمس أُمـري الضـرع أو أسترضعُ

لكـنها صـور جـلوت لـيرسم الـ ... ـفجر المشـرّف والأصـيل المـفجعُ

بـغداد يـازهو الربـيع عـلى الربى ... بـالعطر تـعبق والسـنا تـتلفّعُ

يـا ألف لـيلة مـا تـزال طـيوفها ... سـمراً عـلى شـطآن دجـلة يـمتعُ

يـالحن مـعبد والقـيان عـيونها ... وصـل كـما شـاء الهـوى وتـمنّعُ

بغداد يومك لا يزال كأمسه ... صوراً على طرفي نقيض تُجمعُ
يطغى النعيم بجانب وبجانب ... يطغى الشقا فمرفّه ومضيّعُ
في القصر أُغنية على شفةِ الهوى ... والكوخ دمعٌ في المحاجر يلذعُ
ومن الطوى جنب البيادر صرّع ... وبجنب زقّ أبي نؤاس صرّعُ
ويد تكبّل وهي ممّا يُفتدى ... ويدٌ تقبّل وهي ممّا يُقطعُ
وبراءة بيد الطغاة مهانة ... ودناءة بيد المبرّر تصنعُ
ويصان ذاك لأنّه من معشر ... ويضام ذاك لأنّه لا يركعُ
كبرت مفارقة يمثّل دورها ... باسم العروبة والعروبةُ أرفعُ
فتبيّني هذي المهازل واحذري ... من مثلها فوراء ذلك إصبعُ
شُدّي وهزّي الليل في جبروته ... وبعهدتي إنّ الكواكب تطلعُ
عدنا وبعض للسفين حباله ... والبعض حصّته السفينة أجمعُ
ومشت تصنّفنا يد مسمومة ... متسنّن هذا وذا متشيعُ
ياقاصدي قتل الأخوّة بيننا ... لقّوا الشباك فطيرنا لا يُخدعُ
وإذا لمحت على طريقك عتمة ... وستلمحين لأن دربك أسفعُ[1]
لا تشتمنّ الخطب أو تبكي له ... فالخطب ليس بمثل ذلك يدفعُ
فالمجد يحتقر الجبان لأنه ... ربّ الصدا وعلى يديه المنبعُ
وتوقّ أرقمها فلست بواجد ... صلاً على طول المدى لا يلسعُ

وحول أحداث العراق الإسلاميّة كتب عن ثورة العشرين قصيدة رائعة جاء فيها:

---

(١) الأسفع: الأسود المشرب بحمرة. الصحاح ٣: ١٢٣ ـ سفع. يريد أن طريقها كما هو مظلم فكذلك هو مفروش بدماء الشهداء.

ففي «الرميثة»[١] من هاماتنا سمة ... وفي «الشعيبة»[٢] من أسلافنا نصبُ

و«العارضيات» أمجاد مخلّدة ... أضحى يحدّث عنها الدهر والكتبُ

فالجوّ طائرة والأرض قنبلة ... وبالجهات البواقي مدفع حربُ

وخضت بحراً دماء الصّيد ترفده ... وما السفائن إلاّ الضمّد العربُ

ولا يقف المترجم له وقفة المصدوم بما يجري أمامه، لكنه يقف وقفة من يعرف الحلّ ويشير إليه؛ فهو يقول في إحدى قصائده: إن الحلّ يكمن في حكم الله على الأرض. جاء ذلك في هذه القصيدة التي يبثّ فيها شكواه إلى الله تعالى، ويسأله النصر والحكم الإسلامي:

ربِّ رحماك ذوّبتنا الرزايا ... واللظى قد يذوب منه الحديدُ

كُفَّ نعما الحكّام عنا فإنا ... نحو هذي النعماء فينا جحودُ

وأعنّا على الوصول لحكم ... من معانيك ظلّه ممدودُ

مواقف في حياة الشيخ الوائلي

لم يعرف الشيخ الوائلي الممالأة للسلطات الحاكمة، فعندما سقط النظام الملكي في العراق عام (١٩٥٨)م وتشكّلت الجمهوريّة العراقيّة، قام عبد الكريم قاسم بتقريب الشيوعيّين لدعم سلطته، وقد استغلّ الشيوعيّون ذلك فقاموا بحملة تخريب كبير في الجوانب الفكريّة والتربويّة والسياسيّة، فتصدّى الدكتور الوائلي ﷺ لعبد الكريم قاسم في قصيدة شجاعة جريئة، مع أن الشيوعيّين لم يكونوا يتوانون في الدفاع عن قاسم ومهاجمة من ينتقد الحكم، لكن الشيخ ﷺ لم

(١) قضاء يقع شماليّ مدينة المثنّى، تابع لها.

(٢) منطقة تقع غربيّ مدينة البصرة، تابعة لها.

يضعف في أداء رسالته، وقد مرّت تحت عنوان (الإمام الحسين) كاملة، ونحن نتقل ما يخصّ ذلك منها هنا، فقال:

وعاد يزأر في النادي الوديع فتىً ... مفيهق صوته كالصخر ينحدرُ
يحكي البطولات كالصبيان إن ركبوا ... عصيّهم حسبوها الخيل تبتدرُ
وحوله نفر يروون من خدع ... له الهدير ليُروى أنهم هدروا
وهو الذي كان لا يسطيع من هلع ... أن تستقرّ على أعطافه الأزرُ
أيّام لا نحن في سلم فيمنعنا ... ولا بحرب فندري كيف نعتجرُ[1]
أغْراب لا نحن من قيس فتمنعنا ... ولا قريش فيحمي رحلنا مضرُ
مشى لنا غرماء لو بساعدهم ... لهان لكنهم ظلٌّ لمن أمروا
تقسّمونا فإغراء لمن رقصوا ... رقصَ القرود وضغط للذي صبروا

وللشيخ الوائلي مواقف مماثلة من حكم عبد السلام عارف، وكذلك من حكم أخيه عبد الرحمن عارف الذي تميّز بالطائفيّة المقيتة، وقال قصيدته الخالدة في مهرجان الأُدباء العرب عام (١٩٦٥) م، وقد مرّت تحت عنوان «معلّقة بغداد»:

بغداد يومك لا يزال كأمسه ... صوراً على طرفي نقيضٍ تُجمعُ
يطغى النعيم بجانب وبجانب ... يطغى الشقا فمرفّه ومضيّعُ
في القصر أُغنية على شفةِ الهوى ... والكوخ دمعٌ في المحاجر يلذعُ
ومن الطوى جنب البيادر صرّع ... وبجنب زقّ أبي نواس صرّعُ
ويد تكبّل وهي ممّا يُفتدى ... ويدٌ تقبّل وهي ممّا يُقطعُ
وبراءة بيد الطغاة مهانة ... ودناءة بيد المبرِّر تصنعُ

---

(١) مرّ شرحه في القصيدة نفسها.

ويـــصان ذاك لأنـــــه مــن مــعشر ويـــضام ذاك لأنّـــه لا يـــركـــعُ
كـــبرت مـــفارقـــة يـــمثّل دورُهـــا بـــاسم العـــروبة والعـــروبةُ أرفـعُ
فـــتبيّني هـــذي المـــهازل واحـــذري مـــن مـــثلهـا فـــوراء ذلك إصـنعُ
شُـــدّي وهـــزّي الـــليل فـــي جبروته وبـــــعهدتي إنّ الكـــواكب تـــطلعُ

كما أن لهﷺ مشاركات فعّالة وواعية وهادفة في كل قضايا الأُمّة وهمومها ومشاكلها بالشكل الذي له تأثير واضح وبيّن في إثراء الحركة الأدبيّة وأدب الثورة وإلهاب الحماس، وفي إذكاء روح هذه الثورة؛ فهوﷺ ينظم في حديث فلسطين:

فـــــلسطينُ لا ذكـــرتنا الحـــياةُ إذا مـــــا نســـــينا رؤىً تأتقُ
رؤىً هـــيَ إن خـــطرت بـــالخيالِ أضـــــاءَ الخـــيالَ بـــها رونـــقُ
تـــــفجّر خـــيراتـــها لـــليهود ومـــنْ حـــولها أهـــلها تـــرمقُ
ونـــطقُ الأســـى فـــي عـيونِ الصـغارِ وإن لم يـــــقولوا ولم يـــــنطقوا
وأســـئلةٌ فـــي شـــفاه الصـــبيّ لأمٍّ بـــــعبرتها تـــــخنقُ
تـــــلهّب أضـــــلاعها إذ يـــقو ل أُمّـــــاه أيـــنَ أبـــي المشـــفقُ
وأيـــــن أخـــي والداي وأيـــنَ مـــــلاعبُ داري التـــي أعشـــقُ
لمـــــاذا أنـــامُ بـــهذي الخـــيام وخـــدّي عـــلى التـــرب لا يـرفقُ
وأمّـــي بـــجَنْبي تـــنثّ الدمـــا ءَ مـــن صـــدرها وأخـــي يشـهقُ
وآكـــل مـــن كســـر المـــحسنينَ وأرضِـــيَ خـــيراتـــها تُـــغدقُ
لمـــــاذا يســـمّوننا اللاجـــئين أليسَ لنـــــا وطَـــنٌ مســـبقُ
أبـــي كـــم نشـــدت الكـــرى أن أراك ولكـــــن عَـــــيني أبـــي تأرقُ
تـــعال أبـــي ويـــذوب الصـــبيّ وعـــــيناهُ بـــالدمع تـــغرورقُ

وينظم كذلك قصيدة في رثاء شهيدة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة ضد الاحــتلال

الإسرائيلي وأول استشهاديّة في تاريخ الصراع مع العدو الصهيوني، عروس الجنوب سناء محيدلي التي فجّرت نفسها وسط قافلة للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان في (٩ أبريل ١٩٨٥) م، منها:

تطلّع يستجلي سنا الأرض كوكبُ   فشدّ بعينيه جبين معصّبُ
«سناء» رأيت الشمس رَغم سنائها   تمجّد ثوباً منك بالدم يخضبُ

الدكتور في لقاء صحفي

والدكتور ﷺ كان يتابع أهم القضايا التي تدور في الساحة الإسلاميّة ويحاول أن يضع الحلول لها، ولنقرأ هذا الحوار في اللقاء الذي أجرته معه مجلة المشاهد السياسي في عددها (٢٨١) الصادر في(٢٩ يوليو ٢٠٠١م)، حيث جاء فيه:

✪ ***العالم يتطوّر بسرعة كبيرة والمفاهيم تتغيّر، وهو أمر جعل من وسائل الاتصال ونقل المعلومات مصدر خطورة على المفاهيم وعلى الأديان والقواعد الأخلاقيّة، فهل تعتقد أن هناك خوفاً على أجيالنا من تأثيراتها السلبيّة؟***

ما يدخل إلى الذهن والوعي من غذاء مثَله مثَل ما يدخل إلى الجسم من غذاء، فإذا كان في الجسم مناعة فإنه لا يتأثّر بما هو ضارّ، وكذلك جهاز التلقّي الذهني يحتاج إلى مناعة تقيه من المؤثّرات السلبيّة.

✪ ***هل تتيح سرعة المتغيّرات وصعوبتها الفرص لبناء مثل هذه المناعة؟ بمعنى: هل العقل البشري محصّن إلهياً إلى حد ما؟***

العمل على تكوين جهاز المناعة عند المسلم يبتدئ فيما نعتقد من الأُسرة فالمدرسةِ فالمجتمعِ، وأهمّ هذه الوجوه هي الأُسرة، ولا يعني ذلك عدم أهمّيّة الوجوه الأُخرى. ولاشك في أن المسؤول عن التربية الدينيّة في الأُسرة هو المؤسّسات الدينيّة التي ينبغي قيامها بهذا الدور، واستخدامها الوسائل التي أتاحها العلم، وتوفير الكفاءات والمناهج العلميّة قدر الاستطاعة، وانتقاء الغذاء التربوي الجيّد الذي هو متوفّر والحمد لله في تراثنا. إن ذلك يضع الأُسرة في أجوائها الإسلاميّة خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل أُسرة مسلمة عندها خميرة من

النزوع إلى جذورها وتراثها والاعتزاز بأولوياتها.

✪ ***هناك خوف من الفضائيات والانترنيت وسواهما من وسائل الاتصال الإلكتروني التي قد تُوظّف ضد الأديان وخصوصاً الإسلام باعتباره خاتمة الأديان.***

الذي يتمّم ما سبق هو أسلمة الأدوات المؤدّية إلى الهدف، كالقناة الفضائيّة المسلمة، والمادّة الإسلاميّة التي نغذّي بها قنوات الاتّصال، والمعلّم المسلم الرسالي الذي ينبغي أن يوكَل إليه تدريس الدين واللغة. إن الأُسرة والمجتمع آخذ ومعطٍ، فروافد المجتمع هي الأُسرة والمدرسة، فإذا تمّ التركيز عليهما فذلك كفيل بنتائج طيّبة. يضاف إلى ذلك أنه ينبغي فتح أعين الأجيال على إفلاس الحضارات الأُخرى وعجزها عن ملء الفراغ الذهني عند الإنسان، وعن عدم قدرتها على أن تشدّه إلى قضية محوريّة يعيش من أجلها وتستهويه وتدفعه لمضاعفة جهده في ذلك، كما يصنع الإسلام في دفع الفرد المسلم إلى أن يبقى ينشد رضا الله عز وجل بكلّ نشاطه الدنيوي وعمله لما بعد الحياة. وهو هدف يظلّ قائماً ويظلّ سعي الإنسان إليه متواصلاً، وبذلك ينعدم عنده الفراغ والسأم، ويعيش في لذّة وسعادة متواصلتين.

✪ ***ذكرتم أن التربية الدينية تؤسس جهاز مناعة خلقياً عند الفرد المسلم يحفظه من سلبيات قد يتعرض لها نتيجة تفاعله مع أجواء حضارية غريبة وذلك يستدعي أن تكون في الإسلام إجابات كاملة على معالجة ما يجد من أمور متنوعة فهل هو كذلك؟***

أولاً: أن طرح مثل هذا السؤال يدلّ على عدم معرفة الكثير منّا بالمحتوى الحضاري الغزير في الإسلام، وأحد أسباب ذلك هو عدم المعرفة.

وثانياً: أن كلّ من له إلمام بالشريعة الإسلاميّة يعرف أنها تحمل الإجابات على ما هو موجود وما قد يوجد من الأمور التي يبتلي بها الإنسان، وذلك بداهة أن الله

عزّ وجل لا يكلّف إنساناً حتى يعرّفه السبيل إلى الاستجابة. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى أن الله عزّ وجل لم يتعبّدنا بشريعة ناقصة يمكن أن تعجز عن تغطية حاجاتنا، بل أكمل لنا الدين وأعلمنا ذلك بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]. ولذا فإن كلّ من له صلة بالشريعة يعلم أنها وافية بكل الحاجات.

✪ *فما الذي يحصل إذن؟*

غاية ما في الأمر أن بعض المذاهب الإسلاميّة يرى أن هناك مصادر للتشريع ـ أيضاً مصدر مشروعيّتها الدين نفسه ـ جاءت مكملة لمحدوديّة النصوص. وتكثر الوقائع مثل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها، بينما يذهب البعض الآخر ومنهم الإماميّة إلى أن نصوص الكتاب والسنّة وما تفرّع منهما وافية لتغطية كلّ ما يجد. والأخبار الصحيحة والمصادر ذكرت ذلك بالتفصيل، وكمثل لذلك ما جدّ من معاملات في حقل المصارف والاقتصاد بعامّة، وما جدّ في حقل الصحّة كنقل الأعضاء من إنسان إلى إنسان، ونقل الدم وترقيع الأجسام، وما جدّ في عالم الاستنساخ والأرحام والمتاجر والتلقيح الصناعي، وما جدّ من الانتفاع بوسائل تكنولوجيّة جديدة، وأمثال ذلك غطّاها فقهاء المسلمين تغطية كاملة على الرصيد غير القليل في الشريعة.

✪ ***لكن المكتشفات الطبّيّة والعلميّة الجديدة، يقال: إنها خارجة عن حدود أحكام الأديان؟***

الإسلام ليس عاجزاً عن التعامل مع المستجدّات في أي مجال، والفقهاء غطّوا ما سبق بما في ذلك الجديد الآن. وسيبقى في الشريعة الغِنى الوافر لسدّ حاجات الإنسانيّة. ونشير إلى بعض المؤلفات في ذلك للإرشاد إلى ما ذكرناه، وذلك في

---

(١) المائدة: ٣.

ذيل هذه الإلمامة القصيرة بهذه المواضيع إن شاء الله.

✪ *ما الحكمة في اختلاف مواقف وأحكام المذاهب؟ فقد يقف الفرد المسلم وهو في حيرة وتردّد لما يرى من اختلاف المذاهب الإسلاميّة في العقائد والأحكام، فلا يدري أين موقع الصواب وما هو المقدر له أمام الله عزّ وجل، وهو يتصوّر أن ليس كلّ هذه الآراء صائبة، فما هو تكليفه في مثل هذه الموارد؟*

نحن نعلم أن في الإسلام مذاهب متعددة، ويتبع كلّ مذهب منها مجاميع من العلماء. وهنا يتعيّن على غير الفقيه من سائر المسلمين المكلّفين إذا أراد الوصول إلى مسألة عقائديّة، أو أراد الوصول إلى حكم شرعي ما يلي:

أولاً: أن يتحرّى ويبحث عن الفقيه الجامع للشروط التي تشترط عادة في الفقهاء المستعدّين للإجابة على المسائل الشرعية، بدرجة توصله للتأكّد من أهليّة هذا الفقيه. ولا يُقتصر على الانتماء التقليدي، بل لابدّ من إحراز أن المسؤول من أهل العلم المؤهّلين للفتيا، والجامعين لأدواتها، بالإضافة إلى أنه متّصف بالورع والتقوى.

ثانياً: أنه إذا أحرز ذلك، فليس عليه أن يعرف ما هو دليل الفقيه؛ فإن ذلك موكول للفقهاء أنفسهم كونهم أهلَ الاختصاص، وتبقى المسؤوليّة على أعناقهم لا عليه.

ثالثاً: نلفت النظر هنا إلى أن الاختلاف في العقائد والأحكام ـ كما هو المفروض ـ له مناشئ علميّة يعرفها أهل العلم، تتعلّق بالسند وبمضمون النصّ وملابساته الباقية. فقد يكون بعض رجال السند موثّقاً عند البعض وعند الآخرين ليس كذلك، فيأخذ بعضهم بروايته ويرفضها البعض، وقد يكون منهج البعض الأخذ بخبر الآحاد ومفاده في بعض الموارد بينما لا يأخذ به الآخرون. وقد يحمل بعض الفقهاء اللفظ على ظاهره ويذهب آخرون إلى تأويله، وقد يحمل البعض

اللفظ على الحقيقة ويحمله الآخر على المجاز. وكذلك في فهم المضمون، مثلاً يقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[1] فلو أن امرأة حاملاً بتوأم تضع واحداً منهما، فالبعض يرى أنها بمجرّد وضع الحمل تحلّ للأزواج؛ لأنها صدق عليها أنها وضعت، بينما يذهب الآخر إلى أن المراد من الوضع: هو إفراغ الرحم؛ فلا تحلّ إلّا إذا صار رحمها فارغاً من حملها، وهكذا. ومثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً﴾[2]، والكفت: هو الجمع والضمّ، فيرى بعضهم أن من ينبش قبر ميّت ويسرق كفنه تقطع يده؛ لأنه سارق سرق من حرز، بينما يقول الآخر: إن هذا الحرز لا يختصّ بالميّت ـ في تفصيل طويل ـ فلا يرى عليه القطع، بل عليه التعزير والتأديب. وعلى العموم إننا نؤمن بأن فقهاء المسلمين إذا ذهبوا إلى رأي في حكم أو عقيدة فإن مصدرهم الشرع في اجتهادهم وإن اختلفت نواحي الاستظهار عندهم.

✪ **ما هو حكم من يخطئ منهم؟**

قد يخطئون بعد استفراغ الوسع في عمليّة استنباط الحكم، ولكنهم معذورون بعد ذلك الجهد والوسع إلا من يثبت على سبيل القطع أنه ليس على صواب؛ إما لأنه ليس من أهل العلم؛ أو لأنه يريد العبث. وهؤلاء هم في غاية الشذوذ، وفقهاء المسلمين إن شاء الله بعيدون عن هذا الغرض. إننا يجب أن نحسن الظن بفقهاء المسلمين ولا نجترئ على رميهم بالابتعاد عن الإسلام أو تكفيرهم لأبسط الأمور كما يفعل بعض من لا يقدّر حرمة وكرامة أهل لا إله إلّا الله.

✪ ***ما هي الحكمة الربّانيّة من تعدّد المذاهب؟***

تعدّد المذاهب لم تشرّعه السماء حتى يقال: ما هي حكمة السماء في ذلك،

---

(١) الطلاق: ٤. (٢) المرسلات: ٢٥.

وإنما نشأ من أسباب هي على أحسن الفروض من اختيار بعض الجهات لأشخاص رأت انهم أولى من غيرهم؛ إما علمياً وإما اجتماعياً، ولكل منهم آراؤه واجتهاداته، وتبعهم جماعة كوّنوا أُسرة المذهب. والمذاهب غير مقصودة لذاتها بل المفروض أنها طرق مؤدّية إلى الشرع. وأهمّ فائدة في تعدّد المذاهب هي التوسعة على الناس لتعدّد الآراء وعدم حبسهم على رأي واحد؛ فتكون روافد متعدّدة كلّها تؤدّي إلى الشريعة.

✪ *هل هناك وجه آخر لتعدّد المذاهب؟*

نعم، فإلى جانب الفائدة هناك سلبيّات من أهمّها التشرذم والتعصّب، وجعل المذهب غاية لا طريقاً؛ ممّا يؤدّي إلى التمزّق.

✪ *وهل هناك تضارب في بعض أحكام هذه المذاهب؟*

لا أُسميه تضارباً، وإنما هو اختلاف في المنهج ووجهات النظر، وقد يؤدّي أحياناً إلى التقابل. ولكن إذا عرفنا أن ذلك ناشئ من أُمور موضوعيّة وليست من قصد سيّئ فإن ذلك يبعث على الاطمئنان، ويحضّ على احترام وجهات النظر، ويحمل على سعة الصدر لقبول وجهة النظر الأُخرى.

✪ *هل في أي من الخلاف في أحكام المذاهب ضرر أو خطر على الإسلام طالما أن أحكام هذه المذاهب ليست منزّهة أو معصومة ولا ترقى إلى عدم الخضوع للمناقشة؟*

لا خطر منها ما دام هناك أكثر من رأي وطريق يوصل إلى الإسلام، والمسلم إذا تعبّد بواحد منها بعد بذل الوسع في الاختيار واستنفاد الوسائل السليمة في ذلك أجزأه، ويكون ممتثلاً لحكم الله عزّ وجل. أمّا المجتهدون أنفسهم فبعد بذل الوسع في استنباط الحكم لهم أجران إن أصابوا حكم الله وإلا فأجر واحد من أجل جهدهم وعنائهم.

✪ ***هناك في العالم اليوم ما يعرف باسم العولمة، وهناك ما يسمىٰ بثورة المعلومات، وهناك خوف فعليّ من أن يقود النظام العالمي الجديد والدعوات المتزايدة لحريّة الأديان وحقوق الإنسان وارتباط العالم بالبريد الإلكتروني إلى توحيد الأديان، لكن ليس وفقاً لما يريده الله وإنما لما يفرضه الأقوياء؛ حماية لصناعتهم ومصالحهم.***

لا يمكن لكل من العولمة وثورة المعلومات أن تؤدي إلى صهر الأفكار والمعتقدات في فكر واحد؛ وذلك لأن العولمة تحاول رفع الحدود الماديّة، وثورة المعلومات تطرح أفكاراً جديدة، وكلّ منهما موجود بالفعل يمشي عبر الحدود، ولا يردّه حاجز، ومع ذلك ما تزال الأديان متعدّدة والمعتقدات متنوّعة. لكن كل الذي نخشاه هو عدم خلق مناعة علميّة وخُلُقيّة في الساحة الإسلاميّة تمنع تأثير الأمور الوافدة. وهذا الأمر يضاعف مسؤوليّة المؤسّسات الدينيّة؛ سواء الرسميّة منها أو غير الرسميّة، ويحمّلها التبعة لتضاعف نشاطها في بناء الشخص المسلم بناءً يوازي حجم المستجدّات ويرضي التطلّعات؛ خصوصاً أنّنا على ثقة من أن محتوى الشريعة فيه ذخيرة لا تنفد لتغذية الأجيال، فلم يبقَ إلّا البحث في كنوز الشريعة وإعداد كوادر علميّة مؤهّلة ومنتجة لسدّ الحاجة، وأن تكون مؤسّساتنا الدينيّة مراكز بحث وتطوير وإعداد كفاءات، وليست مؤسّسات للارتزاق علىٰ حساب ديننا.

✪ ***المسلمون اليوم في وضع لا يحسدون عليه، متفرّقون مشتّتون، مختلفون في مصالحهم ومواقفهم، لكن هل هناك خوف على الإسلام بسبب ضعف المسلمين؟***

الإسلام فكر، والفكر لا خوف عليه، إنما الخوف على المسلمين الذين يتعرّضون إلى مخطّطات لإبعادهم عن الإسلام بوسائل شتّى، أو تركهم لا يعرفون

من الإسلام إلا مظاهر جوفاء. أمّا مضمون الإسلام فيفرغ من محتواه. وهذا الأمر يعيش على الساحة عند جميع المذاهب الإسلاميّة ممّا يؤسف له أشدّ الأسف؛ ممّا جعلنا نرى المسلم الشكليات، لا المسلم الموقف والرجولة والعطاء وصدق العقيدة، وغير ذلك ممّا هو من مقوّمات الإسلام الصحيح.

✪ ***ألم يحِن الوقت لحوار حقيقي بين الأديان؟ وهل يمكن أن يكون لخطوة من هذا النوع جدوىً في التقريب في وجهات النظر وتقليل التنافر العرقي وصراع الأقليّات والتركيز على التعاون في مواجهة تحدّيات العصر مثل الأوبئة والفقر والتلوّث وسواها؟***

لعلّ الإسلام يعتبر مجلباً للدعوة والحوار بين الأديان؛ وذلك لأن الإسلام يقف على قاعدة صُلبة؛ لما فيه من أُسس متينة ومتطوّرة ومستوعبة لحاجات كلّ العصور: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾**[1]، ولأنه يرى ويعلم أن الأديان ـ وأقصد بها الأديان السماويّة كما هي في أصلها ـ كلّها روافد من السماء، ولكلّ دين دوره وعهده في أداء رسالته. وقد ختمت بالإسلام، حيث إن ما هو من الثوابت قد جمعه الإسلام، وما هو من المتغيّرات قد حمله ونبّه الأذهان له: **﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**[2].

ومن هذا المنطلق ـ وهو استيعاب الإسلام للثوابت وغير الثوابت في الأديان الأُخرى ـ انطلق الإسلام يدعو إلى الحوار: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**[3]، ولم ينطلق من فرض أنه الوحيد وغيره مرفوض، بل فتح الأبواب لصراع

---

(١) سبأ: ٢٨. (٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) آل عمران: ٦٤.

الأفكار وفق الأُصول، حتى تنتهي إلى ما هو الحق: **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[1].

وبناء على ذلك، فلا خشية من أن يُخذل الإسلام أو ينهزم في أي حوار، شرط أن يكون المحاورون موضوعيّين ومؤهّلين للحوار بوجود أرضيّة علميّة عندهم. وإذا استُكمل الحوار بشروطه الموضوعيّة فلا شكّ في جدواه.

إن الإنسانيّة قد تعبت في بحثها عن الأفضل، وعلينا أن نبحث في دفائن ديننا عن الكنوز لنقدمها زاداً للإنسانيّة: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[2].

✪ ***يروّج البعض لمخاوف من احتمال افتعال العرب والمسلمين حرباً ضدّ الحضارة الغربيّة، ويقال: إن دوافع إقامة المشروع الأميركي الجديد المعروف باسم «استراتيجية درع النجوم» أو «وليد حرب النجوم» تنبع من أوهام مثل هذه، ما رأيك؟***

منذ ولد الإسلام طرح آراءه مقابل المفردات الحضاريّة المنوّعة عند كلّ الأُمم وأعلن موقفه فيما يقبل منها وما يرفض. وفي خصوص الحضارة المسيحية سواء في الغرب أو غيره يقف منها موقفاً يختلف. فإن كانوا مواطنين يترك لهم حرية البقاء على دينهم بشرط التزامهم بشروط تحقق المواطنة السليمة وتوازن بين حقوقهم وحقوق الدولة الإسلامية. وإذا كانوا خارج الدولة الإسلامية فهم حتى ولو كانوا كفاراً محاربين فلولي أمر المسلمين مهادنتهم إذا كانت المصلحة في ذلك. وهناك أحكام تحدد علاقة المسلمين بغيرهم وتتسم بالإنسانية في أعلى صورها ولا يخرج الإسلام عن هذا الإطار إلا إذا وضع في حالة الدفاع عن النفس

---

(١) سبأ: ٢٤. (٢) التوبة: ١٠٥.

أو عن الدين. فدعوى هؤلاء انهم يخشون من الإسلام مثل باقي ما يدعونه من خطر الإسلام والأصولية. والحقيقة أن المحارَب والمحاصَر هو الإسلام الذي اخترعوا عشرات العناوين المبررة لمحاربته، وفي التاريخ مرايا صادقة تعكس ممارساتهم مع الإسلام والمسلمين. إنني هنا ألفت نظر الباحثين وطالبي الحقيقة إلى الرجوع إلى التلمود وللحروب الصليبية وتاريخها نظرياً وتطبيقياً، وكذلك الرجوع إلى حروب القرون الوسطى وما جرى في الأندلس، ثم الرجوع إلى كتب التاريخ الإسلامي وكتب الفقه الإسلامي في باب الجهاد للتعرف على من هو الذي يشكل الخطر على الحضارات ويريد نفي الآخر. إن شعار الإسلام **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** هذا الطرح المفتوح حتى يتم الوصول للحقيقة.

✪ ***دفعت التطوّرات العلميّة الجديدة والاكتشافات الطبيّة المذهلة مثل الاستنساخ وسواه إلى بروز تحدّيات كبيرة للأديان، وخاصة أمام الإسلام، فهل أغفل الدين الحنيف مثل هذه الأمور، أم أن في نصوص القرآن الكريم والفقه ما يتعامل مع كلّ حالة على حدة بالمنطق الربّاني العظيم نفسه، والذي يعالج به الرحمن الأمور الأخرى؟***

لا أُسمي أمثال هذه الأمور التي ذكرتها تحدّيات بل هي أُمور ألهم الله تعالى بها الذهن البشري وأقدره عليها على أن يتحرّى بها خدمة الإنسان لا ضرره. وهذه الأُمور تشكّل مواضيع غطّتها أحكام الشريعة، وهي جميعها عالجها الفقه الإسلامي وتناولها فقهاء المسلمين تفصيلاً، وأعني بهم الفقهاء المعاصرين؛ لأنها أمور حدثت متأخّرة.

✪ ***ما هي فرص قيام دولة إسلاميّة كبرىٰ في العالم؟ وهل هي ضرورة أم إن الله عزّ وجل كفيل بأمر صيرورتها في الدنيا قبل قيام الآخرة؟***

فرص قيام دولة إسلامية عامة ليست بمستحيلة عقلاً ولا ممتنعة ذاتاً، ولكن لها

شروط لابدّ من توفرها، وهي تحتاج عادة إلى زمن طويل؛ لأن عنصر الزمن دخيل في تكوين الأشياء بحسبها. والدولة الإسلامية تارة تكون إسلامية عقيدة وأحكاماً لابدّ من تطبيقها والناس فيها من المواطنين المسلمين الملتزمين بالعقيدة والأحكام، وأخرى قد تكون محكومة من قبل المسلمين وأهلها ليسوا كذلك بل من الأديان الأُخرى كالمسيحيّين واليهود والمجوس وحتّى الصابئة ـ أي من لهم كتاب وشبه كتاب ـ ولكلّ منهما تفاصيل استوفاها الفقه الإسلامي. غالباً في باب الجهاد من كتب الفقه. وكما ذكرت إن قيامها يبقى مفتقراً إلى شروط لابدّ من تحقّقها، ودعني أضرب لك مثلاً واحداً هو اللغة العالمية «الاسبرنتو» التي أُريدَ لها أن تختصر الحواجز وتجمع الناس على وسيلة موحدة للتفاهم، وإلى الآن والفكرة في مكانها لم تتحرّك مع أنها محبوبة للنفوس ولا تشكّل ضرراً للأُمم أو الأفراد، اللهم إلا ما يرتبط باعتزاز كلّ أُمّة بلغتها، فكيف يكون الأمر بالنسبة للعقائد والشرائع؟

✪ ***هناك أيضاً لغط عن موقف الإسلام من مفهوم الديمقراطيّة، فهل الإسلام ضدّ نظام مثل هذا تطالب به أغلبيّة البشريّة الآن؟***

إذا تحدثنا عن موضوع الديمقراطيّة وتفاصيلها وخصوصاً موقف الإسلام من الديمقراطيّة بمعناها المصطلح فإن المسلم من الناحية العقيديّة والناحية التشريعيّة ملزم بالعمل بما شرعته السماء، أو من ناحية التطبيق وذلك بأن تحكم الأُمّة نفسها بنفسها فهذا يتمّ على نحوين من التصوّر في هذه الفترة: النحو الأول أن يتولّى الفقيه بما له من ولاية عامّة حكم الأُمّة وفق قوانين الله عزّ وجلّ، وذلك له تفصيل موسّع في كتب الفقه. والنحو الثاني ـ كما يذهب إليه البعض ـ أن الأُمّة لها ولاية على نفسها فتنتخب من يحكمها وفق الشريعة. وعلى العموم من الناحية التطبيقيّة أمر الديمقراطيّة سهل، على أني أُلفت النظر إلى الدول التي تدّعي أنها تطبّق

الديمقراطيّة. هل إنها ملتزمة بشروط الديمقراطيّة أم هو مجرّد شعار؟

✪ ***ما موقف الإسلام من قضيّة حقوق الإنسان التي باتت مسألة حيويّة تُقيّم الشعوب والأمم والأديان على مدى التزامها بها؟***

موقف الإسلام من حقوق الإنسان واضح، فلا أعتقد أن هناك شريعة كفلت حقوق الإنسان كالشريعة الإسلاميّة، فالإنسان كلّ الإنسان موضع تكريم الله عز وجل: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[1]، يقولها القرآن الكريم، ويقول الرسول الكريم ﷺ في خطبته في حجة الوداع: **«يا أيها الناس، أي يوم هذا؟»**. قالوا: أعظم الأيام. ثم قال: **«يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟»**. قالوا: أعظم الشهور. قال: **«أيها الناس، أي بلد هذا؟»**. قالوا: أعظم البلدان. ثم قال: **«وأي بيت هذا؟»**. قالوا: أعظم البيوت. قال: **«إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من بيتكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»**[2]. ولقد قال النبي ﷺ: **«الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره»**.

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) لم نعثر عليه بنصّه، والذي وجدناه أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه».

انظر في ذلك: الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.

وقيل لأبي عبد الله الصادق ﷺ: حديث يروى عنك؟ قال: «وما هو؟». قيل: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة». قال: «قلت ذلك، إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلي أقبلت».

انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

وقال ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط»[١]. ويقول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[٢].

وقد أفاضت كتب التاريخ والسيرة في تفصيل تطبيقات ذلك بما لا يسعه هذا المختصر. وأرجو أن نفرّق بين الإسلام وبين بعض المسلمين الذين ينبغي ألّا تحسب تصرّفاتهم على الإسلام، بل لابدّ من الاقتصار على ما رسمه القرآن ورسمته السنّة النبويّة.

✪ ***الأمر الآخر المثير للجدل هو الفهم الخاطئ من قبل البعض لموقف الإسلام من حقوق المرأة، فما هي الحقيقة في هذا المجال؟***

لا سبيل إلى الإفاضة في أمر مثل هذا؛ لأن الإسلام أكرم المرأة بما أراده الله لها، وليس وفقاً لمشتهى البشر، ولكن ما ينبغي الإشارة إليه أن كلّ الحقوق التي كفلها الإسلام للفصيلتين: الذكور والإناث إنما هي متّصلة ومرتبطة بفطرة كلٍّ منهما؛ فالمسألة إذن مسألة تصنيف لا مسألة تفضيل. إن بين الرجل والمرأة عشراتٍ من الفروق النفسيّة والجسديّة والاجتماعيّة، ولكلٍّ منها حسابه الخاص. أما من حيث المنشأ والخِلقة، فكلٌّ منهما عمود من أعمدة التكوين، يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[٣]. ويقول النبي ﷺ: «النساء شقائق الرجال»[٤].

فالأمور التي تنعدم فيها الفروق بين الصنفين هما فيها سواء كحقّ التعليم والنفقة الماليّة، وحقّ التكريم... إلى آخره، أمّا الحقوق التي لا يمكن المساواة فيها كحقّ التعدّد للرجل الذي شرعه الإسلام لتغطية بعض الحالات، فلا يمكن المساواة فيه،

---

(١) تحف العقول: ٢٦٨. (٢) نهج البلاغة / العهد: ٥٣.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

ومثل الأُمور التي ترتبط بغزارة الجانب العاطفي عند المرأة، وتكليف الذكر ببعض الأُمور التي ترتبط بتكوينه العضلي، فالإسلام يفرق بينهما. وبالجملة، كل حقّ مشروع ينسجم مع الخُلُق الكريم والفطرة السليمة أعطاه الإسلام للمرأة، ومنعها ممّا يفسد فطرتها ويهين أُنوثتها، وصدق الله العظيم: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[١].

إن الإسلام كفل المرأة في كلّ حالاتها كأُمّ وزوجة وبنت، وكرّم مقامها وجعل الجنة تحت أقدامها[٢]، وقدّم حقّها كأُمّ على حقّ الأب[٣] كما هو رأي كثير من الفقهاء، فأوجب تقديم ما تأمر به على ما يأمر به الأب لو تعارض الأمران، وجعل لها ثلاثة أرباع الحقّ في الولد وللأب ربعاً، وأعطاها أجر الشهيد إذا ماتت أثناء الولادة[٤]، وأعطاها ما لا يتّسع المقام لذكره هنا[٥].

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) انظر: مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب للقطب الراوندي، مسند الشهاب ١: ١٠٢/ ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١/ ٤٥٤٣٩.

(٣) جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، من أبر؟ قال: «أُمك». قال: ثم من؟ قال: «أُمك». قال: ثم من؟ قال: «أُمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك». الكافي ٢: ١٥٩ / ٩.

(٤) كنز العمّال ٦١: ٤١١ / ٤٥١٥٩.

(٥) قال ﷺ «المرأة إذا حملت كان لها أجر الصائم القائم المخبت المجاهد في سبيل الله، وإذا ضربها الطلق فلا تدري الخلائق ما لها من الأجر، فإذا وضعت كان لها بكل مصّة أو رضعة أجر نفس تحييها، فإذا فطمت ضرب الملك على منكبيها وقال: استأنفي العمل».
كنز العمّال ٦١: ٤١١ ـ ٤١٢ / ٤٥١٦٠.

مؤلفاته رحمه الله

١ - الشعر الواله ج ١ ـ ٢ (ديوان شعر).

٢ - هويّة التشيّع، وهو كتاب يردّ فيه على ادّعاءات بعض المستشرقين والباحثين السنّة بأن التشيّع فارسيّ الأصل والمنشأ، فردّ عليهم بأُسلوب منهجيّ وتاريخيّ يثبت فيه عروبة التشيّع.

٣ - أحكام السجون بين الشريعة والقانون.

٤ - من فقه الجنس في قنواته المذهبيّة، وهو كتاب يناقش فيه قضايا الزواج في الإسلام مثل تعدّد الزوجات، وزواج المتعة، والزواج بالرقيق، والزواج بالكتابيّات. وهو في الفقه المقارن؛ حيث استشهد﵀ بآراء ونصوص من مؤلّفاتنا ومؤلّفات أهل السنة، وذكر فيه آراء طريفة من قضايا الزواج والعقد والبنوّة وغيرها.

٥ - الأولويّات في حياة الإمام علي﵇.

٦ - جمعيّات حماية الحيوان في الشريعة الإسلاميّة.

٧ - الخلفيّة الحضاريّة لموقع النجف قبل الإسلام.

٨ - تجاربي مع المنبر.

٩ - إيقاع الفِكَر.

١٠ - استغلال الأجير وموقف الإسلام منه.

تشييع جثمان عميد المنبر الحسيني وتأبينه

شيّعت الجماهير المسلمة في بغداد يوم الثلاثاء (١٥/٧/٢٠٠٣م) جثمان الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، عميد المنبر الحسيني، الذي وافته المنية عن عمر يناهز السابعة والسبعين بعد عدّة أيّام من عودته إلى البلاد من منفاه الذي قضّى فيه قرابة (٢٤) عاماً[1]. وكان الآلاف قد احتشدوا أمام الروضة الكاظميّة المقدّسة (على مشرّفيها أفضل السلام وأتمّ التحيّة).

وبعد مراسم التشييع نقل جثمان الدكتور الوائلي ـ الذي منحه آية الله العظمىٰ السيد الخميني لقب عميد المنبر الحسيني ـ إلى مدينة النجف الأشرف لدفنه حيث تجوب روح أمير المؤمنين فيافي الأرواح المتصحّرة، فتحيلها مرجاً ولائياً، وحيث ترفرف روح الولاية الحقّة على محبّي أهل البيت النبوي الطاهر.

وقالت مراسلة وكالة الأنباء الفرنسيّة: إن حشوداً من الناس اجتاحت الشوارع الرئيسة وسط بغداد منذ الثامنة من صباح الثلاثاء، حيث أُقيمت الصلاة على روح الشيخ الراحل، وتوجه بعدها موكب التشييع إلى مدينة النجف المقدّسة التي تقع جنوبيّ بغداد، وتبعد عنها حوالي (١٨٠) كيلومتراً، حيث سيوارى جثمانه الطيّب

---

(١) ولا ننسَ أن نذكّر بأنه كان قد طلب من الإمام الحسين في آخر قصيدة له خاطبه فيها عند إصابته بمرض في الرئة أن يعيده إلى رحابه بقوله:

فأعدني إلى رحابك يا من ... يحمل النُبل كلّه والوفاءا

وقد حقّق له الإمام ذلك كما رأينا، فمدّ الله له في أجله حتى وافى أرض الحسين.

الطاهر الثرى. ورافقت الحشود الجنازة سيراً على الأقدام لمسافة (٢٠) كيلومتراً تقريباً، ثم تابعت الطريق بواسطة الحافلات.

وكانت مساجد بغداد قد أعلنت مساء الاثنين (٢٠٠٣/٧/١٤م) عبر مكبّرات الصوت وفاة الشيخ الوائلي ﷺ الذي كان أحد رفاق آية الله العظمى السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ.

وقال أقرباء الشيخ الوائلي: إنه أبلغ أتباعه في العراق برغبته في العودة إلى الوطن من أجل أن يدفن في النجف الأشرف في حال وفاته، حيث كان يعاني من مرض عضال.

رجل علم وفضيلة

وينظر العراقيون الشيعة إلى الشيخ الوائلي ﷺ على أنه رجل علم وفضيلة، وقال السائق عبد الكريم عبد الرحمن (٤٣) عاماً لوكالة الأنباء الفرنسيّة: إنه كان علماً من أعلام الشريعة مناهضاً للطائفيّة والتمييز العنصري. وأضاف: لقد فقد العراق رجلاً كبيراً.

في الوقت نفسه قال علي محمد خضير (مدرّس في الرابعة والأربعين): كان الشيخ الوائلي عالماً وفيلسوفاً.

وكان الدكتور الشيخ الوائلي الذي يتقن الفرنسيّة ويحمل دكتوراه في الاقتصاد والدين قد عاد إلى العراق قبل بضعة أيّام من منفاه بعد تمكّنه من الفرار إلى إيران، ثم انتقل منها إلى سوريا بعد صدور حكم غيابي عليه بالإعدام في عهد نظام الرئيس المخلوع صدّام حسين، واستقرّ به المقام في بريطانيا ليمضي حوالي (٢٤) عاماً في منفاه. وقد ألّف ﷺ كتباً عدّة عن الإسلام، وألقى محاضرات عديدة في دمشق والمنامة والكويت ولندن وطهران.

وقد رثاه جماعة من الشعراء منهم الشاعر مظفّر الصافي في قصيدة منها:

يـــا نـــاعياً شـيخ المــنابر أحـمدٍ	مـــهلاً لقـد هـزّ المـصاب حـياتي
أبكـــي عـــلى نـفسي لأنـيَ فـاقد	بـــحراً غـــزيرَ العـــلم والكـلماتِ
دعـني أكـفكف يـا شـبيرُ مـدامعي	عـــلّي أطـــفّي حـــرّة الآهـــاتِ
يـا وائـليّ عـليك مـن أرض العـرا	ق وكـــل أرض طـــيّب الصّـــلواتِ
يــابن الحســين بـفكره وجـهاده	يـــا وافـــر الأعـــمال والحســناتِ
يـا صـوت حـقّ فـي المـنابر عـالياً	والحـــقّ يـــعلو صـــوته بـثباتِ
كـم قـد دعـوت إلى الحسـين بـدمعة	فـــجزاك عـــنه اللــه فـي الغـرفاتِ
اخـتبئت فـيك شـجاعة عـند الحـوا	رتـــصول فـــيه بـــحكمة وأنـــاةِ
أثـــبتَّ أن الكـــون فـــي جـريانه	والأرضَ والإنســـــانَ والحـــيواتِ
كـــــلاًّ مـــدين للــحسين وآله	والدّيـــن مـــبنيّ عـــلى الغـاياتِ
عـــلّمتنا مـــعنى الحســين وأنّــه	كـــون حـــوى الأفـــلاك مـتّسقاتِ

المصادر

خطباء المنبر الحسيني، دراسات أدبيّة، شعراء الغري، معجم المؤلّفين العراقيّين ١ / ١٠١، مجلّة (الموسم) ع ٢ ـ ٣ س ١ ص٤٣٨ ـ ٥٦٣. مجلة الفكر الجديد، ع٩، صفر ١٤١٥هـ، معلومات مستقاة من شبكة الإنترنت.

كما نودّ أن نشير إلى أننا نرحّب بمقترحات القرّاء الكرام حول الكتاب هدفاً وشكلاً ومضموناً سائلين المولى القدير أن يمنّ علينا بنعمة إتمامه خدمة لهذا المذهب الحقّ الشريف، وإرساء لكلمة «لا إله إلّا الله».



المحاضرات



﴿١﴾

الزينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ وَكُلُوا وَآشرَبُوا ولا تُسرِفُوا إنَّهُ لا يُحبُّ المُسْرِفِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

يعدّ الفقهاء هذه الآية الكريمة من آيات الأحكام، أي الآيات التي فيها تكاليف للعباد. وبهذا تنطوي على عدّة مباحث اجتماعيّة سوف نتعرض لها تباعاً إن شاء الله:

المبحث الأول: في تكليف الكافر بالفروع

هل أن الكافر مكلّف بالفروع؟ فالآية الكريمة تخاطب المسلمين أن يصلّوا بساتر؛ لأنه شرط في صحّة الصلاة، فلماذا يكون لسان الآية والخطاب لبني آدم، وهو خطاب يشمل غير المسلم، مع أنَّ الصلاة للمسلمين؟

نقول: هذه من المسائل المختلف فيها عند المسلمين، فالإماميّة يقولون بتكليف الكافر بالفروع[2]، وغيرهم يقول بعدم تكليفه بها إلّا بعد الإسلام[3].

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) تذكرة الفقهاء ٤: ٣٩/المسألة: ٣٩٤، ٥: ٤٠/المسألة: ٢٦، المهذب البارع ٤: ٢٩٧، جامع المقاصد ١: ٢٦٣، ٢: ٤١٦، مجمع الفائدة والبرهان ٣: ٢٠٢، ٥: ٢٥٣، ٢٥٨.

(٣) انظر البحر الرائق ١: ١٢٠، ٢: ٣٥٤، ٣: ٢٧٠، حاشية رد المحتار ٤: ٥.

فلسفة التكليف بالفروع

وفلسفة الإماميّة في ذلك أنَّ التكليف بالفرع هو تكليف بالأصل، وهو اعتناق الإسلام؛ ولذلك فإن الآية إنما كان خطابها لبني آدم لأن الإسلام يريد أن يعطي الصلاة بعداً عامّاً، وأن يجعلها وسيلة تهذيبيّة فرضها الله سبحانه لتهذيب العباد وتربيتهم؛ فإننا إذا أردنا أن نبني مجتمعاً، يجب علينا أن ننطلق من تربية الفرد. ومانراه من دعوىٰ البعض أن الفرد لا يمكن أن يُصلح وذلك لفساد المجتمع وانحطاطه، وهذا فرد منه، فهو شعار خاطئ ومحاولة خادعة، حيث إنّ المجتمع إنما يتكوّن من أفراد، فإذا أصلحنا الفرد استطعنا أن نصلح المجتمع، وهذا ماتدعو له الآية الكريمة.

فإذن الصلاة وسيلة لبناء الفرد، فإن الفرد إذا لم يعبّأ عقائديّاً فإنه يبقىٰ هيكلاً فارغاً ليس له أي قيمة، وكما أنه إذا لم تقم بتعبئته اقتصادياً فإنه لا يمكن أن يكون منتجاً، فكذلك إذا لم نقم بتعبئته أخلاقياً، فإنه يفقد القيم والأخلاق.

فإذا طلبنا منه أن يحمل قيماً بنّاءة وألّا يفسد مجتمعه، وأن يكون حاملاً للقيم الإنسانيّة فعلينا أن نحثّه نحو الصلاة، كما تدعو إليه الآية الكريمة، حيث إنها تقرّر أن الصلاة تحمل بعداً إنسانيّاً، فكلّ فرد إنما تبنيه الصلاة الصحيحة.

وإنما نقول: الصلاة الصحيحة؛ لأن الصلاة التي لا تكون عن عقيدة، بل يؤدّيها المرء كما يدفع الضريبة التي هو غير مقتنع بها، فلا شك أنّ مثل هذه الصلاة ليس لها أي قيمة. أمّا الصلاة التي يؤدّيها الإنسان وهو يعتقد أنّها تربّيه وتهذّبه وتحسن أخلاقه، وتجعله مسلماً يسلم الناس من يده ولسانه؛ لأن «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1]، فهي الصلاة المقصودة بالآية.

---

(١) نهج البلاغة /الخطبة: ١٦٧، المحاسن ١: ٢٨٥ / ٤٢٦، الكافي ٢: ٢٣٤ / ١٢، مسند

المبحث الثاني: هل أن ولد الولد ولد على الحقيقة؟

أن الخطاب لبني آدم، وبيننا وبين آدمعليه السلام آلاف الآباء، والآية تخاطبنا بذلك، فهذا دليل على أننا أبناء لآدم، وأن إطلاق التسمية صحيح لا إشكال فيه؛ إذ أبناء الولد وأبناء البنت وإن نزلوا يُسمون أبناء.

بنوّة الحسنين عليهما السلام

وهذه المسألة تثبت صحّة التسمية للحسنينعليهما السلام أنهما ابنا رسول اللهصلى الله عليه وآله، حيث إن ابن البنت ابن، وإن من يدعي غير ذلك فهو إنسان لا يعرف حضارته ولا لغته؛ ومن هنا لايمكن للإنسان أن يتزوج بنت ابنته. وكثيراً ما يخاطب القرآن الإنسان بابن آدم، مع الفاصل الكبير بيننا وبينه.

ولكي نوضّح الأمر فإننا عندما نقول ببنوّة الحسنينعليهما السلام، فإننا لا نقول بذلك طمعاً في النسبة الدمويّة، فهناك الكثير ممّن حاول أن ينسب نفسه لرسول اللهصلى الله عليه وآله، وإنما نحن نريد بذلك: الأُنموذج الحي الذي يمثّل النبيصلى الله عليه وآله بكلّ خصائصه الفكريّة والأخلاقيّة، وجميع مقوّماته الشخصيّة.

المبحث الثالث: فلسفة التعرّي

أن العرب كانوا يحجّون للكعبة ويطوفون بها عراةً.

إن أهميّة العقيدة تكمن في أنها تعتبر البنية التي تصوغ الإنسان وتحافظ عليه من جميع جوانب حياته، فإذا خلا الإنسان من العقيدة الصحيحة، أصبح عرضةً للخرافات، كتلك الشعوب التي سيطر عليها الدجّالون والمشعوذون. وهنا حالتان عند العرب:

أحمد بن حنبل ٢: ١٦٣، وغيرها كثير، صحيح البخاري ١: ٨ وغيرها كثير، صحيح مسلم ١: ٤٨ وغيرها كثير.

الأولى: التعرّي. فالعرب قبل الإسلام كانوا إذا أرادوا الطواف حول الكعبة التي هي بيت الله المقدّس، لجؤوا إلىٰ التعرّي من ثيابهم؛ لأنهم كـانوا يـرون أن هـذه الثياب التي يرتدونها إنما كانت عليهم حين ارتكابهم المعاصي، أي هي مـلوّثة بالذنوب، فللتخلّص من هذه الحالة عليهم التجرّد منها، لكي لايواجهوا الله بثوب ارتكبت فيه المعصية.

وعندما جاء الإسلام اعتبر هذه الفلسفة خاطئة. ذلك أن الإنسان يعصي بجسده أيضاً لا بثوبه فقط، ولا يمكن التخلّص من الجسد، مع أن المناسب ـ من وجهة نظر تلك الفلسفة ـ أن يتخلّصوا من ذلك الجسد، أو من تلك الأعضاء التي عصوا الله بها، فيجب عليهم أن يتخلّصوا من ألسنتهم التي كذبوا بها، وأعينهم التي نظروا بها إلى المحارم، وهكذا.

والحقيقة أن الإسلام وضع قوانينَ خاصّة بذلك، مـنها أنّـه لا تـجوز الصـلاة بالثوب المغصوب، ولا بالثوب النجس، ولا بثوب الميتة، ولا بثوب به عرق الجنابة من الحرام، وهكذا، فإن مثل هذا لايجوز الطواف والصلاة فيه.

الثانية: الطعام والشراب الطيّبان. فالعرب كانوا يمتنعون عن الطعام والشراب الطيّبين؛ لأنهم يرون منافاتهما للعبادة، حيث إنّها تقوم بتطهير النفس وتـهذيبها، وتطهيرُها إنما يحتاج إلىٰ لون من الخشونة والضغط والتعذيب. والإسلام منع من هذه الظاهرة، وعدّها ممّا لا أساس له من الصحّة، وأن الاعتقاد بهذا المفهوم هو اعتقاد خاطئ من وجهين:

الأول: أن الإنسان ليس له حقّ التشريع لنفسه، كما يحبّ في الأُمور العباديّة، حيث إنها من الأُمور التوقيفيّة، أمرها يرجع إلىٰ الله سبحانه، لا بتصوّر الإنسـان وتفكيره، وإنما هو من حقّ خالق الإنسان، الذي يعرف قدراته وقابلياته.

الثاني: أن الإسلام أعدَّ منظومة لتطهير النفس وإصـلاحها وتـهذيبها، وشـرع

للإنسان ما يحتاجه في هذا الأمر حيث عالجه من جذوره، ووفّر له التعاليم الخاصّة الاحتياطيّة التي ما إن يلتزم بها حتى يتخلّص من تلويث النفس بالمعصية.

فالعرب عندما كان في معتقداتهم هذان الأمران جاءت الآية ومنعت المسلمين منهما، خاصّة أنهم وجدوا أنفسهم أولىٰ بالتحلّي بحسن العبادة وتطهير النفس من غيرهم، فأوضحت لهم الآية عدة تعاليم:

أولاً: ﴿خُذوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ﴾، وعليه أوجب الفقهاء اتّخاذ الستر للمصلّي رجلاً كان أو امرأة، وبيّنوا حدوداً وأحكاماً معيّنة للستر في الصلاة، وفي غيرها.

حجاب المرأة

إننا نسمع شعار تحرير المرأة يتردّد على الأفواه بين آونة وأُخرىٰ، وهو شعار برأي مطلقيه يعني التقدّم والتطوّر. ولا شكّ أنّ هذه محاولة مكشوفة ومشبوهة، حيث إن المرأة زينتها سترها وعفافها، لا بإبرازها على أنها وسيلة لتفريغ الشهوات، ثم ترمىٰ كسقط المتاع. وقد روي أنه سأل الرسولﷺ فاطمةؑ: «ما هو خير للمرأة؟». فقالت: «ألّا ترىٰ رجلاً ولا يراها رجل»[1].

وهذا لايعني التحجّر، وإنما يعني المحافظة علىٰ المرأة، لئلّا تتكشّف على الرجال، وتجعل نفسها معرِضاً لهم، فترمي بكرامتها وحجابها.

فالستر في الصلاة مطلوب من المرأة، وعليها أن تستر جميع جسدها في الصلاة ماعدا الوجه والكفّين، كما ينبغي أن تتوفّر عدّة شروط في لباسها، كما ذكرها الفقهاء[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٩.

(٢) انظر: المعتبر ٢: ١٠٣، ١٠٦، الجامع للشرائع: ٦٥، فتح القدير ٤: ٩٢، ٩٦، ١٠٢، المجموع ٢: ٧٩.

المبحث الرابع: الآراء في الزينة

هناك ثلاثة آراء في الزينة، هي:

١ـ أنها وجوب الستر عند إرادة الصلاة.

٢ـ أنها لبس أجمل الثياب وأنظفها عند إرادة الوقوف أمام الخالق سبحانه. وهذا يعني الاعتناء بالمسجد والمحافظة عليه، وألّا يدخله الإنسان المنفّر للمصلين، كآكل الثوم، أو من يقوم بتوسيخ المسجد، أو يرمي فضلاته في جوانب المسجد، وقد روي أن الرسول ﷺ رآىٰ رجلاً رمىٰ بنخامته في المسجد، فقال: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة من النار»[1]، أي عندما تنكمش من الحرارة.

وقد كان الرسول ﷺ يتطيّب إذا أراد الذهاب للمسجد، كما ورد[2]. وهناك أحاديث واردة في هذا المعنىٰ في آداب أهل البيت ﷺ[3].

كما أنّ من العناية بالمسجد عدم اللغو في الحديث، فحتىٰ لو كان ذلك الإنسان مخالفاً لكيفيّة العبادة، فعلينا ألّا نكفّره ولا نؤذيه، فـ:

اخـتلاف الرأي لا يـفـ ... ـسـد فـي الود قـضيّة

وكما أن المطلوب هو الاعتناء بالمظهر الخارجي، فكذلك مطلوب الاعتناء بداخل الإنسان، وعدم جرح مشاعره.

٣ـ أنها تعني إظهار النعمة، كما يقول الرسول ﷺ «إن الله يحب إذا أنعم علىٰ عبد

---

(١) وسائل الشيعة ٥: ٢٤٤ / ٦٢٩٥، المصنف (ابن أبي شيبة) ٢: ٢٦٠ / ٩.

(٢) انظر تاريخ اليعقوبي ٢: ٨٨.

(٣) انظر وسائل الشيعة ٢: ١٠٧ / ١٦٣٠، ١٤١ ـ ١٥٢ / ب ٨٩، ٩١، ٩٥ ـ ٩٨، ٤: ٤٣٤ ـ ٤٣٥ / ب ٤٣، ٥: ٢٢٨ ـ ٢٢٩ / ب ٢٣.

أن يرىٰ أثر نعمته عليه»[١]، أي في اللباس والطعام والمنزل الحسن، والتوسعة علىٰ العيال، وهكذا.

الإمام الرضا والمتصوّف

وقد كان الرضاﷺ يلبس اللباس الحسن، فانتقده أحد الصوفيّة قائلاً: إن أباك كان يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ويركب الحمار، ويعود المريض، وأنت تلبس هكذا؟ وكان الإمام متكئاً، فاستوىٰ جالساً، فقال له: «**أما علمت أن يوسفﷺ نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه. وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرّم طعاماً ولا شراباً من حلال وإنما حرّم الحرام قلّ أو كثر، وقد قال الله عزوجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٢]**»[٣].

نعم، ينبغي ألّا يصل الأمر بنا إلىٰ حدّ السرف، وأن نجعل سيرة الأيـمّةﷺ المتكاملة نصب أعيننا، وأن نكون كما كانوا لا كما كان يعمل الخلفاء العباسيّون والأُمويّون، حيث يطلب أحدهم عند موته تابوتاً من العقيق يكلّف مائة وثمانين ألف دينار، أو يلبس اللباس الذي يكلف آلآف الدنانير أو الدراهم[٤].

والإمامﷺ يقول: «**وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز،**

---

(١) تحف العقول: ٥٦، بحار الأنوار ٧٤: ١٥٩ / ١٥٨.

(٢) الأعراف: ٣٢.

(٣) الكافي ٦: ٤٥٤.

(٤) نقل الميانجي في مواقف الشيعة ٣: ٢١٣ أن الوليد بن زيد دخل على هشام بن عبد الملك، وعلى الوليد عمامة فقال له: بكم أخذت عمامتك؟ قال: بألف درهم. فقال هشام: عمامة بألف! يستكثر ذلك. فقال له الوليد: إنها لأكرم أطرافي، وقد اشتريتَ جارية بعشرة آلاف دينار لأخس أطرافك.

وإذا حكم عدل»، وليس ممنوعاً عليه أن يظهر نعمة الله المشروعة.

ثانياً: ﴿وَكُلوا وَٱشْرَبُوا ولا تُسرِفُوا﴾، فالبعض كان إذا دخل مكّة يحرّم على نفسه الطعام والشراب، ويرى أن ذلك أفضل للعبادة، فأوضح الإسلام أن الأكل حسن، وأن الممنوع هو الإسراف، حيث إن الإنسان لا يعيش ليأكل وإنما يأكل ليعيش.

الطبيب المسيحي

كان عند العباسيّين ومن قبلهم من الأمويّين الكثير من المسيحيّين في بلاطهم، وقد أنفق هؤلاء المسيحيّون الكثير من الأموال لاختراق الخلافة الإسلاميّة منذ عهد معاوية، مثل جون الذي كان في بلاطه. ومن مؤرّخي السريانيّين (ابن بنكات)، وكان يعيش في بلاط معاوية، وكان من أعظم أنصار البلاط الأموي وخصوصاً معاوية، وكانت لهم يد غريبة في الأحداث التي جرت في التاريخ.

وكان عند الرشيد طبيب يقال له (ابن بختيشوع) فتفوّه مرّةً بكلام ضدّ الإسلام، وقال مخاطباً الرشيد: ليس في دينكم من العلم شيء؛ لأن العلم علم أديان وعلم أبدان، وليس عندكم منه شيئاً. فقال له الرشيد: تكلّم القرآن عن ذلك حيث قال في علم الأبدان: ﴿وَكُلوا وَٱشْرَبُوا ولا تُسرِفُوا﴾، وقال الرسول: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وأعط كلّ بدنٍ ما عُوّد به»[1]، فقال له مجاملاً: نعم، ما ترك قرآنكم لـ(جالينوس) شيئاً من الطب.

إذن فالروايات عن الطبّ في الإسلام كثيرة، وقد أسّس الرسول ﷺ ذلك، وحثّ على علم الطبّ، حيث قال: «إذا مرضتم فتداووا، إن الله ما خلق داءً إلّا وجعل له دواء». والجزئيّات نراها كثيراً في تراث المسلمين.

---

(١) عوالي اللآلي ٢: ٣٠/٧٢، طب الأئمّة (ابن سابور الزيات): ٦، بحار الأنوار ٥٨: ٣٠٧/١٧.

إذن الآية تعلّمنا كيف ينبغي أن نذهب إلىٰ المسجد، فعلى الإنسان أن يعي ويتدبّر معنىٰ هذا المكان، وما هو معنىٰ الحجر الأسود عندما نصافحه، وأنّه يشهد عند الله بذلك[1]. وينبغي أن يأخذ الدروس من المساجد والمشاهد المقدّسة إذا ذهب لزيارتها، ويتساءل عن تضحيات الأئمّة وعن سببها.

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٦٨ ـ ٦٩ / ١٢٣، نيل الأوطار ٥: ١١٣، كنز العمّال ١٢: ٢١٥/٣٤٧٢٨، ٢١٩/ ٣٤٧٤٨ ـ ٣٤٧٥١.



﴿٢﴾

الجهاد والهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: فلسفة الهجرة

الهجرة شيء صعب في تاريخ الإسلام، وهي تتضمن أبعاداً لابدَّ من الإيمان بها، ولو علىٰ سبيل الإيجاز؛ لأن ذكرى الهجرة عندنا تلتقي دائماً بذكرى الأول من المحرّم الحرام.

ويمكن اعتبار الهجرة هي النقلة المهمّة التي انتقلت بعالم الإسلام من دنيا العقيدة إلىٰ دنيا تأسيس الدولة المدنيّة؛ لأننا نعرف أن النبي ﷺ أقام في مكّة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة، والفترة التي أقامها هناك كانت فترة تدور حول محور العقيدة. ومعنىٰ ذلك أن التشريعات المدنيّة التي تنظّم المجتمع المدني لم تكن قد بدأت في تلك الفترة، وذلك أمر واضح؛ لأن النبي ﷺ بُعث في مجتمع كافر، والمجتمع الكافر لا يحتوي علىٰ أرضيّة بيضاء صالحة يمكن أن يخطّ بها النبي ﷺ دولته أو يبدأ بنائها فيها.

---

(١) البقرة: ٢١٨.

ومن أجل تقريب هذا المعنىٰ نضرب مثالاً بالورقة البيضاء فهي تختلف عن الورقة الملونة أو الورقة المكتوب عليها، فإذا كانت الورقة مكتوباً عليها فحينئذٍ لابدّ من محو الكتابة السابقة عنها ثم يكتب عليها.

فالرسولﷺ جاء إلىٰ حضارة جاهليّة وثنيّة تقوم علىٰ عبادة الأوثان، وعلىٰ العادات والتقاليد المنبثقة من مجتمع مدني قبلي وبدوي، وفي طبيعة الحال، في المرحلة الأُولىٰ، كان على النبيﷺ أن ينظّف الساحة، ويزيح عن طريقه الركام، ومن ثَم يتوجّه إلىٰ تأسيس المجتمع الإسلامي. فكان دخوله، في بداية الأمر، ببدايات متواضعة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعقيدة، وكان من أهمّ الأشياء هو إزالة الأصنام وترسّبات الأصنام من النفوس؛ لأن الإنسان بتركه عبادة الصّنم لا ينتقل إلى التوحيد، إذ أنه لا تزال في نفسه قيم صنميّة، ففي ذلك المجتمع الجاهلي كانت هناك قيم صنميّة تعيش في نفوس الأفراد، تقوم علىٰ عبادة القوّة، وعلىٰ أُمور من هذا النوع.

فالرسولﷺ كان ملزماً بإزالة هذا الركام قبل بداية تأسيس المجتمع الإسلامي. وهذا ما وقع، إذ كان بقاؤه لمدة ثلاث عشرة سنة من أجل ذلك، ومن أجل بثّ أركان العقيدة وتثبيت أُسسها، بعد ذلك نزل عليه جبرائيل يأمره أن يخرج من مكّة إلى المدينة.

وعمليّة الهجرة وعمليّة الخروج من مكّة هما عمليتان اثنتان، وقد تمّتا في وقت واحد؛ فظاهر العمليّة هو الانتقال الحركي من مجتمع مكّة إلىٰ مجتمع المدينة، أمّا باطنها فكان هو الهجرة الداخليّة، أي الهجرة من دنيا الأصنام إلىٰ دنيا التوحيد، ومن دنيا البداوة وقيمها إلىٰ دنيا الحضارة الإسلاميّة، ومن دنيا اللاأخلاق إلىٰ دنيا الأخلاق.

المبحث الثاني: أقسام الهجرة

وبمعنىٰ آخر: أن الهجرة هجرتان:

الأولىٰ: الهجرة الحركيّة

وهي التي تتمّ بالانتقال من مكان لآخر كهجرة الرسولﷺ من مكّة إلى المدينة.

الثانية: هجرة في داخل النفس

وهذه الهجرة هي أهم من الهجرة الأُولىٰ. فالرسولﷺ بقي في مكّة ثلاث عشرة سنة، لم يسلم بها إلّا أفراد معدودون، ممّا يدلّ علىٰ أن التربة بقيمها وبصلابتها ظلّت صامدة أمام الإسلام. ويمكن أن يقال: إن الإسلام لم يستطع أن ينفذ إلىٰ هذه التربة إلّا قليلاً، ولذلك اضطرّ الرسولﷺ إلى أن ينقل المجتمع الإسلامي من مكّة إلى المدينة.

ويتّضح ممّا سلف أن هنالك عدة أسباب لنقل المجتمع إلىٰ المدينة المنوّرة، منها أن قيم البداوة بضراوتها كانت مستفحلة في مجتمع مكّة، وهي أكثر منها في مجتمع المدينة؛ لأن مجتمع المدينة مجتمع زراعي، لا يدور على الرعي ولا على التكتّل القبلي، وله خلفيّة حضاريّة، إضافة إلىٰ كونه يحتوي علىٰ جاليات أجنبيّة، مكوّنة من اليهود والنصارىٰ، ومن عناصر متنوّعة، فهو مجتمع ينطوي علىٰ استعداد حضاري، وفيه نوع من التفهّم. وهذا كان عاملاً مهمّاً ومشجّعاً لأن ينتقل الرسولﷺ بنفسه إلىٰ مجتمع المدينة، فكانت هجرته بداية تأسيس المجتمع المدني.

وليلة الهجرة، هبط عليه جبرئيل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[١]، وأمره أن يخرج من مكّة بنفسه، وأن يضع عليّاً﵇ مكانه؛ كي يوهم قريشاً أنه لا يزال في مكانه وكي لا يلحقه الطلب.

ومن الطبيعي أن نفهم أنّ السماء تحاول أن تلفت نظرنا إلىٰ أن المعجزة لا تستعمل دائماً، بل لابدّ من أن تأخذ الاُمور طريقها الطبيعي أحياناً، فلا ينتظر المجتمع مجموعة من المعجزات، فكان على الرسول ﷺ أن يخرج، وأن يترك إيحاء بأن مكانه ليس خالياً، فاستدعىٰ عليّاً﵇ وقال له: «المولىٰ عزَّ وجلَّ أمرني أن اُهاجر من مكّة إلى المدينة، وأمرني أن اُضجعك مكاني». فقال: «يارسول الله، لو اضطجعت مكانك أوتسلم؟». قال: «بلى». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا»[٢].

وقد رسم لنا الكعبي هذه الصورة في داليّته العصماء، حين يصفه﵇ ويصف مفاداته دون أحمد ﷺ:

ومناقبٌ لك دون أحمدَ جاوزتْ	بمقامِك التحديدَ والتعديدا
فعلى الفراشِ تبيتُ ليلك والعدىٰ	تُهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدتَ مثلوجَ الفؤاد كأنّما	يهدي القِراعُ لسمعك التغريدا
ووقيت ليلته وبتّ معارضاً	بالنفس لا طفلاً ولا رعديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدىٰ	أوَ ما دروا كنز الهدىٰ مرصودا

فبقي الإمام علي﵇ في فراش النبي، وخرج هو وأبو بكر، وباتا تلك الليلة في العراء، وفي صباح اليوم التالي استأنفا الطريق إلى المدينة، وبعد ذلك فقد جاء

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) التفسير المنسوب للإمام العسكري﵇: ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

الكتاب إلىٰ عليّ ﷺ بأن يحمل ظعينة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثالث: دروس من الهجرة

هذه هي عمليّة الهجرة، وما يعنينا منها هو:

أولاً: أن الإنسان الحامل لفكرة ما، لا تنجح في مكان معيّن، فينبغي عليه أن يهاجر بها إلىٰ مكان آخر. وبكلام آخر إن غرس الإنسان نبتة في تربة، ولم تظهر هذه النبتة ثمارها، فينبغي عليه أن ينقلها إلىٰ تربة أُخرىٰ صالحة.

إذن هذه واحدة من العِبر التي نستفيدها من الهجرة النبويّة؛ لأن المفروض أن لله جلّ وعلا سنناً، ومن جملة هذه السنن أنّ القلوب أشبه شيء بالأرض، فمثلما هنالك أرض سبخة لا تقبل النبت، فهنالك أرض خصبة في مقابلها، وكذلك القلوب. والله تعالىٰ علّمنا في سنن الكون أن الفكر إن لم يثمر في مكان، فإنه يُنقل إلىٰ مكان آخر يثمر فيه؛ ولذلك أمر نبيّه ﷺ بالهجرة، ليثمر فكره في مكان هجرته.

ثانياً: أنّ الفرد المسلم إنْ لم يمرّ بمعاناة لا يستطيع أن يصمد أمام الضغوط، ولذا كان على الروّاد الأوائل الذين اتخذهم الرسول ﷺ أصحاباً أن يتعرّضوا لأقوى الضغوط، وهي الهجرة؛ إذ ليس أصعب على الإنسان من ترك وطنه بما فيه من أهل ومال؛ لأن من الواضح أن الخروج من الوطن هو عديل خروج الروح من الجسد، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُمْ﴾[1]. وهذه الموازنة التي تعني أن الخروج من الوطن تعادل خروج الروح من الجسد إنما كانت كذلك؛ لأن الوطن بالنسبة للفرد مثل الجسد بالنسبة للروح، فكما يعسر على الروح فراق جسدها، فكذلك الإنسان يعسر عليه فراق بلده.

---

(١) النساء: ٦٦.

فعلىٰ ذلك يجب أن يتعرّض الفرد المسلم إلىٰ دورة من المعاناة، منها هجرة البلد والوطن، وفراق الأحبّة والأهل، إذ أن حامل الرسالة يجب أن يكون بمستوىٰ الرسالة. وهكذا الحال بالنسبة إلى الروّاد الأوائل الذين يفترض بهم أن يكونوا علىٰ مستوىٰ من المسؤوليّة، وأهمّ مسؤوليّة هي مسؤوليّة ترك الوطن والهجرة، فالرسولﷺ أخذ منه تركُ الوطن مأخذاً عظيماً وكبيراً.

يقول المؤرّخون: إنهﷺ كان يسأل القادمين من مكّة عن أحوالها، وذات يوم سأل أحدهم قائلاً: «كيف خلّفت مكّة؟». قال: تركت السنام وقد أعذق، والبسر وقد أغدق. فدمعت عينا النبيﷺ.

وكان (عليه الصلاة والسلام) قد قال عند طلوعه من مكّة: «الله يعلم أنّني أحبّك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً»[١].

ففراق الوطن صعب جدّاً، وفي ذلك يقول الشاعر:

وكنّا ألفناها ولم تكُ مألفاً ... وقد يُؤلف الشيء الذي ليس بالحسنْ
كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها ... هواء ولا ماء ولكنّها وطنْ[٢]

يقول أحدهم: رأيت جارية تقودُ عنزةً في الصحراء، وكانت جارية ضعيفة لا تقوىٰ علىٰ مقاومة حرّ الصحراء، فسألتها: أي بلاد الله أحبّ إليك؟ فقالت: أوّل أرض لامس جلدي ترابُها. ورحم الله الشاعر إذ يقول:

ولي وطنٌ آليتُ ألّا أبيعَه ... وألّا أرىٰ غيري له الدهرَ مالكا[٣]

فالخروج من الوطن هو مثل خروج الروح من الجسد كما أسلفنا، وهذا هو أوّل ضغط يحاول الوضع القرآني أن يبيّن أنه ممّا يتعرّض له الفرد المسلم، فكأنه يقول

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٩: ٣٣٤/١١٠٣٠، ٣٤٦ ـ ٣٤٧/١١٠٤٦، مسند أحمد ٤: ٣٠٥.
(٢) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٩١. (٣) ديوان ابن الرومي ٢: ١٤.

لهم: حملةَ الرسالة، استعدّوا؛ فإنّكم علىٰ أبواب امتحان عسير، وأوّل شيء تتعرّضون له في هذا الامتحان العسير هو هجر الوطن.

ثالثاً: جرّدت قريش المهاجرين من جميع ما يملكون، فاستقبلتهم مدرسة الرسول محمدﷺ التي زرعها في النفوس، وبأي شكل استقبلتهم؟ لقد زرعﷺ مدرسة جعلت العالم ينحني إجلالاً لها، فأي حضارة من الحضارات يحصل فيها ما حصل من الأنصار للمهاجرين؟ كان الأنصاري يستقبل شريكه في العقيدة، ويتقاسم معه داره، ويقول له: هذا الدار تتّسع لي ولك، أمامك الغرف والفراش وأواني البيت، وأُقاسمك أموالي، وعندي زوجتان أُطلّق واحدة لتتزوّج منها أنتَ. فهل تملك الحضارات الباقية مثل هذا اللون من العطاء والمشاركة؟

هذا إذن هو عطاء مدرسة محمدﷺ وعطاء مدرسة القرآن، التي أعطت أسمىٰ ما في النفوس وأجمل أشكال التعاون: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

وهؤلاء المهاجرون قد تعرّضوا في هجرتهم من مكّة إلىٰ فقدان الأموال والأبناء، فعوّضهم الله عن الوطن بوطن، وعن الأماكن بأماكن، وعن الجاهليّة بالإسلام وهو عطاء لا يحدّ.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض المهاجرين الذين كانوا يمنون علىٰ رسول اللهﷺ إسلامهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾[2]؛ فقد نقلكم الله من حضارة كانت توصل الإنسان إلىٰ أحطّ منزلة، ورفعكم إلىٰ حضارة توصل الإنسان وترفعه إلى القمّة.

ولو قارنّا ذلك بحال المسلمين الآن؛ لوجدناهم مقسّمين ومتقاتلين، يعتدي بعضهم علىٰ بعض. ونحن بهذا نكون قد تجرّدنا من حضارة الإسلام، ولا نحمل من

---

(١) الحجرات: ١٠. (٢) الحجرات: ١٧.

ذلك سوىٰ اسم الإسلام، أمّا المضمون الإسلامي فقد بدأ بالتضاؤل في داخلنا، مع أن الإسلام واقع عمليّ وليس شعاراتٍ، لأنه مثل تيّار داخلي يسري في الإنسان، وليس هو لفظ يحمله علىٰ شفاهه.

والرسول ﷺ بدأ بنقلة حركيّة، وفي الحركة الثانية بدأ بنقلة في داخل النفس، من الكفر إلى الإيمان، ومن قيم البداوة إلىٰ قيم الحضارة، فعرض الفرد المسلم إلىٰ نوع من الضغوط. ويمكن اعتبار ذلك عمليّة تربويّة في إعداد المسلم لحمل رسالته، وانتهىٰ في المدينة، حيث بدأ آنذاك في تأسيس المجتمع الإسلامي.

فالمجتمع المدني بدأ يتأصّل بدخول الرسول ﷺ إلى المدينة، وهو السبب الذي جعل النبي ﷺ ينتقل من مكّة إلى المدينة، وهو السبب نفسه الذي جعل الحسين ﵇ يترك المدينة وينتقل منها. ونحن الآن أمام مناسبتين هما: دخول النبي ﷺ إلى المدينة، وخروج الحسين ﵇ من المدينة.

فلو سأل سائل: ما هي دوافع الإمام الحسين ﵇ في ترك المدينة، التي هي مهد جدّه ﷺ ومهد الإسلام؟ كما أن المفروض أن تكون المدينة قد سمعت، من علىٰ المنبر، قول رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»[1]، كما أنّها مهد الحسين ﵇ فقد ترعرع فيها، وهي أول أرض مسّت خدّه الشريف، وهي أول منطقة لعب فيها مع أخيه الحسن ﵇، فهي ملعبه وبيته، وبيت أهل بيت النبوّة ﵈، الذي هو موضع إجلال وتكرمة عند المسلمين.

---

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢. ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، شرح النووي على صحيح مسلم ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

المبحث الرابع: أسباب نقل الحسين عليه السلام حركته إلى العراق

في واقع الأمر كانت هناك عدّة أسباب حدت بالحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة وينتقل بنهضته إلى العراق، ومنها:

السبب الأول: خوفه عليه السلام من أن تنتهك حرمة المدينة

فكان الإمام الحسين عليه السلام يخشىٰ ان تُظلم مكانة المدينة في نفوس المسلمين؛ لأن الأمويّين كانوا يخططون للقضاء علىٰ مجتمع المدينة، وان يجعلوا من هذا المجتمع بؤرة للدماء، حتىٰ تذهب حرمته من النفوس. وكان من جملة تلك التخطيطات أن يجلبوا بعض القبائل ويدمجوها مع مجتمع المدينة، لنشر التحلّل وتذويب الشخصيّة الإسلاميّة، وتعريض الشباب إلىٰ عدد من الانهيارات التي تبعدهم عن دنيا الإسلام

وقد ذكر المؤرّخون ذلك، كما في كتاب (الأغاني) الذي نقل لنا ظواهر من هذا التحلّل، فكأنّك تقرأ فيه عن مجتمع ليس بإسلامي، ناهيك عن كونه جزء من الحضارة العربيّة التي يقول شاعرها:

أعمىٰ إذا ما جارتي برزت ... حتىٰ يواري جارتي الخدرُ

ويصمّ عمّا كان بينهما ... سمعي وما بي غيره وقرُ [1]

ويقول آخر:

ناري ونار الجار واحدة ... وإليه قبلي تنزل القدرُ

ما ضرّ جاراً لي يجاورني ... ألّا يكون لبابه سترُ [2]

---

(١) أمالي السيد المرتضىٰ ٢: ١٢٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣. ونقل في ج ١٧: ١٠ عن مسكين الدارمي بيتين رتبهما كالآتي:

ما ضرّ جاراً لي أُجاوره ... ألّا يكون لبابه سترُ

أعمىٰ إذا ما جارتي خرجت ... حتىٰ يواري جارتي الخدرُ

نعم، كان صوت الانحلال علىٰ مشارف قبر النبي﴿ص﴾، وعلىٰ مشارف أسماع المهاجرين والأنصار، وهناك أيضاً من اتّخذ له نادياً تراق فيه الخمرة، وهناك نادٍ تراق فيه الأعراض، وهناك نادٍ تهان فيه الكرامات، فمن أوصل المجتمع إلىٰ هذا الانحلال؟

الجواب: أنك حين تقرأ سيرة الخليفة الأُموي، وترى كيف أنه في مجلسه يقول:

اسقنا يا يزيد بالقرقارة ... قد طربنا وعمّت الجمارة[1]

اسقني اسقني فإن ذنوبي ... قد أحاطت ومالها كفّارة

فستعرف السبب في ذلك. وأين من هذا صوت: ﴿**الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً**﴾[2]؟

فإذن كان ذلك جرّاء تخطيط ضخم، فهناك مغنّيات تُستورد، وهناك حركة الموالي الذين جاؤوا من بلاد الفتوحات، والذين نقلوا حضارتهم إلىٰ حضارة الإسلام، فبدأت قيم حضاراتهم تطغىٰ علىٰ قيم الإسلام، وحوّلوا مهد الإسلام ـ وهو المدينة ـ إلىٰ بؤرة من الانحلال.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الحسين﴿ع﴾ كان يدرك أن مدينة رسول الله﴿ص﴾ لها حرمة خاصّة، ومكانة محترمة في نفوس المسلمين، بل إن بعض الفقهاء يفضّلون المدينة على الكعبة، كما في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفىٰ﴿ص﴾) للسمهودي، ويعلّلون ذلك بأن المدينة قد دُفن فيها رسول الله﴿ص﴾، وهو أشرف الموجودات، فتربتها لامست جسد النبي﴿ص﴾، والبقعة التي تلامس أشرف الموجودات تكون أشرف البقاع.

---

(١) القرقارة: إناء من زجاج طويل العنق؛ سميت بذلك لقرقرتها. لسان العرب ٥: ٨٧ ـ قرقر، تاج العروس ٣: ٤٨٩ ـ القرقار.

(٢) الفرقان: ٦٤.

فالمدينة فيها الفضل وفيها المنزلة، والمفروض أنها محترمة، بعيدة عن أن يراق فيها الدم، وبعيدة عن أن تتعرّض إلىٰ ضغوط. وإذا بها يُقتل فيها أكثر من عشرة ألآف نفس، فيهم سبعمئة من حملة القرآن، كما في واقعة الحـرّة، حـيث سـالت الدماء في المدينة، وأُبيحت أعراض النسـاء، إلىٰ الحدّ الذي لم يعد الأب يضمن أن تكون ابنته عذراء في حال تزويجها.

ومع ذلك، فإن هناك من المؤرّخين من يقول: أنا لا يمكن أن أشتم يزيد؛ لأنه مسلم، وربما يكون قد تاب من ذنبه، فإنه لا يجوز سباب المسـلم.

وأسأله: الذي قتل سبعمئة من حملة القرآن، ويترك الخيل ترمح بأرجلها قـبر النبيﷺ، ويعتدي علىٰ أعراض المسلمات، ويضرب رأس الطفل بالجدار، وينثر مخّه عليه أهو مسلم؟! هل الذي يقتل سيد شباب أهل الجنة، يظلّ مسلماً؟

الواقع أن هذه مفاعلات اجتماعيّة، وهي أخطر من المفاعلات النـوويّة، وإذا بقيت في تاريخ المسلمين فسوف تدمّره. وهذه يجب أن تزال، ويجب أن نـقول للباطل: هذا باطل، وهذا حق.

وعوداً علىٰ بدء، نقول: إن الحسـينﷺ خرج من المدينة خوفاً علىٰ حرمتها؛ لأنه لو بقي فيها فإنّه سوف يُقتل فيها وتنتهك حرمتها من قبل الأُمويّين الذين لا يردعهم رادع في ذلك. كما أن خروجهﷺ من الكعبة للغرض نفسه، فلو كان بين الركن والمقام لقتلوه، فقد قُتل أيضاً هناك عبد الله بن الزبير، وهو أول مولود ولد في الإسلام، وهو ابن الزبير فارس الإسلام. وقد قُتل في داخل الكعبة، حيث كان يرتجز ويقول:

ولسنا علىٰ الأعقاب تدمىٰ كلومنا   ولكن علىٰ أقدامنا تقطر الدمـا[1]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٤، ١٤: ٢٠٣، ٢٠: ١٠٥، ١٢٢.

حتىٰ قُتل. فهؤلاء كانوا لا يجدون مانعاً في قتل الإمام الحسين﵇ داخل الكعبة المشرّفة، وفي داخل المدينة المنوّرة، ولو تحقّق لهم ذلك لضيّعوا حرمة المدينة في نفوس المسلمين.

السبب الثاني: تحجيم الحركة

فالحسين﵇ لو بقي في المدينة، لحاصر التاريخ حركته وأذابها، وممّا يؤسف له أن حركته ونهضته لا يعرفها إلّا القليل من المسلمين؛ لأن وسائل الإعلام الإسلاميّة، تصرّفت وكأن الإمام الحسين﵇ لا يعنيها، بل كأنه محسوب علىٰ فئة خاصّة، في حين أنه﵇ لكلّ المسلمين، بل هو عطاء للدنيا بأجمعها، وليس لنا وحدنا؛ لأنّه ابن رسول الله ﷺ، وهو أيضاً سيّد شباب أهل الجنّة، وسيد شباب أهل الجنّة هو للجميع. فهو صوت من أصوات الحقّ خرج ليقارع الباطل، وهذا الصوت يجب أن ينتشر.

فالمفروض أن نهضته﵇ يجب أن تأخذ أبعادها إلىٰ مسامع المسلمين كافّة، لا أن ينحصر بفئة ما، فالمفترض علىٰ كلّ مسلم أن يمرّ بنهضة الحسين﵇ ويكتنه أسرارها. فأنا حينما أسمع تاريخ الحسين﵇ أسمع صوت النبي ﷺ يعبّر عنه﵇: «حسينٌ منّي وأنا من حُسين»[1]، كما أن هناك أسباباً: «أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»[2]. فهل يمكن أن أتغاضىٰ عن هذا الوليد؟

فالمفروض أن ينفتح التاريخ علىٰ سيرة الحسين﵇ في سبيل اكتناه أسرار نهضته، لكن مع الأسف هناك القليل من المسلمين الذين يعرفون أسرار هذه النهضة، بل إن هناك من يقول عنه: إنّه خرج علىٰ خليفة وقته فقتل[3]. هكذا وفي

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٢) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

(٣) كما نقل عن ابن العربي. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

منتهىٰ البساطة، فيما أن الإمام الحسين عليه السلام يُريد أن يُستكنه السرّ الذي وراء نهضته، فهو لم يقدّم الدماء عبثاً، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان قد ألقىٰ بنفسه في التهلكة. فقد خرج عليه السلام كي يخلّص الأمّة من براثن الأُمويّين؛ لأنَّ هذه البراثن تحكّمت في الدّماء والأموال والأعراض، وسأضرب لك مثلاً علىٰ ذلك، يقول عبد الملك بن مروان: كنت أمشي في بستان لي، فإذا وقعت رجلي علىٰ جندب ـ أي جرادة ـ وسحقتها فإن ضميري يؤنبني، فيما الآن يكتب لي الحجّاج أنّه قتل فلاناً أو ذبح أمة، لكن ضميري لا يتألّم. ومعنىٰ هذا: أن الدماء عنده أمر عادي.

أما من ناحية الأموال، فإنَّ والياً من ولاة الأُمويّين قد صعد منبر الكوفة وخطب قائلاً: «السواد بستان لقريش» يعني: هذا العراق كلّه ملك لنا، والناس بعد فلّاحون لدينا.

أمّا من ناحية الأعراض فقد وصل الأمر بانتهاكها إلىٰ درجة مرعبة، للحد أن أحد الشعراء قد قام مخاطباً إيّاهم:

ولو جاؤوا برملة أو بهندٍ ... نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ ... نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لوَ ان لنا ضيوفاً ... ولكن لا نعود كما عُلينا
إذن لضُربتم حتىٰ تعودوا ... بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا ... دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا[1]

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار؛ لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

فقد انتهىٰ أمر بني أُميّة إلى التفريط بالأموال والدماء والأموال، وإلىٰ تعريض الكرامات للهدر، وهكذا فإن خروج الإمام الحسين ﷺ إنما كـان ليشـعر العـالم بذلك، وإلّا فما هي نهضته؟ هل خرج من أجل أن يـوجِد له مـركزاً فـي نـفوس الناس؟ لا، فمركز الحسين ﷺ في المشاعر، فقد وضعه رسول الله ﷺ فوق مشاعر الناس، ووضعه في قلب كلّ مسلم ومسلمة، فهو ﷺ له عرش في القلوب.

أو هل خرج من أجل أن يطلب الأموال؟ والجواب: لا؛ فلقد ترك له والده أمير المؤمنين ﷺ عينين تدرّان عليه حوالي نصف مليون دينار سنويّاً، وكان يتصدّق بهما على الفقراء.

أم من أجل كرسي الخلافة؟ وماذا فعل أبوه أمير المؤمنين ﷺ حين انتهىٰ إليه الكرسي؟ نُقل عن ابن حنبل، حيث طال النقاش عنده عن الخلافة، أنه قال: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة»[1].

نعم إن علياً ﷺ لم يكن محتاجاً للخلافة، فهي لم ترفع من قيمته، بل هو الذي رفعها، فالدنيا عنده أهون من «عفطة عنز»[2]، كما عبّر (سلام الله عليه) عنها.

أم أن نهضة الحسين ﷺ كانت من أجل دار يسكنها؟ وهل سكن أبوه ﷺ داراً ضخمة؟ وليستنطق التاريخ هل كان له إلّا قطعة من الأرض، جوار مسجد الكوفة، استعارها من أحد رجال بني نضيرة وبنىٰ فوقها بيتاً من البواري والحصر، إذا قام يضرب السّقف برأسه؟

إذن ما هي دوافع الإمام الحسين ﷺ؟

لقد كانت دوافعه ﷺ علىٰ الخروج هي تخليص الناس من براثن بني أُميّة، وقد

---

(١) الهداية الكبرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦، تاريخ بغداد ١: ١٤٥.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ٣.

أوضح ذلك في كلّ مكان مرَّ به، فقد خرج من المدينة وشرح في الطريق أسباب نهضته، ومرّ بمكّة وصعد المنبر وخطب خطبته الشهيرة، وفي كلّ مكان فعل ذلك. فهو إذن قد استخدم الوسائل الإعلاميّة، المتاحة لتوضيح أسباب خروجه، وهو السبب الثاني، أي ألّا تنحصر النهضة في مكان معيّن.

السبب الثالث: اختيار الله تربة كربلاء مهداً للحركة

فالله عزَّ وجلَّ قد اختار للحسين عليه السلام تربة كربلاء مهداً، فهذه المنطقة كانت فيما مضىٰ مهداً لحضارات سابقة يضيق عن ذكرها المقام، فانتقال الحسين عليه السلام إليها ليس هو نقل أجساد ثم ذُبحت هذه الأجساد علىٰ ترابها، بل هو نقل أفكار وخواصّ جعلها لها التاريخ كما جعل هذه التربة مهداً من مهد البطولات، يقول أحد الشعراء:

أيا كربلا ياعبير الجراحِ	وزهو الدم العلوي الأبيِّ
وياصرح مجد بناه الحسين	وأبدع في رصفه المعجبِ
وياعبقاً من عبير الخلود	يشدُّ الأنوف إلى الأطيبِ
سيبقىٰ الحسين شعاراً علىٰ	أصيلك والشفق المذهبِ

فالله عزَّ وعلا اختار للحسين عليه السلام هذه التربة ليقدّم فيها تلك المصارع الطاهرة، فوقف يوم الطفّ يقدّم المصرع تلو المصرع، وقف يزرع الدماء، فيجني منها قمماً من العطاء، فقد انتزع الحسين عليه السلام الثناء من فم الدنيا، وكان قد قدّم الضحيّة تلو الضحيّة، وكان إذا انتهىٰ من تقديم الضحيّة يشخص ببصره إلى السماء ويقول: «**إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ**».

قدّم أصحابه وأولاده واحداً إثر آخر، وفي نهاية المطاف التفت إلىٰ مخيّم

الأنصار فوجده خالياً، والتفت إلىٰ مخيّم بني عبد المطّلب فوجده خالياً، تـلفّت يـميناً وشـمالاً فـما وجـد أحـداً، فآوىٰ إلى الخـيمة، وصـاح: «مَـن يـقدّم لي جوادي؟»[1]. خرجت له أُخته زينب ﷺ وقالت له: «أخي، لِمَن تُنادي، جـرحت فؤادي، وليس في مخيّمنا سوىٰ النساء والأطفال؟».

رد وعياله من العـطش يـومَنْ   صاح بصوت للـتّوديع كـومَنْ

مثـل سـرب الكِطه گامَنْ يحـومَنْ

---

(١) شجرة طوبى: ٢٢٩.

﴿٣﴾

فلسفة زيارة الحسين عليه السلام

المباحث العامّة في الموضوع

ما هي العوامل التي دعت إلىٰ زيارة الحسين عليه السلام؟ سوف نبحث عن هذه العوامل التي دعت إلىٰ تثبيت هذا الجانب عند الشيعة بالذات، وعند المسلمين بصورة عامّة.

هناك عدّة عوامل ساعدت علىٰ زيارة الحسين عليه السلام بهذا الشكل، كما ساعدت على أخذها بالتوسّع بالشكل الذي نراه الآن. وسنتناول مبدئيّاً بعض هذه العوامل التي سبقت منها مقتل الحسين عليه السلام والتي استجدّت بعد مقتله عليه السلام.

المبحث الأوّل: عوامل تأكيد زيارة الحسين عليه السلام عند المسلمين

فالعوامل صنفان: صنف عام بالنسبة إلىٰ الأولياء بصورة عامّة، والصنف الآخر: تبرعم زيارة الحسين عليه السلام بالذات.

فمن العوامل العامّة حصول البركة من الأولياء، وهذا المعنىٰ كان موجوداً عند زيارة قبورهم، حيث إنّنا نعتقد ببقاء النفس بعد الموت، كما هو عند غيرنا أيضاً، كالإغريق والرومان واليونانيين فهم يعتقدون أيضاً أن النفس لا يعتريها فناء.

وتختلف المدارس الروحيّة عن غيرها، فالمدارس الماديّة تعتقد أن الإنسان ينتهي بموته كلّ شيء؛ فلا يوجد هناك كيان منفصل يتميّز عن الجسد. ويعتقد بعض فلاسفة المسلمين أن الروح وظيفة عليا للجسد، أي أن آخر ما يترقّىٰ إليه الجسد يصل إلىٰ المستوىٰ الروحي.

وعموماً فإن الزيارة تتفرّع من هنا حيث إن المسلمين يعتقدون أنهم حين يأتون إلىٰ زيارة الولي فإنهم إنما يستمدّون البركة من روحه التي ترفرف فوق القبر. هذا من جانب والجانب الآخر أنهم يحصلون على الثواب لزيارتهم الأولياء، والله يحبّ أن يزار أولياؤه.

وفكرة زيارة القبور موجودة قبل الإسلام وإن كانت هناك أهداف غير هذه التي أشرنا إليها؛ فإن هناك هدفاً عند الأُمم يسمىٰ عبادة الأرواح، وهو الذي يستند إليه البعض عندما يدعو إلىٰ محو القبور.

وكان الذي يقوم بذلك بالخصوص في العراق الآشوريون والبابليون وأُمم أُخرىٰ حيث يصل الأمر إلىٰ تقديم القرابين للمزور مع وجود روح عبادة تلك القبور. ولذلك لمّا أرسل أمير المؤمنين﵇ أبا الهَياج إلى العراق قبل أن ينقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة أوّل خلافته، أمره أن يمحو تلك القبور[1] للقضاء علىٰ روح العبادة تلك، فأخذ البعض فعل الإمام هذا دليلاً ومستنداً علىٰ أن كلّ زيارة للقبور تعتبر عبادة وشركاً، مع العلم أن الأمر كان بهدم القبور التي كانت تعبد لا غير.

وزيادة علىٰ ذلك أن النبي ﷺ قال: «**زوروا القبور فإنها ترقّق القلوب**»[2]. و«**نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها**»[3].

---

(١) علل الدارقطني ٤: ١٨٤.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠/١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣ وغيرهما، وفيهما: فإنها تذكركم الآخرة، وفي تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧ ما نصّه: كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها. قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨ ـ بعد أن نقل قوله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» ـ ما نصه: «فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ».

(٣) الموطّأ ٢: ٤٨٥، المجموع شرح المهذب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، وغيرها.

وهو هدف الموعظة؛ فإن الإنسان إذا يقف على القبر يأخذ عظة وعبرة؛ لأنه «كفىٰ بالموت واعظاً»[١]، فيعرف أن هذا هو المصير الحتمي لكلّ إنسان، والمنظر يوحي له بشيء من تصوّر الآخرة والموت، وهو تصوّر ينعكس علىٰ سلوكه، ويترك أثراً في أخلاقه. ولذلك نشأ ما يسمىٰ بـ(أدب القبور)، وكأنما أخذ الناس هذا من أمر الرسول صلى الله عليه وآله، ونشأ عندهم الوعظ عن طريق القبر بكتابة موعظة أو شعر يؤدي إلىٰ الخوف من الله، مثلاً قول أحدهم:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لا تستعزّوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرق هادمُ
ساوى الردىٰ ما بيننا في حفرة ... حيث المخدّم واحد والخادمُ

روي أنّه مرّ رجل علىٰ رجل يبكي فوق قبر فقال له: أتبكي علىٰ عزيز أو صديق؟ قال: بل علىٰ أعزّ منهما، فقال: من؟ قال: نفسي. فقال: كيف؟ قال: هذا عدوّي وأردت أن أشمت به، فرأيت هذا البيت علىٰ قبره:

وما نحن إلّا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلاً بعدهم ثم نرحل[٢]

المبحث الثاني: أهداف زيارة الحسين عليه السلام

فهذه الأسباب نعتبرها أسباباً رئيسة لزيارة القبور. أما بعد مقتل الحسين عليه السلام فقد استجدّت أهداف أُخرىٰ مع حصول الأهداف الآنفة:

الهدف الأول: الندم علىٰ عدم نصرة الحسين عليه السلام

وقد نشأ بعد مقتله عليه السلام، فأخذ الناس يبحثون عن الطريقة التي تزيل عنهم الإثم من عدم نصرته. وقد اتّخذ هذا الأمر عدّة مظاهر:

---

(١) الكافي ٢: ٨٥ / ١، وفيه: موعظة، بدل: واعظاً، تحف العقول: ٣٥، وسائل الشيعة ١: ٨٣ / ١٩٤.
(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٤٣.

المظهر الأول: ثورة التوّابين، وقد كانت بسبب الشعور بالندم علىٰ عدم النصرة.

المظهر الثاني: إيلام النفس وحملها على الألم تطهيراً لها من الإثـم، فـظهرت بعض الطقوس التي يراد لها أن تُقنع الفاعل بشعور التطهير من الذنوب، كالتطبير الذي أخذناه بشكل تقليدي.

المظهر الثالث: الزيارة، فبدأ أهل الكوفة خاصّة وأهل العراق عامّة يتوافـدون علىٰ زيارة الحسين‏ التي يعتبرونها نوعاً من أنـواع التـطهير، وأول شخصيّة زارت الحسين‏ كانت بهذا الدافع.

الهدف الثاني: استشعار أن هذا فيه محبوبيّة للرسول‏

فالروايات التي كانت ترد على ألسنة أهل البيت‏ وعلى ألسنة غيرهم من الأصحاب حول هذا الأمر بدأت تأخذ صـدىً بـين النـاس وتـذيع بأن زيـارة الحسين‏ من الأعمال التي تـحقق للـنبي‏ رضاً وسـروراً، مـثلاً ورد عـن الصادق‏: **«من أحبّ أن يكون في ظلّ الله يوم القيامة وفي شفاعة مـحمد‏ فليزر الحسين»**[1].

الهدف الثالث: تحصيل الأجر والثواب بها

فالروايات تؤكد على أن الله تعالى قد عوّض الإمام الحسين‏ بثلاث خصال: استجابة الدعاء تحت قبته، وجعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته[2].

وقد أخذت هذه المسألة تتعمّق أكثر فأكثر في زمن الأيمّة‏ بالذات؛ لأنهم مارسوها أمام الناس[3].

---

(١) لم نعثر عليه بنصّه، والذي وقفنا عليه: «من أحبّ أن يصافحه مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر الحسين‏». انظر منتهىٰ المطلب ٢: ٨٩٢، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٩.

(٢) عدة الداعي: ٤٨، وأضاف: وألّا يعدّ أيّام زائريه من أعمارهم.

(٣) قال أبو هاشم الجعفريّ‏: دخلت علىٰ أبي الحسن الهادي ـ صلوات الله عـليه ـ وهـو

الهدف الرابع: أن بتربة كربلاء يتضاعف الثواب

فالمسلمون يرون أن تربة كربلاء عامل من عوامل مضاعفة الثواب مثل مكّة والمدينة والنجف. ويمكن الاستدلال له بأن تراب المدينة أفضل من الكعبة؛ لأنه لامسّ جسد النبي صلى الله عليه وآله، وهذا له علّة وهي أن النبي صلى الله عليه وآله أشرف الموجودات، والملامس للأشرف أشرف؛ فعليه هي أشرف من الكعبة. فالحسين عليه السلام جزء من النبي صلى الله عليه وآله روحاً وجسداً: «حسين منّي وأنا من حسين»[1]؛ فالتراب الذي يلامس جسد الحسين عليه السلام يأخذ حكم الملامس لجسد الرسول صلى الله عليه وآله.

الهدف الخامس: حرص الأيمة عليهم السلام على زيارته عليه السلام

فكانوا عليهم السلام وخاصة أصحابهم؛ يداومون على هذه الزيارة لكي يتأثّروا بروح الحسين عليه السلام، باعتبار أن الشيعة تعرّضوا للضغط في مختلف العصور، فأراد الأيمة عليهم السلام صنع رجال على مستوى المسؤوليّة، بأن يعيش أهل البيت عليهم السلام في فكرهم بشكل حي، فكانوا يستهدفون صنع رجال من نمط يتفاعل مع الحسين عليه السلام وأهدافه وآدابه ليجدوا عند ملامستهم كربلاء سبب إراقة الدماء والتضحية. فماذا رسم الحسين عليه السلام؟ لقد رسم البطولة والصبر والكرامة والإباء والمثل العليا والفداء والمبدأ الصحيح.

☚ محموم عليل، فقال: «يا أبا هاشم، ابعث رجلاً من موالينا إلى الحائر يدعو الله لي بالعافية». فخرجت من عنده واستقبلني عليّ بن بلال فأعلمته ما قال الإمام عليه السلام، وسألته أن يكون هو الرجل الّذي يخرج، فقال: السمع والطاعة، ولكنني أقول: إنّه أفضل من الحائر إذ كان بمنزلة من في الحائر، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائي له بالحائر.

فأعلمته ـ صلوات الله عليه ـ ما قال لي عليّ بن بلال، فقال لي: «قل له: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من البيت والحجر، وكان يطوف بالبيت ويستلم الحجر، وإن لله تعالى بقاعاً يُحبّ أن يدعى فيها فيستجيب لمن دعاه، والحائر منها». بحار الأنوار ٩٨: ١١٣ / ٣٤.

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

المبحث الثالث: وسائل الأمويين للقضاء على زيارة الحسين﵇

وهذا هو الذي حمل الأُمويين علىٰ منع زيارته باعتبار أن هذا عامل إيجابي وفعّال؛ لذلك لمّا ارعبتهم زيارة الحسين﵇ عمدوا إلىٰ القضاء عليها بـالتدريج، ووضعوا لها وسائل مكافحة علىٰ مختلف الأُسس والمستويات:

١ ـ فعلى المستوى العقائدي راحوا يركّزون علىٰ أن زيارة القبور بدعة، يقول الأعمش: جلسنا ليلة نتذاكر فضل زيارة الحسين﵇ فقال أحد الجيران: هي بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فرأيته في اليوم الثاني عند الحسين فسألته عن السبب فقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام مع ركب جاؤوا لزيارة الحسين، وأنا قد تبت.

٢ ـ ادّعاؤهم أنهم عند زيارة الحسين يفعلون ما ينافي الدين، كشتم الصحابة، وهؤلاء عندهم حتىٰ معاوية صحابي محترم، فالغزالي يقول: لعلّه تاب أو ندم، ولا يجوز شتم المسلم. فهو لذلك يستشكل في شتمه.

٣ ـ إزالة هذا الهدف بإمحاء معالم القبر، وكان أوّل من وضع أساسه الشريف كما يقول بعض المؤرّخين جماعة من بني أسد، حيث وضعوا عليه بعض المعالم بعد مقتله﵇ بأيّام. والبعض يقول: أُسس سنة (٦٥)هـ في عهد المختار إذ وُضع بناء بسيط على القبر الشريف وقبور الشهداء، واستمر إلىٰ أن علّاه الشيعة وجعلوا له سقفاً، ووسّعوه وجعلوا له أبواباً. ولذلك فـإن بـعض الروايـات تـنقل أن الإمـام الصادق﵇ يعلّم صفوان الجمّال كيفيّة الزيارة حيث أمره بأنه إذا وضع رجله على باب الحائر فليقل كذا وعلىٰ باب القبة فليقل كذا كما في كتب الزيارات[1]؛ مـما يدلّ علىٰ أن البناء كان موجوداً في أيّامه﵇.

---

(١) انظر مصباح المتهجّد: ٤٩٩ ـ ٥٠٤، بحار الأنوار ٩٨: ١٩٧ ـ ٢٠٢، والحديث طويل.

فأخذ الأُمويّون يهدمون كلّ بناء يشيّد أو يجدّد، ووضعوا الحواجز على القبر لمنع السائل عنه، فكان الناس يأتون إلىٰ الزيارة ليلاً بالتخفّي، حيث يسيرون في النهار، ويزورون في الليل ثم يرجعون فوراً.

ثم جاء دور العباسيين وأول ما جاء دور الرشيد فقطع السدرة التي إلىٰ جانب القبر وهدم البناء والمسجد فوضع الشيعة عليه أحجار وكان اشبه بالبقيع حالياً.

ثم جاء المأمون فبنىٰ على القبر بناءً بسيطاً ثم تجدّد الوفود إلىٰ القبر، فجاء دور المتوكّل فلم يكتفِ بهدم القبر فقط بل أزال ملكيّة ميل مربع من حول القبر، وحرث المنطقة وأدخل عليها الماء، وأمر بأن يزرع في المنطقة، يقول الديزج: أرسلني مع جماعة وقال: انظر هذا القبر الذي افتتن به الناس وانبشه وانثر عظامه في الهواء، وكتب معي إلى جعفر بن محمد بن عمار القاضي: اعلمك أني قد بعثت إبراهيم الديزج إلى كربلاء لنبش قبر الحسين، فإذا قرأت كتابي فقف على الأمر حتى تعرف فعل أو لم يفعل.

قال الديزج: فعرفني جعفر بن محمد بن عمار ما كتب به إليه، ففعلت ما أمرني به جعفر بن محمد بن عمار ثم أتيته فقال لي: ما صنعت؟ فقلت: قد فعلت ما أمرت به، فلم أرَ شيئاً ولم أجد شيئاً. فقال لي: أفلا عمّقته؟ قلت: قد فعلت وما رأيت. فكتب إلى السلطان: إن إبراهيم الديزج قد نبش فلم يجد شيئاً، وأمرته فمخره بالماء، وكربه بالبقر.

قال أبو علي العماري: فحدّثني إبراهيم الديزج، وسألته عن صورة الأمر، فقال لي: أتيت في خاصّة غلماني فقط، وإني نبشت فوجدت بارية جديدة وعليها بدن الحسين بن علي، ووجدت منه رائحة المسك، والدم ينبع منه، فتركت البارية على حالتها وبدن الحسين على البارية ، وأمرت بطرح التراب عليه، وأطلقت عليه الماء، وأمرت بالبقر لتمخره وتحرثه، فلم تطأه البقر، وكانت إذا جاءت إلى الموضع

رجعت عنه، فحلفت لغلماني بالله وبالأيمان المغلّظة لئن ذكر أحد هذا لا قتلنه[١].
ولكن الشيعة لم يكترثوا، وكان عندهم بعض العلامات، وكانت زيارتهم ليلاً، وكانوا إذا جاء العسكر يرمونهم بالسهام، فكانوا يعتقدون أن هذا من فعل الملائكة أو الجن، حتىٰ امتنعوا.

وبعد هذه الحادثة قتل الأتراك المتوكّل، فجاء المنتصر وأمر ببناء القبر وإعادة العمارة في الأرض التي زرعت، وبقيت إلىٰ زمن المعتضد في سنة (٢٨٥)هـ، فأرسل المهندسين وأقام البناء عند ضريحي أمير المؤمنين والحسين.

ثم جاءت عمارة عضد الدولة البويهي، وكانت عمارة فخمة في الضريحين، ثم جاءت عمارة الوزير محمد الرهارمُوزي التي رآها الرحالة ابن بطّوطة. ثم جاءت عمارة أُويس الإيلخاني وهي الموجودة حالياً، وقد جرىٰ عليها الكثير من الإصلاحات.

وكان أوّل زائر للحسين عبيد الله بن الحرّ الجعفي، وكانت بدافع الندم؛ لأن الحسين رآه في قصر بني مقاتل وقال له: «لو تلتحق بي كان ذلك خيراً لك في دينك ودنياك». ولكن غلبت عليه شقوته، فلمّا جاء القبرَ قال:

فيالك حسرة ما دمت حيّاً	تردّد بين صدري والتراقي
حسين حين يطلب بذل نصري	على أهل الضلالة والشقاقِ
غداة يقول لي بالقصر قولاً	أتتركنا وتزمع بالفراقِ
فلو أني أواسيه بنفسي	لنلت كرامةً يوم التلاقي

إلىٰ أن قال:

---

(١) الديزج كان يهودياً ثم أسلم. انظر الحادثة في الأمالي (الطوسي): ٣٢٦/ ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

لقد فاز الألى نصروا حسيناً / وخاب الآخرون إلى الشقاقِ[١]

والثاني هو سليمان بن قتة:

مررت على أبيات آل محمد / فلم أرها أمثالها يوم حلتِ

فلا يبعدِ الله الديار وأهلها / وإن أصبحت منهم برغمي تخلتِ

وإن قتيل الطفّ من آل هاشم / أذلّ رقاب المسلمين فذلّتِ[٢]

والثالث هو جابر بن عبد الله الأنصاري الذي راح يقطع الطريق إلىٰ أن وصل في أربعين الحسين عليه السلام.

---

(١) ذوب النضار: ٧٢، ذكر بيتين، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٤، الفوائد الرجالية ١: ٣٢٨، ٣: ٧١، ولم تذكر هذه المصادر نصّ قول الحسين عليه السلام لعبيد الله.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أُسد الغابة ٢: ٢٢، الإصابة ٧: ١٢٦.



﴿٤﴾

الإيمان والإكراه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

هذه الآية الكريمة هي وثيقة نادرة في رد تهمة أن الدين الإسلامي استعمل الضغوط على أصحاب الأديان الأُخرى للدخول فيه. وهذه الفكرة يقول بها المشكّكون وتقول بها جماعات كثيرة، ومفادها أن الإسلام أكره حملة الأديان الأُخرى على الدخول فيه.

المبحث الأول: هل يوجد في الإسلام إكراه؟

هذا النصّ، بالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2] ونصوص أُخرى كثيرة[3]، تدلّ على نفي هذه التهمة، إضافة إلى الواقع العملي الذي عرفه تاريخ المسلمين. وقد يسأل سائل عن هذا المعنى ـ أي معنى أن الشريعة الإسلاميّة لم تجبر حملة العقائد على ترك عقائدهم والدخول فيه ـ فيقول: إذا كان الإسلام لم يفعل ذلك، فلماذا يقاتلني؟ ولماذا يجبرني على الدخول فيه، وأنا رجل علماني؟

---

(١) يونس: ٩٩. (٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) التوبة: ٦، النحل: ١٢٥، وغيرها.

أليس الأجدر به أن يعاملني معاملة حملة الأديان؟

الحقيقة أن هذا الإشكال ليس له توجيه، فالمفروض أن الفرد من حملة الأديان متديّن، أي أن له ديناً سماوياً، والدين السماويّ حتماً ينطوي علىٰ قيم. والإنسان عُرف عنه أنه حيوان حضاري، أي لا يتعامل بالغريزة، بل يتعامل من منطلق العقل والضوابط التي مصدرها العقيدة أو المجتمع. وبمعنى آخر: أن له قيماً وله التزامات. فالمفروض أن حامل الدين لديه رسالة من السماء، ورسالة السماء ـ كما هو معروف ـ هي دستور تنظيم المجتمع؛ ولذلك قيل: «أنا أُومن بكلّ حامل دين، ولو كان غيْرَ ديني»؛ لأن حامل الدين ينطوي علىٰ قيم، وهو لذلك غير خطر على المجتمع.

فالله سبحانه وتعالىٰ عندما يكلّف العباد بالصّلاة والصّوم، أو الالتزام بالقيم، لا يكلّفهم خوفاً من شيء، فإن لم يصلِّ العباد فرضاً هل يتغيّر نظام السماء، أو أن اختلالاً ما سيحدث في المعادلات التي تحكم الكون؟ طبعاً لا.

فإذن الإصرار علىٰ اعتناق الإنسان ما نسميه بالشريعة هو لغرض تنظيم المجتمع، فالإنسان يحمل طاقة جبّارة هي العقل، فإذا تعامل بها تحوّل إلىٰ إنسان منظّم، وإن تحوّل عنها إلى الغرائز، وتحوّل عن القيم إلى الانفلات، فعندئذٍ يحوّل إلىٰ كائن خطر يمكن أن يهدم العالم في لحظة. وهذا هو ما يحدث الآن، فالعالم في هذه اللحظة علىٰ كفّ عفريت، إذ بإمكان الإنسان الآن أن يفني الكرة الأرضيّة.

فالإسلام إذن حين قاتل غير حملة الأديان، فإنّما قاتلهم ليتحوّلوا إلىٰ مجتمع منظم، لا أن يكونوا أدوات تنفيذيّة للتخريب.

المبحث الثاني: ريادته في وضع أُسس القانون الدولي الحديث

فإذن النقطة الأُولىٰ المهمّة في هذه الآية، هي أن الإسلام لم يجبر حملة الأديان علىٰ الدخول فيه، أمّا النقطة الثانية فهي أن هذه الآية هي من مبادئ القانون الدولي

العام التي لم تطبّق بشكل صحيح لا قبل الإسلام ولا بعد الإسلام.

أمّا قبل الإسلام، فلو استقرأنا الحضارات لوجدنا عندنا الحضارة اليونانيّة، والحضارة الرومانيّة، وحضارة الفرس وحضارة العرب وحضارة الهند؛ أما في الحضارة اليونانيّة فنجد أن أرسطو مثلاً يعبّر عن الشعوب الأُخرىٰ بأنهم «برابرة منحطّون خُلقوا لكي يستعبدوا، خلقوا كي يسلبوا، وخلقوا كي يقرعوا بالعصا» وهذا هو تعبير أرسطوا.

وأمّا الحضارة الرومانيّة فكان فيها قانونان: الأول يسمى القانون المدني وهو يطبّق على الرومانيّين، والقانون الثاني يدعىٰ قانون الشعوب وهو يُطبّق علىٰ غير الرومانيّين. والقانون الأول يختلف عن القانون الثاني.

وكذلك حضارة الهند والبراهمة فلهم نظريّات مختلفة، وكذلك الفرس، ومثلها حضارة العرب، فعند العرب هناك فرق بين قريش الأباطح وبين غير قريش الأباطح.

أركان القانون الدولي

إن القانون الدولي يتكوّن من عدة أشياء:

الأول: إعلان المساواة بين الناس.

الثاني: تبادل الحقوق والواجبات.

والثالث: المصالح المشتركة.

وهذه العناصر الثلاثة تشكّل قاعدة القانون الدولي، فإذا كان هؤلاء اليونانيّون يقولون: إن الشعوب غير اليونانيّة، شعوب منحطّة، فهل يمكن أن يقال أن في حضارتهم تتوفّر هذه العناصر الثلاثة التي تشكّل القانون الدولي؟ طبعاً لا.

أمّا الحضارة الرومانيّة، فكما أسلفنا هناك قانون في بلدهم، فإذا خرجوا منه

طبّقوا القانون الثاني. وبالإمكان الاطّلاع علىٰ ذلك في تاريخ أبناء سبارطة وغيرهم، فهم يعتبرون باقي الشعوب بالنسبة إلى الرومانيّين منحطّين أيضاً. والأمر كذلك بالنسبة للحضارات الأُخرىٰ المذكورة.

فإذن الحضارات السابقة للإسلام كلّها لا تعرف معنى المساواة، حيث لا يوجد معنىً للحقوق.

أما بعد الإسلام، فلم يعرف ذلك أيضاً، فلو اطّلعنا علىٰ تاريخ الشعوب الأوربيّة بعد الإسلام، لعرفنا صحّة مدّعانا، ولنستمع إلىٰ ما قاله المشرّع الانكليزي ستيوارت، إذ يذكر في عبارته: «يستحيل تطبيق القانون علىٰ الشعوب الهمجيّة». فهو يقسّم الشعوب إلىٰ ثلاثة أقسام: شعب متحضّر ويعطيه حقوقه كاملة، وشعب نصف متحضّر ويعطيه نصف حقوقه القانونيّة، وشعب غير متحضّر يقول عنه: لا يمنح حقّاً قانونيّاً قطّ، وإنّما يمنح حقّاً عرفيّاً؛ لأن هذا الشعب همجي لا يستحقّ شيئاً من الحقوق.

أما في أوربا الحديثة، فإن القانون الدولي غير موجود أيضاً؛ وذلك لأن أوربا اعتمدت علىٰ مثل هؤلاء المشرّعين، هذا أولاً، وثانياً أن عصبة الأُمم التي تأسّست بعد الحرب العالميّة الثانية كانت تقسّم الشعوب أيضاً التقسيم أعلاه نفسه، وهي بذلك تكون قد أقرّته واعتبرته مبدأ صحيحاً.

ومن بعد ذلك انحلّت عصبة الأمم وتأسّست هيئة الأُمم المتّحدة، وهي الهيئة التي سارت علىٰ قانون عصبة الأمم نفسه من حيث تطبيقها لهذا القانون (التقسيم)، فهناك الآن شعوب تعامل معاملة الرقيق.

وإذا ما كان هؤلاء يؤاخذون الإسلام في مسألة الرقّ، فإنهم الآن يعاملون بعض الشعوب معاملة الرقيق، ذلك أن الإسلام وجد مشكلة الرقّ وعالجها بهدوء وبطء إلىٰ أن انتهت، وهناك الآن شعوب كاملة تسترقّ ولا أحد يحرّك ساكناً.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر

إذن فالقانون الدولي لم يكن موجوداً لا قبل الإسلام ولا بعده، لكنه في الحقيقة لم يوجد إلاّ في ظل الإسلام. وتكريس محاضرة الليلة لهذا الموضوع ناجم من بعض التساؤلات من لدن بعض الشباب المسلم، إثر محاولات النيل من الإسلام من هذه الناحية، خاصّة أنّ التلفزيون البريطاني قد عرض منذ فترة ندوة تلفزيونيّة، تناولت أشياء كثيرة مسّت هيبة الإسلام، فقد نسبت إلى الإسلام معاملته الناس بالقسر والقوّة، وينزع إلى الشدّة وإلى اللامعقوليّة في تصرّفاته. ومن جملة الأشياء التي أُثيرت حول الإسلام أيضاً، ما نقل عن بعض العباقرة أو العلماء من المسلمين أنهم كانوا يدعون إلى اللادينيّة، وأن هؤلاء ـ أي العلماء ـ كانوا يؤمنون أنّ الله غير موجود، وأنه لا يوجد عقاب ولا ثواب... إلىٰ آخره، ويستدلّون بشعر لعمر بن الخيّام مثلاً.

والحقيقة أن الغرب لديهم قانون اسمه (قانون التشارك)، وهو قانون قد تعرّض للنقد من قبلهم، وهؤلاء يقولون: إن المسلمين يخلطون بين الشيء وظلّه، مع أنهم يحسبون المسلمين على الإسلام، فهم عند دراستهم للشعوب الإسلاميّة التي لها ظروفها الاجتماعيّة الخاصّة، ينتزعون من هذه الدراسة قانوناً وينسبونه إلى الإسلام. ومثل ذلك ما قيل في هذه الندوة التلفزيونيّة من أن الإسلام لا يعتبر المرأة طاهرة، بل هي نجسة. كيف والمرأة زميلة الرجل في كلّ موقف، وفي كلّ بعد من أبعاد الحياة؟ المرأة صانعة الأُسرة في نظر الإسلام، والإسلام يضع الجنّة تحت أقدام المرأة، والمرأة جنب الرجل سواء في الدينا أو في الآخرة.

أما عمر الخيّام فلم يدعُ إلىٰ الإلحاد؛ لأنه ليس ملحداً، فهو يقول مخاطباً الحقّ جلّ وعلا:

قيل أن قد وعدت بالنار يوماً	فتعجّبتُ أين هذا يقالُ
بمكان ما أنت فيه ولا يو	جد أم حيثُ أنت وهو محالُ

فهو يقول: ياربّ، إنك قد وعدت أن تعذّبني، فتعجبت أن يكون هذا العذاب، أيكون في مكان أنت فيه، ولا يجتمع وجودك مع العذاب، أم يكون في مكان أنت لا توجد فيه، وهذا محال؛ لأنك موجود في كلّ مكان.

هل يقال لهذا الرجل: أنت ملحد أو مشرك؟ هل يقال عنه: إنه يدعو إلى الإباحيّة؟

الإسلام يحمل القانون الدولي في طياته

والحقيقة أننا لا نملك وسائل إعلاميّة للردّ علىٰ هذه الآراء والادعاءات، والجهات الإسلاميّة كلّها مدعوّة للرد علىٰ مثل هذه الادعاءات وتفنيدها.

وللأسف الشديد إن الكثير من أبنائنا لا يعلم أن الإسلام يحمل القانون الدولي في طياته، فهذا قد غيّب عندنا. وكنت قد سألت أحد المراجع مرّة عن كتاب يؤلّف فيه ثم توقّف عن أن يتمّ تأليفه، فقال: إنني أطمح أن يكون كتابي هذا بين يدي الناس وليس علىٰ رفوف المكتبة. وحقّاً إن تراث آل محمد ﷺ تراث ضخم، يحتوي علىٰ جانب حربي وجانب مدني.

الحروب الإسلامية وفق القانون الدولي العام

وسوف نتطرق إلىٰ الجانب الحربي وفقاً للقانون الدولي العام، ففيما مرّ إشارة إلىٰ القانون المدني. هناك ثلاثة بنود يضعها القانون الدولي لتحديد طبيعة الحروب التي تنشب بين فريقين، ويلاحظ أن الإسلام قد سبق إلى ذلك. هذه البنود هي:

البند الأوّل: ألا يُقاتَل غيرُ المقاتِل

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾[1].

فما المقصود بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ في هذه الآية؟ هناك رأيان لمفسّري المسلمين حول هذا الموضوع:

الرأي الأول: قاتلوا الذين يقاتلونكم بالفعل

أي حامل السلاح، المقاتل بالفعل[2]. وعليه بعض الفقهاء الذين يرون قتال من حمل السلاح للقتال بالفعل. فهناك فرق بين من يخطط للقتال أو يرسم خريطة للمعركة وبين من يحمل السلاح لقتالك، فهذا يُقاتَل بخلاف الأوّل؛ فإن الفقهاء يرون أن مثل المتديّن في دار العبادة لا يُقاتل وإن خالف في العقيدة، وكذلك المرأة والطفل، والفلّاح في حقله.

الرأي الثاني: قاتلوا الذين يستحلّون قتالكم

يعني وإن لم يحمل السلاح[3]، فهو يستحلّ قتالك، بحيث لو تمكّن لقاتلك. وهذا رأي القلّة، إذ الأغلب يميلون إلى الرأي الأول الذي هو الأفضل طبعاً لأنه الذي يطابق مبادئ القانون الدولي والقانون الإسلامي.

إذن في هذه الآية أول مبادئ القانون الدولي العام التي يحرص الإسلام على تطبيقها.

البند الثاني: عدم منع المؤن عن المقاتلين

فمن مبادئ قانون الحروب الدوليّة ألّا يمنع الطعام والشراب عن المقاتلين

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) مجمع البيان ٢: ٢٩، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه.

حتىٰ ولو كانوا في ساحة القتال، والرسول ﷺ لم يمنع طعاماً ولا شراباً عن قريش أثناء قتاله لهم. وهناك واقعة عن تمامة بن أثال الحنفي، وهو رئيس محترم في اليمامة كبير ومطاع، وله أراضٍ كبيرة، وكانت جماعة الرسول ﷺ مرتبطة به، فيما كانت جماعة مكّة تأخذ قوتها من اليمامة عن طريق جماعة هناك، فرأىٰ هذا الرئيس أن يقطع الطعام عن جماعة مكّة؛ لأنها أفضل وسيلة حسب رأيه لمحاربتهم وقتالهم. وبالفعل قطع الطعام عن مكّة، حتىٰ اشتدّ الجوع علىٰ قريش، فكتب أبو سفيان كتاباً للنبي ﷺ يقول فيه: أمّا بعد، فأنت تأمر بصلة الرحم، وأراك تقطع الرحم. قتلت الكبار وأجعت الصغار. فلمّا قرأ الرسول ﷺ الكتاب تأثّر كثيراً، وأمر ذلك الرئيس برفع الحجْر عن الطعام [1]، وفعلاً رفع عنهم الحجر، ولم يقاتلهم النبي ﷺ وهم جياع، علىٰ الرغم من أن قريشاً قد أقامت حوله حصاراً من قبل [2].

البند الثالث: عدم استعمال العنف حتّىٰ في القتال

ومن مبادئ قانون الحروب الدوليّة أيضاً ألّا يستعمل العنف والقسوة حتىٰ في ساحة القتال، والإسلام يقرّ ذلك بل ويتعدّاه إلى أنك حتىٰ لو أردت قتله فلا تستعمل معه وسيلة غير إنسانيّة، بل ولا بعد قتله، فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [3] وفي الوقت نفسه يقول: «المسلم أخو المسلم» [4]، ولذلك فإن الآية الكريمة تقول:

---

(١) انظر الكافي ٨: ٤٥٨/٢٢٩، صحيح البخاري ٢: ١٩.

(٢) بحار الأنوار ١٩: ٨/١٦، ١١/١٨، وكمثال آخر عندما سيطر الإمام علي ﷺ علىٰ الماء في صفين فإنه لم يمنع جماعة معاوية عنه بخلاف ما فعله معاوية أوّل مرّة. انظر شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٠ ـ ٣٣١، كنز العمّال ١١: ٣١٧٠١/٣٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٩: ١٣٦.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) الكافي ٢: ٥/١٦٦، مسند أحمد ٢: ٩١، وغيرهما.

﴿وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ﴾[1]. والفتنة هي استعمال القسوة حتىٰ يرجع المسلم عن عقيدته، فقد كانت قريش تأخذ المسلم إلى الصحراء وتستعمل معه أنواع العذاب كافّة لكي يرجع عن دينه، ومن هؤلاء بلال فقد كان يتعرّض لضرب السياط يوميّاً، حتىٰ تنتزع قطعة من جلده، وهو يقول: أحد أحد[2].

في معركة بدر الكبرىٰ، حين احتدمت المعركة وسالت الدماء ـ وكانت قد حدثت بتأثير أبي جهل الذي حثَّ قريشاً على القتال ـ سقط أبو جهل جريحاً، فرآه الصحابي عبد الله بن مسعود الذي قال عنه النبي ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن غضّاً ـ أي طريّاً ـ كما أُنزل فليقرأ علىٰ قراءة ابن أُم عبد الله»[3] فلمّا وجد أبا جهل جريحاً تربّع وجلس علىٰ صدره وقال: إيه، يا عدوّ الله، لقد أمكن الله منك. فقال أبو جهل: من أنت؟ فأجابه: أنا عبد الله بن مسعود. فقال أبو جهل: لقد ارتقيت يا راعي الغنم ـ وكان عبد الله بن مسعود راعياً للغنم قبل أن يُسلم ـ مرتقىً صعباً. فقال له ابن مسعود: اسكت يا لكع، لقد أعزّني الله بالإسلام وأذلّك بالكفر. قال: هل لي أن أسألك سؤلاً؟ قال: سل. قال: من الذي انتصر في المعركة، ومن الذي انهزم؟ قال: العزّة لله ولرسوله، لقد انتصر رسول الله ﷺ، ورُفعت راية «لا إله إلّا الله». فقال: إذن، عجّل بقطع رأسي، وارفعه علىٰ رمح طويل، كي تعرف قريش أنني ما متُّ إلّا علىٰ آلهتها.

ففعل ما طلب منه، وهو يعتقد أن ذلك يدخل السرور علىٰ قلب رسول الله ﷺ؛ لأن أبا جهل كان من ألدّ أعدائه، لكن النبي ﷺ لمّا رآه يطوف برأسه صاح: «مه،

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، أُسد الغابة ١: ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٨.

(٣) شرح مسند أبي حنيفة: ٤١٠.

فقال: ماذا يارسول الله؟ قال: «هل نزعت الرحمة عن قلبك؟»، ووبّخه توبيخاً عظيماً على ذلك. فالإسلام يرى أن المثلة حرام ولو في الكلب العقور[1].

الناس سواء من وجهة نظر الإسلام

أمّا بالنسبة للآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، فيقول رسول الله ﷺ: «ألا إنكم ولد آدم، وآدم من تراب»[3].

دخلت على أمير المؤمنين﵇ امرأتان إحداهما مملوكة والأُخرى حرّة، وهو في بيت المال، وطلبتا منه العطاء، فأخرج لهما بكلتا يديه من العطاء، فدفع كميّة لهذه، ودفع للأُخرى كميّة أيضاً. فقالت الحرّة: هل تعرفني وتعرفها؟ إنني حرّة وهذه مملوكة. فحمل أمير المؤمنين﵇ قبضتين من التراب وقال: «والله، إني لا أرى فرقاً بين هذه وبين هذه».

فهذه إذن رؤية الإسلام عن المساواة باعتبارها أحد ركائز القانون الدولي العام.

المبحث الثالث: رأي الإسلام في مسألة المصالح المشتركة

أما بالنسبة للمصالح المشتركة، فلنستمع لقوله ﷺ: «من أصبح لا يهتمّ بأُمور المسلمين فليس منهم»[4]، وكذلك بالنسبة للحقوق المشتركة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾[5]، أي أن الحقوق والواجبات متبادلة.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والمثلة ولو في الكلب العقور». انظر نهج البلاغة / الوصيّة: ٤٧، وسائل الشيعة ٢٩: ١٢٨ / ٣٥٣١٦. (٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الفصول المهمّة (الحرّ العاملي) ١: ٣٥١.

(٤) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ١٦٤ / ٤ ـ ٥. (٥) البقرة: ٢٢٨.

إذن منطلقات القانون الدولي متوفّرة في الإسلام، لكن حينما نأتي على الخلفاء الأُمويّين، نجدهم أجبروا الناس علىٰ اعتناق رأيهم، فهذا مروان بن عبد الملك يقول: نحن بني أُميّة، من قال برأسه هكذا، قلنا له بسيوفنا هكذا.

أما علىٰ صعيد الحقوق والواجبات، فلا يوجد هناك شيء منها، فهذا سعيد بن العاص يقول من علىٰ منبر الكوفة: السواد بستان لنا. أما الوليد فكان ينفق (٦٠) ألف دينار من أجل توفير الرذيلة له.

أما المساواة فهي معدومة، للحد الذي منعوا فيه الطعام عن عوائل الشهداء من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في حرب صفّين، وأما العذاب والتقتيل فحدّث ولا حرج، فقد جاء رسول معاوية مع آخرين، ليُخرجوا أولاد عُبيد الله بن عباس ويذبحوهم أمام أُمّهم التي فقدت عقلها من جرّاء ذلك[1].

أما في واقعة الطفّ، فقد منعوا الماء عن الأطفال، ومثّلوا برؤوس الأطفال، فحين جمعوا رؤوس القتلىٰ، سأل يزيد: أين رأس الرضيع، إنني لا أراه؟ فقالوا له: الحسين دفنه! قال: انبشوا الأرض برماحكم. فنبشوا الأرض واستخرجوا جثّة عبد الله الرضيع وقطعت رقبته وذهبوا به إليه.

وهذا القتل والتقتيل والعذاب والألم والعطش ترك زينب عليها السلام لوحدها ليلة

---

(١) وكان أن اختلط عقلها وأخذت تنشد:

يا من أحَسّ بابنيّ اللّذين هما ... كالدرّتين تشظّىٰ عنهما الصّدفُ
يا من أحسّ بابني اللذين هما ... مُخّ العِظام فمخّي اليوم مزدهفُ
يا من أحّس بابني اللذين هما ... قلبي وسمعي فقلبي اليومَ مُختطَفُ
من ذلّ والهة حيرىٰ مدلّهة ... علىٰ صبيّين ذلّا إذ غدا السلفُ
نبّئتُ بسراً وما صدّقتُ مازعموا ... من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحىٰ علىٰ وَدَجَي إبنيَّ مُرهفة ... من الشفار كذاك الإثم يُقترفُ

الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

الحادي عشر، مع الأولاد والأطفال والبنات، هذا يقول: عمّة أبي، وهذا يقول: عمّة أخي، وهيَّ تجول بين الأيتام مرّة وبين المصارع أُخرىٰ، إلىٰ أن جنّها الليل، فهدّأت الأيتام والأطفال، وانحدرت نحو جسد أبي عبد الله...

اتمرمرت والله بيتاماك ... مالي حيل يحسين فرگاك



﴿٥﴾

الشهر الحرام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1].

الجوانب المحتملة في الآية الكريمة

يسلك المفسّرون إزاء هذه الآية الكريمة أحياناً بشكل جنائي، وفي بعض الأحيان يسلكون بشكل اقتصادي، وفي بعضها يسلكون بشكل اجتماعي.

فالذين يسلكون إزاءها بالشكل الاجتماعي يشيرون إلىٰ أن هذه ظاهرة كانت موجودة قبل الإسلام، وجاء الإسلام وأيّدها.

والذين يسلكون إزاءها بالشكل الاقتصادي ـ وهم مجموعة من الفقهاء ـ يقولون في هذا المقطع: ﴿وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ ومن جملة الحرمات أجر العامل، فإذا قصّر المستأجر فإنه يدان بتقصيره. وبكلام آخر: إذا نقص من أجر العامل، فلأجره حرمة.

والذين يسلكون إزاءها بالشكل الجنائي يقولون: إن الآية أباحت للمسلمين أن

---

١) البقرة: ١٩٤.

يجيبوا على الدم الذي يسفك في الشهر الحرام بدم مثله. وبكلام آخر: إذا بدأ الآخرون المسلمين بالقتال في الشهر الحرام، فللمسلمين أن يردّوا علىٰ ذلك، لكن ليس لهم حقّ أن يبدؤوا به.

إذن لهذه الآية ثلاثة جوانب، وهي جوانب متداخلة مع أن كلّ واحد يتناولها من جانب اختصاصه، فلنتناول الجانب الاجتماعي منها:

الجانب الاجتماعي

كانت الحياة في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام قائمة علىٰ اُسس غير مستقرّة، كان هناك مجتمع رعوي ـ غير زراعي ـ وليس فيه تدرّج نحو الاستقرار والنظام، بل كان يقوم علىٰ أساس قبلي، وهذا الأساس القبلي ينطوي علىٰ قضايا متعدّدة، ومن جملتها عدم الاستقرار في السكن؛ لأن السكن يتبع الماء والعشب، فهو بالتالي ليس له وطن. ومن جانب آخر، هذا المجتمع ليس ذا معاش مضمون، فإذا جنّ الليل قد يضطرّ أحدهم لأن يخرج وينهب من فلان وفلان، ولذلك يقول أحد الشعراء:

فمن تكن الحضارة اعجبته ... فأي رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قنا سلباً وأفراساً حسانا[1]

فليُتأمّل في هذا؛ إذ ليس عنده وسيلة مشروعة، فيضطرّ إلى السلب والنهب، حتىٰ إنّهم يفتخرون بأن أفضل طعام يأكله الإنسان هو الطعام الذي يأخذه عن طريق النهب والسلب، حيث إن الناس الذين يأكلون طعامهم عن طريق الكسب والربح جبناء في نظر هؤلاء؛ لأنهم يتّخذون طريقاً غاية في الجبن في سبيل تحصيل الطعام. وقد انعكس ذلك، كميراث اجتماعي، على الأدب كما في قصيدة

---

(١) لسان العرب ١: ٤٢٧ ـ سلب، تاج العروس ١: ٣٠١ ـ السلب.

البحتري التي يصف فيها إيوان كسرىٰ:

وليل كأن الصبح في أخرياته

إذن هذا اللون من الحياة غير المستقرّة تنعكس عنه أوضاع اجتماعيّة أيضاً مثل تلك التي يصفها أمير المؤمنين عليه السلام: **«وكنتم علىٰ شرّ دين وفي شرّ دار، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام فيكم معصوبة، تسفكون دماءكم وتقطعون أعماركم»**[1].

وهذه الصورة تعبّر عن وضع اقتصادي غير ثابت، ولمّا لم يكن هناك استقرار في حياتهم فإنها قامت على الرمح والسيف، وسفك الدم. ولكن الإسلام عندما جاء وجد عندهم عادة رائعة وطيّبة، ذلك أن بعض الأشهر يعتبرونها أشهراً حرماً، وفي هذه الأشهر لا يقاتلون بعضهم البعض، ويمنعون فيها سفك الدماء والقتال والحرب. وبما أن الإسلام لا يملك عداءً مع العادة التي ترفع الفعل الإنساني إلىٰ مستوى القيم أقرَّ هذه العادة، وأمره بحفظ الدماء من أن تسفك، وبالتالي حفظ الأعمار من أن تقطع.

فهذه العادة ليست من مبتكرات الإسلام؛ لأن الأشهر الحرم كانت موجودة في الجاهليّة، وكان العرب يطلقون علىٰ شهر المحرّم اسم شهر المؤتمر، لأنهم كانوا يأتمرون فيه، فيجتمعون ويتبادلون فيه الآراء لحلّ مشاكلهم بشكل سلمي بدون قتل ولا قتال. ولمّا جاء الإسلام أكّد هذا المعنىٰ وأقرّه، معتبراً أن لهذه الأشهر الحرم حرمة، حيث إن العرب في الجاهليّة كانوا ملتزمين بذلك، حتىٰ إن أحدهم كان يرىٰ قاتل أبيه وقاتل أخيه ولا يستطيع أن يهيجه بأذىٰ. وكان هذا أمراً صعباً جدّاً؛ لأن تأصّل الثأر في نفوس العرب كان عميقاً جدّاً، فلا يجب اعتبار ترك الثأر في هذه الأشهر أمراً سهلاً علىٰ نفوسهم.

---

(١) نهج البلاغة /الخطبة: ٩١.

روي أن الرسول ﷺ عندما كان في المدينة، كان مجتمعها بيده، غير أنّ هذا المجتمع كان غير متوازن اقتصاديّاً، فأهل المدينة عندهم أموال وبساتين ومحالّ تجاريّة، أما المهاجرون فقد جاؤوا إلىٰ مكّة فقراء، لا يملكون شيئاً، حيث إن قريشاً قد سلبتهم كلّ شيء، وقد تلقّاهم الأنصار وآخوهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ. وعندما حصل رسول الله ﷺ علىٰ سبي بني النضير، أخذ منهم الأموال ووزّعها على المهاجرين فقط إلّا قليلاً من الأنصار الفقراء. ولم يتوصّل باقي الأنصار إلىٰ مغزىٰ ذلك؛ إذ كان هدف الرسول ﷺ هو إقامة التوازن الاقتصادي، بعد أن كان التباين الاقتصادي بين المهاجرين والأنصار ينعكس عنه أوضاع اجتماعيّة سيّئة، فهناك من له ثروة كبيرة وهناك من يعيش في فقر مدقع، وطبعاً الثروة الكبيرة تحتاج إلىٰ تصريف لجني الأرباح، ولابدّ من أعمال غير نظيفة لذلك الغرض.

ومن أجل خلق أوضاع اجتماعيّة مستقرّة، عبر إيجاد نوع من التوازن الاقتصادي، وزّع رسول الله ﷺ الأموال من سبي بني النضير على المهاجرين وبعض الأنصار الفقراء، فقام عبد الله بن أُبيّ، وقال: «لقي محمد ضربة، إذا رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، نحن استقبلناه وآويناه، وفتحنا صدورنا له، يأخذ أموال السبي ويعطيها إلىٰ أصحابه وجماعته!».

ووصلت الكلمة للرسول ﷺ، وسكت عن الردّ علىٰ ذلك وقتها وكان قد قرّر أمراً، فجاء ابنه فدخل على النبي ﷺ وقال له: روحي لك الفداء، لقد سمعت أن أبي قد صدرت منه هذه الكلمة، وأنت متألّم لذلك، وقد بلغني أنك تريد أن تقتله، وأنا أُريد منك شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «ما هو؟». فقال: إذا أردت قتله، فأطلب منك أن أتولّىٰ ضرب عنقه. قال ﷺ: «ولماذا؟». قال: لأمرين: الأول: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل الآباء والأبناء، والأمر الثاني: أخشىٰ أن تدركني حميّة الجاهليّة، فأقتل

قاتل أبي لعلّي لا أصبر علىٰ رؤيته، فأرتدّ عن الإسلام[١].

فإذن مسألة طلب الثأر عريقة في نفوس هؤلاء وفي حضارتهم، وتظلّ الأُسرة تخشىٰ العار إن هي تلكّأت في تنفيذه. ففي الجانب المدني من الحضارة يمكن تغيير وسائل الحياة، مثلاً، الطائرة تحلّ بدلاً من الفرس، لكن في الجانب الفكري والنظري من الصعب تغيير العقائد والعادات. وأضرب مثلاً علىٰ ذلك، كان عندي مجلس يوضع فيه المنبر في مكان معيّن، وأحببت أن أُغيّر هذا المكان، فاعترض والدي وقال: أن وضع المنبر في هذا المكان هو عادة ثابتة، ولا أستطيع أن أُغيّر مكانه.

وعلىٰ أيّ حال، كان رسول الله ﷺ يعرف أن هذه الحالة متأصّلة في نفوسهم، لكن تمكّن من القضاء علىٰ جميع السلبيات، ومن بينها مسألة سفك الدماء، وذلك حين تم تثبيت مسألة الأشهر الحرم؛ وتأكيدها واحترامها.

وحين وصل الأُمويّون إلى الخلافة، ماذا يمكن أن يُتوقع حصوله منهم سيّما إن كان رئيس الدولة هو القانون؟ وماذا تنتظر من الناس ومن الرعيّة؟ جاء هؤلاء إلى البيت الحرام وإلى الشهر الحرام وإلى الدم الحرام، فماذا فعلوا؟

لقد أباحوا حرمة الجميع، فهذا عبد الله بن الزَّبير البصري له ولدان، صرعوا في كربلاء، يخاطب ابنته بعد فقد أولاده ويقول:

يـــافرو قـــومي فـــاندبي   خـــير البـــريّة فـــي القـــبورِ

وابكـــي الحسـين مـــع النـــهو   ض مـــع التـــنفس والزفـيرِ

قـــتلوا الحـــرام مـــن الأيـــقـ   ـة فـي الحـرام مـن الشـهورِ[٢]

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥، جامع البيان: المجلّد ١٤ ج ٢٨: ١٤٢ ـ ١٤٨.

(٢) مثير الأحزان: ٦١.

فالواضح إذن أن الأُمويّين لم يراعوا حرمة الشهر الحرام، وكذلك فعلوا بالكعبة التي ليس عند المسلمين مكان أكثر حرمةً منها؛ فهي قبلة كلّ مسلم ومأوىٰ كلّ المسلمين، وهذه الكعبة قد تعرّضت إلىٰ سفك الدماء من قبل الأُمويّين، وتعرّضت أيضاً إلىٰ ضرب المنجنيقات أكثر من مرّة، ووصل الأمر إلىٰ أن تحرق نهائيّاً. ومن الغريب أن يمرّ التاريخ علىٰ هذه المسألة ويتعامل معها ببرود قاتل.

وكذلك حال المدينة فها هو الوليد بن عبد الملك يأمر بهدمها [١]، وها هو مسرف يصل إليها ويجعل الدماء تجري فيها حتىٰ تصل قبر النبي ﷺ [٢]، وهذا شيء غريب، إذ أن الشهر الحرام والبلد الحرام كانت تحترمهما حتى العرب في جاهليّتها.

ولهذا حاول الحسين ﷺ أن يخفّف قليلاً من وطأة المصيبة، فأراد أن يبتعد عن الكعبة؛ لأنه لو بقي في مكّة، كما أشار عليه جماعة، لكان قد سُفك دمه داخل الكعبة، وقد قال ﷺ: «لو بقيت متعلّقاً بأستار الكعبة لأراقوا دمي».

فإذن الشهر الحرام حافظ علىٰ حرمته تاريخ العرب، وحافظ عليه المسلمون، لكنه أُهدرت حرمته علىٰ أيدي الأُمويّين.

وهذا هو الجانب الأُول من الآية، أما الجانب الثاني فهو إصرار أهل البيت ﷺ على الاحتفاء بهذا الشهر، مع أن البعض يتصوّره موسماً للبكاء، وهذا غير صحيح؛ لأن الدمع لا يُرجع شيئاً فات ولو طال دهراً، لكن الواقع أن الأيمة ﷺ استغلّوا الجانب العاطفي في هذا الشهر؛ لأنه الوسيلة الممكنة لإحياء النفوس وتوجيهها

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٥: ٤٩٨، مروج المذهب ٣: ٨٦، الكامل في التاريخ ٣: ٦٠٢، الإمامة والسياسة (ابن قتيبة) ٢: ١٧.

(٢) انظر المحلّىٰ (ابن حزم) ١٠: ٢٨٧ ـ ٢٨٨، تاريخ مدينة دمشق ٥٨: ١٠٨، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٢٣، البداية والنهاية ٦: ٢٦٢، ٨: ٢٤١.

للنظر إلىٰ قضيّة الحسين عليه السلام. فهم عليهم السلام حرصوا علىٰ أن يتركوا في وجدان كلّ مسلم شيئاً من نهضة الحسين عليه السلام وشيئاً من واقعة الطفّ، وأن هناك في هذا الأمر قضيّة مقدّسة، وهذه القضيّة المقدّسة هي أن الحقّ ذُبح يوم ذبح الطفل، وأن الحضارة، ذُبحت علىٰ أيدي الأُمويّين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله من أحيا أمرنا»[1]، وليس إحياء أمر آل البيت بالبكاء وحده، فهذا قليل جداً، إذ الأمر المناط بالمسلم هو أن ينصهر مع المفاهيم التي من أجلها نهض الحسين عليه السلام في ثورته المباركة، يوم قارع الظّلم من أجل الحقّ.

فإذن إصرار أهل البيت عليهم السلام علىٰ استغلال هذا المأتم لدعم الحقّ والوقوف بوجه الباطل كان لهذا الجانب الذي أوضحناه، ومن يظنّ غير ذلك فهو واهم.

ومن جهة أُخرىٰ وظّفوا عليهم السلام هذا المأتم لا من أجل الدمع فقط، بل أيضاً لتقديس آثار الطفّ، ومن بينها تربة الحسين عليه السلام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[2]، وكان أمرهم عليهم السلام بالصلاة علىٰ هذه التربة هو لجعل المسلم علىٰ اتّصال بالقضيّة، قضيّة صراع الحقّ مع الباطل، كما أن الوقوف على الأطلال كما هو معروف يولّد النظر والكثير من العبر. والموضوع كلّه لا يخلو من إيحاء بالقيم التي قدّمها الحسين عليه السلام يوم الطفّ، فقد وقف هناك موقفاً غاية في الصلابة وغاية في التضحية، وقد مثّل المروءة، وهو ينظر إلىٰ الجيش، إذ جاءت إليه أُخته زينب عليها السلام وعيناها دامعتان.

فإذن أهل البيت عليهم السلام كانوا يستعملون مختلف الوسائل كي يشدّونا إلىٰ واقعة الطفّ وإلىٰ معانيها، ومن جملة الوسائل التي وظّفها آل البيت عليهم السلام في سبيل ذلك

---

(١) المحاسن ١: ١٩، مصادقة الإخوان (الصدوق): ٣٨، عين العبرة: ١٧.
(٢) الخصال: ٢٩٢ / ٥٦، وسائل الشيعة ٣: ٢٥٠ / ٢٨٣٩.

الغرض الشعر، فحين تقرأ قصيدة في هذا الموضوع تجد فيها معاني جديدة من إصرار على الحقّ، ليشدّ الناس إلىٰ واقعة الطفّ، كما يقول الشاعر:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلتِ

فلا يبعدِ الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلتِ

وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذلّ رقاب المسلمين فذلّتِ[1]

فمن يتصفّح أدب الطفّ، يجد أدباً عاصر المأساة، ونقل الحقّ والمواقف، ونقل درساً من الدروس.

نعود إلى الآية، يقول الحقّ تعالىٰ: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ﴾، هناك بعض ممّن يشكّك في موقف الحسين﵇ ويقول: لماذا قاتل في الشهر الحرام؟ والجواب: أن من بدأ القتال هو غيره، وقد حوصر﵇ من كلّ جانب بجيش جرّار، فهل يتوقّف عن الدفاع عن نفسه والله عزّ وجلّ يأمر كلّ فرد بالدفاع عن نفسه.

في اليوم العاشر من المحرم جاءت أُمّ إسحاق إلى الحسين﵇ وهي تحمل طفلها وقالت له: هاكم رضيعكم يا آل محمد، لقد جفّ صدري. فأخذه الحسين﵇ وهو يطيل النظر في وجهه ثم قال: «بني، تعساً لقومٍ قتلوك» ثم كبّر في أُذنه اليمنىٰ، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، وضع الحسين﵇ يده تحت عنق الطفل حتىٰ امتلأت دماً، وقذف بها إلى السماء وقال: «اللهم بعينك». وهذا هو المعنىٰ الذي يؤكّده أهل البيت﵈.



---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أُسد الغابة ٢: ٢٢، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٨، الإصابة ٧: ١٢٦.

﴿٦﴾

الإسلام والمرأة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية مجموعة من المواقف، ومنها موضوع المرأة، وموضوع نسبة الرجل إلى المرأة ونسبة المرأة إلى الرجل.

المبحث الأول: المرأة بين الإسلام والجاهلية

هناك مجموعة من الأحاديث حول المرأة، منذ أن وجد الذكر علىٰ سطح الكرة الأرضيّة، وقد كثر التساؤل حول موقف الإسلام من المرأة، وهناك مجموعة من المستشرقين تناولت هذا الموضوع، وحاولت أن تعزل المرأة ـ بوصفها تمثّل نصف المجتمع ـ عن المجتمع الإسلامي، وذلك عن طريق إشعار المرأة بأن الإسلام يحطُّ من قيمتها أمام الرجل، ويعاملها معاملة تدلُّ على استضعافها، ويفضّل الرجل عليها. وهذه البحوث تفتقر إلى الدقّة العلميّة؛ لأنها خلطت بين المرأة في المجتمع العربي، وبين المرأة في المجتمع الإسلامي.

لقد جاء الإسلام إلىٰ مجتمع الجزيرة العربيّة، وهو يحمل تعاليم جديدة في نظر هذا المجتمع، ومن الطبيعي ألّا يمتثل هذا المجتمع لبعض هذه التعاليم، لأنّا نعلم كما

---

(١) آل عمران: ٣٦.

في علم الاجتماع أن تطبيق المبادئ والقيم الجديدة على كلّ مجتمع وتأثّره بها يحتاج على الأقلّ لثلاثة أجيال: فالجيل الأول يتأثّر بنسبة ٣٠٪ بهذه القيم الجديدة، والجيل الثاني يتأثّر بنسبة ٦٠٪ أمّا الجيل الثالث فيتأثر بنسبة ١٠٠٪. وبكلام آخر أن تأثّر المجتمع بالمبادئ والقيم الجديدة يشبه عمليّة تمثيل الغذاء في الدم، فهو يمرُّ بعدة مراحل، وعلى ذلك فدخول الإسلام إلى الجزيرة العربيّة، لا يعني الامتثال للمبادئ والقيم الجديدة التي جاء بها، بل إن الواقع أنه قد بقيت في هذا المجتمع رواسب اجتماعيّة تحتاج إلى زمن طويل كي تتلاشى وتذهب أمام هذه القيم الجديدة.

وعلى ذلك فإن كثيراً من مواقف حملة الإسلام الأوائل كانت متأثّرة بقيم الحضارة السابقة، وهي قيم الجاهليّة، وهناك في بعض المجتمعات العربيّة إلى هذا الوقت من يتحدّث عن المرأة بصورة سلبيّة، متأثّراً بتلك القيم الغابرة.

ولقد لاحظ المستشرقون الدارسون لتاريخ المجتمع العربي في الجزيرة أن الشاعر يصف عدداً من الصور المفتعلة، كما في الأبيات التالية:

القبر أخفى سترةٍ للبناتْ ... ودفنها يُروى من المكرماتْ

ألم ترَ الرحمن عزَّ اسمه ... قد وضع النعش بجنب البناتْ[1]

وهو يعني أننا ننتظر المرأة ساعة الولادة، فإن ولدت ذكراً أخذناه، وإن ولدت أُنثى دفنّاها. وأمثال هذا الشاعر كانوا قد عاشوا في كنف حضارة تضع المرأة في مرتبة منحطّة عن الرجل؛ لذلك لم يكن لها نصيب من الميراث مثلاً، أو تكون قليلة القيمة إذا ولدت أُنثى. وقد نقل القرآن الكريم هذه الصورة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨.

بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1].

وقد تأثر المستشرقون بهذه الصورة، ونقلوها علىٰ أنها تمثّل نظرة الإسلام إلى المرأة، وادّعوا بأنه ـ أي الإسلام ـ ينظر إلىٰ المرأة هذه النظرة المنحطّة، دون أن يفرّقوا بين قيم الجاهليّة المتأصّلة في نفوس المجتمع الجاهلي، وبين القيم التي ينطوي عليها الإسلام وإن لم تكن واضحة في المجتمع الإسلامي الأول بخصوص النظرة إلى المرأة من قبل هذا المجتمع، ذلك أن تلك القيم الجاهليّة ـ كما أسلفنا ـ كانت متأصّلة في نفوس الناس، وليس من السهل إزالتها بسرعة.

المبحث الثاني: هل هناك فرق بين الرجل والمرأة؟

ومن جانب آخر يجب أن نتساءل عن جملة أُمور؛ منها: هل ثمّة فروق بين المرأة والرجل من حيث الخلق والتكوين؟ وهل رتّب الإسلام آثاراً علىٰ هذه الفروق إن وجدت؟

وجواباً على التساؤل الأوّل يذهب الاختصاصيّون إلىٰ أن هناك (٣٢) فرقاً بين الرجل والمرأة، منها فروق بايولوجيّة، فسرعة حويمن الرجل تتفوق علىٰ سرعة البويضة في رحم المرأة، ويترتّب علىٰ هذه أثر هو كون السعي للرجل أكثر تخطيطاً منه في مخّ المرأة، وذلك لغزارة العاطفة عند المرأة، أما حجم مخّ الرجل فهو بنسبة $\frac{١}{٤٠}$ وحجم مخ المرأة هو $\frac{١}{٤٤}$، كما أن المرأة أطول عمراً من الرجل في معدل الأعمار، وهي تختلف عن الرجل، في تكويناتها النفسيّة والجسديّة.

لكن هل وجدت هذه الفروق لتفضيل الرجل على المرأة أو بالعكس، أم أنها للتفصيل؟ ونجيب بأنه من المعلوم أن دور المرأة أضخم من دور الرجل، فالمرأة هي صانعة الأجيال، وإذا كان الرجل يكدح خارج البيت من أجل لقمة الخبز، فإن

---

(١) النحل: ٥٨.

المرأة تتولىٰ أخطر عمليّة في نشأة الأُسرة، ألا وهي التربية، فالطفل يتأثر بأُمّة أكثر من تأثّره بالرجل، فهي ترضع طفلها القيم والأخلاق مع الحليب.

أما موقف الإسلام من هذه الفروق، فإنها في نظره وجدت للتفصيل لا للتفضيل، فعندما خصّها الله سبحانه وتعالىٰ بالعاطفة خصّها بذلك لا لتتخلّف عن دور الرجل العقلي، وإنما لأن دورها في الأُسرة يحتاج إلىٰ هذه العاطفة، ولأن هذا هو الجوّ الذي ستعيش فيه.

أما عن طول عمر المرأة عن الرجل، فذلك لأن المولود يحتاج إلىٰ حنان الأُم أكثر من حنان الرجل، ففقدان الأب يعوّضه حنان المرأة. وهذا ضروري جداً إلىٰ جانب التربية، فلو فقد الطفل هذا الحنان فإنه سيعاني كثيراً مثلما يعاني من فقر الدم، فلا تستطيع أفضل مؤسّسة حضانة أن تعوّض هذا الطفل ساعة من الحنان.

فإذن خلاصة هذه المسألة أن الفروق بين المرأة والرجل وجدت للتفصيل وليس لتفضيل الرجل على المرأة.

أما عن تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ فإن أُمّ مريم لمّا أحسّت بالحمل، نذرت ما في بطنها أن يكون خادماً في البيعة ـ أي ما يشبه المسجد عند المسلمين من معبد وغيره ـ ومن المعروف أن خدمة البيعة تحتاج إلىٰ طهارة ونظافة، فلمّا وضعتها أُنثىٰ قالت: ربي إني نذرت لك أن يكون ما في بطني خادماً للمعبد، وقد وضعتُ أُنثىٰ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ أي أن الولد لن تمرّ عليه فترة حيض، عكس الأُنثىٰ، وهي لا تصلح لهذه الخدمة.

إذن هذا هو تفسير الآية، لكن المستشرقين أخذوا هذه الآية خارج سياقها، واتّهموا الإسلام بأنه يقول: ليس الذكر كالأُنثىٰ، وذلك من أجل رمي السهام عليه. وقد حشّدوا لذلك عدداً من الآيات، مثل شهادة المرأة، حيث إن الإسلام اشترط

شهادة امرأتين مقابل رجل واحد، فقالوا هذا دليل على أنه يعتبرها نصف الرجل. وهذه مغالطة؛ لأن من بين الفروق بين الرجل والمرأة، أن المرأة أكثر عاطفة من الرجل؛ وذلك لأن بناء الأُسرة يحتاج إلى جوّ عاطفي وهو مناط دور المرأة داخل الأُسرة.

إن زيادة العاطفة عند المرأة ينعكس على دورها العقلي، فالغدّة الدرقيّة عند المرأة أضخم مما هي عند الرجل، والمرأة تـتأثّر بـالحمل وبـالولادة وبـحالات الطمث، فتؤثر على الجانب النفسي عندها، وأحياناً على ذاكرتها. وكـذلك فـإنّ المشرّع الإسلامي تعامل مع شهادة المرأة من جانب الشهادة ذاتها، فهي خـطرة فيما يخصّ الدماء والأموال والأعراض، ولاحظ وضع المرأة العاطفي من جانب آخر، فوضع مثل هذا الشرط لا لتفضيل الرجل عليها أو للتقليل من شأنها.

إن خطورة الشهادة في بعض المواطن اقتضت مثل هذا الشرط، إذ أن المرأة في مواطن أُخرى تقبل شهادتها لوحدها، ففي حالة الولادة، مثلاً يعتمد في شهادة أن هذا الولد هو ابن هذه المرأة أو العكس على شهادتها لوحدها.

أما عن موقف الإسلام من ميراث المرأة، كونه جعل لها النصف، فيجب النظر إليه من منطلق كلّي وليس من منطلق جزئي، فنظريّة الاقتصاد الإسلامي لم تكبّد المرأة أي أعباء ماليّة مثلما تكبّد الرجل من صرفيّات السكن وغيرها، فإذا كان دخل الرجل ١٠٠٪، فإنه يصرفه على المرأة وعلى المنزل، وليس في ذلك عدالة؛ إذ الرجل هو المسؤول عن احتياجات المرأة، ذلك أن للرجل الولاية العامة على المرأة وليس لها ذلك؛ لأن الإسلام خصّها بدور آخر داخل الأُسرة، والولاية العامّة تحتاج إلى أعصاب أقوى من أعصاب المرأة.

وعلى ذلك فإن موقف الإسلام من المرأة ليس موقف تفضيل وإنما هو موقف

تقسيم الواجبات والحقوق، لكن مغالطات المستشرقين دائبة ومستمرّة؛ إذ ينقلون عنا أنا نقول: المرأة لا تدخل الجنّة، ولا أدري من أين جاؤوا بمثل هذا النصّ؟ مع أن القرآن يقول: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾[١].

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٢] هل ينتمي إلىٰ دين مَن يقول: إذا نظرت عينك إلىٰ امرأة فاقلعها؟ أو: إذا أردت القرب من ملكوت السماء فابتعد عن المرأة؟ الإسلام لا يقول بذلك، بل يقول عن رسول الله ﷺ: «إن في وضع إحداكنّ لأجراً»، فالإسلام لا يحتقر المرأة، بل جعل لها أرفع مكان، والرسول ﷺ يقول: «الجنة تحت أقدام الأُمّهات»[٣].

المبحث الثالث: دور المرأة في واقعة كربلاء

وحقاً فإنَّ للمرأة أدواراً عظيمة في المجتمع، وهي أدوار متميّزة جداً، ومن تلك الأدوار دور زينب بنت أمير المؤمنين ﷺ في واقعة الطفّ، فهناك كثير من الناس يتساءلون: لماذا أخرجها الحسين ﷺ إلىٰ كربلاء وهي في عصمة رجل هو عبد الله ابن جعفر؟ ذلك أنه ﷺ كان يعلم أنها ستقوم بأدوار لن يقوم بها أحد غيرها، ومن أهمّ هذه الأدوار الدور الإعلامي الذي قامت به ﷺ بعد معركة الطفّ، والذي لولاه لما عرفنا الكثير عن نهضة الحسين ﷺ، فقد حمل التاريخ صوت زينب ﷺ معه وهي تنقله من ساحة المعركة إلىٰ مجلس ابن زياد في الكوفة ومجلس يزيد في الشام، ومن ثم إلى المدينة، وقالت في خطبتها في أهل الكوفة: «أما بعد، يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون وتنتحبون؟ فلا رقأت الدمعة[٤]، ولا هدأت

---

(١) النساء: ٥٧. (٢) التوبة: ٧٢، وغيرها كثير.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب للقطب الراوندي، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

(٤) رقأت الدمعة: جفّت وانقطعت. لسان العرب ١: ٨٨ ـ رقأ.

الرّنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضبٍ من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله ﷺ فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقُّ الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً.

ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا ينصرون»[1].



(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦١، الاحتجاج ٢: ٢٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٧.



﴿٧﴾

وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام

المباحث العامة للموضوع

مرّت حياة السجاد عليه السلام بمجموعة أدوار إن صح التعبير، أو هو عصر واحد يتجزّأ إلىٰ عدّة أدوار، ولابدّ من المرور بها للتعرّف علىٰ تفاصيل حياته الكريمة.

المبحث الأول: نشأته عليه السلام ونشاطه قبل إمامته

ولد الإمام عليه السلام كما هو معروف سنة (٣٨)هـ، وهذا يعني أنّه عاصر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام مدّة أربع سنوات. والحقيقة أن هذه السنين الأربع هي السنين الأُولىٰ المهمّة في حياة كلّ طفل. ومن بعد استشهاد جدّه أمير المؤمنين عليه السلام عاش فترة حرجة خلال حكم معاوية الذي بنىٰ جيلاً كاملاً وربّاه تربية انعكست آثارها فيما بعد؛ لأن الدولة عندما تلتزم رأياً معيّناً فإنها تستنفر أجهزتها لفرض ذلك الرأي، فتصوغ شخصيّة الإنسان كما تريد، وتجعل وجوه الحضارة بيدها لتربّي الشخص على الشكل الذي تريده، مثلاً إشاعة أن المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1] هم بنو أُميّة.

وكان الإمام عليه السلام في هذه الفترة من حياته محجوباً بوجود عمّه ووجود أبيه الحسين عليه السلام لكن هل إن معنىٰ ذلك أنه محجوب عن كلّ النشاطات؟ لا، فإننا علىٰ امتداد حياته الشريفة نلمح نشاطاً ثقافيّاً وعلميّاً واضحاً، فقد كان

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

الإمام يقوم بدور من وراء هذا الحجاب، مثلاً يعرف عنه أنه لا تمرّ جمعة إلّا ويخطب بالمقدار الذي يسمح به الظرف.

وممّا كان يقوم به ما رواه يحيى بن المساور الهمداني عن أبيه أنه جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: «نعم». قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه فقال: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقال: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ ، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟». قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم». فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرجّ الله عنك[1].

ومثال آخر سأله رجل: لماذا تزوّج رسول الله زينب بنت جحش؟ هل كان يعشقها؟ فأجابه الإمام بجواب مفاده أن هذه ابنة عمّته وهو يعرفها، ولو أراد أن يتزوّجها لفعل، ولكن الرسول أراد أن يكسر بها عرفاً جاهليّاً وهو مسألة التبنّي، إذ كان العرب إذا تبنّىٰ أحدهم أحداً فإنه يورّثه، وهذا المتبنّىٰ لو تزوّج فإن متبنّيه لا يتزوّج من زوجته فيما لو توفّي.

فكان الإمام يتصدّىٰ لمثل هذه الأسئلة ويجيب عنها موضّحاً مواضع اللبس فيها. وهكذا كان نشاطه الفقهي والعقائدي؛ فقد كان يتعاهد القرّاء، وكمثال على ذلك يقول سعيد بن المسيب: كنا لا نخرج إلى الحجّ حتىٰ نمضي لزين العابدين ونحن ألف قارئ، فكان يستقطب القرّاء في مسجد النبي ويجيب علىٰ

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

أسئلتهم في حلقاته الدراسيّة.

المبحث الثاني: نشاطه عليه السلام إبّان إمامته

وبعد فترة معاوية جاء دور واقعة الطفّ، وكان عمره ثلاثة وعشرين عاماً، وكان متزوّجاً من ابنة عمه فاطمة بنت الإمام الحسن عليه السلام وعنده منها الإمام الباقر عليه السلام، وكان عمره ثلاث سنين. وهذه الواقعة تركت بصماتها علىٰ أهل البيت عليهم السلام وخصوصاً على الإمام زين العابدين عليه السلام، حيث اجتاحت جميع أهله، ولكن الإمام لم يصبه انطواء علىٰ نفسه من جهتهم أو توحّش، بل كان يدعو لجيوش المسلمين[1]، ويساهم في حركاتهم العامّة. هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ فإن رفده العلمي استمرّ بالعطاء حتّى مع انشغال المسلمين في مدّة حكم يزيد في الثلاث سنوات التي دمّر فيها دنياهم. وقد خلّفت هذه الفترة للإمام عملاً شاقّاً، فبعد واقعة الحرّة التي تركت جيوشاً من اليتامىٰ والأرامل في المدينة (دار الرسول صلى الله عليه وآله) وهي عزيزة عند أهل البيت عليهم السلام، فهل من الممكن أن تبقى هذه العوائل جائعة عارية؟ طبعاً لا، فكان الإمام عليه السلام يعول أربعمئة عائلة بالمدينة يعمل لهم ليلاً ونهاراً، وقد كان منهم من قاتل الإمام الحسين عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يحمي حتىٰ دور الأُمويّين.

وبعد هذه الفترة، وبعد أحداث مكّة، انتهت حياة يزيد وجاء بعده ولده معاوية، هذا النموذج المشرّف ـ راجع (حياة الحيوان) للدميري ـ وكان هذا الرجل قد استعرض على المنبر خلافة جدّه وأبيه منتقداً إيّاها، ثم تنازل عنها لأهل البيت عليهم السلام. ثم جاء دور مروان، وكانت مدّة حكمه ستة أشهر، وهي التي عبّر عنها الإمام علي عليه السلام بقوله: «كلعقة الكلب أنفه»[2].

---

(١) كما في دعائه عليه السلام لأهل الثغور المعروف. انظر الصحيفة الكاملة السجاديّة: ١٤١ ـ ١٥٠.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٧٣.

ثم جاء دور عبد الملك، وكان يحترم الإمام زين العابدين حتىٰ قال له مرّة في مجلسه: «لقد وصلت إلىٰ درجة من العلم والتقىٰ لم يسبقك بها إلّا أسلافك». فكان يرسل للإمام﴿ع﴾ في حلّ مشاكله، وكان منها مشكلة النقد؛ لأن الروم كانت ترسم على الملابس صورة هرقل وتكتب آيات من التوراة، فنهىٰ عبد الملك عن شرائها؛ فانزعج ملك الروم وكتب له أنه إن لم يتراجع عن قراره فسوف يشتم النبي﴿ص﴾ في كتابة النقود. فتأثّر عبد الملك من هذا، ثم استشار الإمام السجّاد﴿ع﴾، فأعطاه الحلّ بسكّ نقود خاصّة بالدولة الإسلاميّة، مع أن عبد الملك لا يحمل حتىٰ بعض الحب لأهل البيت﴿ع﴾ [1].

ثم جاء دور عمر بن عبد العزيز، فكان يعبّر عن الإمام بـ(نور الدين وجمال الإسلام)؛ لأن الإمام﴿ع﴾ في كلّ ممارساته كان يراعي روح الإسلام حتىٰ كان يقول للشيعة: «أحبّونا حبّ الإسلام، والله ما زال حبّكم بنا حتىٰ صار عاراً علينا» [2]. وكان يريد أن يربّيهم التربية الإسلاميّة الصحيحة والخلق السليم كأخلاقهم، حتىٰ إنه﴿ع﴾ كان يخدمهم بنفسه. وهذه الأخلاق والتربية من الإمام لم تكن لشيعته فقط بل هي لغيرهم أيضاً. وممّا يذكر في هذا الصدد أن هشام بن إسماعيل والي عبد الملك في المدينة، وكان ناصبياً يشتم الإمام كثيراً، وبقي والياً إلى زمن الوليد بن عبد الملك الذي عزله؛ لأنه اختلس أموالاً كثيرة من بيت المال، وولّىٰ مكانه عمر بن عبد العزيز، وأرسل إلىٰ عمر أن أوقف إسماعيل في الشمس واضربه بالسياط وأرجع الأموال. فكان هشام هذا يخاف أن يمرّ به زين العابدين﴿ع﴾ فيشمت به، إذ أنه كان يظن أن الإمام علىٰ شاكلته. وذات مرّة كان

---

(١) حياة الحيوان ١: ٦٣، عن كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي.

(٢) الإرشاد ٢: ١٤١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠، بحار الأنوار ٤٦: ٧٣ / ٥٨.

الإمام عليه السلام يمشي وإذا به يرىٰ حشداً، فسأل فأخبروه الخبر، فمنع عليه السلام الإساءة إليه، ثم همس في أُذنه قائلاً: «انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وكان أن ترك النصب له[2].

وله عليه السلام في قلب المدينة موقف آخر فقد مرّ يوماً في المدينة ووراءه حشد من العبيد؛ لأنه كان عنده إصرار غريب علىٰ عتق العبيد كما كان يصنع الإمام علي عليه السلام حيث إنه عليه السلام كان يأخذ صدقات أبي نيزر والبغيبغاء ويشتري العبيد ثم يعتقهم، فالإمام زين العابدين عليه السلام كان يجمع عبيده في وقت الإفطار ويسقيهم الماء ويجلس معهم على الطعام، وإذا أذنب أحدهم ذنباً ذكّره به، فيخاف العبيد، وفي آخر ليلة وهي ليلة العيد يجمعهم ليدعوا له حيث يقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا»[3]. فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول: «استعن بها علىٰ دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها».

فكان أن نظر إليه شامي ومعه العبيد فقال: من هذا؟ قالوا: علي بن الحسين. فجعل يشتم أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له السجّاد عليه السلام: «إن كنت صاحب حاجة قضينا حاجتك». ثم ضيّفه الإمام، فخرج الرجل وهو يقول: والله أنت وأبوك أحبّ الناس إليّ.

وهكذا كان أهل البيت عليهم السلام في نبلهم الذي يصل حتىٰ إلى حدّ العطف على

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

أعدائهم، وكرمهم حتىٰ للنفوس التي حرمتهم من الماء:

حبتنا معالينا نفوساً أبيّةً ... سمونا فما يوماً أَلِفنا دنيّةً

إليكم بـرب الخـافقين سـليّة ... (مـلكنا فكـان العـفو منّا سجيّةً

ولمّا ملكتم سال بالدم أبطح)

هذا عطاء علي بن الحسين ﷺ في كلّ جوانبه.. في عطائه العلمي.. في عطائه الاجتماعي، أما في عطائه العبادي فصحيفته خير شاهد. فتلك الفترة التي عاشها علي بن الحسين ﷺ كانت قد طغا فيها الجانب المادي؛ لأن الأُمويين ركزوا علىٰ مجتمع المدينة بشكل واضح لطمس معالم الدين عنه، أقرأ في (الأغـاني) وفـي (صبح الأعشىٰ) وفي كتب التأريخ الأُخرىٰ وانظر إلي أي مدىً وصلت المدينة في هذه الفترة من بعد الانفتاح والفتوحات وازدياد الخيرات، فنزل الإمام ﷺ في هذه الفترة ليحقّق عملية التوازن بمدرسته الفقهيّة والعباديّة والأخلاقيّة عن طريق الدعاء، هذا العطاء الذي ليس كمثله عطاء، كان ﷺ فـي الليـل يـقرأ مـثل هـذه الكلمات: «يامن يرحم من لا يرحمه العباد، ويقبل من لا تقبله البلاد، يامن لا يحتقر أهل الحاجة إليه، ويا من لا يخيّب الملحّين عليه، يامن لا يجبَهُ بالردّ أهل الدالّة عليه، ويا من يجتبي صغير ما يتحف به ويشكر يسير ما يُعمل له، ويامن يشكر علىٰ القليل ويجازي بالجليل»[1].

يقرأ هذا الرافد المعين السلسبيل، والعطاء الذي لا يقف عند حدّ حتىٰ ينبلج عمود الفجر، ثم يرفع رأسه: «إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً،

(١) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه ﷺ يوم الفطر، مصباح المتهجّد: ٣٦٩، المزار: ٤٥٧، ٦٤٣، الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ١٨٨، ٢٣٣.

ولا من حياض مناجاتك صدراً»[1]، ثم يقول: «وأولج قلبي فرح الإقبال عليك، وألحقني بميدان المطيعين لك»[2].

فهذا زين العابدين عليه السلام وهو يحمل الروح التي انفصلت من روح محمد صلى الله عليه وآله من سعة ومن إحاطة ومن عطف على المسلمين.

وبقي جانب هو جانب أشباح الطفّ التي ماكانت تغيب عن عين زين العابدين عليه السلام إلىٰ أن لحق بربّه، وكانت تؤثّر فيه أكثر ما تؤثّر في الليل عندما يهدأ الناس ويجلس الإمام ويتصوّر الوقائع التي مرّت علىٰ أُسرته، ومن تلك الصور صور الأطفال المقطّعة والأجساد الموزّعة، والنساء الضائعات وسفر الظليمة والهضيمة، يدخل عليه أبو حمزة فيعجب من حاله فيقول له الإمام: «ولكن والله يا أبا حمزة، ما وقعت عيناي علىٰ أخواتي وعمّاتي إلّا ذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلىٰ خيمة ومن خباء إلىٰ خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

---

(١) مدينة معاجز الأيمّة ٤: ٣٩٣، بحار الأنوار ٨٤: ٢٣١.

(٢) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أوّل الليل وآخره، فتح الأبواب: ٢٤٦.



﴿٨﴾

من فوائد آيات أهل الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾[1]

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: حول أصحاب الكهف

تتناول الآية الشريفة قصّة أهل الكهف، وهم جماعة من طرسوس في عهد الرومان، وهذه المنطقة هي أحد موانئ أفسوس، ودين أهلها الرسمي الوثنيّة، وهؤلاء الفتية السبعة كانوا ابناء لجماعة من أشراف الرومان، وكانوا يعبدون الله عن طريق الفطرة وعن طريق الرواسب من الأديان، وعبادتهم كانت سرّاً فاعتبرت عبادتهم خروجاً عن المألوف، فقرّر الملك أن يستدعيهم، فلمّا حضروا أنّبهم وأعطاهم مهلة للرجوع عن دينهم وإلّا قتلهم. فخرجوا عن طريق لعب الكرة والصولجان، فمرّوا براعٍ فتبعهم وتبعه كلبه إلى الغار، فضرب الله على آذانهم بالنوم. وأرسل الملك أهل الأثر خلفهم، ولكن الله ضرب على أبصارهم. فلما انتبهوا قال أحدهم: كم لبثتم؟ قالوا: يوماً أو بعض يوم.

---

(١) الكهف: ١٩.

وهذه الآية من آيات الأحكام.

المبحث الثاني: الثمرة من نومهم طيلة هذه الفترة

ولنا أن نسأل: ما هي الغاية من نومهم هذه المدّة؟ هنا عدّة غايات نذكر منها مثلاً أننا حينما نقرأ في القرآن آيات تتناول الحشر مثل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١]، فمثل هذه الآيات قال فيها المفسرون أقوالاً كثيرة، ولكن نقف فنسأل: هل لأن هذا الموقف يمتدّ إلىٰ مثل هذه المدّة؟ وهل يبقىٰ هؤلاء في الحشر خمسين ألف سنة؟ ألا يمكن أن يكون في مقدار أقلّ؟ وهل هو عسير على الله؟ فعندنا أبعاد أربعة: الطول والعرض والعمق والزمن الذي عدّ مؤخّراً بُعداً رابعاً، فهل يوم الحساب مقدار مسيرة خمسين ألف سنة كما يقول البعض؟ هذا ليس ببعيد فالكرة الأرضيّة حملت أجيالاً كثيرة كما روي: «لقد خلق الله ألف ألف آدم وألف ألف عالم، وأنتم في آخر تلك العوالم»[٢].

فمن الطبيعي إذن حشر هؤلاء مرّة واحدة كما يقول القرآن: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[٣].

فالقرآن يريد أن يقول: إن الله يسلب منكم الشعور بالوقت كما فعل بأصحاب الكهف.

هذا من جهة نفسيّة، أما من جهة جسديّة فهذه الخليّة كيف يمكن لها أن تعيش هذه المدّة الطويلة؟ وهنا موضع الإبداع فإن الله تعالى يعطي للإنسان مناعة بحيث لا تتلف خلاياه. وهذا ليس صعباً، فقد أثبت العلم قدرته علىٰ حفظ الخلايا عشرات السنين، والله أقدر علىٰ ذلك.

فهنا أراد القرآن أن يقدّم لنا أنموذجاً هو أن الجسم لا يهرم والإنسان لا يشعر

---

(١) المعارج: ٤.
(٢) الخصال: ٦٥٢ / ٥٤.
(٣) الكهف: ٤٧.

بالوقت إذا شاء الله له ذلك؛ ولذلك نحن في عقيدتنا مثلاً أن الخضر حيّ. وهنا حيث إنه عُمّر هذه المدّة الطويلة فلابدّ أن الله تعالى قد جعل خلايا بدنه قابلة للتجدّد والاستمرار، و جعل له نفسيّة تتحمّل آلام الحياة، يقول الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم[1]

وآخر يقول:

إن الثمانين وبُلّغتها قد أحوجت سمعي إلىٰ ترجمانْ[2]

وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، وهنا دليل آخر علىٰ قدرة الله علىٰ إبقاء الإنسان حياً بتجدّد خلاياه.

المبحث الثالث: حول مشروعيّة الوكالة

ثم انتقلت الآية إلى المبحث الفقهي: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾[3]، حيث يستدلّ بها الفقهاء علىٰ تشريع الوكالة، وتوضيح ذلك أن الوكالة عند الفقهاء استنابة بالتصرّف، وتصحّ من الحيّ الصحيح الحاضر العقل، فالوكالة هي كلّ ما يتعلّق غرض الشارع بإيقاعه من المباشر نفسه، فالله يريد من الإنسان أن يؤدّي أشياءه بنفسه أو من يشاء بالوكالة مثل الحجّ، فهو واجب علىٰ الشخص عند الاستطاعة، وفي العدم يمكن الإنابة والتوكيل، وكذلك هو الحال في الذبح في منىٰ.

ونلفت النظر إلىٰ أن هنالك أشياء لا تصحّ فيها الوكالة كأن يوضّئك إنسان للصلاة، فهذا لا يجوز كما في قصة المأمون والإمام الرضا عليه السلام[4] حيث استدلّ عليه السلام له بقوله تعالىٰ: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[5].

---

(١) مجمع البيان ٢: ٢١٩، ديوان زهير: ٢٩، شرح نهج البلاغة ٩: ٤٥.

(٢) البيت لعون بن محلم الشيباني. شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٥، تاريخ مدينة دمشق ٢٩: ٢٢٥، ٤٥: ٤٤٢.

(٣) الكهف: ١٩.

(٤) الإرشاد: ٣١٥، وسائل الشيعة ١: ٤٧٨ / ١٢٦٩.

(٥) الكهف: ١١٠.

والوكالة لا تصحّ في أُمور فيها إعانة على الإثم الغصب، ويستدلّون عليه بقصّة الأعرابي الذي كان الرسول ﷺ مديناً له بسَنّ[1]، فوكّل الرسول ﷺ رجلاً فلم يجد إلّا رباعياً[2]، فخاف ذلك من الربا؛ لأن «كلّ قرض جرّ نفعاً فهو ربا»[3] إذا كان بشرط. لكنه ﷺ أعطاه ذلك، فقال الأعرابي: أوفيتني أوفى الله لك. فقال الرسول: «خياركم أحسنكم قضاءً»[4].

فهذه الآية استدلّ بها الفقهاء على صحّة الوكالة.

المبحث الرابع: تاريخ النقود والتعامل بها

﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾ الورِق هو النقد المتّخذ من الذهب والفضّة، وموضوع النقود مرّت به الإنسانيّة في مسيرة طويلة؛ فمن قبل لم يكن نقد وإنّما مقايظة طُنّ حنطة مثلاً بناقة، فلم يدم ذلك، ثم انتقلوا إلى النقد السلعي فالحيوان يقوم مقام النقد: الناقة عند العرب، والبقرة عند الرومان، وهكذا؛ لذلك كانت المهور من قبلُ بالإبل، والإكرام بها، لكن حدثت مشاكل كمسألة الادّخار مثلاً فإنه لا يمكن أو يصعب مع الحيوان، فتطوّر الأمر إلى الذهب والفضّة. وعند فقهاء المسلمين أن النقد يعتبر وسيلة لا غاية؛ لذلك اختلفوا في الكنز؛ فبعضهم[5] قال: الكنز هو الأموال التي لم تخرج زكاتها ولو كانت على الأرض بدليل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[6]، وقال آخرون: هو المال الذي حتىٰ لو دفعت زكاته ولكن حبس وكنز فإنه يعتبر كنزاً. وفي الآخرة يلقىٰ الذهب والفضّة في النار لتكوىٰ به وجوه

---

(١) وهي عبارة عن الثَّنيّ من النوق، وهي البكر.

(٢) هو البعير الذي دخل في السنة السابعة. (٣) تلخيص الحبير ٩: ٣٧٦.

(٤) مسند أحمد ٢: ٣٩٣، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٢: ٣٩ / ١٣٣، المجموع ١٣: ٥٧، تلخيص الحبير ٩: ٣٧٦.

(٥) انظر: الأُم ٢: ٦٢، الموطأ ١: ٢٥٦، المجموع ٦: ١١، ١٢، ١٣.

(٦) التوبة: ٣٤.

كانزيه؛ لأن بعض الناس يعبدهما ويترك عبادة الله:

املأ ركابي فضّة أو ذهبا   إنّي قتلت السيّد المهذّبا

قتلت خير الناس أمّاً وأبا

ولم يكن القتل فقط بل التشنيع به أيضاً. يقول الإمام الباقر: **«قتل جدّي الحسين قتلة لم يقتل بها أحد»**[1].

يقول نافع بن هلال: رأيت الحسين وشفتاه تتحرّكان، فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا وربِّ الكعبة. ثم دنوت منه لأسمع وإذا به يقول: **«ويحكم لقد تفتّت كبدي من الظمأ اسقوني ولو قليلاً من الماء»**[2].

---

(١) انظر: قواعد الأحكام ١: ٣٦١، تحرير الأحكام ١: ٤٣٥، الجوهر النقي ٤: ١٥٣.

(٢) انظر: المنتخب: ٤٣٩، الدمعة الساكبة: ٣٤١.

﴿٩﴾

الرجل المناسب في المكان المناسب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: عناصر التاريخ وأدواته الفنيّة

الأشخاص والزمان والمكان هي عناصر التاريخ وأدواته الفنيّة التي يعالجها علماء التأريخ، ومحاولة تطبيقها على القرآن قد يكون فيها شيء من التعسّف؛ لوجود الفوارق. وما أرغب في توضيحه هو أن القرآن الكريم غالباً يستهدف من القصص القرآنيّة العبرة التي تفيد البشريّة في مستقبلها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾[2]. هذه العبرة التي هي ذخيرة السلف للخلف. وطبعاً إن العناصر التي يرمي إليها التاريخ هي أدواته التي أشرنا إليها أوّل البحث مجتمعة.

والحقيقة أن الفكر اليهودي لعب دوراً بارزاً عبر إسرائيلياته، فقصّة داود

---

(١) البقرة: ٢٤٧. (٢) يوسف: ١١١.

وطالوت وجالوت وغيرها حينما تمرّ بها في المصادر الإسرائيليّة تجد فيها كثيراً من المتاهات التي لا تعنينا من قريب أو بعيد. لكن من العجب العجاب أن تجد من ذلك الهراء الشيء الكثير في تفاسيرنا التي جاءت عن طريق مقاتل بن سليمان، ووهب بن منبّه، وكعب الأحبار، هؤلاء اليهود الذين أسلموا وأراد الصحابة من الصدر الأول إبعادهم فلم يستطيعوا؛ لأن العامّة كما يقول علماء الاجتماع: تستهويها الخرافات. فالخليفة الأول أرسل إلىٰ كعب الأحبار من يضربه، والإمام علي﵇ طرده؛ لأن خرافاتهم تفعل فعلها وتؤثّر في الناس إلىٰ الآن، ولذلك تجد في (تفسير الطبري) بعض الإسرائيليات.

المبحث الثاني: قصة طالوت وجالوت

فالآية تنقل لنا أن نبيّاً اسمه صومئيل في أيام داود﵇ قالو له: أن تتولّىٰ تبليغنا فلا إشكال، ولكن قضايا الحرب نريد لها قائداً خاصّاً يصلح لها. فأطرق النبي﵇، وأُوحي له أن ينصّب طالوت، فكان هذا الحوار الذي نقلته الآية، وهذا ملخصه. والعبرة منها كما يصطلح عليه الآن (وضع الرجل المناسب في المكان المناسب)، أي ترك الأُمور لأهلها من أصحاب التخصّص والفن؛ فالتأريخ له أهله، والفقه له أهله، والطب له أهله إلىٰ آخره.

ولو سارت الإنسانيّة علىٰ هذا النهج لكان خيراً لها، ولكن المشكلة هي قيام المسألة على الأهواء وتصرّف البعض في غير تخصّصه، وأصبح الحال الآن عبارة عن إنسان يعلم ولا يتكلّم، وآخر يتكلّم بدون علم. ولنوضّح ذلك بمثال فنقول: العلم ينقسم إلىٰ قسمين: نظري وآخر مهارات يكتسبها الإنسان بالتجربة والتطبيق، فإذا اجتمعا بلغ الإنسان الذروة في الكمال. فالإمام علي﵇ نزل إلى الحرب عندما أعلن النبي ﷺ كلمة «لا إله إلّا الله»، فكان مع النبي ﷺ في دعوته؛ في سلمه وحربه، وكان عمره عشر سنوات إلىٰ أن لحق بربّه. وعمره ثلاثة وستون

عاماً، خمسون عاماً منها كلّها تجارب في الحرب قضاها بما فيها من نبل وأخلاق، مع أن بعضهم يتصوّر أن نبل الإمام ضعف أو عدم استيعاب لفنون الحرب، فهناك معارك لم يتبع فيها أعداءه ويقطع دابرهم، حتىٰ إن الإمام يذكر ذلك ويسفر به: «حتىٰ لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له في الحرب، لله أبوهم، وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي؟ لقد نهضت إليها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين»[1].

فنظريّاته المنبثة في (نهج البلاغة) عن الحرب نتاج وحصيلة خبرة خمسين سنة.

وبالجملة فإن الرجل المناسب يفرض نفسه في موقعه، أما إذا كانت مسألة هوىٰ فإنّا لله، ومن ذلك أن معزّ الدولة أبا الحسين كان له غلام تركي صبي اسمه «تكين الجامدار»، وكان يهواه، فأخذه وجعله قائداً للجيش وأعطاه منطقة، فقال أحد البغداديين:

ظبي يرقّ الماء في	وجناته ويرقّ عودُهْ
ويكاد في شبه الأنو	ثة فيه أن تبدو نهودُهْ
ناطوا بمعقد خصره	سيفاً ومنطقة تؤودُهْ
جعلوه قائد عسكر	ضاع الرعيل ومن يقودُهْ[2]

فإذا قاد الهوىٰ وغلب ضاعت الحقائق والقيم ووضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب. فهؤلاء يقولون لنبيّهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ فيقول لهم النبيﷺ: إنكم تقحمون أشياء

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٢٧.

(٢) الأبيات للوزير المهلّبي. قرىٰ الضيف (عبد الله بن محمد) ٢: ٢٦٧.

ليست لها علاقة بالحرب مثل (فقير)، و(نسبه غير عالٍ)، فلا علاقة لهـذا بـفنون الحرب والعبقريّة، بل إن أكثر العباقرة كانوا فقراء فكان أن أجابهم: ﴿إِنَّ اللّـهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ إلىٰ آخره.

المبحث الثالث: أن الله إنما يقدّم ويؤخّر لحكمة ومصلحة

فقوله: ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، لنا أن نسأل: هل إن الله يقدّم كما نفعل؛ نقدّم لأجل حبّ ومؤخّر لأجل كره؟ بالطبع أن الجواب لا؛ لأن الله يـعامل الأُمـور مـعاملة واقعيّة وموضوعيّة، ولا يمكن أن يخترق المقاييس التي وضعها لنا وأمرنا أن نتعبّد بها. وهذه المسألة من المسائل التي اختلفت فيها المذاهب، وهي جـواز مـعاقبة المطيع على الله وإعطاء الجنة للعاصي. وهذه من الأخطاء التي ما زالت العصبيّة متمسّكة بها: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾[1]، وكان الرسول قد آذاه مثل هذا من هؤلاء، فقال: «لَمَا يدحرجه الجُعل برجليه أفضل من بعض آبائكم».

فعلى الشخص أن يعرف الرجال بالحقّ لا أن يعرف الحقّ بالرجال، فالحقّ هو المقياس وهو القائد، لا ما يفعله الآباء. فليس معنىً للإصرار علىٰ فعلهم، بـل إن الاعتراف بالذنب فضيلة.

فـ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قدّمه، فالاصطفاء هنا موضوعي؛ فهو تعالى إنما قدّمه لأنه يحمل المؤهّلات والشروط، لا لأنه يحبّه. وكذلك تقديم الأنبياء، وإلّا كـان اختياره ترجيحاً بلا مرجّح. وهذا ممّا يستدلّ به الإماميّة علىٰ أن الحكم بالجعل لا بالشورىٰ ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾.

المبحث الرابع: في فضل العلم على القوّة

فقد قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، والسؤال: لماذا العـلم ثـم

---

(١) الزخرف: ٢٢، ٢٣.

الجسم؟ مع العلم أننا نحتاج إلى الجسم حيث المعركة؟

الجواب: أن عندنا ثلاثة أنواع من الفضائل، هي:

الأولى: الفضائل الخارجيّة

وهي عبارة عن عدّة موارد، ومنها الثروة التي يُتقرّب بها إلى الله، فهي وسيلة من وسائل الكمال، ولكنها لا تدوم فلا يستطيع أن يتصرّف بها متىٰ شاء، فقد تزول الأموال في لحظات. فالملكيّة علاقة بين الشيء وبين الإنسان، تنفصم بمجرّد زوالها أو بالموت، فليس عاقلاً من يقول بدوام المال له. وممّا يروىٰ بهذا الصدد أن أحد الملوك بنىٰ له داراً فجاء مع أحد الوزراء ليمتّعا نظريهما، فسأله الملك: ما تقول فيها؟ فقال له: الناس بنوا بيوتهم في الدنيا، وأنت وضعت الدنيا في بيتك. فقال: هل به عيب؟ قال: نعم، قد تخرج ولا تستطيع الدخول، وقد تدخل ولا تخرج. يقول الشاعر:

قد مررنا على الديار خشوعاً ... ونظرنا البنا فأين الباني[1]

ويقول أبو الطيّب المتنبّي:

أين الذي الهرمانِ من بنيانه ... ما يومُه ما قومُه ما المصرعُ

تتخلّف الآثار عن أصحابها ... حيناً فيدركها البلاء فتصرعُ[2]

الثانية: الفضائل الجسميّة

وهي البنية القويّة أو القوى الجسديّة التي يجب علينا أن نستغلّها في عبادة الله عزّ وجلّ، يروىٰ أن الإمام علياً ﷺ كان إذا وضع يده في صدر الفرس وهو مسرع

---

(١) البيت لأبي نؤاس. شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦٣.

(٢) الكنىٰ والألقاب ٣: ١٤١.

في عدوه فإنه يرجعه، وكان ﷺ يستغلّ هذه الطاقة في العبادة. والإنسان إذا استغلّ ذلك في العبادة فإنه يحيي الأرض، لكنه ينسى أنه سرعان ما يفقد هذه القوىٰ، فليحرص على استغلالها في طاعة الله [1]، فما إن يتقدّم به العمر حتى يغيم وجهه وينحني ظهره إلىٰ آخره، وإذا بذلك الخدّ يوسّد التراب. يقول إيليا أبو ماضي:

ولقد قلت لنفسي ... وأنا بين الضرائح
هل رأيت الأنس والرا ... حة إلّا في المقابر
فأشارت وإذا بالـ ... دود عبث بالمحاجر

فهذه أيضاً تذهب إلىٰ التراب ولا يبقىٰ منها شيء للإنسان.

الثالثة: فضيلة العلم

وهو فضيلة ذاتيّة لا يأكلها التراب ولا تضيع ولا تموت، وتبقى السمة الخالدة التي تعيش في الدنيا:

أخو العلم حيّ خالد بعد موته ... وأعضاؤه تحت التراب رميمُ
وذو الجهل ميت وهو ماشٍ على الثرىٰ ... يُظنّ من الأحياء وهو عديمُ [2]

فهو من الأشياء الذاتيّة التي لا يعتريها تلاشٍ ولا فناء؛ لأنه من جنس المجرّدات التي لا يعتريها الفناء، ورافد تشرب منه الإنسانيّة طيلة وجودها.

---

(١) وهو ما أكّد عليه النبي ﷺ بقوله: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». انظر: الأمالي (الطوسي): ٥٢٦، مكارم الأخلاق: ٤٥٩، الدعوات: ١١٣، جامع الخلاف والوفاق: ٢٣٣، وسائل الشيعة ١: ١١٤، مشكاة الأنوار: ٢٩٨، محاسبة النفس: ٨٧، بحار الأنوار ٧٥: ٧٤، ٧٨: ١٧٣، فتح الباري ١١: ٢٠١، المصنف ٨: ١٢٧، الجامع الصغير ١: ١٨٣، كنز العمّال ١٥: ٨٧٩.

(٢) البيت لابن السيد البطليوسي. البداية والنهاية ١٢: ٢٤٥، سير أعلام النبلاء ١٩: ٥٣٣.

فقدّم العلم لأنه باقٍ وأُخّر الجسم لأنه فانٍ. هذا من ناحية، ولأن المعارك التي يحرّكها العلم غير المعارك التي يحرّكها الجهل؛ فأولاً القوّة الفكريّة ثم الجسميّة[1].

ثم إنّ البسطة في الجسم كناية عن الشجاعة لا الطول والعرض فقط؛ ولذلك قدّم علي عليه السلام علىٰ غيره لما يملك من هذه المؤهّلات كالاصطفاء: «من كنت مولاه»[2]، «أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ»[3]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ﴾[4] إلىٰ غير ذلك، والعلم، فقد توّجهُ الرسول صلى الله عليه وآله بحديث: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[5]، والقرآن بقوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[6]، فقد أرسل له الرسول صلى الله عليه وآله وقال له: «أمرني الله أن أُدنيك وأُعلّمك، فأنت الأُذن الواعية لعلمي»[7]. يقول القزويني:

أبــا حســن أنت عــين الإله	عــلى الخــلق والأُذن الواعــية
تــراهــم وتســمع نــجواهُمُ	فــهل عــنك تــعزب مــن خــافية

وإذا هو يترجم ذلك فيقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألونني عن

---

(١) يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أولٌ وهي المحلّ الثاني

انظر شرح نهج البلاغة ٢٠: ٤٣.

(٢) مسند أحمد ١: ٨٤ وغيرها، ٤: ٢٨١ وغيرها، ٥: ٣٤٧ وغيرها، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٧، سنن ابن ماجة ١: ٤٥، وغيرها كثير.

(٣) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣، ١٤، بعدة طرق، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، ١٢١ بعدة طرق، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤.

(٤) آل عمران: ٦١، وانظر: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٢٩٣ ـ ٢٩٤ / ٤٠٨٧، فتح الباري ٧: ٦٠، معرفة علوم الحديث (الحاكم): ٥٠.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٢٧، مسند أبي يعلي ٢: ٥٨ / ٦٦٩، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٦) الحاقة: ١٢.

(٧) أنساب الأشراف (حياة أمير المؤمنين عليه السلام): ١٢١.

فتنة يضل فيها مئة ويهتدي فيها مئة إلّا أخبرتكم بسائقها وناعقها، ومن يموت موتاً ومن يقتل قتلاً»[١].

ويذكر ابن أبي الحديد فصلاً في انتماء العلوم إلىٰ علي﵇[٢]، والجسم يشهد له تأريخ الحروب: اثنتان وثمانون غزوة، وهو صغير يرتجز:

«قد عرف الحرب العوان أنّي	بازل عامين حديث السنّ[٣]
سنحنح الليل كأنّي جنّي	أستقبل الحرب بكلّ فنّ
معي سلاحي ومعي مجنّي	وصارم يُذهب كلّ ضغنِ
أمضي به كلّ عدوّ عنّي	لمثل هذا ولدتني أُمّي

ما ترقب الحرب العوان منّي»[٤]

وقد وُجد يوم أُحد أربع وستون طعنة في جسده، يقول لفاطمة﵍:

«أفاطم هاك السيف غير ذميمِ	فلست برعديد ولا بمليمِ
لعمري لقد جاهدت في نصر أحمدٍ	وطاعة ربّ بالعباد رحيمِ»[٥]

فالإنسانيّة تخسر عندما يؤخَّر علي﵇ عن مقامه، وليت الأمر وقف عند حدّ تأخيره، فقد كان لهم مندوحة عن شتمه وفي الوقوف علىٰ بابه.

---

(١) خصائص الأئمّة: ٦٢. (٢) شرح نهج البلاغة ١: ١٧ ـ ٢٩.

(٣) البازل: الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يريد﵇ أنه عرك الحروب وهو صغير السن. أو هو من «بزل السنّ» إذا طلع.

(٤) الكافي ٨: ١١٢ / ٩١، ونقل بعضها كلٌّ من محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين﵇ ٢: ٥٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٦١، المناقب (الخوارزمي): ١٥٨.

(٥) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

﴿ ١٠ ﴾

القضاء والقدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

الآية الكريمة تخاطب العقل والعقلاء، وتطالبهم بأن يكون لهم نظر فيما وراء الظاهر، واستكناه لما وراء السطور، وهو ما نعبر عنه بالحكمة أو الفلسفة فيما وراء الظاهر. وعند استعراض ملذّات الحياة ونعمها نجد أن أبرزها وأقربها إلى قلب الإنسان المال والبنون، مع أن القرآن يصرّح بأنهما يشكلان مظهراً، وأن ما وراءهما من حقائق أكبر وأهم. وكمقدمة نقول: إن البعض ما إن يرزق الأموال والذريّة حتى يدخل في خلده أن الله تعالى يحبّه ويفضّله، وأن الذي منحه إياه إنما هو جزاء عمل قام به. والحقيقة أن الأمر ربما كان عكس ذلك. ولكي يتّضح الأمر أكثر علينا أن نستعرض فصول الآية، فهي تقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ وهنا أمران أودّ أن أشير إليهما، وهما يشكلان المبحث الأول والثاني من موضوعنا:

---

(١) المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

المبحث الأوّل: الجبر والتفويض

أوّل ما يلفت النظر في هذا المقطع من الآية الكريمة أن الإنسان قد يسخّر أمواله وأولاده في غير طاعة الله، وهي تقول: ﴿نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ أي أن المال والبنين من عند الله، فإن كانا من عند الله، واستعملا في غير طاعة الله، فعلىٰ من يقع اللوم في هذه العمليّة التبادليّة؟ هل يقع على القضاء والقدر، أم على الإنسان؟

ونحن حينما نقول: القضاء والقدر، فإنما نعني أن الله قد وهب الإنسان ذلك، فهل يمكن أن نقول: إن اللوم يقع علىٰ عاتقه تعالىٰ كونه المسبب له أن يقع في الحرام بما أنه وقع فيه، وهو هبة من الله، أم يمكن أن نقول: إن اللوم يقع علىٰ عاتق الإنسان؛ لأنه استعمل هبة الله في غير ما أمر الله؟ وأوّل شيء يجب أن نتنبه إليه ـ ولعله الأهمّ في الموضوع ـ هو أن الله جلّ وعلا حينما يمدّ العبد بالمال والبنين، فليس معناه أن يكون عرضة للوم؛ لأنه إنما يعطينا الطاقة والقوّة اللتين يستعملهما الإنسان في اختيار الحسَن من السيّئ من الأُمور دون إلجاء للإنسان إلىٰ اختيار الأسوأ.

والإنسان بوسعه أن يقتني بما وهبه الله من مال أشياء مشروعة ومحلّلاً شراؤها كالطعام والسلاح للدفاع عن النفس، وبوسعه أن يشتري أشياءَ محرّمة أيضاً كالخمر والسلاح للاعتداء على الآخرين. وفي هاتين الحالتين كلتيهما يبقىٰ اختيار الفرد هو العامل الوحيد نوعاً ما، الذي يلعب دوره في هذه العمليّة. وبعبارة أُخرىٰ إن العيب لم يأتِ من الأُموال عينها، ولا من واهبها، بل من توجيه الأموال والتصرّف فيها.

وكذلك الأبناء يوجّههم آباؤهم إلىٰ سلوك طريق الفضيلة أو الرذيلة، ويبقى العيب في توجيه الأبناء لا في الأبناء أو مَن وهبهم. فالعيب إذن وليد سوء الاختيار عند الموهوب له، لا من الواهب ولا من الموهوب.

أنواع المدارس الجبريّة

أما القائلون بأن ذلك من الواهب نفسه، فهؤلاء هم أتباع المدرسة الجبريّة. وبالمناسبة هناك العديد من المدارس الجبريّة في الحياة، فهناك مدرسة الجبر الفسلجيّة، والاجتماعيّة، والجسديّة، والنفسيّة، والدينيّة. والذي يهمنا هنا هو مدرسة الجبر الدينيّة، أمّا باقي المدارس فسأعرض لها في الأيام القادمة إن شاء الله. وليعلم أن هناك شريحة من المسلمين ترىٰ أن الإنسان مجبور في أفعاله ومسيّر، وليس مخيراً. وهذا في واقع الأمر لا يصمد أمام النقد؛ لأن الله بعدله يجلّ عن معاقبة فرد علىٰ فعلٍ ما، كان قد أجبره على القيام به. وهذه النظريّة ليست بهذه السهولة كما ربّما يتصوّرها البعض، بل هي نظريّة معقّدة، وكلّ ما أردت طرحه هنا هو النتيجة التي خرجت بها هذه النظريّة.

المبحث الثاني: هل من أثر لسعي الإنسان؟

أن هنا سؤالاً يطرح نفسه إلى الأذهان، وهو أن سعي الإنسان هل هو ملغيّ، أم لا؟ أي هل له قيمة أو أثر، أم لا؟ ولنوضّح السؤال بمثال، الفلاح حينما يخرج إلىٰ أرضه ليحتفرها ويزرعها، وبعد أن تنبت يسقيها ثمّ ينتظر ثمرها ويقوم بحصاده، فهل لكلّ هذا العمل الذي قام به الإنسان قيمة ولهذا الإنسان أثر، أم ليس له ذلك؟ البعض يرىٰ أن الأثر كلّه لله تعالىٰ، والسبب الطبيعي لا أثر له أصلاً هنا، وهذا الرأي يمثّل مدرسة عليها أغلب المذاهب الإسلاميّة. لكن نقول: صحيح أن الله تعالىٰ هو خالق الأثر، لكن ليس كما توهّموه، بل إن الله جعل الأثر مرتبطاً بالسبب الطبيعيّ حتىٰ يدير شؤون الحياة. فالله جلّ وعلا دون شكّ هو الذي هيّأ التربة والماء، ووفّر هذه الجنود الهائلة الموجودة في التربة من موجودات حيّة وغير حيّة كي تخدم النبات حتىٰ يثمر. لكن ليس معنىٰ ذلك أن الفلّاح لا قيمة لتعبه ومجهوده من حيث وضْع البذر وسقْيه بالماء ورعايته وحمايته من الآفات بالمبيدات واستصلاح

الأراضي كي تكون مناسبة للزراعة، هذا غير مقبول طبعاً. فلكلّ هذه الأشياء أثر بما أنها أسباب طبيعيّة وضع الله فيها القابليّة، ولو كان ذلك كذلك لما توجهنا باللوم على من يجلس واضعاً يده على الأخرى ينتظر أن يرزقه الله، وكأنما لسان حاله:

جرى قلم القضاء بما يكونُ فسيّان التحرّك والسكونُ
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنينُ[1]

وهذا النمط موجود فعلاً، فهو ينتظر من السماء أن تمدّه بالعطاء، وتدفع عنه العدوّ، وتطوّر حياته، و... و...، مع أن كلّ واحد منّا لا يرتضي لهذا تفكيره هذا؛ ذلك أن الله تعالى فسح للإنسان طاقات ذهنيّة وجسديّة وأمره باستثمارها، وأعطاه طاقات أُخرى في الأرض وفي الجوّ وفي الكواكب، وأمره بالاستفادة منها، ووعده بالمساعدة وتذليل الصعاب. وما هو خلاف هذا ناشئ عن عدم فهم بنواميس الله عزّ وجلّ في الكون.

وهذان الإشكالان المارّان يردان كلاهما على هذا المقطع من الآية، وكلاهما خطأ؛ لأن الله جلّ وعلا وكل إلينا أمر أفعالنا خيراً أو شرّاً، وكذلك أمرنا بأن نشغل طاقاتنا المودعة فينا في كلّ خير رسمه الله كتربية الأبناء وبناء المؤسّسات التي ترقى بنا بين الأمم، وما إلى ذلك. فعملنا له أثر، وسعينا له أثر أيضاً: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[2].

المبحث الثالث: وجه تسمية المال والبنين بالخيرات

﴿**نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾[3] عبّر القرآن الكريم عن المال والبنين بأنهما ﴿**الْخَيْرَاتِ**﴾، والخيرات هي المنافع العظيمة: فالمال والبنون منافع عظيمة بتعبير القرآن. لكن المال والولد قد يكونان نعمة وقد يكونان نقمة، فالمال إن استعملناه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٣، ذيل تاريخ بغداد (ابن النجّار) ٣: ٢٢٦.
(٢) التوبة: ١٠٥.
(٣) المؤمنون: ٥٦.

فيما حرّم الله ونهىٰ كان نقمة، وإن استعملناه فيما حلّل الله وأمر كان نعمة، والولد إن وجهناه نحو الفضيلة كان نعمة، وإن وجّهناه نحو الرذيلة كان نقمة، فمن أدعيتهم عليهم السلام: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من مال يكون عليّ فتنة، ومن ولد يكون عليّ كلّاً»، ومثال الولد الكلّ الذي يقضي ليله ساهراً في معصية الله، ثم يعود قبيل الفجر يترنّح من سكره، ثم لا يسأله أبوه عمّا فعل وأين كان. وقد يقول أحدنا: إنني لا أُحاسبه؛ لأنه لا يعتدّ بقولي ولا يسمع كلامي، فما فائدة الكلام معه؟ فنقول له: الواجب عليك أن تحاول بقدر طاقتك فـ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا﴾[1]، وهذا لا يبرّر عدم تدخّلك، فلا أقلّ من أن تراقبه وترىٰ طريقه هل هو طريق خير أم طريق شر، وأنت مسؤول عنه يوم القيامة. فهذا هو الكلّ الذي لا يعمل ولا يعين أباه علىٰ أُمور الحياة، بل يقضي نهاره في النوم أو اللعب وليله في السهر.

ثم يتابع الإمام عليه السلام دعاءه بقوله: «ومن حليلة تقرّب إليّ الشيب، ومن جار سوء تراني عيناه وترعاني أُذناه؛ إن رأىٰ شرّاً طار به، وإن رأىٰ خيراً كتمه»[2]. فالتي لا تتّصف بمعايير الزوجة الصالحة تحرق خلايا جسد زوجها؛ فيسارع إليه مشيبه.

أنموذجان من الأبناء

وبعد هذه المقدّمة أضرب لك أُنموذجين من الأولاد، وكلاهما من البيت الهاشمي؛ حتىٰ نعرف كيف يكون الولد فتنة وكلّاً وعاراً وكيف يكون نعمة:

المتوكل وأحد أبناء محمد بن الحنفية رضي الله عنه

الحادثة الأُولىٰ: في كتاب (الاستدراك) عن ابن قولويه بإسناده إلى محمد بن

---

(١) البقرة: ٢٨٦، وقال تعالىٰ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلا مَا آتَاهَا﴾، الطلاق: ٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٧: ٨، ونسبه للرسول صلى الله عليه وآله في المعجم الأوسط ٦: ١٩٩، وفيه: وبالاً.

العلا السرّاج قال: أخبرني البختري قال: كنت بمنبج[1] بحضرة المتوكّل إذ دخل عليه رجل من أولاد محمد بن الحنفيّة حلو العينين، حسن الثياب، فوقف بين يديه والمتوكّل مقبل على الفتح يحدثه، فلما طال وقوف الفتى بين يديه وهو لا ينظر إليه قال له: يا أمير المؤمنين، إن كنت أحضرتني لتأديبي فقد أسأت الأدب، وإن كنت قد أحضرتني ليعرف من بحضرتك من أوباش الناس استهانتك بأهلي فقد عرفوا. فقال له المتوكّل: والله يا حنفي، لولا ما يثنيني عليك من أوصال الرحم ويعطفني عليك من مواقع الحلم لانتزعت لسانك بيدي، ولفرّقت بين رأسك وجسدك ولو كان بمكانك محمد أبوك. قال: ثم التفت إلى الفتح فقال: أما ترى ما نلقاه من آل أبي طالب؟ إما حسني يجذب إلى نفسه تاج عزّ نقله الله إلينا قبله، أو حسيني يسعى في نقض ما أنزل الله إلينا قبله، أو حنفي يدلّ بجهله أسيافنا على سفك دمه. فقال له الفتى: وأي حلم تركته لك؛ الخمور وإدمانها، أم العيدان وفتيانها؟ ومتى عطفك الرحم على أهلي وقد ابتززتهم فدكاً إرثهم من رسول الله ﷺ، فورثها أبو حرملة؟ وأما ذكرك محمداً أبي فقد طفقت تضع عن عزّ رفعه الله ورسوله، وتطاول شرفاً تقصر عنه ولا تطوله، فأنت كما قال الشاعر:

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ثم ها أنت تشكو إليّ علجك هذا ما تلقاه من الحسني والحسيني والحنفي، فلبئس المولى ولبئس العشير. ثم مدّ رجليه ثم قال: هاتان رجلاي لقيدك، وهذه عنقي لسيفك، فبؤ بإثمي وتحمّل ظلمي، فليس هذا أول مكروه أوقعته أنت وسلفك بهم، يقول الله تعالى: ﴿قُل لا أَسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾، فوالله ما أجبت رسول الله ﷺ عن مسألته، ولقد عطفت بالمودّة على غير قرابته، فعمّا قليل ترد

---

(١) منبج ـ كمجلس ـ : اسم موضع من أعمال الشام. معجم ما استعجم ٤: ١٢٦٥.

الحوض، فيذودك أبي ويمنعك جدّي، صلوات الله عليهما.

قال: فبكى المتوكّل ثم قام فدخل إلى قصر جواريه، فلما كان من الغد أحضره وأحسن جائزته وخلّى سبيله[1].

فتأمّل هذا الموقف، وهذا النوع من الأبناء نعمة، لأنه ذو فكر يقظ حيّ، له قدرة علىٰ أداء دوره في مثل هذه المواقف، ورجولة لا تعرف الخوف. فهذه سمات بني هاشم، وإن كان فيهم من هو علىٰ غير هذه الشاكلة فإنما جاءهم من طريق آخر، من الوراثة من أخوال أو غيرهم كما سنرىٰ في النموذج التالي.

قصّة محمد بن إسماعيل بن جعفر عليه السلام والرشيد

الحادثة الثانية: عن محمد بن قولويه القمي قال: حدثني بعض المشايخ ـ ولم يذكر اسمه ـ عن علي بن جعفر بن محمد قال: جاءني محمد بن إسماعيل بن جعفر يسألني أن أسأل أبا الحسن موسى عليه السلام أن يأذن له في الخروج إلى العراق، وأن يرضى عنه ويوصيه بوصيّة. قال فتجنّب حتى دخل المتوضّأ، وخرج وهو وقت كان يتهيّأ لي أن أخلو به وأُكلّمه، فلمّا خرج قلت له: إن ابن أخيك محمد بن إسماعيل يسألك أن تأذن له في الخروج إلى العراق، وأن توصيه، فأذن له عليه السلام، فلما رجع إلى مجلسه قام محمد بن إسماعيل وقال: يا عمّ أُحب أن توصيني. فقال عليه السلام: «أُوصيك أن تتّقي الله في دمي». فقال: لعن الله من يسعى في دمك. ثم قال: يا عم أوصني. فقال: «أُوصيك أن تتّقي الله في دمي».

قال: ثم ناوله أبو الحسن عليه السلام صرة فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها محمد، ثم ناوله أُخرى فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها، ثم أعطاه صرة أُخرى فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها، ثم أمر له بألف وخمسمئة درهم كانت عنده، فقلت له في

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٢١٣ ـ ٢١٤ / ٢٦، تذكرة الخواصّ: ٢٠٣.

ذلك وقد استكثرته، فقال: «هذا ليكون أوكد لحجّتي إذا قطعني ووصلته».

قال: فخرج إلى العراق فلمّا وردها أتى باب هارون بثياب طريقه قبل أن ينزل، واستأذن عليه وقال للحاجب: قل لأمير المؤمنين: إن محمد بن إسماعيل بن جعفر ابن محمد بالباب. فقال الحاجب: انزل أولاً وغيّر ثياب طريقك وعد لأُدخلك إليه بغير إذن؛ فقد نام أمير المؤمنين في هذا الوقت. فقال: أُعلم أمير المؤمنين أنـي حضرت ولم تأذن لي. فدخل الحاجب وأعلم هارون قول محمد بن إسماعيل، فأمر بإدخاله. فدخل وقال: يا أمير المؤمنين خليفتان في الأرض: موسى بن جعفر بالمدينة يجبى له الخراج، وأنت بالعراق يجبى لك الخراج؟ فقال: والله؟ فقال: والله.

قال: فأمر له بمئة ألف درهم، فلما قبضها وحمل إلى منزله أخذته الذبحة في جوف ليلته، فمات وحوّل من الغد المال الذي حمل إليه[1].

انظر كم هو الفرق بين الموقفين، مع أن كليهما من الأُسرة نفسها، وكليهما وقفا أمام سفّاك؛ فالمتوكّل كان مولعاً بالدم، وكذلك المنصور حتىٰ إنه كان له وزير يقال له أبو سلمة، فكان إذا خرج من المنصور يرىٰ وجهه مصفرّاً، فيقال له: لم هذا والمنصور يحترمك ويجلك؟ فقال لهم: إنما مثلي ومثلكم مثل الديك والصقر حيث قال الصقر له: ما أقلّ وفاءك لأهلك يعطونك الأكل والشرب ويدخلونك في بيوتهم وأنت تهرب منهم من سطح إلىٰ سطح، وأنا يشدون عينيّ ويتركونني لأصيد لهم ثم أُعطيهم الصيد دون أن آكل منه وأبقىٰ جوعان؛ فهناك فرق كبير بيني وبينك.

فقال له الديك: ذهبت عنك الحجّة. قال: كيف. قال: هل دخلت يوماً ورأيت عشرين صقراً تشوىٰ على النار في سيخ؟ قال: لا لم أرَ. قال: أنا أرىٰ ذلك دائماً،

---

(١) رجال الكشّي ٢: ٥٤٠ ـ ٥٤١، بحار الأنوار ٨٤: ٢٣٩.

فأنا إنما أهرب منهم خوفاً من الشيّ.

ثم قال الوزير: فأنا أخرج كلّ يوم من المنصور مخلّفاً ورائي مجزرة في بيته. ومع ذلك افترق الموقفان.

المبحث الرابع: كيف نُحسن تربية أبنائنا؟

ولنقف عند نقطة مهمّة، وهي: كيف نحسن تربية أبنائنا؟ فنقول: هذا يختلف باختلاف الموقف؛ فالأب قد يكون بريئاً طيباً لكن تصرّفه غير سليم كمن تزوّج من اثنتين وله منهما أولاد، وهو لا يستطيع أن يحسن التصرّف معهم، مع أنه ينبغي عليه ألّا يفرّق بينهم بالمعاملة والعطاء اللذين ينبغي أن يكونا على أساس العدل لا تابعين لمعاملة الزوجة مع التسليم بأن الزوج لا يستطيع أن يعدل في المودّة بين زوجاته: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1] أي بالمودّة لا النفقة؛ لأن إحداهما قد تكون أجمل أو أرقّ أو أكثر مرونة من الأُخريات. فمن يودّ إحدىٰ زوجاته أكثر من غيرها عليه ألّا يودّ أبناءها أكثر من أبناء الأُخريات؛ فهذا يمكن أن ينعكس سلباً عليهم وقد لا يأخذون بتوجيهاته، وبالتالي من الممكن أن يشذّوا عن الطريق. فالأبناء أمانة في أعناق الآباء لا يجوز التفريط بها، فالتفريق في المعاملة يؤدي إلى التباغض بينهم والعداوة، وإلىٰ خلق شريحة مجرمة في المجتمع. وسأنقل هنا حادثتين لهما أمسّ علاقة فيما نحن فيه:

التفريق بين الأبناء في العطاء جور

الحادثة الأُولىٰ: أن النعمان بن بشير قال: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبيﷺ، فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبيﷺ، فقال: إن أُمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا،

---

(١) النساء: ١٢٩.

قال ﷺ: «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: «لا تشهدني على جور». وفي رواية: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فكلّهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فلا أشهد على جور»[1].

فالميزات التي تعطىٰ لأحدهم والموجبة لتفضيله عليهم تجعل من الباقين ـ إن لم يكن لهم دين أو تصرّف واعٍ ـ سلبيّين داخل الأسرة علىٰ أقلّ تقدير، فلا يساهمون في بنائها وخدمتها، وقد تحدث مجزرة داخل البيت وهو ما يمكن تلافيه لو عدلنا بينهم.

محمد بن الحنفيّة الذراع الأيمن لأبيه﵇

الحادثة الثانية: كان محمد بن الحنفيّة﵁ موصوفاً بالشجاعة والبطولة والبسالة، وكان ينزل المعركة أمام أبيه وأخويه، وفي يوم الجمل دفع أمير المؤمنين﵇ رايته إليه وقد استوت الصفوف، وقال له: «احمل». فتوقّف قليلاً وتلكّأ في حمل اللواء، يقول: فأحسست بأنفاس أبي من ورائي وهو يقول لي: «احمل». فقلت: يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر؟ فدفع في صدري وقال: «أدركك عرق من أمك؟». ثم أخذ الراية فهزها، ثم قال:

«اطعن بها طعن أبيك تحمدِ ... لا خير في الحرب إذا لم توقدِ
بالمشرفي والقنا المسدّدِ»

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة[2].

وقيل لمحمد: لم يغرّر بك أبوك في الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين﵉؟

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

فقال: إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه[١].

وكان أميرالمؤمنين ﷺ كلّما أراد الحسنان أن ينزلا إلى المعركة يقول: «املكوا عني هذين الغلامين لئلّا ينقطع بهما نسل رسول الله»[٢]؛ إذ أن الإمامة تمرّ عبرهما.

وهكذا ينبغي أن تكون المعاملة بين الأبناء، فإن تفاوتت فلما فضّل الله، وبما اختار واصطفىٰ. وخلاف ذلك يكون إغراءً بالمعصية؛ لأنك حينئذٍ تحمله علىٰ معصيتك ومعصية الله بسوء معاملتك له: «رحم الله والداً أعان ولده على البرّ»[٣]. وبهذا يكون الولد نعمة أو نقمة.

المبحث الخامس: وجه استعمال المسارعة هنا

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ﴾، لماذا مفردة ﴿نُسَارِعُ﴾؟ لأن الإنسان كلّما دعا ربّه قدّم لفظ الاستعجال فيقول: اللهمّ عجّل لي رزقي في المال أو الولد، وهو لا يعرف أين تكمن المصلحة، والواجب عليه أن يقول: اللهمّ اختر لي، اللهم ما فيه لي مصلحة فأعطنيه. وفي الرواية عن رسول الله ﷺ عن الله جلّ وعلا: «يحزن عبدي المؤمن إن قتّرت عليه وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن إن وسّعت عليه وذلك أبعد له عني»[٤]. أي أن التقتير هو سبب القرب إلى الله وبسط الدنيا سبب البعد عنه. فمتىٰ ما بُسط له ابتعد عن الله وترك الصلاة والعبادة وخلا منه المسجد، وعمرت به مجالس اللهو والشرب، تلك المجالس التي يبغضها الله أشد البغض[٥]. وهذا من

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) عمدة الطالب (ابن عنبة): ٦٦، شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٤، ٢: ٥٦٢، ١١: ٢٥، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦٢ / ٤٦٧.

(٣) الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

(٤) الكافي ٣: ١٤١ / ٥، وسائل الشيعة ٢١: ٥٢٣ / ٢٧٧٨٤، بحار الأنوار ٦٩: ٦١ / ٥.

(٥) مثل قصة ثعلبة كما في مستدرك وسائل الشيعة ٣١: ٢٥٦ / ١٥٢٨٩ عن الشيخ أبي الفتوح الرازي في تفسيره عن أبي أُمامة الباهلي أنه قال: إن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى

الأسباب التي تدعو إلى القول بأن الإنسان لا ينبغي له أن يدعو الله بالتعجيل أو عدمه، وإنما يترك ذلك للسماء تتصرّف كيف تشاء. فغاية ما يجب طلبه هو الرزق، أما كيفيّته وكميّته ومكانه وزمانه فليس هذا من شأن المخلوق.

﴿بَل لا يَشْعُرُونَ﴾، الشعور: علم بمعلوم دقيق عميق إدراكه، وهؤلاء لا يقرؤون ما وراء السطور والظاهر، فما إن يروا أو يسمعوا بأن فلاناً عنده مال حتىٰ يسارعوا إلى قول: إن الله يحبّ هذا، وهم يقولون لمن يحرم منه: إن الله لا يحبّ هذا. فـ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يقدّرون المصالح والمفاسد في الأشياء.

ومن مجمل الآية نفهم أن المال والبنين زينة الحياة، فالإنسان يجد السعادة في عيني أولاده سيّما بعد أن يعود من سفر أو عمل فيراهم، والإسلام يأمر في أمثال هذه الحالات ألّا يعود الرجل إلى بيته خاليَ الوفاض، بل لا بدّ من أن يأتيهم بشيء

☚ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال الرسول ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، اذهب واقنع بما عندك؛ فإن الشاكر أحسن ممّن له مال كثير لا يشكره». فذهب ورجع بعد أيام وقال: يا رسول الله، ادعُ الله تعالى أن يعطيني مالاً. فقال الرسول ﷺ: «أليس لك بي أُسوة؟ فإني بعزة عرش الله لو شئت لصارت جبال الأرض لي ذهباً وفضة». فذهب ثم رجع فقال: يا رسول الله، سل الله تعالى أن يعطيني مالاً، فإني أؤدي حق الله، وأؤدي حقوقاً وأصل به الرحم. فقال الرسول ﷺ: «اللهم أعطِ ثعلبة مالاً». وكان لثعلبة غنيمات، فبارك الله فيها حتى تزايدت كما يتزايد النمل، فلما كثر ماله كان يتعاهده بنفسه، وكان قبله يصلي الصلوات الخمس في المسجد، مع الرسول ﷺ فبنى مكاناً خارج المدينة لأغنامه، فصار يصلي الظهر والعصر مع الرسول ﷺ وصلاة الصبح والمغرب والعشاء في ذلك المكان، ثم زادت الأغنام فخرج إلى دار كبيرة بعيدة عن المدينة، فبنى مكاناً فذهب منه الصلوات الخمس، والصلاة في المسجد، والجماعة، والاقتداء بالرسول ﷺ. وكان يأتي المسجد يوم الجمعة لصلاة الجمعة، فلما كثر ماله ذهب منه صلاة الجمعة، فكان يسأل عن أحوال المدينة ممن يمرّ عليه، فقال الرسول ﷺ: «ما صنع ثعلبة؟». قالوا: يا رسول الله، إن له اغناماً لا يسعها وادٍ. فذهب إلى الوادي الفلاني، وبنى فيه منزلاً وأقام فيه. فقال الرسول ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. والخبر طويل، وفيه سوء عاقبته، وامتناعه من أداء الزكاة.

ولو بسيطاً ليُدخل الفرح إلىٰ نفوسهم.

وإذا كان هذان زينة الحياة فما هي النعمة الأكبر واللذة الأجلّ منهما؟ والجواب: أن نسخّرهما فيما هو أعظم للذي هو أعظم، وهو التضحية والفداء، تنقل كتب التاريخ أن حنظلة الأسدي جيء به هو وابنه أسيرين إلىٰ قائد الفرس في معركة القادسيّة، وقد حاول هذا القائد إغراء حنظلة بالمال والمنصب له ولابنه إن هو دلّهم على عورات المسلمين، فقال له: إني إن دللتك قتلني ولدي، فاقتله أوّلاً ثمّ أُعطيك ما تريد. فأمر القائد بقتله ثمّ التفت إليه وهو يرجو أن يفوز منه بما طلب، فضحك حنظلة وقال: هل تظن أنني أدلّك على ذلك؟ إني إنما طلبت قتل ولدي لأني خشيت أن يضعف بعد قتلي أمام إغرائكم وتهديدكم فيدلّكم على ما تريدون منه. فأمر به فقتل. وهو موقف يستحقّ الإعجاب والتقدير، فنجد فيه تضحية بالمال والولد من أجل حفظ بيضة الإسلام.

المبحث السادس: الحسين عليه السلام بلغ الغاية في التضحية

وفي هذه الليلة ونحن في رحاب علي بن الحسين عزيز الحسين عليه السلام الذي قدَّم أولاده في طريق التضحية ليضرب لنا المثل الكبير والموقف الكريم في التضحية بالمال والبنين في سبيل الله؛ أمّا المال فلسنا بحاجة إلى البرهان كي نثبت ذلك؛ فقد جلب معه كلّ أمواله من أجل إمداد الحملة، وما زاد فقد نهب بعد الوقعة، وأمّا الأولاد فقد ضحّىٰ بأبنائه وأبناء إخوانه وعمومته ليرينا كيف تكون التضحية. وكلّنا قد قرأنا أو سمعنا بمباهلة الرسول صلى الله عليه وآله والنصارىٰ حيث قالوا: إن خرج إليكم بأصحابه فباهلوه، وإن خرج بأهل بيته فلا تباهلوه[1]؛ لأن بإخراجه أهل بيته وتضحيته بهم دليلاً علىٰ أنه واثق بما عنده. فعظم التضحية تتجلّىٰ بتقديم المرء

---

(١) الإرشاد ١: ١٦٧، مجمع البيان ٢: ٣٠٩، بحار الأنوار ٢١: ٢٧٧.

أعزّاءه وأهل بيته. والحسين من هذا النوع، أراد البرهنة على عظم التضحية فصار يقدم أبناءه واحداً تلو الآخر حتىٰ جاء دور ولده علي الأكبر (سلام الله عليه)، وهو الولد الذي كان دائماً يملأ مشاعر أبيه، فكان يحتل منزلة كبيرة لدىٰ والده إضافة إلىٰ ما تميز به من صفات وسمات من كرم وشجاعة وفصاحة وصباحة، وأكبر من ذلك إيمانه بقضيّته، ففي طريقهم من المدينة إلىٰ كربلاء هوّمت عينا الحسين ثم انتبه وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: «يابني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبر: ألسنا على الحق؟ قال: «بلىٰ والذي إليه مرجع العباد». قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين. فاحتضنه الحسين وقال: «جزاك الله من ولد خيراً». ثم أخذ يقبّله ويشمّه[1].

وكان قد قال يوم برز الأكبر للقتال: «اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»[2].

فصوته صوت النبي وخلقه خلقه، وكذا في باقي صفاته؛ ولذا فقد تألّم الحسين أشدّ الألم لخروجه، فالحسين الذي كان يبكي على أعدائه يوم الطفّ لأنه يرى أنهم سيدخلون النار بسببه، هو نفسه الذي يدعو عليهم عندما برز إليهم

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، العوالم (الإمام الحسين): ٢٨٥.

علي الأكبر، ذلك أن الاكبر أخذ منه مأخذاً عظيماً. ثم قال له: «بني ادنُ إليّ حتى أُودّعك». فجمع يديه على عنقه، واستدناه إليه يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: «ابرز بني».

فبرز وعينا الحسين عليه السلام تلاحقانه، وليلىٰ تطيل النظر إلىٰ وجه الحسين عليه السلام، فلمّا رأت وجهه قد تغيّر هرولت إليه وقالت: أبا عبد الله أرىٰ وجهك قد تغيّر، فهل أُصيب ولدي بشيء؟ وهذا علىٰ رواية أن ليلى كانت موجودة في الطفّ، قال: «لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك»:

طبّت الخيمة الغريبة   تبچي وعلىٰ ابنها بريبه

وتوسّلت لله بحبيبه   بالحسين وشمابيه مصيبه

يا راد يوسف من مغيبه   ليعگوب ومسچّن نحيبه

أريدك علي سالم تجيبه

شالقايدة وياك يبني   أنا الوالدة وهيّن تذبني

ردتك عليه البيت تبني

يبني علي يا فتشة العين   يبني صواب الضاهدك وين

* * *

عمود الوسط يالشايل البيت   آنه بيش اجيت وبيش ردّيت

يا واحدي عندي شخلّيت

* * *

ومحا الردى يا قاتل الله الردىٰ   منه هلال دجىً وغرة فرقدِ

يا نجعة الحيّين هاشم والندىٰ   وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ



﴿ ١١ ﴾

قبض أرواح المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

سنمرّ خلال بحثنا حول الآية بهؤلاء المخاطبين، ومن هم، ومن هو أفضلهم. ولنمرّ علىٰ فصول الآية فصلاً فصلاً كي تتّضح لنا الرؤية حول هؤلاء:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ التوفّي هو القبض كما تقول: توفّيت حقّي أي قبضته[2]. فلماذا إذن تتوفّاهم الملائكة وليس ملك الموت؟ معلوم أن الملك جسم وإن كان نورياً، والجسم يحتاج إلىٰ حيّز يشغله، ومكان خاصّ يكون فيه، وفي كلّ لحظة يموت آلاف من الناس من شرق الأرض وغربها، وعليه فيستحيل علىٰ ملك الموت أن يكون عند كلّ هؤلاء ليقبضهم؛ فكان لابدّ له من أعوان يقومون عنه بذلك ويأتمرون بأمره في قبض أرواح الناس.

المبحث الأول: معنى التوفّي في الآية

وللمفسّرين في معنى قوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ ثلاثة آراء:

الأوّل: أنه يخرج منها طاهراً

فالله تعالىٰ حينما يخلق الإنسان يخلقه نسخة بيضاء طيّبة طاهرة نظيفة غير

---

(١) النحل: ٣٢.

(٢) الصحاح ٦: ٢٥٢٦ ـ وفى.

ملوّثة؛ ولذا فإن الرسولﷺ حينما كان يأتي إليه المسلمون بأبنائهم حديثي الولادة ـ ليسميهمﷺ كما هي عادتهم ـ يقبّل ذلك الطفل ويقول: «**هذا حديث عهد بالله**».

أي لا زال علىٰ فطرته السليمة وطيبته قبل أن يلج المحيط، وإلّا فهو بعد أن يدخل المحيط نحوّله إلىٰ قطعة ملوّثة، فنعلمه الكذب والحقد والافتراء والأخلاق الشائنة إلّا اللهمّ ربي إذا أراد الله له أن يربّىٰ في بيئة طيّبة تعلّمه محاسن الأخلاق ومحامدها. أما مع المحيط الذي نحن فيه فلا نتوقّع منه أن يكون خلاف ما وصفنا من تلوّث نفسه وفطرته التي فطره الله عليها، فلنقرأ قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إلا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1] أي أننا نسلمكم الإنسان صفحة بيضاء فتقومون بتلويثها إلّا من آمن.

وهذا الخطاب موجّه لكلّ من يقوم بعمليّة التربية، وأوّل من يقوم بهذه العمليّة هو الأُسرة التي هي عبارة عن الأب والأم، وهما أوّل من تقع عليه مسؤوليّة الطفل وأعباء تربيته. وهذه المسؤوليّة تارة تكون عمليّة وأُخرىٰ نظريّة:

فالمسؤوليّة النظريّة تتمثّل بكون الطفل حينما يبدأ بالإدراك يرىٰ أُمّه وأباه ويراقب تصرّفاتهما فيقتبس منهما.

والمسؤوليّة العمليّة تتمثّل في أن الطفل حينما يسمع أبويه يتكلّمان عن الأخلاق الحسنة وأنها خير كالأمانة مثلاً، فإنه يراقب تصرّفاتهماليرىٰ ما إذا كانا يفعلان ما يقولان ويكونان في واقعهما أمينين أم لا. فعمليّاً حينما يمدح قيمة من القيم الخلقيّة هل يقوم بتطبيقها علىٰ نفسه أم لا؟ كل هذا يراقبه الطفل ويحفظه.

ثم بعد ذلك ـ بعد الأبوين في عمليّة التربية ـ يأتي دور المعلّم الذي إن كان

---

(١) التين: ٤ ـ ٦.

فاضل الأخلاق حسن السيرة فإنه يترك أثره الطيّب الحسن في نفس ذلك الطفل وعلىٰ سلوكه فيخرّج لنا طفلاً فاضلاً. وهذا هو ما كنّا عليه سابقاً حينما كان المعلم ربيب المسجد، فهذا الخلق الذي يكتسبه من المسجد يقوم بتغذيته إلى الطفل، وهذا الحال هو الذي كان سائداً آنذاك. أما أن يأتي إنسان اليوم ويقول: إن المساجد أصبحت الآن تنانير حقد تثير الفرقة بين المسلمين فهذا مردود؛ لأن هذا شاذّ وهو خلاف الرسالة الحقيقيّة للمسجد، فهذا لا يعدو أن يكون حالة مرضيّة في سيرة المساجد، ولا يعنينا في شيء، بل إن الذي يعنينا هو الدور الحقيقي الذي يلعبه المسجد وروّاده في عمليّة التربية للطفل، وهذه هي القاعدة التي تتمثّل في أن المساجد تحمل زاد التقوىٰ لتوصله إلى الطفل وتغذّي نفسه به. وبعد أن جاءت المدارس والجامعات انتقلت هذه المسؤوليّة من المساجد وروّادها إلىٰ هذه المؤسسات المنهجيّة ومعلميها الذين يشرفون علىٰ عمليّة التربية. والمدرّس في هذه المؤسّسات يمكن أن يكون فاضلاً فيخرّج لنا طفلاً فاضلاً، ويمكن أن يكون طالحاً فيحاول أن يربّي الطفل علىٰ أخلاقه الطالحة.

والمرحلة الثالثة في عمليّة التربية تتمثّل في المحيط الذي هو عبارة عن الشارع والسوق، فالإنسان يتفاعل حتماً مع هذه الأجواء، وعلىٰ ضوء هذا التفاعل يتولّد الطفل إما صالحاً أو طالحاً. وحينما يريد الله أن يسترجع وديعته فإما أن تكون هذه الوديعة ملوّثة أو طيّبة حسب تفاعلها مع مراتب عمليّة التربية الثلاث. فالمؤمن يُتوفّىٰ طيباً وغيره، غيرّه.

ويمكن تقريب ذلك بأنك إذا أودعت عند أحد وديعة ثم أردت أن تستردّها منه، فتارة يرجعها لك كما هي أي كما أودعتها عنده[1]، وتارة يعيدها سالمة مع

---

(١) ويمكن تمثيله بالطفل حينما يقبض قبل التكليف؛ فلا هو ملوّث بالشرّ، ولا هو ممّن يمكن وصفه بالإيمان؛ لعدم توجّه التكليف إليه بعد.

زيادة هيٰ أنه قام بتطييبها وحفظها داخل وعاء محكم كي لا تمتدّ إليها يد عابثة، وتارة يعيدها إليك معيبة ناقصة. وهكذا حال الطفل.

والإنسان يدرك حين الموت ما سيكون عليه، ولذلك يصيح عندها: ﴿ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1] فيقال له: لا قد فات الأوان.

فـ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[2] أي أن هناك نمطاً من الناس يدخل للحياة وهو شعاع ويخرج منها وهو شعاع، وهناك من هو علىٰ عكس ذلك يخرج من الدنيا وثيابه ملوّثة بعد أن دخلها طاهراً.

الثاني: أن نفوسهم طابت عمّا تركوا

فإنه ليس من السهل على الإنسان أن يخرج من الدنيا طيّب النفس عمّا ترك بعد أن كان قد بنىٰ بيته لتوّه، ووطّد علائقه بالمجتمع، وتزوّج ورُزق بأولاد، فالموت سيشكّل حائلاً بينه وبين كلّ هذا، فليس من السهل عليه أن يترك كلّ ذلك. قال أمير المؤمنين﵇: «أخرجوا حبّ الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أجسادكم»[3]. فأولىٰ بالإنسان أن يروّض نفسه علىٰ إخراج كلّ ما له علائق تربطه

---

(١) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠. (٢) النحل: ٣٢.

(٣) وقد ورد في ذمّ الدنيا أحاديث كثيرة؛ منها ما عن رسول الله ﷺ: أنه سئل: ما الوهن؟ قال: «حبّ الدنيا وكراهية الموت». الملاحم والفتن: ١٥٧، ٢٠١، الانتصار (العاملي) ١: ١٦٠.
وقال ﷺ: «حب الدنيا رأس كلّ خطيئة». أعلام الدين في صفات المؤمنين: ١٤٩.
وقال ﷺ: «إنه ما سكن حبّ الدنيا قلب عبد إلّا التاط فيها بثلاث: شغل لا ينفد عناؤه، وفقر لا يدرك غناه، وأمل لا ينال منتهاه». أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣٤٥.
وقال ﷺ: «أول ما عُصي الله بستّ خصال: حبّ الدنيا وحبّ الرياسة وحبّ النوم وحبّ النساء وحبّ الطعام وحبّ الراحة». الفصول المهمّة ٣: ٣٩٢.
وورد في دعاء السجاد﵇: «وأخرج الدنيا من قلبي». الصحيفة السجاديّة / دعاؤه﵇ في سحر شهر رمضان.
وقوله﵇ «وأخرج حبّ الدنيا من قلوبنا». الصحيفة السجاديّة / مناجاة الزاهدين.

بهذه الدنيا قبل أن يصطدم بحقيقة الموت فلا يخرج من هذه الدنيا طيب النفس بما خلّف فيها من مال وولد وجاه.

المأمون يداهمه الموت في عزّ جبروته

ولنذكر في هذا المجال قصة المأمون حينما حضرته الوفاة، وكان في طرطوس يقاتل الروم في جيش كبير له، فرأىٰ عيناً صافية كأن ماءها الزلال، وتخرج منها أسماك صغيرة كسبائك الفضة، فأمر النجّارين أن يبنوا له عريشاً عليها كي يـمتّع عينه بالنظر إليها، فلما بنوا له عريشاً جلس ينظر إلى البركة فخرجت سمكة بيضاء نضحته بالماء، فأحسّ برجفة، فقال: أُحس بقشعريرة البرد في جسمي، أرجعوني إلى الخباء، ولمّا أرجعوه اشتدّ عليه المرض وزادت الحمّىٰ، فأرسلوا إلى الأطبّاء فلمّا قاسوا نبضه قالوا لهم: إنه لن يعيش هذه الليلة، فنبضه ينذر بالفناء.

فلما سمع المأمون ذلك قال: أخرجوني لأنظر إلى الجيش، فلما أخرجوه ورأىٰ جيشه يملأ الربىٰ رفع رأسه إلى السماء وقال: يامن لا يزول ملكه، ارحم من يزول ملكه[1].

وهذا المصير كلٌّ منّا يمرّ به ويقع تحت تأثيره إلّا من رحم الله منّا، وهم أُولئك الذين يملكون الثقة بالله والذين يعرفون أنهم إنما يتركون الدنيا وما فيها إلىٰ ما هو أفضل عند الله وأجزل وأسمىٰ، وهو رضا الله جلّ وعلا[2]. ونحن نردّد في الدعاء: **«اللهمّ لا تخرجنا من هذه الدنيا حتىٰ ترضىٰ عنّا»**.

أي اللهمّ اجعلنا متّجهين إليك ومروّضين أنفسنا علىٰ هذا الواقع الذي يقول بأن ما عند الله أسمىٰ، وإلّا فإن المال والولد لا يستطيع دفعاً عن الإنسان إذا جاء أمر

---

(١) قريب منها ما في تاريخ الطبري ٧: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ القصص: ٦٠، الشورى: ٣٦.

الله من مرض أو ألم أو ضيم، وليس يقدر على ذلك سوى الله الذي يجير ولا يجار عليه.

فالإنسان تارة يكون من النوع الذي يخرج من الدنيا برماً لما يترك خلفه من مال وولد وأسباب الكمال التي عنده في الحياة، وتارة يكون من النوع الذي يخرج من الدنيا طيّب النفس لعلمه بأنه وافد على الله جلّ وعلا. يقول سلمان المحمدي (رضوان الله عليه):

وفدت على الكريم بغير زاد ... من الحسنات والقلب السليم

فيجيبه الإمام:

«وحمل الزاد أقبح كلّ شيء ... إذا كان الوفود على كريم»[1]

فهؤلاء تتوفّاهم الملائكة ونفوسهم طيّبة؛ فلذلك يتركون الدنيا راضين مرضيّين؛ ثقة منهم بأنهم سينتهون إلى عالم أفضل.

الثالث: أن الملائكة تتوفّاهم بسهولة

وقد وردت روايات كثيرة في هذا المعنى، ومنها أن الله إذا أراد قبض روح عبده المؤمن فإن روحه تسلّ من جسمه كما تسلّ الشعرة من العجين[2]، في حين أننا نجد أن بعض الناس يبقى ينازع ويصارع الموت صراعاً مرّاً لأيّام عديدة، ولذا نجد أن الرسول مع ما هو عليه من القرب واللطف يرفع برأسه إلى السماء ويقول: «اللهمّ أعنّي على سكرات الموت»[3]. فاللحظات الأخيرة ليست سهلة، فإذا أراد الله أن يرحم أحداً فإنه يستلّ روحه كما وصفت الأحاديث المارّة.

فـ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي لا يتعرّضون إلى غصّة الموت وألمه، ولا تشتدّ عليهم أيّام العلّة

---

(١) نفس الرحمن في فضائل سلمان (الميرزا النوري): ٥٤٥.

(٢) المعجم الأوسط ١: ٢٢٥، تفسير ابن كثير ٢: ٥٥٥، الدرّ المنثور ٦: ١٦٧.

(٣) الدعوات (الراوندي): ٢٥٠ / ٧٠٥.

وساعات النزع، بل بيسر وسهولة. فالبعض حينما يمرض مرض الموت تطول عليه أيام المرض، وطولها يعني أيام شدّة ومحنة؛ لأن الإنسان في هذه الفترة إن كان عنده ولد بارّ أو زوج صالح فإنهما يرعيانه ويهتمّان به، وعلىٰ خلافه ما لو كان عنده ولد أو زوج طالحان فإنّهما سوف يبرمان به ولا يهتمّان بأمره ولا يرعيانه حقّ رعايته، فهذا سوف يتعرض إلىٰ غصّة الموت وألمه، وطول فترة معاناة الاحتضار. فالمشار إليهم في الآية بقوله: ﴿طَيِّبِينَ﴾ يهيّئ الله لهم من يرعاهم في فترة الاحتضار مع قصر تلك الفترة. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ليغتنم كلّ مغتنم منكم صحّته قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه وسعته قبل فقره، وفرغته قبل شغله، قبل تكبّر وتهرّم وتسقّم، يملّه طبيبه ويعرض عنه حبيبه»[1]. نسأل الله أن يجعلنا من الذين هم ملؤهم الشعور بالإقبال عليه، فإن الله إذا أراد أن يرحم أحداً جعله كذلك.

﴿يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾، السلام: اسم مصدر كما يقول علماء اللغة[2]، ومعناه الدعاء، فأنت حينما تقول لشخص: السلام عليكم، فإنك إنما تدعو له بالخلاص من المكاره والآفات.

المبحث الثاني: الفرق بين سلام الدنيا وسلام الآخرة

والسلام نحوان:

الأوّل: سلام الدنيا، وهو يأتي معرّفاً دائماً، فنقول: السلام عليكم، وإن كان لمفرد، فالجمع للتعظيم والتفخيم هنا.

الثاني: سلام الآخرة، وهو مجرّد عن لام التعريف كما في قوله تعالىٰ: ﴿سَلامٌ

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام خالية من الألف. انظر شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) انظر تاج العروس ٨: ٣٤.

عَلَيْكُمْ﴾. والذي نفهمه من هذا أن المشرّع الإسلامي لا يترك ثغرة من ثغرات الحياة خاليّة دون أن يملأها، وهو القائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[١]. فالإسلام يعالج كلّ قضايانا الحياتيّة، فهو يضع القوانين لكلّ شيء، ففي الطريق يضع آداب السلام وكيفيّة ردّه ومن الذي يبتدئ به غيره. وآداب السلام والمجتمع يريد الله لنا أن نكون عليها ولا نتركها حتىٰ عندما نقدم عليه، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[٢]، فهو دعاء بالسلامة والأمن من المكاره.

فإن كان عندنا اختلال في تطبيق ذلك، كالأخلاق المنحرفة أو المجتمع الجامد الخالي من المرونة، فهذا حتماً ليس من ديننا، بل إن الخلل فينا نحن، والإسلام بريء منه. وهناك من الغربيّين من يحاول أن يؤكّد هذا وينسبه للإسلام، فهو يقول: إذا أردت أن تميّز الشارع المسلم عن غيره فانظر فإن وجدته قذراً وسخاً كان أهله مسلمين وإلّا فلا، وكذلك تعامل المسلم عن غيره، فإن تعامل معك بشكل وعر وفظّ، وغشّك في المعاملة فهو مسلم وإلّا فلا. والحقيقة أن هذه جريمة متقصّدة في حقّ الإسلام وظلم له؛ لأن العيب هنا في المسلمين الذين يعيشون رواسب آبائهم الاجتماعيّة ولمّا يثقّفوا بثقافة الإسلام وتعاليمه، وإلّا فإن الإسلام لم يأمر بالغشّ[٣] ولم يرتضِ للمسلمين أن يكونوا قذرين[٤]، بل على العكس من ذلك هو دينٌ تكامل.

وهذه الرواسب التي لا زلنا نعيشها تظهر واضحة جليّة في تصرّف البيت

---

(١) المائدة: ٣. (٢) يونس: ١٠.

(٣) انظر: دعائم الإسلام ٢: ٢٨/ ٥٣، ٢: ٤٧ / ١١٥، وسائل الشيعة ١٧: ٢٨٣ / ٢٢٥٢٩، وغيرها كثير.

(٤) قال ﷺ: «تنظفوا...» انظر: مكارم الأخلاق: ٤٠، بحار الأنوار ١٠: ٩٩، الجامع الصغير (السيوطي) ١: ٥١٧ / ٣٣٦٩، وغيرها كثير.

المسلم في شرق الأرض وغربها تصرّفاً بعيداً كلّ البعد عن القيم الإسلاميّة، وسبب ذلك أننا نملك موروثاً اجتماعيّاً تغلغل في نفوسنا وامتدّ أثره إلينا من آلاف السنين. وهذا يأتي بشكل خاصّ عند الإنسان المعرِض عن تعلّم الآداب الإسلاميّة دون ذلك الذي يفتح عينيه على الدنيا وهو يريد أن يؤدب نفسه بخلق الإسلام.

والذين توغّل الإسلام في نفوسهم، وعملوا بتعاليمه، وتخلّقوا بأخلاقه موجودون في القرون الأُولىٰ وحاليّاً لكنهم ثلّة قليلة، والأرض لا تخلو يوماً من أمثالهم، لكننا إنما نتكلّم عن الفرد الغالب لا النادر.

والله جلّ وعلا إنما يريد منّا أن نملأ ثغرات حياتنا بما أرسل إلينا من علاج لهذه الثغرات، غير أننا دائماً نضع أنفسنا بعيدين عن قوانين السماء وعلاجاتها لأدوائنا، ولنضرب مثلاً بفقير يرىٰ نفسه لا يقدر علىٰ أن يكسب ما يقوّت به نفسه، ويرىٰ إلىٰ جانبه غنيّاً متخماً، أمامه كلّ فرص الحياة مهيّأة، فيرفع رأسه إلى السماء ويقول: أين عدل السماء؟ لماذا أعطت هذا القناطير المقنطرة وأنا لم أعِش حتىٰ عيشة الكفاف؟ وهذا خطأ؛ لأن المقصّر في ذلك ليست السماء بل نحن إذ أن السماء وضعت لنا قوانين وأمرتنا بأن نطبّقها كي لا يبقىٰ فقير، ونحن تركناها وراء ظهورنا.

ومثال آخر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1] غير أن المسلمين جاؤوا بكثير من أمثال هؤلاء ولاةً عليهم برضاهم بهم كالوليد بن عقبة الذي عمل له حوضاً وملأه بالخمر فيظلّ يشرب منه حتىٰ يسكر، فما كان من الناس بعد ذلك إلّا أن ضجوا للخلاص منه. والحلّ الجذري لأمثال هذه المسائل

---

(١) هود: ١١٣.

أنهم بدلاً من أن يأتوا به ثم يصيحوا للخلاص منه كان الأفضل ألّا يركنوا لأمثال هذه النماذج الشاذة.

المبحث الثالث: محاولات تشويه حركات الأيمة الإصلاحية

ومن المؤسف أن بعض الكتاب حتى الآن لا يريدون للنماذج الطيّبة أن تتولّى الحكم وتتصدّىٰ له، فتراهم يطبّلون لأمور منها أن علي بن أبي طالب لم ينجح في الحكم؛ لأن في حياته غلطات اجتماعيّة، ومنها عدم المرونة المتمثّلة بعدم تركه معاوية في الحكم بل سارع إلىٰ عزله حتىٰ قامت بسبب ذلك الحرب.

ونقول لهؤلاء: ما هو المبرّر الشرعي والديني الذي يلجأ إليه علي بن أبي طالب، ويستند له في إبقاء معاوية في الحكم؟ أوليس القرآن قد رسم لعلي منهجاً واضحاً في هذا الشأن، فهل تريدون منه أن يخالف منهج القرآن، أم أنكم تريدون للإنسانيّة أن تكون لقمة سائغة سهلة لمعاوية وتقع في متناوله كي يحقّق أهدافه بسهولة؟ هذا غير ممكن بل الإنسانيّة والظروف خلاف ذلك؛ ولذا كان يحتاج إلىٰ فترة لتطبيق قواعد الإسلام وقوانينه سيّما مع اصطدامه بهذه العقبات. فتركه معاوية على الحكم غير مقبول شرعاً، فكيف يفعله؟ ثم أليس معاوية هذا هو صاحب الجرائم الكثيرة الكبيرة في حقّ الإسلام والمسلمين[1]؟ أليس هو الذي

---

(١) قال الحسن البصري: «أربع خصال في معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهن لكانت موبقة:
الخصلة الأُولىٰ: افتراؤه علىٰ هذه الأُمّة بالسفهاء حتّىٰ ابتزّها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.
الخصلة الثانية: استخلافه يزيد، وهو سكّير خمّير، يلبس الحرير ويلعب بالطنابير.
الخصلة الثالثة: استلحاقه زياداً، وقد قال رسول الله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».
الخصلة الرابعة: قتله حجر بن عدي الزاهد العابد وأصحابه. ويل له من حجر وأصحاب حجر».
انظر: شجرة طوبى ١: ٨٥، الغدير ١١: ٦٠، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨، الكامل في التاريخ ٣:

استعمل سمرة بن جندب على البصرة فكان أن قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص ولم يفرّق ويميّز بين الخارجي والمسلم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة[1]؟

أمثل هذا يطلب من علي عليه السلام الإبقاء عليه، ويطلب منه أن يسكت على دار خربة لا يُدرىٰ متىٰ تسقط علىٰ رأس صاحبها؟ وهذا إنْ سببه إلّا عدم ملئنا ثغرات حياتنا بما أراد الله لنا أن نملأها ممّا رسمه لنا.

نعود إلى الآية، فقوله تعالىٰ: ﴿سَلامٌ﴾ ورد في تفسيره أن المؤمن إذا احتضر تدنو منه الملائكة فتقول له: إن ربك يسلّم عليك[2]. يقول مجاهد: ثم تبشّره بصلاح عقبه من بعده[3]. وهو أمر هامّ جدّاً لأنه حال خروجه من الدنيا يقولون له: إنك آمن، ثم يبشّرونه.

المبحث الرابع: ثلاثة إيرادات حول ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وهنا ثلاث نِقاط حول هذا المقطع من الآية أُحبّ أن أُشير إليها:

الأولىٰ: الجنة لا تُدخل إلّا بمهرها

فحول قوله تعالىٰ: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ربّما يقول قائل: ياربّ، أسألك أن تدخلني الجنة، وأسألك العفوَ عني. فيقال له: لك أن تطلب ما طلبت، لكن بالمقابل عليك أن تقدّم عملاً تستحقّ به هذه الجنّة وهذا العفو. فالله جلّ وعلا بهذا يريد أن يعلّمنا ألّا نعيش بأحلام اليقظة، ولا نتوقّع أن نحصل علىٰ كلّ ما نحلم

← ٤٨٧، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦١، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام): ١٨٤، ينابيع المودّة ٢: ٢٧..

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه .

به دون مقابل، فمن يرد الجنة فليقدّم مهرها وهو العمل الصالح[1]. فالله تعالىٰ يريد أن يخلّصنا من الأحلام الفارغة ويعلّمنا مبدأ «أعطِ كي تأخذ». فهذه الشعوب التي حصلت علىٰ ما حصلت عليه لم تأخذه دون أن تعطي مقابله شيئاً، فهي أعطت من راحتها، وطلبت العلم وأعطت مقابله السهر، وأعطت من حالتها الاجتماعيّة واستقرارها حتىٰ وصلت إلىٰ حالة مستقرّة من النظام، وبهذا أخذت ما أخذت.

الثانية: أن عمل الإنسان مهما بلغ لا يؤهّله لدخول الجنة

فربّما يقول البعض: إن الإنسان مهما عمل فلن يبلغ عمله درجة تؤهّله لأن يكون ذلك العمل مهراً للجنّة. وهذا صحيح، ولنقرّب المسألة بمثال هو لو أن رجلاً يملك مالاً كثيراً ومرض مرضاً ميئوساً منه وأُخبر أنه ميّت لا محالة، فأراد السفر إلىٰ أوروبا للعلاج فإنه قد يقدّم الملايين من ثروته وقد يقدمها كلّها فيما لو طلبوا منه ذلك لقاء تمديد عمره سنة أو سنتين، ولن يتردّد في شراء ذلك الوقت مع محدوديّته؛ لأن الإنسان متشبّث بالدنيا، مع أن الله تعالىٰ قد أعطانا عقوداً من الزمن نعيشها كأعمار دون أيّ مقابل مادّي، وأعطانا الصحّة والاستقرار، وخلق لنا الأزواج، وكلّ ذلك دون مقابل. فنعمة واحدة من نعم الله كالبصر والعقل مثلاً لا يستطيع الإنسان أن يقابلها بكلّ أعماله، وحينئذٍ تكون الجنّة له دون عمل يصحّ أن يكون مقابلها.

---

(١) وقال أمير المؤمنين ﷺ: «جهاد النفس مهر الجنة». انظر غرر الحكم ودرر الكلم ١: ٣٧٠ / ٣٩.

وقال أبو فراس:

ومن يخطب الحسناء لم يغله المهرُ

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[1]، فنعم الله علينا لا حدود لها، وقد أعطانا إيّاها، ونحن نعلم أننا لا نستطيع أن نردّ جزءاً منها. وقد التفت العلماء إلىٰ هذه المسألة فقالوا: دخول الإنسان الجنّة، بعمله أم بتفضّل؟ فالأكثر قرّروا أنه بتفضّل؛ لما أسلفنا.

الثالثة: مايُتقرّب به إلى الله؛ من الله أم من الإنسان؟

فالعمل الذي يقوم به الإنسان ويمكن أن يقرّبه إلى الله ويدخل به الجنّة هو في حقيقته من الله، فأنت حينما تعطي فقيراً مالاً أو طعاماً، أو حينما تساعد عاجزاً علىٰ حمل حاجته، فأنت إنما تفعل ذلك بما أعطاك الله من خير أو مالٍ أو قوّة وما شاكل ذلك، فأنت بمفردك لا تستطيع أن تفجّر الأرض ماء ولا أن تنبتها زرعاً ولا أن تمنح نفسك القوّة، بل كلّ ذلك من الله.

فما كان من الله كيف يمكن أن نطالب الله به الجنّة؟ فليس عندنا شيء نقدّمه إلى الله إلّا من الله. ونحن حينما ندعو الله تعالىٰ نقول من ضمن ما ندعوه به: «اللهمّ أعنّي علىٰ نفسي»[2]كما ورد في الأثر.

وكذلك مسألة الولد البارّ أو الصدقة الجارية أو العلم الذي ينتفع به، وهي الثلاث الواردة في قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث...»[3]. فالإنسان بهذه الثلاث يدخل الجنّة بما لم يعمله مطلقاً؛ لأنه لم يخلق الولد البارّ، وهذا الولد عمل لأبيه صالحاً فأدخل الله أباه الجنّة بما عمل هو له، والله هو الذي

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) مصباح المتهجد: ٤٥٣، بحار الأنوار ٩٠: ٢٣٠ / ١.

(٣) روضة الواعظين: ١١، عوالي اللآلي ١: ١٩٧ / ١٠، سنن النسائي ٦: ٢٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٣: ٢٩٢.

خلقه وأعطاه إيّاه، ورزقه المال والزاد والقوّة كي يتمكّن من عمل ذلك.

وهنا أودّ أن أُشير إلىٰ مسألة هامّة جدّاً هي أن البعض منّا يعتبر أن الحدّ بينه وبين أبيه هو القبر:

طوىٰ الموتُ ما بيني وبين محمّد وليس لما تطوي المنيّة ناشرُ[1]

وهو من أفدح الأخطاء؛ لأن عين الميّت على ابنه؛ فإن رآه فرحاً فرِح له وهو في قبره، وإن رآه مستاءً استاء له وهو في قبره أيضاً. فمثل هذا لا يصحّ أن يجعل القبر الحدّ الفاصل بينه وبيننا، بل لابدّ من مواصلة العلاقة والعمل الصالح له كي تُنفّس عنه كربات القبر وشدائده.

وقد روي عن أبي الحسن الأوّل أنه سئل عن الميت: يزور أهله؟ قال: **«نعم»**. فقيل له: في كم يزور؟ قال: **«في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته»**. فقيل له: في أي صورة يأتيهم؟ قال: **«في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم ويشرف عليهم؛ فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشرّ وحاجة حزن واغتمّ»**[2].

فيجب على الإنسان أن يصلّي عن أبيه ويحجّ إن كان مديناً بذلك، دخلت امرأة علىٰ رسول الله فقالت له: يارسول الله إن أمّي نذرت الحجّ فماتت ولم تحجّ قال: **«حجّي عنها، أرأيت لو كان عليها دين أكانت تقضيه؟ دَين الله أحقّ بالقضاء»**[3].

بل إن استقامة الولد نفسها رحمة للوالد؛ فإن رآه الناس كذلك قالوا: رحم الله

---

(١) تعزية المسلم (ابن هبة الله): ٣٤.

(٢) الكافي ٣: ٢٣٠ / ٣.

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (ابن رشد الحفيد) ١: ٢٥٧.

أباه، لقد أحسن تربيته ورعايته.

المبحث الخامس: المصداق الأكمل لقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾؟

وبعد كلّ هذا نقول: من هم أفضل من ينصرف إليهم هذا المعنىٰ ـ توفّيهم طيّبين، والدعاء لهم بالسلام وتبشيرهم بالجنّة من كلّ هؤلاء؟ ـ والجواب: هم الشهداء دون شكّ؛ لأن الشهداء يخرجون من الدنيا طيّبين فتتلقّاهم الملائكة وعليهم عطر الشهادة وإشراق المبدأ الذي ضحّوا بأنفسهم من أجله، وهو كلّ المقدّسات التي أمر الله تعالىٰ بالدفاع عنها: «وفوق كلّ بَرٍّ بَرٌّ حتىٰ يقتل الرجل في سبيل الله»[1].

وكذلك تسلّم عليهم الملائكة؛ لأنهم أهل لذلك، فهؤلاء أعطوا لله أعمارهم، فأعطاهم الله عمراً مستمرّاً: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]، ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[3]. فهؤلاء خرجوا من الدنيا رفاقاً فأصبحوا رفاقاً في الجنّة أيضاً. قال أحد الشعراء:

ورفاق هذي الدار فيما أسلفوا   للكاتبين رفاق تلك الدار

فهم يترافقون بين يدي الله بعد أن جعل مصيرهم إلى الجنة.

وتقليدياً إذا ذُكر الشهداء ذُكر في طليعتهم شهداء الطفّ الذين تميّزوا بمزايا، ومنها إصرارهم على التضحية في سبيل الله، فلنستمع إلىٰ زهير بن القين وهو يخاطب الحسين عليه السلام قائلاً: «ياسيدي، إن سيفي بألف، وفرسي بألف، والذي منّ عليّ بهذا الموقف لا أتركك حتىٰ يكلّا عن جري وفري»[4].

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٤٣، وقريب منه في الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٦٧.

(٢) آل عمران: ١٦٩.   (٣) النساء: ٦٩.

(٤) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٤٠٦.

وذلك أن الحسين جمعهم في ليلة عاشوراء وخطب فيهم قائلاً: «أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللهمّ لك الحمد أن وهبتنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين».

ثم قال: «أصحابي، إنما القوم يطلبونني»، إلى أن قال: «اسلكوا ما بين هذين الجبلين». فيقوم العباس قائلاً: «لم يا أبا عبد الله؟ قبّح الله العيش من بعدك»[1]. فكان كلّ واحد من أصحابه يقوم فيكلّمه بمثل ذلك، ووقفوا موقف الصلابة والعطاء والتضحية أمامه. ولم يقتصر الأمر على الرجال فقط، بل وقف ذلك الموقف المشرّف أيضاً نساؤهم وأطفالهم وشيوخهم، ورحم الله السيّد الهندي إذ يقول:

أدركوا بالحسين أكبر عيد   فغدوا في منى الطفوف أضاحي[2]

فهؤلاء قدموا أنفسهم عطاءً في سبيل الله، ولهذا نقرأ أن الحسين أراد أن يضرب مثلاً حينما دعا الهاشميّين وأراد أن يقدّمهم للقتال قائلاً: «إن الحمل لا ينهض به إلّا أهله». غير أن الأنصار رفضوا قائلين: «لا والله لا نرىٰ هاشمياً مضرّجاً بدمه ونحن ننظر، بل نحن أوّل من يبدأ»[3]. فكان الحسين يصرّ علىٰ تقديم الهاشميين حفاظاً علىٰ صحابته، غير أن الأنصار كانوا يرفضون أشدّ الرفض فتقدّموا هم أوّلاً. فكان أصحابه يتقدّمون الواحد تلوَ الآخر، وكلّما وقع أحدهم يذهب إليه الحسين ويجلس عند رأسه ويؤبّنه ويمسح الدم والتراب عن وجهه، ويقرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[4] ولمّا فرغ مخيّم الأنصار من أهله التفت إلىٰ مخيّم آل بيت محمّد فأخذ

---

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٨٥.   (٢) ديوان السيد رضا الهندي: ٥٢.

(٣) كلمات الإمام الحسين: ٤٠٩، وانظر معالي السبطين ١: ٣٤٠.

(٤) الأحزاب: ٢٣.

يواصل التضحية بهم في سبيل الله، وكان أهله آلَ عقيل، وآل جعفر وآل علي بن أبي طالب.

أما بيت عقيل فكان فارغاً إلّا من أطفال صغار، وهذا المعنىٰ كان يترجمه زين العابدين عليه السلام بقوله: **«إذا مررت علىٰ دور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأني أراها خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامىٰ»**[1].

فقد كان أوّل من قدّم في الطفّ من آل عقيل ـ بعد مسلم الذي قتل قبل ذلك ـ هو ابنه عبد الله بن مسلم الذي يخاطبه الإمام عليه السلام في زيارته: **«السلام على القتيل ابن القتيل، عبد الله بن مسلم بن عقيل»**[2].

وعبد الله هذا أُمّه رقيّة بنت أمير المؤمنين عليه السلام وكان قد جاء إلىٰ الحسين عليه السلام وقال: «أبا عبد الله، ائذن لي حتىٰ أُقاتل بين يديك». فالتفت إليه الحسين وقال: **«بني أكره أن تراك أمّك صريعاً، بني ارجع»**. وكأني بلسان حاله يقول له: أنا لا أحب أن أرىٰ أُمّك والدموع في عينيها وهي تنظر إليك مضرّجاً بدمك. قال: «لا والله، إني لا أُوثر الحياة الدنيا على الشهادة بين يديك». قال: **«ابرز يابني»**. أجابه الحسين عليه السلام إلىٰ ذلك أمام إصراره على القتال، فنزل الميدان وهو يرتجز:

اليوم ألقىٰ مسلماً وهو أبي ... وفتية راحوا علىٰ دين النبي
ليسوا بقوم عرفوا بالكذب ... لكن كرام وخيار الحسب[3]

فقاتل قتال الأبطال، ثم وقف يستريح ليمسح العرق عن جبينه، فأقبل إليه سهم سمر يده إلىٰ جبهته، عند ذلك صاح: «وانقطاع ظهراه». وسقط إلى الأرض يفور

---

(١) لم نعثر على الحديث الشريف بنصه، لكن هناك حديث قريب منه في كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢١٣ / ٣٠٦.

(٢) العوالم (الإمام الحسين): ٣٣٧.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٣٢.

بدمه. فأقبل إليه الحسين عليه السلام وجلس عنده وقال: «اللهم اقتل قاتل آل عقيل»[1].

وهكذا استمرّت مواكب التضحية حتىٰ خلا منهم المخيّم، فوقف بينه وبين مخيّم الأنصار وصاح: «مالي أُناديكم فلا تسمعوني، وأدعوكم فلا تجيبوني»:

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ   أقمار تسبح في غدير دماءِ

---

(١) ينابيع المودّة ٣: ٧٣.

﴿١٢﴾

فضائل الحسنين عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة حول إطعام الطعام

إطعام الطعام ظاهرة من ظواهر الفخر في مجتمعاتنا المتحضّرة كما كان في الجزيرة العربيّة كذلك، ولمّا جاء الإسلام أيّد هذا، بل وحبّذه. وهذا الأمر من الممكن أن يكون للعامل البيئي تأثير فيه، فكلّنا يعرف أن الحياة في الجزيرة العربيّة حياة تتّسم بأنها جافّة غير ليّنة أو منعّمة أو مترفة، بل إنها تخضع لظروف قاسية غير معطاءة، فالرغيف فيها حتماً له قيمة كبيرة؛ ولذا كان الإطعام ظاهرة مفخرة عندهم. والبيت الذي يتّصف بهذا ينعت بأنه بيت كرم. وأنا لا أقصد التأثير هنا على العامل البيئي فقط، بل ولا أدّعيه، لأن الإنسان الكريم كريم بطبعه، وهو يفخر بأنه كذلك. قال الشاعر:

سلي الطارق المعترّ يا أمّ عامر ... إذا ما أتاني بين ناري مجزري

أأبسط وجهي إنه أوّل القِرى ... وأبذل معروفي له دون منكري[2]

---

(١) الدهر: ٨ ـ ٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٧: ٢٩٣، وفي بعض المصادر: سلي البائس المقرور يا أمّ مالك.

الخصال الثلاث

وقد أمضى الإسلام هذا وأيّده كما قلنا، فكان أن اعتبر أن من المفاخر ثلاث خلال، هي: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والتهجّد بالليل والناس نيام[1].

ومعنىٰ إفشاء السلام: أن يكون الإنسان علىٰ خلق، فإذا مرّ بجماعة بدأهم بالتحيّة وهو بادي البشر، أي بعبارة أُخرىٰ: أنه يحقّق الغاية من وجود الإنسان، فهو إنما سمّي إنساناً؛ لأنه يأنس بالناس والناس يأنسون به، وهو الذي يمكن أن يقال عنه: إنه يتحلّىٰ بالبِشر والإنسانيّة.

والتهجّد بالليل هو عين ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾[2] فناشئة الليل: قيام الليل وإحياؤه بالصلاة والعبادة، أما وقته من الليل فعن ابن عباس[3] والسجاد ﷺ[4] أنها ما بين المغرب والعشاء، والأكثر أنها آخر الليل، وهو المناسب لقوله: ﴿**أَشَدُّ وَطْئاً**﴾؛ لأن الإنسان في آخر الليل يكون أشدّ إنهاكاً وتعباً وحاجة للنوم، وجسمه في غاية الخمول، فإذا قهر طبيعته وقام إلىٰ الوقوف بين يدي الله فقطعاً يكون هذا أشدّ وطئاً. كما أن هذا الوقت أيضاً أصفىٰ للذهن وأبعد عن الرياء، فيقضي ساعتين من وقته في الانقطاع إلىٰ الله ومعه. وقيام الليل يرىٰ أثره على الوجه.

فهذه الثلاثة يعتبرها الإسلام من المفاخر المقرّبة من الله ، وإطعام الطعام منقبة في حدّ ذاته[5]، وينبغي أن يكون لمن تحبّ ولمن تكره، وخلاف هذا ليس من

☚ تاريخ مدينة دمشق ١١: ٣٧٤،البداية والنهاية ٢: ٢٧٣، السيرة النبويّة (ابن كثير) ١: ١١٢.

(١) ورد في الحديث الشريف عن أبي عبد الله ﷺ: «المنجيات: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام». الكافي ٤: ٥١ / ٥، وسائل الشيعة ٢٤: ٢٨٨ / ٦٥-٣٥.

(٢) المزمّل: ٦.

(٣) الدرّ المنثور ٦: ٢٧٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٤٠، الدرّ المنثور ٦: ٢٧٨.

(٥) كما أن الحديث الشريف قدّمه حتّى على التهجّد.

الخلق في شيء. وكلّنا يعرف أنه ليلة وفاة أمير المؤمنين عليه السلام أُدخل عليه ابن ملجم (لع)، فقال لهم: «ما فعل ضاربي؟ أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي، فإن عشت فأنا أولىٰ به»[١].

والواقع أن مثل هذا الأمر لابدّ له من إنسان يتّسم بقابليّة كبيرة ونبل سامٍ كي يتمكّن من التعامل معه بالصورة التي تعامل بها أمير المؤمنين عليه السلام مع قاتله.

وبعد هذه المقدّمة نعود إلىٰ جوّ الآية فنقول: الآية المباركة فيها ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في المراد من الطعام

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾، فالطعام مشتق من الطعم وهو ما يستطعم مذاقه، حلواً كان أو مرّاً أو غير ذلك.

حكم طعام أهل الكتاب وذبائحهم

وبهذا التصوير نجد أنفسنا أمام مشكلة ينبغي التنبه عليها وإيجاد حلّ لها، فالعالم أصبح بلداً واحداً، والمسافات تقاربت، وقد ورد في الروايات أنه «يرىٰ من في المشرق من في المغرب»[٢]، و«تكلّم الرجل عذبة سوطه»[٣]، وهذا قد وقع فعلاً؛ فإن كان كذلك فنحن لا نعيش وحدنا في هذا العالم بل أننا نعيش مع أجناس متنوّعة مختلفة، وأقلّها أننا نعايش أهل الكتاب، فكيف نتعامل مع طعامهم والاستطعام منهم أمام التزامنا الديني؟ فرجل الأعمال المسلم الذي يجوب العالم بحثاً وراء عمله ورزقه نجده كلّ يوم في بلد، وهو يتعسّر عليه بل ربّما يتعذّر أن يجد مسلماً يأكل عنده، فكيف يواجه هذه المشكلة؟

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٦٠، المناقب (الخوارزمي): ٣٨٨ / ٤٠٤.

(٢) مستدرك سفينة البحار ١: ٣٦٠.

(٣) مسند أحمد ٣: ٨٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٢٢.

القرآن الكريم يقول: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[١]، فما هو طعام أهل الكتاب المقصود هنا؟ وما هو رأي المذاهب الإسلاميّة في المسألة؟ ولنبدأ ببيان رأي مذهبنا ثم آراء بقيّة المذاهب ثم نعود إلىٰ جوّ الآية إن شاء الله.

آراء علمائنا

لعلمائنا ـ رحمهم الله ـ في هذه المسألة قولان:

الأوّل: هو أن الطعام المقصود في هذه الآية هو الحبوب الجافّة، وهو لغة أهل الحجاز وأهل العراق؛ فحينما يقول العراقي أو الحجازي: اشتريت طعاماً، فإنما يعني ما ذكرنا، وهذا هو المقصود بالآية، أي ممّا يزرعون[٢].

الثاني ـ وهو الذي عليه أغلب المحقّقين ـ: أن المقصود به مطلق الطعام المباح شرعاً[٣] بما فيه ذبائحهم، فبعض علمائنا يذهب إلىٰ حلّيّة ذبائحهم وجواز أكلها إن أحرزت شروط التذكية التي هي استقبال القبلة والتسمية وقطع الأوداج واستقرار الحياة قبل الذبح. فبتوفّر هذه الشروط يحلّ أكل ذبائحهم. وعلىٰ هذا القول ـ جواز أكل ذبائحهم ـ فريق من علمائنا؛ منهم الصدوق[٤] وابن الجنيد[٥] وابن أبي عقيل[٦] والشهيد الثاني[٧] وغيرهم[٨]، وبتعبير الشيخ الطبرسي «جماعة ممّن يعتد به أصحابنا»[٩]، أي آراؤهم محترمة. وقد رأيت عند أحد علمائنا وهو المقداد السيوري رأياً غريباً، وهو أن هؤلاء ذبائحهم محرّمة؛ لأنهم لا يسمّون على

---

(١) المائدة: ٥.

(٢) تفسير القمّي ١: ١٦٣.

(٣) مجمع البيان ٣: ٢٧٩.

(٤) الفقيه ٣: ٣٣١ ـ ٣٣٢، المقنع: ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٥) عنه في مختلف الشيعة ٨: ٣٩٦.

(٦) عنه في المصدر نفسه.

(٧) مسالك الأفهام ١١: ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٨) الظاهر من الأردبيلي في مجمع الفائدة والبرهان ١: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٩) مجمع البيان ٣: ٢٧٩، وفيه: جماعة من أصحابنا.

الذبيحة، وإن أسموا وقالوا: «باسم الله» فهم لا يقصدون بلفظ الجلالة ما نقصده؛ لأنهم إنما يقولون: هو ثالث ثلاثة، فيعتبر النصارى الله والداً للمسيح ويعتبر اليهود الله والداً لعزير، وأن الله أبّد شريعة موسىٰ. وهو إنكار للضرورة التي تقول: إن الأديان ختمت بالإسلام.

لكن علىٰ رأي السيوري تواجهنا مشكلة جديدة هي أن الأمر إن تمّ توجيهه كذلك فهذا يعني أننا لا نأكل من ذبائح بعض المسلمين؛ لأن هذا البعض يرى الله بغير ما نراه نحن عليه فهو يراه ذا يدٍ ولحيةٍ وساق[1]، وهؤلاء لا نقول: إنهم يتكلّمون بلا دليل، بل قد استندوا إلىٰ ظواهر القرآن؛ فمن قوله تعالىٰ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] استفادوا أن لله يداً، ومن قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾[3] استفادوا أن له تعالىٰ وجهاً. فالتجسيم إنما جاء من الوقوف علىٰ ظواهر القرآن والأحاديث كما في الحديث الذي يروونه: «إن الله ضحك حتىٰ بدت نواجذه»[4] أي أسنانه، وأنه يركب علىٰ ظهر حمار وينزل إلىٰ سماء الدنيا[5]. فإن كان الله كذلك ـ أي أنه جسم ـ فكيف يكون محيطاً بكلّ شيء، مع أن الجسم محدود ولا إحاطة له؟

والغريب أن من يروي هذه الأحاديث، ويرىٰ هذا المعتقد يتّهم الشيعة بأنهم مجسّمة، والواقع أننا لا قائل منّا بذلك البتّة، بل وأحاديث أئمّتنا[6] وآراء علمائنا تصرّح بخلافه، وإن كان فليس إلاّ من هشام بن الحكم قبل أن ينصهر في مدرسة

---

(١) انظر: السيف الصقيل: ١٥٤، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.
(٢) الفتح: ١٠. (٣) الرحمن: ٢٧.
(٤) انظر نور البراهين ١: ٢٥٠، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.
(٥) انظر مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.
(٦) الكافي ١: ٩١ ـ ١٠٦ / باب النسبة، باب النهي في الكلام عن الكيفيّة، باب في إبطال الرؤية، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف الله تعالىٰ به نفسه، باب النهي عن الجسم والصورة، وغيره.

الإمام الصادق ﷺ، فقد كان يُنقل عنه القول بالتجسيم[1]، فأخذوها ورموا الشيعة بها. فالحقيقة أن الشيعة لا تقول بهذا أبداً، بل التجسيم عند غيرنا، ونحن حتّى الروايات النبويّة الموجودة في كتبنا ليس فيها شيء من هذا القبيل.

إذن هذا الشرط أو الرأي الذي يذهب إليه السيوري لا يمكن الأخذ به علىٰ ضوء ما قرّرنا، فما دام يقول «باسم الله» فإن ذلك يكفي في المقام ولا حاجة إلىٰ معرفة قصده.

ومن هنا اتّضح الفرق بين ذبيحة المسلم وغيره، فالمسلم لا يُسأل عن شرائط التذكية معه، بل إن فعله محمول على الصحّة إلّا من عُرف عنه أنه غير ملتزم بتعاليم الإسلام، فإنه يُتوقّف عن ذبائحه. أما الكتابي فيُسأل عن تحقّق هذه الشرائط معه، وهذا هو سرّ التوقّف في أكل اللحم المبتاع منهم.

آراء أهل السنّة

[أما آراء أهل السنّة فقال محيي الدين النووي: «قال أصحابنا: يستحبّ أن يتوجّه الذابح إلى القبلة ويوجه الذبيحة إليها، وهذا مستحبّ في كلّ ذبيحة وهو في الأُضحية والهدي أشد استحباباً؛ لأن الاستقبال مستحبّ في القربات. وفي كيفيّة توجيهها ثلاثة أوجه سبقت في باب الأُضحية[2]:

أصحّها: أن يوجه مذبحها إلى القبلة ولا يوجه وجهها؛ ليمكنه هو أيضاً الاستقبال.

والثاني: يوجهها بجميع بدنها.

والثالث: يوجه قوائمها».

---

(١) انظر شرح أُصول الكافي (المازندراني) ٣: ٢٢٣ / شرح الحديث السادس من باب النهي عن الجسم والصورة.

(٢) المجموع ٨: ٤٠٨.

ثم قال: «يستحبّ أن يسمّي الله تعالى عند الذبح، وعند إرسال الكلب أو السهم إلى الصيد، فلو تَرك التسمية عمداً أو سهواً حلّت الذبيحة والصيد؛ لكن في تركها عمداً ثلاثة أوجه:

الصحيح: أنه مكروه.

والثاني: لا يكره.

والثالث: يأثم به»[1].

وقال محمد بن الشربيني: «ويسنّ أن يوجه الذابح للقبلة ذبيحته؛ للاتّباع، ولأنها أفضل الجهات، والأصح أنه يوجه مذبحها لا وجهها ليمكنه أيضاً هو الاستقبال؛ فإنه يندب الاستقبال للذابح أيضا. فإن قيل: هلا كرّه كالبول إلى القبلة؟ أُجيب بأن هذا عبادة؛ ولهذا شرع فيها التسمية. وأن يقول عند ذبحها: «باسم الله»؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[2]، ولا تجب. فلو تركها عمدا أو سهوا حلّ.

وقال أبو حنيفة: إن تعمّد لم تحلّ. وأجاب أئمتنا بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[3]، فأباح المذكى ولم يذكر التسمية. وبأن الله تعالى أباح ذبائح أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[4]، وهم لا يسمّون غالباً؛ فدلّ على أنها غير واجبة. وبقول عائشة (رضي الله تعالى عنها): إن قوماً قالوا: يا رسول الله، إن قومنا حديثو عهد بالجاهليّة يأتونا بلحام لا ندري أذكروا اسم الله عليها أم لم يذكروا، أنأكل منها؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «اذكروا اسم الله وكلوا». رواه البخاري. ولو كان واجباً لما أجاز الأكل مع الشكّ. وروي

---

(١) المجموع (محيي الدين النووي): ٩ / ٨٦ .

(٢) الأنعام: ١١٨ . (٣) المائدة: ٣.

(٤) المائدة: ٥ .

أنه ﷺ قال: «المسلم يذبح على اسم الله سمّى أو لم يسمّ».

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمّي الله تعالى؟ فقال ﷺ: «اسم الله في قلب كلّ مسلم».

وأما قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[1]، فالذي تقتضيه البلاغة أن قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ليس معطوفاً؛ للتباين التامّ بين الجملتين؛ إذ الأُولى فعليّة إنشائيّة، والثانية اسميّة خبريّة، ولا يجوز أن تكون جواباً؛ لمكان الواو؛ فتعيّن أن تكون حاليّة، فتقيّد النهي بحال كون الذبح فسقاً، والفسق في الذبيحة مفسّر في كتاب الله بما أُهل لغير الله به»[2].

و في المدوّنة الكبرى: «قلت: أرأيت إن نسي التسمية عند الإرسال، أيأكل؟ قال: قال مالك: يسمّي الله إذا أكله. قلت: إن ترك التسمية عمداً؟ قال: هذا بمنزلة الذبيحة؛ إذا نسي التسمية فهو كمن نسي التسمية على الذبيحة، وإذا ترك التسمية عامداً عند الإرسال فهو كمن ترك التسمية على الذبيحة؛ فلا يأكله»[3].

وقال ابن حزم: «مسألة: وتذكية المرأة الحائض وغير الحائض والزنجي والأقلف والأخرس والفاسق والجنب والآبق، وما ذبح أو نحر لغير القبلة عمداً أو غير عمد جائز أكلها إذا ذكّوا وسمّوا على حسب طاقتهم بالإشارة من الأخرس، ويسمّي الأعجمي بلغته لقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، فخاطب كلّ مسلم ومسلمة. وقال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، فلم يكلّفوا منم التسمية إلّا ما قدروا عليه، وهو قول أبي حنيفة ومالك والشافعي وأبي سليمان. وفي كلّ ما ذكرنا خلاف، وقد ذكرنا منع طاووس من أكل ذبيحة الزنجي». ثم نقل عن ابن

(١) الأنعام: ١٢٠.
(٢) مغني المحتاج ٤: ٢٧٢.
(٣) المدونة الكبرىٰ ٢: ٥٤.

عباس قوله: «الأقلف لا تؤكل له ذبيحة ولا تقبل له صلاة ولا تجوز له شهادة». ثم قال: «وأجاز ذبيحته الحسن وحمّاد بن أبي سليمان ... عن ابن عمر أنه كرّه أكلها ـ يعني ذبيحة الآبق ـ وأجازها سعيد بن المسيب ... عن ابن عمر أنه كان يكره أن يأكل ذبيحة لغير القبلة. وصحّ عن ابن سيرين وجابر بن زيد مثل هذا. وصحّت إباحة ذلك عن النخعي والشعبي والقاسم بن محمد والحسن البصري. قال أبو محمد: لا يعرف لابن عباس في ذبيحة الأقلف مخالف من الصحابة، ولا لابن عمر في ذبيحة الآبق، وما ذبح لغير القبلة مخالف من الصحابة (رضى الله عنهم) ... قال أبو محمد: «لو كان استقبال القبلة من شروط التذكية لما أغفل الله تعالى بيانه». وكذلك سائر ما ذكرنا.

مسألة: وكل ما ذبحه أو نحره يهودي أو نصراني أو مجوسي نساؤهم أو رجالهم فهو حلال لنا، وشحومها حلال لنا إذا ذكروا اسم الله تعالى عليه. ولو نحر اليهودي بعيراً أو أرنباً حلّ أكله ولا نبالي ما حرّم عليهم في التوراة وما لم يحرّم. وقال مالك: «لا يحلّ أكل شحوم ما ذبحه اليهودي ولا ما ذبحوه ممّا لا يستحلّونه»...»[1]].

الإمام السجاد عليه السلام وتصدقه بالعنب

واللام في قوله تعالى: ﴿الطَّعَامَ﴾ هي لام الجنس، ولتوضيح المعنىٰ هذا أضرب لك مثالاً فعن هشام بن سالم قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يعجبه العنب، وكان ذات يوم صائماً، فلمّا أفطر كان أوّل ما جيء له بالعنب، أتته أُم ولد له بعنقود فوضعته بين يديه، فجاء سائل فدفعه إليه، فدسّت إلى السائل فاشترته منه، ثم أتت به فوضعته بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أُم الولد مثل ذلك، حتى

---

(١) المحلي ٧: ٤٥٣ ـ ٤٥٤ / ١٥٧ ـ ١٥٨.

فعل ثلاث مرات، فلما كان في الرابعة أكله[١].

وكانﷺ يتصدّق بالسكر واللوز، فسئل عن ذلك، فقرأ قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢]، وكان يحبه[٣].

فكانواﷺ يتصدّقون بأجود ما لديهم من الطعام وينفقونه فيما يقرّبهم إلى الله. فاللام هنا تشمل كلّ الأنواع، أي كلّ ما يقع تحت مسمّى الطعام وجنسه؛ حسنه ورديئه، لكن أهل البيت (صلوات الله عليهم) يتصدّقون بأجوده دائماً.

وهذا مشمول به الطعام غير المحرّم وإلّا فالطعام المحرّم يحرم التصدّق به إلّا عند من قام الدليل علىٰ حلّيّته وفق مذهبه، كمن يحلّل الأرنب متذرّعاً بأن رسول اللهﷺ قد أكله[٤]، أو أكله جماعة أمامه ولم ينههم[٥]، مع أننا لا نقول بها، ونذهب إلىٰ ضعف هذه الروايات، بل إن عندنا روايات تنصّ علىٰ حرمة الأرنب[٦]. لكن يلاحظ أن البعض معتدّ برأيه وتأخذه به العزّة بالإثم دون دليل. وهذا خارج عن محلّ الكلام وما هو إلّا معاند يجعل الدليل تابعاً له دون أن يكون هو تابعاً للدليل.

ثم إن الإطعام له مقارنات لابدّ من اتّصاف المطعم بها، ومنها البشاشة والبِشر لحظة إعطاء الفقير أو الضيف طعامه:

أُداعب ضـــيفي قـبل إنـزال رحـله ... ويـخصب عـندي والمـحلّ جـديبُ

وما الخِصب للأضياف أن يكثر القِرى ... ولكـنما وجـه الكـريم خـصيبُ[٧]

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٧٢ / ٥٥. (٢) آل عمران: ٩٢.
(٣) بحار الأنوار ٤٦: ٨٩، مستدرك سفينة البحار ٥: ٨٤.
(٤) السنن الكبرىٰ ٣: ١٥٥ / ٤٨٢٣. (٥) السنن الكبرىٰ ٣: ١٥٥ / ٤٨٢٢.
(٦) وسائل الشيعة ٢٤: ١٠٦ / ٣٠٠٩٥، ١٠٩ / ٣٠٠٩٩، ١١٠ / ٣٠١٠٢.
(٧) أمالي السيد المرتضىٰ ٢: ١٢٣.

المبحث الثاني: في مرجع الهاء في ﴿حُبِّهِ﴾

في الهاء هنا وجهان:

الأوّل: أن الضمير يعود علىٰ ربّ العزّة، أي ويطعمون الطعام علىٰ حبّ الله ومن أجل وجهه. وهذا الرأي يفيد التأكيد لا التأسيس، ومعلوم أن التأسيس أفضل من التأكيد.

وقولنا: إنها للتأكيد؛ لأن الآية بعد ذلك تقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، فتكراره تأكيد لا جديد فيه.

الثاني: أنه يعود على الطعام، أي يطعم الطعام علىٰ حبّ الطعام لجوعه وحاجته إليه. يقول الحديث: **«أيّما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنّة، وأيّما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنّة، وأيّما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»**[1].

فمن يقدّم غيره علىٰ نفسه في الطعام مع حاجته إليه كان طعامه من أكل الجنّة ومن يقدّمه علىٰ نفسه في الكسوة كان كساؤه من سندس الجنّة، ومن يقدّمه في الشراب كان شرابه رحيقاً مختوماً: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2] أي حاجة. وهذا ما يمكن أن يعبّر عنه بفناء الذات الخاصّة في الذات العامّة. وبهذا يكون أقرب إلى الله، فلا يترك أنانيّته تجعله يعيش في قوقعة، لايهتمّ بغيره وإن أصابه الطوفان: **«من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم»**[3]. وهذه هي الروح التي يريد الإسلام أن يغرسها في نفوس المسلمين ويَحْمله علىٰ أن يندمج في الأُسرة الإسلاميّة، وأن يعتبر المسلمين أُسرة واحدة.

---

(١) سنن أبي داود ١: ٣٧٩ / ١٦٨٢، الجامع الصغير ١: ٤٥٧ / ٢٦٩٠ ـ ٢٦٩١.

(٢) الحشر: ٩.

(٣) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ١٦٤ / ٤.

والإمام علي هذا النموذج الرائع للاقتداء والاحتذاء به يضرب لنا مثلاً سامياً في هذا المجال يقول: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها؟»[1].

فهذا هو النموذج الأعلى الذي يتحسّس آلام الآخرين وهمومهم ومآسيهم، والذي يجب أن يحتذى.

المبحث الثالث: الأصناف الثلاثة في الآية الكريمة

قوله تعالى: ﴿مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[2]، تقل البحث يقع هنا، فلنتناول هذه الأصناف الثلاثة:

المسكين

وهو الطوّاف الذي يسألك على فقر. وهذه مشكلة عويصة؛ لأن السائل يأتي المسؤول بلباس المسكنة، ولكن هل هو فقير فعلاً؟ هذا ما لا يمكن التحقّق منه؛ ولذا ورد: «لو صدق السائل ما أفلح من ردّه»[3]. والمطلوب هنا أنك إن عرفت أنه صاحب حاجة فعلاً فيجب عليك إعطاؤه وألّا تشيح بوجهك عنه. أما إن كان قد اتّخذ هذه المسألة مهنة له مع قدرته على العمل فإن الحال ينقلب حينئذٍ؛ لأنه سيؤثم حينئذٍ بأخذ ما لا يستحق، وقد ورد في الحديث: «من سأل الناس من غير فاقة نزلت به، أو عيال لا يطيقهم، يأتي يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم»[4]. وقد

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥. (٢) الدهر: ٨.

(٣) تأويل مختلف الحديث: ٧٣، شرح نهج البلاغة ١٩: ٢١٠، كشف الخفاء ١: ١٤٤، ٢: ١٥٥.

(٤) العهود المحمديّة: ٦٠٧، كنزل العمّال ٦: ٥٠٦ / ١٦٧٤٣، الدرّ المنثور ١: ٣٥٩.

وقعت لأبي ذر رضي الله عنه حادثة تعرّض فيها للإغراء، فقد كان ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية يوما ثلاثمئة دينار، فقال أبو ذر لرسوله: «إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها. وردّها عليه»[1].

وكان رضي الله عنه يقول: «جزى الله الدنيا عني مذمّة بعد رغيفين من الشعير أتغدّى بأحدهما وأتعشّى بالآخر، وبعد شملتي الصوف أتّزر بإحداهما وأتردّى بالأُخرىٰ»[2].

وكان رضي الله عنه في مرتبة عظيمة من الزهد والإيمان والتقوى، وقد بعث عثمان إليه بصرّة علي يد عبد له وقال له: إن قبلها فأنت حرّ. فلم يقبلها منه، فقال له العبد: اقبلها فإن فيها عتقي. فقال: «إن كان فيها عتقك فإن فيها رقّي، وأنا قد قطعت علائق الدنيا لئلّا أكون عبداً لغير الله»[3].

وموضع الشاهد فيه أنه يقول بأنه ليس فقيراً بل عنده رغيفان لغدائه وعشائه فهذا يكفيه، فهو غنيّ في نظره. والحقيقة أن الغنىٰ والفقر في النفس؛ لأن فقراء النفوس لو أعطيتهم الدنيا كلّها لقالوا: إننا فقراء، وتظلّ تلاحقهم عقدة الشعور بالفقر، وغنيّ النفس لو لم يجد إلّا ما يسدّ به رمقه لاعتبر نفسه غنيّاً[4].

كما أنّك تتحمل مسؤوليّة إضاعة أموالك وعدم وضعها في مواضعها فيما لو لم يكن هذا السائل محتاجاً فعلاً؛ لأنك تكون حينئذٍ قد وضعت الشيء في غير

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٤١٥.

(٢) الكافي ٢: ١٣٤، بحار الأنوار ٢٢: ٤٠١.

(٣) شجرة طوبىٰ ١: ٧٥.

(٤) قال الشاعر:

يعزّ غنيّ النفس إن قلّ ماله ... ويغنىٰ فقير النفس وهو ذليل

انظر تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ١١.

موضعه، والله قد أمر بالعدل وبوضع الأشياء مواضعَها[1].

اليتيم

وهو من لا أبَ له من الناس. وبعض الفقهاء ومنهم القرطبي[2] يـذهب إلىٰ أن المقصود باليتيم هو يتيم المسلمين. وربّ سائل يسأل فيقول: هل هذا الرأي يلتقي مع مزاج الإسلام؟ والجواب: «لا»؛ لأن الإسلام أرحم من هذا؛ فاليتيم هو من لم يبلغ التكليف، ومن لم يكلّف بعدُ لا مسؤوليّة عليه ولا مواخذة، فلا معنىٰ لحرمانه من العطاء لكون أبويه غير مسلمين.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ إن الله جل وعلا شدّد علىٰ رعاية اليتيم والعناية به وعدم قهره، حتىٰ ورد: «إذا بكىٰ اليتيم اهتزّ له العرش»[3].

فالله لا يرحم أُمّة لا ترعىٰ أيتامها، خصوصاً في أوقات معيّنة، كزكاة الفطرة التي يحرص الإسلام علىٰ إعطائها قبل العيد؛ لأن بعض العوائل فيها يتامىٰ ومحتاجون لا يستطيعون شراء ما يلزم للعيد، فإعطاؤك الفطرة قبل العيد قد يمكّن هؤلاء من شراء ثوب جديد أو حاجة تناسب فرحة العيد، فتستر عنده شيئاً من

---

(١) كما أنك تتحمّل مسؤوليّة إعانته على الإثم الذي هو أحد نتائج فعله هذا؛ فهو حينئذٍ سيكون آثماً من ثلاث جهات:
١ - أخذه ما لا يستحقّ.
٢ - قوله كذباً: إنه محتاج فقير.
٣ - توغّله في الخطأ من حيث عدم توجّهه إلى العمل الذي يساعده علىٰ بناء أُسرته ومجتمعه الذي هو بحاجة إليه كونه عضواً فيه؛ فيجب أن يكون له دور فاعل فيه؛ فلابدّ من أن يكون فعّالاً بقدر ما يستطيع.
فإعطاؤك إيّاه معناه تجميد طاقاته، فضلاً عن أن أطيب الأكل ما اكتسبته اليمين. قال ﷺ: «إن أفضل ما أكل الرجل من كسب يمينه». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠. وقال: «أحلّ ما أكل الرجل من كسب يمينه». كشف الخفاء ١: ٥٨ / ١٤٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٢٩.
(٣) الفقيه ١: ١٨٨ / ٥٧٣، ثواب الأعمال: ٢٠٠، الفقه المنسوب إلىٰ الإمام الرضا﵇: ١٧٢.

الشعور بالنقص والعوز. وقد ورد أن من المستحبّات أن يجلس اليتيم في حجر كافله أو وليّه وأن يمسح على رأسه[١]، وقد قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة، إذا اتّقى الله عزّ وجلّ»[٢]، وأشار بسبّابته والوسطى.

وعليه فليس من خلق الإسلام في شيء أن نقول: اليتيم هو الذي لا أبَ له من المسلمين، بل الواجب أن نقول: الذي لا أبَ له على الإطلاق في اللفظ. وهذا هو الذي يلتقي مع روح الإسلام؛ لأن الله قد عوّدنا على عطائه، وأنه لا يفرّق بين عباده في العطاء حتى أُولئك الذين يصبحون ويمسون وهم يسبّونه ويكفرون به، فلم نجد هؤلاء قد ماتوا جوعاً، بل إن الله يعطيهم ويرزقهم كغيرهم. «ويامن أعطى من سأله ويا من أعطى من لم يسأله ولم يعرفه تحنّناً منه ورحمة»[٣].

هذا هو خلق الإسلام وخلق الله، أما أخلاقنا نحن فقد عوّدنا أنفسنا على أن نكفّر كلّ من اختلف معنا في الرأي ونمنع عنه عطاءه ورزقه كما مرّ في قصة أبي ذر رضي الله عنه مع عثمان ومعاوية: وإن هذا إلّا لؤم ومخالفة للحديث: «تخلّقوا بأخلاق الله»[٤].

فلا ينبغي أن نصير سوط عذاب على من خالفنا، فالناس أحرار فيما يعتقدون، فلا نمنع عنهم رفدهم لهذا. خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرّة من مسجد الكوفة فالتقاه أحدهم وقال له: أنا لا أُبايعك ولا أخرج معك لقتال ولا اجتمع معك في جمعة أو جماعة. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنا لا أُكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلّا الله، كان له في كلّ شعرة مرّت عليها يده حسنات». ثواب الأعمال: ٢٣٧ / ١.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٢٠، صحيح البخاري ٧: ١٠١ / ٤٩٩٨.
(٣) مصباح المتهجّد: ٣٥٣، الصحيفة السجاديّة: ٥٧٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١١.
(٤) بحار الأنوار ٥٨: ١٢٩.

ما دام المسلمون منك في أمان»[١].

بمعنىٰ أنك إن كنت مواطناً صالحاً لا تؤذي غيرك فلا شيء لي عندك، وأما البيعة فلا أُكرهك عليها ولن أقطع عنك عطاءك بسببها.

وهناك واقعة أُخرىٰ وهي أنه خرج الإمام الحسن‌ؑ علىٰ بغلة له ـ وكانت البغال الجيّدة آنذاك كالسيّارات عندنا حالياً جيّدها وقويّها يشدّ أنظار الناس ـ وما إن خرج حتى التقاه مروان واعترضه، فقال له‌ؑ: «ما شأنك؟». قال: أُريد هذه البغلة التي أنت عليها. فنزل له الإمام عنها وأعطاه إياها[٢]. مع أن مروان معروف بعدائه لأهل البيت‌ؑ، وهو الذي خرج بعد ذلك مردّداً:

يا ربّ هيجا هي خيرٌ من دعة[٣]

لا تدعوا الحسن يدفن عند جدّه:

وكلّ إناء بالذي فيه ينضح[٤]

---

(١) قريب منه ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الاصهب الجعفي حيث قال عنه: وقال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال فأقاموا بالرقّة فكان علي يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٤، باختلاف.

(٣) ديوان لبيد (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨، أمالي السيد المرتضى ١: ١٣٦، الإرشاد ٢: ١٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٠، مقاتل الطالبيّين: ١٤٩، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن‌ؑ): ١٥٧، قصص العرب ٣: ١١١ ـ ١١٤ / ٤٨. وهو شطر من قصيدة للبيد، ومنها:

يارُبَّ هيجا هي خيرٌ من دعهْ ... إذ لا تـزال هـامتي مـقزعهْ
نـحن بـنو أُمِّ البـنينِ الأربـعهْ ... ونحنُ خيرُ عامر بـن صـعصعهْ
المـطعمونَ الجـفنةَ المـدعدَعَهْ ... والضاربونَ الهامَ تحتَ الخيضعهْ

(٤) ذخائر العقبى: ١٤٢، وفيه: أن الحسن بن علي لما حضرته الوفاة قال للحسين أخيه ـ بعد أن نقل كلاماً له ـ: «قد كنت طلبت إلى عائشة إذا متّ أن أُدفن في بيتها مع رسول الله‌ﷺ. فقالت نعم. وإني لا أدري لعله كان ذلك منها حياء؛ فإذا أنا متّ فاطلب ذلك إليها؛ فإن طابت

فالإنسـان يجب أن يندكّ بأخيه الإنسان.

الأسير وآراء المفسّرين فيه

وليعلم بأن المفسّرين اختلفوا في المراد من الأسير، وتنوّعت كلماتهم فيه، فهم يذهبون فيه إلى ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنه أسير الكفّار

فالإسلام يلزمنا بإطعامه وعدم إجاعته، وكان الرسول صلى الله عليه وآله إذا أُتي بأسير سلّمه إلى أحد المسلمين وأمره بإطعامه والحنوّ عـليه حـتىٰ يـبتّ فـي أمـره. فكـان المسلمون يأخذونهم إلىٰ بيوتهم ويعتنون بهم ويدفع له ذلك من بيت المال إن كان فقيراً. وهنا تتجلّى الروح الكبيرة حيث إن هذا الأسير يؤتىٰ به خائفاً مّروعاً، وإذا به يلقىٰ هذه المعاملة الكريمة، فحتماً كان دخول الكثير منهم الإسلام بسبب هذه المعاملة.

الرأي الثاني: أنه المحبوس

لكن كيف ذلك؟ من المعلوم أن الفقه الجنائي الإسلامي فيه عقوبتان: الحبس وغيره من العقوبات التي تأتي في مقابل السجن، كالجلد والرجم والقتل وغيرها. وقد سبق أن بينت هذا المعنىٰ وأشبعته في كتاب (أحكام السجون)، وهذا يعتمد علىٰ نوعيّة نظريّة العقوبة في الإسلام التي تقوم علىٰ عنصرين: التربية والتأديب، والردع. ولتوضيح هذا لنستعرض ذلك عند فقهاء القانون الذين يعلّلون السـجن

← نفسها فادفنّي في بيتها وما أظنّ إلّا القوم سيمنعونك إذا أرادت ذلك، فإن فعلوا فلا تراجعهم في ذلك وادفنّي في بقيع الغرقد؛ فإن لي بمن فيه أُسوة».

فلما مات الحسن أتى الحسين عائشة يطلب ذلك إليها، فقالت: نعم حبّاً وكرامة. فبلغ ذلك مروان فقال: كذب وكذبت، والله لا يدفن هناك أبداً.

وانظر تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٨٨، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٧٥.

للأشخاص، فبعضهم يقول بأنه انتقام لمن أجرم المدّعىٰ عليه بحقّهم واعتدىٰ عليهم. وآخر يقول بأننا نريد أن نحقّق العدل في المجتمع لأنه أجرم بحقّه فلابدّ من أن تناله العقوبة. ويقول بعض: أنا نريد أن نحمي المجتمع منه؛ لأنه يشكّل خطراً على المجتمع، فهو أشبه ما يكون بفيروس أو ميكروب تجب مقارعته وإبادته واختراع المضادّات والمصول الواقية منه.

لكن هناك رأي هو الأهم، وعليه أغلب فقهاء القانون في أوروبا والعالَمَين العربي والإسلامي، يقول هذا الرأي بأن السجن هو تأهيل للمدّعىٰ عليه لإعادته فرداً صالحاً للمجتمع؛ لأن المجرم لم يولد كذلك بل صار كذلك نتيجة علاقته بالمجتمع، وكمثال علىٰ ذلك عدم تزويج الفتيات بحجّة أن المتقدّم لهنّ فقير أو أنه أسود، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أن بعض السادة يرفضون تزويج بناتهم من غير السادة، مبرّرين ذلك بعدم تكافؤ الزوجين؛ فغير السيّد لا يكافئ السيّد، وهو دونه. والحقيقة أن هذا خلاف العدل والدين؛ لأن رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ زوّجا بناتهم من غير السادة، ثم إن المسلم كفء المسلم[1] والقرآن يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

وعلىٰ أيّة حال إن رفض الأب هذا قد يؤدّي بابنته إلى الوقوع في الجريمة سيّما إن كان قد فسح لها المجال. فمن الذي دفعها إلىٰ هذه الجريمة إن وقعت بها؟ أليس هو الأب؟ ثم بعد ذلك يلجأ إلى القضاء عليها، يالله من مجتمع ينشئ الضحيّة بالمقدّمات التي تؤدّي إلى الفساد، ثم يعاقبها!

علىٰ أيّة حال هذا السجين ليس مجرماً بطبعه، وعليه يجب تأمين الطعام

---

(١) المحلّىٰ ١: ٢٤.
(٢) الحجرات: ١٣.

والشراب له حتىٰ تنتهي رحلة التأديب والتأهيل هذه. سيما إن كان قد دخل السجن بسبب فيه نوع إنسانيّة، كمن يسرق لأنه جوعان ثم أُخذ وأُدخل السجن. مع أن البعض قد يسرق ويدخل السجن لسوء تربية.

الدكتور يُسأل عن جواز بيع المخدّرات على الكفرة

وأودّ أن أذكر هنا مسألة حدثت لي مع أحد المسلمين في بريطانيا حيث جاءني سائلاً، قال: أنا أعيش في هذا البلد وأنت تعلم بأن أهله كفرة، فهل يجوز لي أن أبيعهم المخدّرات؟ في الحقيقة أنا ذهلت لسؤاله واندهشت، ثم قلت له: أُريد أن أسألك سؤالاً. قال: تفضّل: قلت له: أنت آتٍ من بلد مسلم؟ قال: نعم. قلت: هل وفّر لك بلدك الأمان والخدمات الاجتماعيّة والحرّيات؟ قال: لا قلت: وهنا، هل توفرت لك؟ قال: نعم. قلت: كلّ شيء؟ قال كلّ شيء. قلت: فهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟ هل هذا جزاء من آواك ووفّر لك الأمن والطعام والهويّة والحرّيّة والخدمات الاجتماعيّة؟ أي تربية هذه؟ وأي نشأة هذه التي نحن عليها؟ وأي تفكير هذا الذي نحن عليه؟ ألا يعلم هذا الشخص أن قوله تعالىٰ: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ**﴾[1] تجري مع المسلم والكافر كما قال الصادق عليه السلام: «**جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر**»[2].

ثم إن شكر المنعم واجب عقلاً ونقلاً[3]، سواء كان المنعم كافراً أو مسلماً، وهذا قد أنعم عليه بما لم ينعم به عليه المسلم، أفلا يستحقّ الشكر؟ فالحقيقة نحن الذين نصوغ الإنسان مجرماً ثم نبدأ بالبحث عن الحلول.

---

(١) الرحمن: ٦٠.

(٢) تفسير نور الثقلين ٥: ١٩٩ / ٥٨ عن العياشي.

(٣) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٤٣٥.

فالمحبوس إن كان مجرماً فهو من فعل تربيتنا وإلّا فإن **«كلّ مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»**[١].

فإن كانت النظريّة الإسلاميّة في السجون ترىٰ أن الغرض من السجن هو إعادة تأهيل السجين وإرجاعه عضواً صالحاً للمجتمع فلابد من وجوب إطعامه؛ فإن كان ذا مال أُطعم من ماله علىٰ رأي بعض الفقهاء، وإلّا أُطعم من بيت مال المسلمين.

الرأي الثالث: أنه المرأة

وتوضيح ذلك أن نقول: إن الزوج لمّا كان القيّم على المرأة[٢]، ولمّا كان الطلاق بيده: «الطلاق لمن أخذ بالساق»[٣] كانت المرأة عنده أشبه بالأسير؛ لأنها أصبحت مشدودة بالعقد للزوج. تقول الرواية: **«ابنتك كريمتك، فانظر لمن تُرقّها»**؛ لأنك سوف تجعلها كالرقّ لزوجها، فانظر هذا الذي سوف تزوّجه منها إن كان علىٰ خلق ودين وورع وتقوىٰ، ولا تنظر إلىٰ ماله وجاهه، فربّما ـ لعدم التزامه ـ طلّقها بعد مدّة وتركها وأطفالها. فعليك أن تزوّجها ممّن يشعر بالمسؤوليّة وممّن ينظر إلى المرأة علىٰ أنها رفيقة دربه في الحياة، وليست مجرّد وسيلة لهو وقضاء شهوة؛ فهي نصف المجتمع: **«استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٍ»**[٤] والعاني: الأسير[٥]. والمراد: اعتنوا بهنّ فإنهن أشبه بالأسيرات عندكم؛ لأنهنّ مُلكن بالعقد. وهناك بعض الرجال ممّن يتّصف باللؤم يستغلّ هذه الناحية من العقد ويستفيد

---

(١) تصحيح اعتقادات الإماميّة: ٦١، الاحتجاج ٢: ١٧٦.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ النساء: ٣٤.

(٣) الخلاف ٤: ٤٤٢، ٥١٦، عوالي اللآلي ١: ٢٣٤ / ١٣٧، السنن الكبرىٰ ٧: ٣٦٠.

(٤) عوالي اللآلي ١: ٢٥٥ / ١٦، سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤ / ١٨٥١.

(٥) العين ٢: ٢٥٢ ـ عنو، لسان العرب ١٠: ٤٧٦ ـ الرق.

منها، فلا يطلّقها ولا يحسن معاملتها فيما لو لم يحصل اتّفاق بينهما مع أن هذه المرأة قد نثرت[١] له بطنها، والبيت الذي يعيش فيه لا قيمة له ولا حياة من دونها، فهو أشبه ما يكون بالمقبرة، والمرأة فقط هي التي تعيد له الحياة بلمساتها الدافئة وأخلاقها ورعايتها لأطفالها، فتتحوّل بذلك بيوتنا إلىٰ خلايا متحركة. فهل بعد هذا يمكن أن نتصوّر أن الله تعالىٰ يتركنا إن لم نحسن معاملة المرأة ولم نكرمها ونتعمّد الإساءة إليها؟ لا، إن من ورائنا حساباً شديداً. وكذلك المرأة تقع عليها المسؤوليّة نفسها ويترتّب عليها الواجب عينه.

لماذا توصف المرأة بأنها أسيرة؟

وقد يقول أحد: لماذا توصف المرأة بأنها أسيرة، والإسلام أعطاها حقّ فسخ العقد في موارد، وحقّ طلب الطلاق في أُخرىٰ إن استطاعت أن تثبت أن زوجها يضارّها؟ والواقع أن هذا ليس من الشعور بالمسؤوليّة في شيء، والقائل به لا يقدّر الأُمور حقّ قدرها، ولا يشعر بتلك المسؤوليّة؛ لأن الزوجة إن كان لها أبناء من زوجها فهل تتصوّر أن من السهل عليها طلب الطلاق؟ بل وحتّى على المجتمع؟ ما هو مصير الأولاد؟ وما هو المردود النفسي والأثر السلوكي عليهم بعد وقوعه؟ أليس كلّنا يعرف أن الطفل إن رأىٰ أبويه منسجمين فإنه يرى الحياة جنّة وينشأ نشأة سليمة، وبخلافه من يرىٰ أبويه غير منسجمين، فإن سلوكيّته تتغيّر نحو الفساد، وربّما نشأ مجرماً يصبّ غضبه على المجتمع بعد أن يكبر؟ ولذا فإن المشرّع الإسلامي حينما يضع أُسس العلاقة يضعها شريفة نزيهة مثبّتة قائمة على المودّة الرحمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ

---

(١) امرأة نثور: كثيرة الولد. يقال: نثرت بطنها، أي أكثرت من الولد. العين ٨: ٢٢ ـ نثر.

﴿بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

وهذا النظام من العلاقة يُبنىٰ علىٰ طبيعة تربية الفرد عليه وعدمها، ولا دخل للتعليم فيه، بل لو تفحّصت لوجدت أن بيوت المتعلّمين هي الأكثر مشاكلَ بين غيرها من بيوت الأُمّيّين. فالإنسان الذي يربّىٰ علىٰ أن هذه المرأة هي شريكة حياة ورفيقة درب فإنه حتماً سيعاملها معاملة قائمة علىٰ تلك الأُسس التي يريدها الله، قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2]؛ فقد كان ﷺ علىٰ صدر رحب.

فالنساء شقائق الرجال[3]، والرجل لا تستقرّ حياته إلّا بالزواج؛ ولذلك فإن أهم يوم في حياة الأُمّ أن ترىٰ زواج أبنائها. وهو معنىٰ يريح الأبوين كليهما؛ لأن الأُم ترىٰ أن في زواج ابنتها ستراً لها وكفاية، والرجل يرىٰ في زواج ابنه أوّل خطوة له في طريق بناء حياته الصحيحة، وكذلك أنه سيوجد الامتداد الطبيعي له وهو الذرّيّة.

ومن هنا عبّر القرآن الكريم عنها بالأسير حتىٰ يستدرّ عطف الرجال عليها، فإنك إن كنت متفرّداً بفرص حياة بحكم ذكورتك فينبغي عليك ألّا تعتدي علىٰ فرص أُخرىٰ في الحياة لأهلك. فكلّ ما يريده الله هو أن يكون هناك مباءة[4] رحمة بين الزوجين حتىٰ يصبح زواجهما مما تقرّ به عين الأب والأُم.

لكن ما تقول في أُمّ ترىٰ ابنها وهو يافع وبرعم من براعم الحياة الواعدة

---

(١) الروم: ٢١.
(٢) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.
(٣) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.
(٤) المباءة: مصدر ميمي من (بوأ)، وهو منزل القوم ومكان سكنهم. الصحاح ١: ٣٧ ـ بوأ، لسان العرب ١: ٣٨ ـ بوأ.

مذبوحاً من الوريد إلى الوريد؟ وما الذي يجري لها؟ الواقع أن القلم مهما بلغ لا يستطيع أن يصف شعورها حينئذٍ. الحسين عليه السلام يوم الطفّ لما وقع القاسم عليه السلام ـ والظاهر أنه كان آخر نبلة في كنانة الحسين عليه السلام ـ نزل إليه وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً وجلس عنده، ونظر إلىٰ محاسنه قد خضّبها الدم والتراب، وإلىٰ عينيه وقد أطبقتا، ثم مسح عنه الدم والتراب وقال: «يابن أخي، بعداً لقوم قتلوك، خصمهم فيك يوم القيامة رسول الله صلى الله عليه وآله»[1]. ثم أخذ رأسه ووضعه في حجره ثم أقبل به يحمله إلى المخيم واضعاً صدره علىٰ صدره ورجلاه تخطّان الأرض[2]، وبعد أن وضعه مع القتلىٰ خرج من الخيمة ليفسح المجال لأُمّه وعمّته وباقي النساء، فدخلت إليه أُمّه ووضعت رأسه في حجرها:

فجعني الدهر بوليدي وخيّب ضنوة اسنيني

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٠، الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان: ٥٢، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٢، مقاتل الطالبيّين: ٥٨.

(٢) حول هذه العبارة علّق بعضهم قائلاً: فيها دلالة على انحناء ظهر الحسين عليه السلام حينها من شدّة فاجعته بمقتل سلالة الإمام الحسن عليه السلام.

﴿١٣﴾

اصطفاء أهل البيت عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في معنى الاصطفاء

الاصطفاء: هو الانتقاء والتفضيل، أي أن الإنسان أو المصطفي عامّة يختار من يريد لهدفه الذي يضعه. وهو فعل يتعدّىٰ علىٰ نحوين: فتارة يتعدّىٰ بـ(من) وتارة يتعدّىٰ بـ(علىٰ)، فتعديه بـ(من) مثاله قولنا: اصطفاه من الناس ـ أي اختاره منهم ـ ومثال تعديه بـ(علىٰ) قولنا: اصطفاه عليهم، أي فضّلهُ عليهم. والآية مقام البحث من المعنى الثاني، فقالت: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي فضّلهم على العالمين.

وهنا أمر ينبغي التأكيد عليه هو أن في الآية قراءة أُخرىٰ ينقلها أبو حيّان التوحيدي في تفسيره (البحر المحيط) فيقول حينما يصل إلىٰ هذه الآية: (إن في الآية قراءتين: إحداهما عن أهل البيت النبوي، والأُخرىٰ عن ابن عباس.: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بإضافة (آل محمد).

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

والواقع أن هذه الزيادة حتىٰ ولو لم تكن موجودة إلّا إن آيات أُخرىٰ تتناول هذه المنزلة العظيمة لهم وتعطيهم إيّاها، وسنشير إلىٰ بعضها إن شاء الله. غير أن الذي أودّ قوله هو أننا لا نصرّ علىٰ هذه الزيادة أو هذه القراءة؛ لأننا لا نريد أن يكون في القرآن شيء زيادة عمّا هو مرسوم في المصحف المتداول بين الناس؛ وهو المعبّر عنه بـ«ما بين الدفّتين»، فليس هناك رأي عندنا يُعتمد عليه يقول بالزيادة أو النقيصة في القرآن (معاذ الله)، بل حتى الشيخ الكليني﴿ره﴾ الذي يُنقل عنه أن عنده روايات في (الكافي)[1] توهم التحريف، فإن ذلك النقل لا يعدو أن يكون حملات كبيرة ضدّه، وإلّا فإن الشيخ﴿ره﴾ في (الكافي) يضع شرطاً في مقدّمته يقول فيها: «فاعلم يا أخي أرشدك الله، أنه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلّا على ما أطلقه العالم﴿ع﴾ بقوله: «اعرضوها على كتاب الله؛ فما وافق كتاب الله عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه» ... »[2]. فروايته لهذه الأحاديث من باب التاريخ للرواية وإلّا فإنه﴿ره﴾ لا يذهب إلى التحريف، وحاشاه من ذلك وكذلك ليس عندنا من يذهب إلى التحريف.

هل يقول أهل السنة بالتحريف؟

وأُحبّ أن أُشير هنا إلىٰ أمر هو أن أحدهم قبل فترة تحدّاني في إحدىٰ المجلّات حيث قال: «أتحدّىٰ أن يجد الوائلي قولاً لأهل السنة بالتحريف»، وأنا أقول: إني علىٰ استعداد لأن أُعطيه مئة قول في ذلك وليس قولاً واحداً مع إرشاده إلىٰ مصادر ذلك إن أحبّ. ولعلّ أبسط المصادر وأقربها هو كتاب (الإتقان) للسيوطي في باب عدد سور القرآن وآياته وحروفه حيث ينقل عن الخليفة الثاني

(١) انظر مثلاً الكافي ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩ / باب أنه لم يجمع القرآن كله إلّا الأئمة﴿ع﴾.
(٢) الكافي ١: ٨.

رأياً مفاده أن عدد حروف القرآن يبلغ مليوناً وسبعة وعشرين ألف حرف[١]، ومعنىٰ هذا أن القرآن الذي يذهب إليه الخليفة الثاني قد ضاع ثلثاه لأن ما هو موجود في القرآن الحالي يقرب من ثلث هذا العدد. وكذلك قرآن أُبي فإن عدد السور فيه مئة وستّ عشرة سورة؛ في حين أن إجماع علماء المسلمين علىٰ أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة. وهاتان السورتان يرىٰ أنهما لم تكتبا، وأنهما قد سقطتا ويسميهما سورة (الخلع) وسورة و(الحفد)، وكان يقنت بهما أُبي والخليفة الثاني نفسه[٢]، وهذا الأمر موجود ومنصوص عليه.

وكمثال آخر سورة (براءة) فقد روى الهيثمي في (مجمع الزوائد)[٣] والحاكم في (المستدرك)[٤] أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها.

وغيرها كثير، وأنا مستعدّ لأن أرشد هذا المتحدّي إلىٰ عشرات المصادر، التي تنقل وقوع التحريف، مع أني حينما أُرشد إلىٰ هذه المصادر لا أقصد من هذا أني أُؤكّد أن المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ تتبنّىٰ وقوع الزيادة في القرآن، حاشا فنحن لا نهرّج في هذا وأمثاله؛ إذ ليس ذلك من أُسلوبنا، بل إني أُحاول أن أُشير إلىٰ نقطة هي أن بعض أتباع هذه المذاهب حتىٰ ولو أخبره الله علىٰ لسان أنبيائه بأن هؤلاء (الشيعة) ليس لهم غير هذا القرآن الذي هو عند عامّة المسلمين يتداولونه قراءة وتفسيراً لاعترض عليه وعليهم ناسباً إياهم إلى الاشتباه. ومثل هؤلاء المغرضين قد جعلوا هذا التشنيع والتشهير وسيلة يعتاشون بها، لكن علىٰ رَغم أنوف هؤلاء

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١: ١٩ / ٩٧١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١: ١٧٦ / ٨٣٢، ١٧٨ / ٨٤٣.

(٣) مجمع الزوائد ٧: ٢٨.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١، قريب منه.

ستبقىٰ وحدة الصفّ الإسلامي قائمة متماسكة، وهؤلاء الذين يريدون أن يعيشوا علىٰ أنقاض الوحدة الإسلاميّة فإن ربّك لهم بالمرصاد.

أعود إلىٰ موضوع البحث فأقول: إن مثل هذه الزيادة لا تثبت في القرآن ولم تثبت عندنا مع أنها موجودة في الرواية، فضلاً عن أننا لم نكن الراوين لها بل غيرنا هو الذي يرويها ويثبتها. ونحن نقول إن أهل البيت ﷺ ليسوا بحاجة إلىٰ إثبات أن هذه القراءة لهم أو غيرها كي نثبت تفضيلهم على الناس واصطفاءهم من الله جلّ وعلا، بل نقول: إن آية التطهير: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1] تكفيهم في المقام. وأما الادّعاءات الأُخرىٰ فإنها تطرح ولا حاجة بنا إليها؛ فإن أهل البيت ﷺ لهم مكانتهم المؤطّرة في قلوب محبيهم وهي مكانة مستمدّة من القرآن والسنّة والواقع.

المبحث الثاني: لماذا اصطفى الله من ورد ذكرهم في الآية؟

ولنبيّنْ لماذا اصطفى الله هؤلاء المذكورين على الناس وفضّلهم عليهم، فلابد من سبب يوجب ذلك الاصطفاء ومن وجود مزيّة فيه غير موجودة في غيره، وإلّا فإن الترجيح بلا مرجّح باطل ضرورة. ولو نظرنا إلىٰ بعض الجوانب التي تكتنف حالة وحياة هؤلاء المذكورين لعرفنا أن المرجّح لذلك موجود:

أما آدم ﷺ فإنما اصطفاه الله تعالىٰ لأنه النبوّة الأُولىٰ في الأرض، فهو يمثّل الحلقة الأُولىٰ من حلقات الارتباط بين السماء والأرض وصلتها بها، وهي النبوّة فضلاً عن كونه أبا البشر، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة الموجبة لترجيح اصطفائه ﷺ.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

المبحث الثالث: هل إن الله هو من أوجد مرجّحات الاصطفاء؟

وقد يعترض معترض فيقول: إن هذه المرجّحات التي تدّعون وجودها عند الأنبياء، من الذي أوجدها فيهم؟ أليس هو الله؟ فإن كان كذلك فإن الترجيح حينئذٍ يبطل لأن الله قد أودع فيهم هذه المرجّحات ثم اختارهم على ضوئها، فالاختيار هنا وقع بعد إيداع المرجّح في المصطفى، فالاختيار لم يأتِ في رتبة متأخّرة عن وجود المزايا أي أنه لم تكن هذه المرجّحات موجودة فيهم بإرادتهم.

فنقول: إن وضع هذه المزايا والمرجّحات فيهم هو الاختيار، ولتقريب المعنى أكثر نضرب لذلك مثلاً هو المعادن الكثيرة الموجودة في الأرض وهي تتراوح وتتفاضل بين الخسّة والجودة حيث تنتهي عند الذهب الذي ميّزه الله تعالى عن غيره من المعادن. وبهذه المناسبة أود أن أذكر بيتاً من قصيدة الازري رحمه الله يخاطب فيه الإمام عليه السلام حيث يقول:

معدن الناس كلّها الأرض لكن ... أنت من جوهر وهم حصباء[1]

فالمعدن الذي خلقه الله مميّزاً هو هذا الاصطفاء.

وأما اصطفاء نوح عليه السلام، فلأنه الأب الثاني للبشر، فكأنه تأسيس ثانٍ للأرض في عهده بعد الطوفان.

وأمّا اصطفاء آل إبراهيم عليه السلام فلخصائص ومرجّحات سوف نستعرضها أثناء البحث القادم. والبحث هنا طويل أُحاول أن أُوجزه، فنقول: هل إن اصطفاء آل إبراهيم هو اصطفاء لكلّ الآل أم لجماعة مخصوصة منهم؟ والجواب أن الاصطفاء لبعضهم قطعاً وليس لهم كلّهم، بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[2].

---

(١) الأنوار العلويّة (الشيخ جعفر النقدي): ٣٤٨، والبيت للشيخ صالح التميمي الحلي من قصيدة طويلة له.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

وتلاحظ دقّة التعبير في قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، أي بعض ذرّيّتي وليسوا كلهم. فمَن هؤلاء البعض من الذريّة؟ طبيعي أن يكونوا هم الصفوة التي خصّها الله بقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1] بعد أن خاطبه إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[2].

فهؤلاء هم طبقة خاصة مؤهّلة لتسنّم مركز الإمامة والزعامة في المجتمع، وهم المصطفون على الناس.

المبحث الرابع: قانون الوراثة ودوره في عمليّة الاصطفاء

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[3] وهنا أحبّ أن أشير إلىٰ نقطة هي أن الآية هنا تثبت إيماءة حول قانون الوراثة في عمليّة الاصطفاء هذه، وهي قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، فـ﴿ذُرِّيَّةً﴾ هنا بدل ﴿آل﴾ المضافة في الآية في المرحلتين المارّتين، فالاصطفاء مشى في الذريّة بالتسلسل؛ لأن هذه الذريّة بعضها من بعض، أي أن هذه الخصائص تنتقل من الأب إلى الابن، ومن الابن إلىٰ ولده، وهكذا وفق هذا القانون المسمّىٰ بقانون الوراثة، ووفق هذه الإيماءة التي أشارت إليها الآية الكريمة.

ولنوضح بإيجاز معنىٰ قانون الوراثة فنقول: إن علماء الاجتماع وعلماء النفس حينما يعرّجون علىٰ موضوع الشخصيّة يعرفونها بقولهم: «هي المجموع الصفاتي المميّز للفرد عن غيره»، وهذا المجموع يأتي من قوانين الوراثة وقوانين المحيط أو البيئة الطبيعيّة، ويعنون بها معناها الأوسع، كالتربية والثقافة والمعرفة... إلىٰ آخره، وبتفاعل هذين القانونين يتشكّل موحّد نسميه الصفات الوراثيّة التي تميز الشخصيّة وتقوّمها.

إذا عرفنا هذا فلنشر إلىٰ أن قانون الوراثة هل هو أمر مستحدث في العلم، أي

---

(١) و(٢) البقرة: ١٢٤. (٣) آل عمران: ٣٤.

أن العلم تنبّه إليه في عصوره المتأخّرة، أم أن هناك إشارات إليه في العلوم السابقة؟ نعم هناك إشارات سابقة إليه في تاريخ العلم، ولنتناولها مرحلة مرحلة:

أوّلاً: قانون الوراثة في التراث العربي قبل الإسلام

الإشارة إلىٰ قانون الوراثة في التراث العربي قبل الإسلام. فالعرب تنبّهوا إلىٰ ذلك منذ القدم، فهذا شاعرهم يقول:

بأبه اقتدىٰ عدي في الكرمْ ... ومن يشابهْ أبَه فما ظلمْ[1]

وبالمناسبة أنقل لك واقعة هي أن سعيد بن صعصعة بن صوحان العبدي الليثي كان له ولد اسمه ميمون، فكان يخرجه معه ويرقّصه قائلاً:

أُحبّ ميموناً أشدّ حبّ ... أعرف فيه شَبهي ولبّي

ولبّه أعرف منه ربّي

والعرب يقولون: فلان ينظر بعين أبيه، ويتكلّم بلسان أبيه، أي أنه عنده خواصّه الوراثيّة. وكذلك يقول شاعرهم:

من يزرع الشوك لا يحصدْ به عنبا[2]

وهو ما يعبّر عنه بـ(تماثل النسل مع الأصل) بخواصّه، فهو يأخذ من تربيته ومن أخلاقه ومن خواصّه الوراثيّة.

والمسعودي ـ وهو مؤرّخ له تقديره عند المؤرّخين الغربيّين، حيث إنهم إذا مرّوا عليه قالوا: هذا هيرودوت العرب، أي أنه أبو المؤرّخين العرب؛ لأنه مؤرّخ

---

(١) كشف الخفاء (العجلوني) ٢: ٣٣٨ / ٢٩١١، شرح ابن عقيل ١: ٥٠ / ٥.

(٢) عجز بيت لصالح بن عبد القدّوس، وصدره:

إذا وترت امرأً فاحذر عداوته

انظر تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٣٥٥.

شامل وتواريخه منظّمة إلىٰ حدّ ما ـ عقد فصلاً في كتابه (مروج الذهب) يصف فيه الولد الذي يجيء من أُم عربيّة ومن أُم روميّة ومن أُم فارسيّة، ويحدّد صفاته الوراثيّة.

ومعرفة العرب بهذا القانون في ذلك الوقت ليست معرفة علميّة، بل هي معرفة يمكن تقريبها بمثال هو أننا نعرف مثلاً أن في الجزيرة العربيّة نفطاً، أما طريقة استخراجه وكيفيّة فصل مكوّناته الأساسيّة للاستفادة منها فهذا ما لا نعرفه. وهذا ما ينطبق علىٰ معرفة العرب بقانون الوراثة فهم لا يدركون منه أكثر من تماثل النسل مع الأصل، بل إن هذه الكيفيّة من المعرفة بهذا القانون كانت موجودة حتىٰ عند الغربيين حتىٰ جاء مندل وغيره ممّن وضعوا أُسس وضوابط هذا القانون.

ثانياً: قانون الوراثة عند المسلمين

الإشارة إلىٰ قانون الوراثة عند المسلمين. ولنبدأ هنا بهذه الرواية التي تقول: إن الرسول ﷺ كان جالساً بين أصحابه وإذا بأعرابي يدخل عليه وهو يجرّ وراءه امرأة فقال: يارسول الله، إن زوجتي هذه خانتني. فقال له: «**كيف عرفت ذلك؟**». فقال: جاءت لي بولد أبيض أشقر الشعر، وأنا داكن وهي كذلك. فقال له النبي ﷺ: «**علىٰ رسلك، هل عندك إبل؟**». قال: نعم. قال: «**هل ضربت الفحول بالإناث؟**». قال بلىٰ. قال: «**هل ولد عندك فصيل لا يشبه أُمّه ولا أباه؟**» قال: بلىٰ. قال ﷺ: «**نزع به عرق**». فقال: بلىٰ يارسول، الله السمع والطاعة. فأخذ ابنه وذهب.

وهذا قانون وراثة صريح، وفي القرآن أصرح من ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾[1] وعند الرجوع إليه في كتب التفسير[2] نجد إشارات

---

(١) الانفطار: ٨.

(٢) التبيان ١٠: ٢٩٢، جامع البيان: المجلّد ١٥، ج ٣٠: ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٢٤٧.

واضحة إلىٰ قانون الوراثة، وهو ما يوحي بالإعجاب؛ لأن الإسلام يشير إلىٰ ما اكتشف مؤخراً إشارات قبل ألف سنة.

المبحث الخامس: قانون الوراثة ودوره في نشأة الحسين عليه السلام

إذا عرفنا هذا فلنرجع إلىٰ الصفات التي أخذها الحسين عليه السلام تبعاً لهذا القانون، وقبل هذا نودّ أن نؤكّد علىٰ حقيقة أن الشخصيّة إنما تصنعها التربية والحضارة وما يتحدّر من الوراثة. والحسين عليه السلام قبل كلّ شيء هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله القائل: **«كلّ بني أُمّ ينتمون إلىٰ عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»**[1]، أي أن كلّ أبناء رجل لا ينتمون إلىٰ أهل زوجته بل إلىٰ أهله هو؛ لأن هذا هو نتيجة قانوني الوراثة والتربية. فلماذا هذا الإصرار إذن من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حول أبناء فاطمة عليها السلام؟ وما الذي يريد صلى الله عليه وآله قوله؟ الحقيقة أنه صلى الله عليه وآله كان يعلم بما سيجري بعده على الحسين وأبناء الحسين عليهم السلام، ولذا نجد أن العروش التي عاصرت أهل البيت عليهم السلام ـ وهي عروش الأُمويّين وعروش العباسيّين ـ كان الجالسون عليها يحاولون بشتّى الوسائل أن يبعدوا الحسنين عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ونفي نسبتهما له وإثبات نسبتهما لعلي عليه السلام. والغرض الوحيد الكامن وراء هذه المحاولة هو نفي الخلافة عنهما وعن أبناء الحسين عليه السلام؛ لأنهم إذا اثبتوا أنهم أبناء الرسول صلى الله عليه وآله، فهذا يعني أنهم أصحاب الخلافة الشرعيّة ووارثوها الحقيقيّون، وليس غير ذلك، ولم يهمّهم من الأمر أكثر من هذا.

---

(١) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

ولذا نجد أن النبي ﷺ يؤكّد على هذا المعنى كثيراً لأنه كان ينظر من وراء الحجب، ومن عالم الغيب، فكان يكثر من قول: «ابناي»[١]. ولو لا ذلك لكان معنى قول الرسول ﷺ: «حسين منّي وأنا من حسين»[٢] تحصيل حاصل؛ لأن كلّ إنسان يعرف أن الولد ابن أبيه فلا داعي لذكره من قبل الرسول ﷺ؛ لأنه جزء منه، لكن الإصرار منه ﷺ؛ لأنه يريد أن يؤكّد سنخيّة الحسين عليه السلام له؛ لأن «من» هنا سنخيّة لبيان النوع والجنس. وبتعبير آخر: هو ممّن يحمل صفاتي وأخلاقي وآدابي وعلمي. وهذا الأمر قد تنبّه له عمر بن سعد يوم الطفّ حيث قال مخاطباً جيشه: إنه لو وقف فيكم هكذا يوماً كاملاً لما حصر؛ فإن بين جنبيه نفس أبيه[٣].

الوراثة الانفعاليّة

فالحسين عليه السلام أخذ من هذين القانونين كليهما: من قانون التربية، ومن قانون الوراثة أو ما نسميه الوراثة الانفعاليّة، أي وراثة الانفعالات التي تحصل للأُمّ أثناء حملها بابنها، فمن المعلوم أن الحامل تنفعل بالأجواء التي تعيشها وينعكس هذا الانفعال على جنينها، فالتي يقع حملها في فترة حرب تنعكس انفعالات الحرب وآثارها ومؤثّراتها على جنينها، وكذلك التي يقع حملها في فترة سلم أو ما شاكل ذلك. وهذا وقع للحسين عليه السلام حيث إن الزهراء عليها السلام كانت حاملاً به في موقعة أُحد

(١) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٢) تحفة الأحوذي ١٠: ١٩٠، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المعجم الكبير ٣: ٣٣، ٢٢: ٢٧٤، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، ١٠: ٤٢٧، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩، البداية والنهاية ٨: ٢٢٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٦، حياة الإمام الحسين عليه السلام (القرشي) ١: ٤٢٤.

حينما قتل حمزة وغيره من شهداء الإسلام وخيرة الصحابة، وكان يسود المدينة وأبياتها حزن وجوّ من الكآبة والهمّ، وكانت الزهراء عليها السلام جزءاً من هذا الجوّ فكانت تعيش الألم والحزن والمعاناة، وقد انعكس هذا واضحاً على الحسين عليه السلام، فقد أخذ الجدّ والحزم والشجاعة.

التربية وأثرها في الدفاع عن العقيدة

وأما من ناحية التربية، فواضح أن الحسين عليه السلام قد أخذ من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله صفاته، ويكفي أن نذكر هذه القصّة التي حدثت مع أبي طالب عليه السلام فقد اجتمع شيوخ قريش لمّا رأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم وعدم تسليم الرسول صلى الله عليه وآله إليهم، ومشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان أجمل فتى في قريش ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجملهم، فخذه إليك فاتّخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك؛ لنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال أبو طالب: والله ما أنصفتموني: تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ: والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً، لعمري قد جهدوا في التخلّص ممّا تكره وأراك لا تنصفهم. فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[1].

وفي مرّة أُخرى قالوا له: إذن ما يريد منّا؟ فإن أراد حكماً ملّكناه، وإن أراد مالاً أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوّجناه من يريد. فالتفت أبو طالب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ قال صلى الله عليه وآله: «والله ياعمّ، لو

(١) شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥، الطبقات الكبرىٰ ١: ٢٠٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥، مجمع البيان ٤: ٣١، الميزان ٧: ٥٨.

وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما فعلت».

فلمّا سمعوه نفضوا ثيابهم وقاموا وهم يقولون: لا سبيل إلىٰ هذا[1].

وهذا ما ربّىٰ رسول الله عليه ولده الإمام الحسين، وإلّا فإن الحسين لو أُراد أن يسالم الأُمويّين فكم من الإغراءات التي كان يمكن أن يقدّموها له؟ وأليس هو الذي يقول ابن أبي الحديد عنه أنه كأن هذه الأبيات قد قيلت فيه:

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّهُ	**إليه الحفاظ المرّ والخلق والوعرُ**
ونفس تعاف الضيم حتىٰ كأنه	**هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ**
فأثبت في مستنقع الموت رجله	**وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ**
تردّىٰ ثياب الموت حمراً فما أتىٰ	**لها الليل إلّا وهي من سندس خضرُ[2]**

الله حكّم قانون الاختيار في كلّ ما يخصّ الحسين

فهو وضع الإغراء والإرهاب الموجّه إليه جانباً وتمّم الرسالة التي اختارها الله له، ومن ضمن هذه الرسالة اختيار مقتله، فمقتله لم يكن اعتباطياً وإنما كان ضمن دائرة الاختيار الإلهي. وكذا تربة مقتله، فالله جلّ وعلا حكّم قانون الاختيار في كلّ ما يخصّ الحسين، وهو اختيار قائم وفق قانون السماء كما نصّت عليه الآية مقام البحث، وذلك في جملة من الأُمور التي أشرنا إليها، كزمان النهضة، فإن الأمر وصل حدّاً أنه لو تأخّر زمان النهضة عن الموعد الذي حدّده تعالىٰ لها، لكان من الممكن أن يتّسع الخرق على الراقع[3].

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧،البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩.

(٣) في المثل: اتّسع الخرق علىٰ الراقع، وهو عجز بيت لأبي عامر جدّ ابن مرداس، وصدره:

لا نسب اليوم ولا خلّة

انظر الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٦٧، مغني اللبيب ١: ٢٢٦.

ويمكن تشبيه الأمر بشخص أُصيب بداء، فتأخير إعطائه الدواء يعني استفحال الداء وتعاظمه الذي يمكن أن يؤدّي إلىٰ قتل المصاب به. وهكذا نظر الحسين عليه السلام إلىٰ جسد الأُمّة الإسلاميّة المصاب بداء الأُمويّين والذي تمزّق شرّ ممزّق فإنه قد انتشر كلّ ما هو فوضوي وجاهلي في تلك الفترة المتمثّلة بحكم يزيد. وقد وصل الأمر إلىٰ درجة الاستهتار بمقدّرات المسلمين بحيث إن الحسين عليه السلام أصبح يرى الخطر في السكوت، ولذلك تحرّك وقام بثورته المعطاءة.

فالحسين عليه السلام كما ورث الصلابة والشجاعة من جدّه صلى الله عليه وآله ورثها أيضاً من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو ما يسمّىٰ بالوراثة القريبة، مع أنه قد ورث ذلك أيضاً بالوراثة البعيدة. فهذا الموقف الذي ورثه من جدّه صلى الله عليه وآله ورث من أبيه عليه السلام موقفاً لا يقلّ عنه شأناً. وذلك حينما عقد أهل الشورىٰ مجلسهم بعد وفاة الخليفة الثاني حيث قدّم له عبد الرحمن بن عوف عرضاً كلّه إغراء، إذ جلس بجانبه وقال له: نحن لا نجد من هو أفضل منك، لكن نبايعك علىٰ شرط. قال عليه السلام: «ما هو؟». قال: نبايعك علىٰ كتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر. فقال عليه السلام: «وأحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وأجتهد برأيي».[1] أي أنه عليه السلام يريد أن يقول لهم حول سيرة الشيخين: إن لي منهجيَ الخاصّ في فهم النصّ واستنباط الحكم، فلا تقيّدني بشيء لا أستطيع العمل به، بل وربّما كان حتّى الظرف لا يساعد عليه كما هو الحال في التفرقة في العطاء؛ ففي زمن الخليفة الأوّل كان المسلمون يأخذون عطاءهم سواسية، وحينما جاء الخليفة الثاني قرر أن له فـي هـذه المسألة نظراً تقتضيه المصلحة فكان أن ميّز في العطاء.

---

(١) المسترشد في الإمامة (الطبري الشيعي): ٣٦٥، بحار الأنوار ٣١: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، وانظر المحصول في علم الأُصول ٦: ٨٦.

الخليفة الثاني يرى عدم إعطاء المؤلّفة قلوبهم من الزكاة

وهذا يجرّنا إلىٰ أن نذكر حقيقة هامّة هي أن كلّ كتّاب السير ومؤرّخي التشريع الإسلامي قد أثبتوا أن في زمن الخليفة الثاني كان هناك مدرستان: الأُولىٰ مدرسة السنّة ويمثلها الإمام علي ﷺ، والثانية مدرسة الرأي وكان يمثّلها ويقودها الخليفة الثاني نفسه، ولنأخذ لذلك مثلاً قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1] ففرض الرسول ﷺ لهؤلاء المؤلّفة قلوبهم بأمر الله سهماً، ولما جاء الخليفة الثاني قال: إنما فرض الإسلام سهماً لهؤلاء لأنه كان ضعيفاً، أما وقد قوي الآن فلا حاجة له بهم. فمنع هذا السهم عنهم. فقيل له في ذلك: إنك إنما تخالف النص. فأجابهم بأنه يسترشد بروح النصّ.

وهذا أشبه شيء بما ينقله الدكتور أحمد أمين باستخدامنا المعاصر حينما نقول: إن فلاناً يتصرّف بروح القانون لا بنصّ القانون. فكأنه يريد أن يقول لهم: إن هذه هي العلّة التي يدور عليها التشريع وجوداً وعدماً، فلمّا انعدمت العلة لم يكن ضرورة لإعطاء هذا السهم[2]. والحال أنه ليس كذلك، وقد خالفه الصحابة فيه.

الخليفة الثاني يرى أن في الخيل زكاة

ومن آرائه أيضاً أنه ليس في الخيل زكاة، ثم بعد ذلك فرض عليها الزكاة، ولما قيل له في ذلك قال: منعنا الزكاة عنها حينما كنّا بحاجة إليها في حروبنا، أما وقد قوي الإسلام وأصبحت الخيل وسيلة للتباهي والجمال فلا بدّ من أن نفرض عليها الزكاة[3]. وهذا ما يسمىٰ بتحكيم الرأي في النصّ أو استلهام المصلحة من وراء النصّ.

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٣) قريب منه ما في تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣.

أما الإمام عليه السلام فكان علىٰ خلاف ذلك، جاء إليه جماعة من المسلمين وطلبوا إليه ألا يساوي في العطاء بين شريف القوم وغيره، فرفض محتجّاً بأن المال للمسلمين كافّة، واللام لام الملك، وهي تقتضي التسوية، مع ما في هذا من مخالفة للقرآن في سبيل إرضاء نزواتهم. وهو موقف صلب من أمير المؤمنين، وقد عبّر عنه بقوله: «لا تستوحشوا في طريق الهدىٰ لقلّة أهله»[1]، فالحقّ هو الذي ينبغي أن يتّبع.

وهذا الموقف الصلب ورثة الحسين عليه السلام أيضاً من أبيه عليه السلام. وكذلك ورث عليه السلام من آبائه بالوراثة البعيدة الأريحيّة، فقد كان عبد المطلب عليه السلام يحتفر الآبار وينبذ فيها الزبيب كي يخفّف من ملوحتها، ثم يسقي قريشاً منها، وكان يطعم الطعام حتىٰ للطير في رؤوس الجبال[2].

فكلّ هذه الصفات والخواصّ ميّزت الحسين عليه السلام وكوّنت شخصيّته العظيمة، فكلّ ما يخصّ الحسين عليه السلام قد اختاره الله له كما أشرنا له سلفاً؛ فقد اختار له بيئة الولادة وهي المدينة، واختار له الحجر الذي سيربّيه وهو حجر فاطمة، واختار له من يرضعه علمه وأدبه وخلقه وكرمه وهو جده رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن بعده أبوه أمير المؤمنين عليه السلام، وأخيراً اختار له التربة التي ستضمّه إلىٰ يوم القيامة، وهي كربلاء.

أسباب اتّخاذنا التربة في الصلاة

وكربلاء لا نتعامل معها علىٰ أنها تربة دفن فيها الحسين عليه السلام فقط، بل إننا نتعامل معها بغير ذلك وإن كان بعضهم يحاول أن يثبت ذلك علينا متّهماً إيانا بعبادة الصنم بإصرارنا على الصلاة علىٰ تربته مع أننا إن لم توجد التربة فإننا نصلّي علىٰ ورقة

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠١.

(٢) انظر البداية والنهاية ٢: ٢١٤، سبل الهدىٰ والرشاد (الصالحي الشامي) ١: ٣١٧.

أو حصير أو أي نبات لا يؤكل، لكن حيث تتوفّر التربة الحسينية فإننا نفضّلها علىٰ غيرها وذلك لأسباب منها:

أوّلاً: أنها تمثّل البيئة التي مثّل فيها الحسين ﷺ أروع الخصال الكريمة، وأعطانا دروساً كاملة وناضجة في الصلابة والإيمان والدفاع عن العقيدة. فكانت بحقّ تمثّل مدرسة متكاملة ـ وليست حجراً وتراباً دفن فيه الحسين ﷺ ـ حينما رسم ﷺ لنفسه ولقومه ولصحبه مصيره والدور الذي سيقوم به.

وهو تراب سيبقىٰ كالكتاب يخزّن الذكريات، وهو ما نلاحظه عند كلّ الشعراء الذين وقفوا علىٰ تراب الحسين وخاطبوه، وهم في ذلك إنما يستلهمون منه المعاني المكتوبة في الوعي والأجواء النفسيّة التي يُقرأ فيها ما مثّله لنا الحسين ﷺ من الإباء والتضحية والشجاعة والصلابة وما جسّده علىٰ هذا التراب؛ فهو ﷺ قد جعلها تربة مميّزة تعيش في أذهاننا وليس بعيداً عنها. والدليل علىٰ ذلك أن أي شيعي في شرق الأرض أو غربها حينما تُذكر عنده كربلاء فإنه يقفز إلىٰ ذهنه أنها وعاء كلّ تلك الخصائص التي ذكرناها ووعاء التضحيات الفذّة، ووعاء الموقف الحرّ، ووعاء الكرامة وكلّ ما اختار الله له، أليس ﷺ هو القائل في خطبته: «وخير لي مصرع أنا لاقيه، وكأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء»[1].

وهنا التفاتة دقيقة في التعبير الحسيني وهو قوله: «بأوصالي» أي بتقطّع جسمي، أمّا موقفي فلا؛ لأنه سيبقىٰ علىٰ صلابته. وها هو أحد الشعراء يخاطبه قائلاً:

طلعت على الدنيا حساماً مهنّداً ... فعاشتك حيناً ثم عاشت على الصدىٰ

تمجّد قومٌ بالخلود وإنني ... رأيت بمعناك الخلودَ مخلّدا

---

(١) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨، كشف الغمة ٢: ٢٣٩.

أيــا واحــداً مــن خـمسة إن ذكـرتهم ذكـرت بــهم فــي كلّ وجـه مـحمدا

فلهذا اختاره الله ليعيش بين جوانحنا وفي قلوبنا ووعينا ومشـاعرنا، ولأنت كذلك ياسيدي يا أبا عبد الله. فنحن لهذا نختار التربة.

وثانياً: لأنها ترفع جباهنا في السجود عما يمكن أن يكون نجساً أو قذراً، وما هو كذلك لا يصحّ السجود عليه في واقع الحال.

وثالثاً: أن مجرد نظرنا إلى التربة ـ مع امتلاكنا لوعي يحدّد لنا ماذا جرىٰ في واقعة كربلاء ـ فإن أذهاننا تنصرف إلى المثل العليا والدماء التي سكبت عليها في واقعة الطف:

وفرجت الزمان عن خشعة الفجـ ـر علىٰ مهدك الزكيّ الضـاحي

فــرأيت النـبيّ يـفتضّ فـي سمـ ـعك آيــات وحـيه النـفّاح

والبــتول انـتفاضةً تـبعث الزهـ ـو حـبياً فــي هــاجر الأفـراحِ

وعــليا يــريك أن قــطاف الـ ـفتح يُستار مـن لهـيب الجـراحِ

هكــذا لُــحت قــمة مــن كـراما ت ومــوجاً مــزمجراً مـن طماح

ومـــدىً ليست الكـــواكب إلّا نـــصباً فـــي طـريقه اللـمّاحِ

إذن، هذا الاختيار من الله للحسين عليه السلام في الطفّ كان اخـتيار نـهاية لحـياته الجسديّة وليس ختاماً لحياته المطلقة، فالحسين ما مات ولن يموت، لكن جسده اختار الله له أن يقطّع أشلاءً تضمّها هذه التربة التي قدّر لها أن تعيش في مشاعرنا. وها نحن نردّد مع أديب الطف:

لا تطلبوا قبر الحسـيـ ـن بشـرقها أو غـربِ

ودعوا الجميع وعرّجوا نحوي فـمشهده بـقلبي

ولذلك فإن العقيلة عليها السلام أبت أن تذهب إلى المدينة إلّا بعد أن تمتاح من هذه القيم

والمثل، فأرادت للقافلة أن تعرّج نحو المصرع، وكـانت تـتلفّت يـميناً وشـمالاً، فسألها السجادﷺ عن سرّ تلفّتها، فقالت: عمّه، قل للدليل فليعرّج بنا علىٰ كربلاء. فعرّج الدليل بهم، وما كادت تلوح لها قبور أهليها وأنصارهم حتىٰ نزلت من علىٰ ظهر الناقة وأقبلت من ورائها مسبيّات الطفّ، يدفعن دفّاً إلىٰ قبر الحسينﷺ وما إن وصلته حتىٰ احتضنته:

واعـيونك يـبو السـجّاد	لون يـسـتك يـسخلّوني
أحط راسـي عـلىٰ گـبرك	وارشّـه بـدمعة عـيوني
واگضـي العمر كلّه اهناك	واگـلهم للـسيلوموني
شـلّي بـالعمر بـعدك	شـنهو عـيشتي بـليّاك

***

﴿١٤﴾

حقوق المرأة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة حول دور المرأة في المجتمع الإسلامي

تدور هذه الأيام مطارحات حول (دور المرأة في المجتمع الإسلامي)، وهل أنها أخذت دورها ضمن إطارها الطبيعي أو أنها لا زالت مظلومة ومعتدىً عليها من قبل المسلمين؟

توجد كتابات كثيرة تدور حول هذا المجال، والآية تتطرّق إلىٰ هذا الموضوع، لكن قبل الشروع في شرحها كان لابدّ من مقدّمة نوضّح فيها بعض النِقاط:

الأولىٰ: وجوب التفريق بين الإسلام والمجتمع الإسلامي

فالفرد في المجتمعات الإسلاميّة لم يأخذ سلوكه كلّه من الإسلام، بل إن مصادر بعضه عبارة عن ميراث اجتماعي ورثها من آبائه السابقين، فالعربي يأخذها من حضارته والكردي كذلك والإيراني كذلك. فالمواريث التاريخيّة متوارثة لحدّ الآن على الرغم من أنها من عصر ما قبل الإسلام. أضف إلىٰ ذلك التفاعل مع

---

(١) النساء: ١٢٤.

الحضارات المعاصرة، وهو مصدر للتأثّر كالتلفون والانترنت ووسائل الاتّصال الحضاري؛ ولذلك يتأثّر الناس بالسلوك المقابل ويقتبسون منه. وعليه فعندما توجد حالة بين المسلمين فلا ينبغي أن نقول: هذا رأي الإسلام.

وحضارتنا فيها شقان: مادّي ومعنوي:

فالمادّي مثلاً أن الإنسان كان يركب الدوابّ والآن بعد تمدّنه يركب السيّارة، وسابقاً كان يتناول أعشاباً للعلاج أمّا الآن فيتناول الدواء الكيمياوي. وهذه القضايا المدنيّة ترتبط بالجسد وهي سهلة التغيير.

أما الشقّ الثاني فهو الشقّ الفكري، وهو ماله علاقة بالعقيدة والأخلاق والتاريخ. وهذا الشقّ ليس من السهل تغييره؛ فهو يعيش معنا آلاف السنين ويحتاج لوقت طويل لتغييره. فإذا قلنا: إن المرأة مظلومة في الإسلام، فلا يعني هذا أن السبب هو الإسلام، وإنما هو الميراث الاجتماعي المتبقّي من أيام الجاهليّة، والإسلام إنّما يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1].

الثانية: كلّ كائن خلقه الله ضمن وظيفته، وتكامله النسبي

فالشمس لها دور في أن تقوم بالتفاعلات النوويّة فتبعث الدفء في الأشياء وتمنح الحياة، والقمر له دور المدّ والجزر ويلطّف جوّ الكرة الأرضيّة ويعطينا شيئاً من الضوء، وبما أن لكلٍّ دوراً فلا يجوز أن أقول: القمر أفضل من الشمس، والبرّ أفضل من البحر؛ لأن لكلّ واحد منها تكاملاً نسبياً ضمن نطاقه. وكذلك عندما نقول: رجل وامرأة، فليس معناه أن الرجل أفضل من المرأة أو المرأة أفضل من الرجل، حسب نوع البلاد والتشريع فيها، بل إن لكلّ واحد منهما دوره الطبيعي؛ فلا ينبغي أن يتمرّد أحدهما علىٰ دوره.

---

(١) الإسراء: ٧٠.

المبحث الأول: نظرة المجتمعات آنذاك إلى المرأة

وعليه فالقرآن نزل في الجزيرة العربيّة، وهي ذات حضارة خاصة، كما أن العالم المحيط بالجزيرة له حضاراته، وتلك الحضارات غير العربيّة كشرائع أوروبّا كانت تبيح للرجل أن يبيع ابنته كما يبيع السلعة، بل إن أحد المجامع الكنسيّة في روما كان يرىٰ أن المرأة كيان نجس لا روح له ولا خلود، وينبغي أن نمنعها من الضحك؛ لأن ضحكتها فيها إغراء. وكانت في أوروبا لا تعطىٰ ذمّة ماليّة مستقلّة، ولا يحقّ لها أن تتملّك، ولا يرون أنها مخلوقة لجلائل الأعمال. وأفضل شيء مُنحته آنذاك كان في حدود سنة (١٥٧١)م حينما أصدرت فرنسا تعليماً ينصّ علىٰ أن المرأة لها روح كالرجل ولكن خلقت لخدمة الرجل. فأوروبا كانت تراها كسلعة ووسيلة للتسلية. وهكذا فإننا برجوعنا إلىٰ تاريخ الحضارات نرى أن المرأة كانت تعامل بأشكال مختلفة؛ وكذلك الحال عند العرب أيضاً، فقد كانوا لا يورّثون البنت بل يرثونها، وكانت إذا قَتلت تُقتل وإذا قُتلت لا يُقتل بها الرجل، أي الرجل لا يقتل بالأُنثىٰ. ويرون أن الأب له الحقّ في أن يدفن ابنته وهي حيّة، ويرون فيها أنها كيان متخلّف فطريّاً عن الرجل ويستوجب العار:

إذا المرئيّ شبَّ له بنات ... عصبن برأسه إبة وعارا[1]

أثر المجتمعات في السلوك الشخصي للإنسان

وهذه العمليّة ولّدت عقدة عند البعض، فعائشة زوجة الرسول ﷺ عندما تأتي للقرآن وتقرأ هذه الآية: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثاً﴾[2] ـ وكانوا يتصوّرون أن

---

(١) العين ٨: ٤٢٠ ـ أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ ـ وأب، والمرئي في الأصل: امرئي، نسبة إلىٰ امرئ القيس، ثمّ قالوا مرئي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلىٰ (مرء) مطلقاً. والإبة: الخزي.

(٢) النساء: ١١٧.

القرآن ذمّ الأُنثىٰ بذمّه العرب من جهة أنهم كانوا يدعون من دون الله إناثاً، فلماذا يدعون الإناث ولا يدعون الرجال؛ فإنهم أكثر قيمة؟ فيقولون: إن الآية في معرض الذمّ للأُنثىٰ، حيث إن عندهم اللات والعزّىٰ وغيرهما من الأصنام إناثاً ـ فإنها تقرؤها: (إن يدعون من دونه إلّا أوثاناً) في قرآنها. وينصّ علىٰ ذلك القرطبي[1]، فهذه عقدة ولّدها المحيط، فهم يرونها من كلّ جنس أخسَّه، وأفضله الذكر.

هذا موقف العرب من المرأة، كما كانوا يخرجونها من البيت إذا جاءها الحيض.

فهذا اللون من التخبّط والجهل كان مصدراً للسلوك، وإلّا فإن «النساء شقائق الرجال»[2] كما هي نظرة الإسلام إليها. وهي نظرة عادلة قائمة علىٰ أساس العدل في النسبة بين الرجال والنساء. مع أن هناك من يقول الآن: إن في الشريعة الإسلاميّة مواقف لا يمكن أن تتحقّق بها المساواة بين المرأة الرجل. وفي الحقيقة إن مسألة المساواة في كلّ شيء غير واردة وغير ممكنة كما في مسألة الزواج، فالرجل يمكن أن نعطيه حقّ التزوّج بأربع في حالات معيّنة، لكن هل يمكن أن نعطي هذا الحقّ للمرأة؟ طبعاً لا، بل هي ذاتها لا ترضاه؛ لأن النسل حينئذٍ يختلط ويضيع، ولا يعرف الولد أباه، وتضيع العواطف ويضيع الجوّ الأُسري بضياعها.

وهذا المعنىٰ نجده حتىٰ عند الحيوانات فإذا شارك ذكر ذكراً آخر أُنثاه فربّما قاتله. فليس كلّ مساواة تحقّق العدل، فهل من الصحيح المساواة بين العالم والجاهل؟

ومن الأشياء التي أخذوها على الإسلام قولهم: لماذا جعلتم دية المرأة نصف دية الرجل؟ والجواب أن المرأة في الإسلام لا تقتل حتىٰ في الحرب إلّا إذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٨٦.

(٢) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ٧٥/ ١١٣.

اشتركت اشتراكاً فعليّاً فيها؛ ولذلك عدّ من العار علىٰ الزبيريّين قتلهم زوجة المختار بن أبي عبيدة:

إن من أعجب العجائب عندي	قتل بيضاء حرة عطبولِ
قتلوها ظلماً علىٰ غير جرم	إن لله درهــا مــن قـتيلِ
كُتب القتل والقتال علينا	وعلى المحصنات جرّ الذيولِ[1]

فصاروا سبّة وصارت عليهم عاراً.

بل إن المرأة إذا رماها أحد بحجر أو عصاً عيّروه. فالإسلام كرّمها؛ لأنها تحمل

(١) الأبيات لعمر بن أبي ربيعة، والقصة هي أنه لمّا أمعن المختار في قتل قتلة الحسين عليه السلام جعلوا يفرّون إلىٰ البصرة التي كانت ولا تزال في ملك الزبيريّين، ففرّ إليها شبث بن ربعي، ومحمد بن الأشعث وغيرهما إلىٰ نحو عشرة آلاف من قتلته عليه السلام، وجعلوا يستغيثون بمصعب ابن الزبير، وكان عاملاً لأخيه علىٰ البصرة، ويسألونه النصر لهم والمسير معهم لحرب المختار بالكوفة. وما زالوا به حتّىٰ استقدم المهلّب بن أبي صفرة بجيوش من فارس وكان عاملاً لهم عليها وسار بذلك الجيش مع من معه بالبصرة إلىٰ حرب المختار. وما زال القتال قائماً بين الفريقين إلى أن قتل المختار رحمه الله في يوم (١٥/ ٩/ ٦٧هـ)، بعد (١٨) شهراً من ملكه.
وبعث مصعب إلىٰ حرم المختار ودعاهن إلىٰ البراءة منه، ففعلن إلّا امرأتين له إحداهما أمّ ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاريّ وثانيتهما عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّ، فإنهما قالتا: كيف نتبرّأ من رجل يقول: ربي الله، وكان صائماً نهاره قائماً ليله، وقد بذل دمه لله ولرسوله صلى الله عليه وآله في طلب ثأر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟
فكتب مصعب إلىٰ أخيه عبد الله بخبرهما، فكتب إليه: إن تبرّأتا منه، وإلّا فاقتلهما. فعرضهما مصعب علىٰ السيف فرجعت ابنة سمرة وتبرّأت منه، وقالت: لو دعوتموني إلىٰ الكفر مع السيف لأقررت. وأبت ابنة النعمان وقالت: شهادة أرزقها، ثمّ أتركها؟ يا رب، إنها موتة ثمّ الجنّة والقدوم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين. ثمّ قالت: اللهم اشهد أني متّبعة لنبيّك وابن بنت نبيّك وأهل بيته وشيعته. فأمر بها مصعب فأُخرجت إلىٰ ما بين الكوفة والحيرة، وقتلت صبراً. وفي قتلها قال عمر بن أبي ربيعة القرشيّ أبياته هذه.
تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣.
والعطبول: المرأة الجميلة الفتيّة الطويلة العنق الشبيهة بالظبية. لسان العرب ٩: ٢٦٥ ـ عطبل.

شرف الأُمومة وكونها ولدت الأنبياء والعباقرة والعظماء، وهي الوعاء الذي يصنع الدنيا، والحضن الذي يُربّي الأخلاق والصدق والوفاء....

فالذي يرزق بحِجر غير نظيف ينتهي إلىٰ كارثة أخلاقيّة حيث يشبّ علىٰ الجرم والانحطاط والتخلّف؛ فهي إذن المصدر للأخلاق. وإذا قُتلت المرأة في حالات خاصّة فإن من حقّ الولي أن يقتل القاتل لكن يدفع نصف الديّة لورثته؛ فيوجد هنا فارق أدبي.

المبحث الثاني: الطلاق وأخطاره الاجتماعيّة

والأمر الأكثر خطورة هو في إعطاء الرجل حقّ الطلاق مطلقاً؛ إذ مع تقييده وجعله وفق شروط معيّنة لا يكون فيه نوع خطورة، بل هو حينئذ يكون من التشريع. وهذه مصيبة وكارثة في المجتمع، فبوسع الطلاق أن يهدم العائلة ويشرّد الأطفال. فبعض المذاهب الإسلاميّة - ويا للأسف - تذهب إلىٰ أن المرأة تطلّق حتىٰ بالنيّة، فإذا نوى الرجل أن يطلق امرأته أصبحت مطلقة[1] والبعض يقول: إن طلاق السكران صحيح[2] مع أن العقل هو مناط التكليف، فالخمرة تشلّ عقله فكيف نقبل طلاقه؟ بل إن البعض يقول: حتىٰ لو غلط صحّ طلاقه، فلو أراد القول: أنت طاهر، لكنه غلط وقال: أنت طالق، فهنا يقع الطلاق، مع أن الإرادة هنا غير موجودة، فكما أن «العقود بالقصود»، فكذلك الإيقاع لا يكون إلّا بقصد حتىٰ يحصل.

وهذه الآراء إما أنها تعتمد علىٰ روايات مخدوشة السند أو هي معارضة بما هو

---

(١) انظر الأم ٥: ١٢٩، ٧: ١٦٦، وقريب منه ما في مختصر المزني: ١٩١، روضة الطالبين ٦: ٢٨، فتح المعين ٤: ٢١.

(٢) مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

أصحّ منها أو لا تلتقي مع الملاك الصحيح بكلمة واحدة. وبعض المذاهب تجعل حقّ الطلاق ليس بيد الرجل فقط بل إنه إذا وكلها في صلب العقد بأن تتولّى الطلاق بنفسها فإن الطلاق يصبح بيدها[١]. لكن ينبغي ألّا ننسى أن المرأة تمتاز بغزارة العاطفة، وهذا ليس عبثاً بل هو لأجل أن تنشر روح اللطف والرقّة في بيتها ، ففي الوقت الذي يقع الرجل فيه تحت طائلة مشاكله، فإنه إذا دخل البيت وجد الدعة والحنان، فزوجته بما لها من خصائص أودعها الله تعالى فيها تمتصّ منه الألم وتخفّف عنه متاعبه. فهي مصدر حنان ورحمة في البيت، وبما أنها خاضعة للجانب العاطفي والانفعالي، فلا يمكن جعل الطلاق بيدها. وكذلك الرجل لما يعيشه من ظروف عمل فإنه قد يكون منفعلاً لحظة ما فإنه حينها وإن طلّق، لا يقع منه الطلاق.

وعندنا ـ نحن الإماميّة ـ أن الطلاق لابدّ فيه من الشهود والإرادة، كما لابدّ من إيقاع الصيغة: (أنتِ طالق)[٢] ولا يقع بغير صيغة، ونضع عقبات قبل الطلاق؛ فـ«الطلاق يهتزّ له العرش»[٣].

إذن هنا حقّ متبادل؛ فالمرأة غالباً عاطفيّة تنفعل بسرعة فلا يكون بيدها الطلاق.

المبحث الثالث: بعض الإشكالات حول تعامل الإسلام حيال المرأة

هناك إشكالات عدّة تثار حول هذا الموضوع ؛ ومنها:

عدم أهليّة المرأة لإمامة الصلاة والقضاء

ومفاد الإشكال أن المرأة لم تُعطَ الأهليّة في الإسلام للأعمال التي يقوم بها الرجال مثل الإمامة لصلاة الجماعة وحقّ القضاء وحقّ الولاية العامّة.

---

(١) وهو ما يسمّىٰ بجعل العصمة بيد المرأة. انظر حاشية الدسوقي ٢: ٤١١.

(٢) النهاية: ٥١١، شرائع الإسلام ٣: ٥٨٣.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ / ٢٧٨٨٠.

نعم، نحن نمنعها؛ لأنها كيان مرغوب فيه ولطيف، فكيف تكون أمام الرجال فتشغلهم عن الصلاة[1]؟ وأمّا مسألة الولاية العامّة فإنما يحظر على المرأة مزاولتها ليس لنقص فيها وإنما لحالة ذكرتها في موضوع الطلاق، فالمرأة تمرّ بها ظروف قاهرة كظروف العادة الشهريّة والنفاس، وتكون فيها عرضة للتأثّر والانفعال والرقّة. وتوجد حالات لا تهيئها للقيام بالولاية أو القضاء، ولكن ذلك لا يمنع من ممارستها أدواراً أُخرىٰ، فالبعض قمن بالتدريس، فمثلاً الإمام الشافعي تلمذ لأمرأة، وتوجد مجتهدات كثيرات، ولا مانع من إسناد الدور العلمي لها، ولها حقّ أن تبيع وتشتري، ولها حقّ في الميراث حيث لها النصف بسبب أن الإنفاق وأُمور المعيشة على الرجل مع بقاء حقّها محفوظاً لها دون أن تطالب بإنفاقه. لكن أقولها ببالغ الأسف: إن بعض الأقلام المأجورة أو الأقلام المغفّلة تحاول تضخيم هذا والاستفادة منه.

عدم إعطاء المرأة حقّ التعلّم

وممّا يثار أيضاً في هذا المجال أن المرأة لم تُعطَ حقّ تعلّم القراءة والكتابة، والواقع أنه توجد رواية عن حمّاد بن سلمة عن عبد الله بن مسعود، عند المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ، وهي: **«لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلّموهن الكتابة»**. ويعلّلها القرطبي بأنها إذا سكنت الغرفة (الحجرة العلويّة) فإنها تعاين الرجل، أمّا الكتابة فحتّىٰ لا تكتب لمن تحب[2]. وهذا من باب «سد الذريعة»، فهل نمنعها من

---

(١) والدليل على ذلك صحّة إمامتها للنساء. انظر: النهاية (الطوسي): ١١٢، السرائر ١: ٢٨١، شرائع الإسلام ١: ٨١، ٩٤، ذكرى الشيعة: ٢٦٧، الأمّ ١: ١٩٩، عون المعبود ٢: ١١٣، المصنف (الصنعاني) ٣: ١٤٠، المصنف (ابن شيبة) ١: ٥٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩، ٢٠: ١٢١، وانظر كنز العمّال ١٦: ٣٨٠ / ٤٤٩٩٩، وفيه: ولا تعلّموهن الكتاب.

المشي؛ لأنها إن أحبّت فستمشي لمن تحبّ، أو تقيّد كي لا تذهب إليه؟ مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١] والإنسان: الذكر والأنثىٰ، والرسول ﷺ يقول: «طلب العلم فريضة علىٰ كلّ مسلم ومسلمة»[٢]، وقد بعث النبي ﷺ للشفاء بنت عبد الله العدويّة وكلفها تعليم زوجته حفصة القراءة والكتابة[٣]، وهو ﷺ يشترط على الأسرىٰ أن يعلّم كلّ أسير عشرة من المسلمين لقاء حرّيّته من دون فرق بين الذكر والأُنثىٰ[٤].

الإيرادات على الإسلام ليست من الإسلام

ثم إنه توجد كثير من القضايا تدور حول المرأة في المجتمع الإسلامي، ويجب أن نعرف هل إنها جاءت من تعاليم الشريعة أو من روافد حضاريّة أُخرىٰ، وإن كانت من الإسلام فهل هي لتصنيف الأدوار أم لتفضيل الرجل عليها؟

إذن فالمرأة مكرّمة في الشريعة الإسلاميّة، ولم يكرّمها أحد كما كرّمها الإسلام؛ فقد جعل الجنّة تحت أقدامها[٥].

المبحث الرابع: في معنى ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ في الآية

فالآية تقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، و﴿مِن﴾ للتبعيض؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل كلّ الصالحات: ﴿لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا﴾[٦]. و﴿الصَّالِحَاتِ﴾ اختلف في تفسيرها، فالبعض يقول: إن الصالحات هي ما نصّ

---

(١) العلق: ٥.

(٢) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤: ٥٧، المعجم الكبير ٢٤: ٣١٦، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٨٤.

(٤) أوائل المقالات: ٢٢٦.

(٥) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، ١: ١٠٣ / ١١٩، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩. (٦) البقرة: ٢٨٦.

عليها الشرع أنها صالحات، مثلاً لو لم يقل الله: إن الكذب حرام؛ فإنه يجوز الكذب حتىٰ على النبي ﷺ. وهذا ما يسمىٰ بالحسن والقبح الشرعيّين، كما أنه يوجد حسن وقبح عقليّان، وقد عبّدنا الشارع بالعقول.

فـ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ ألّا يؤدّي عملاً يضرّ بالمجتمع حيث إنه باعتقاده أنه عمل صالح في حين أنه لا يلتقي مع أذواق المجتمع ومع الشريعة، فيتقرّب بشيء يبعده عن الله. فالمجتمع إذا أقرّ بشيء فعلينا أن نحكّمه.

﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[1] من غير فرق بينهما.

المبحث الخامس: الفرق بين القبول والجزاء

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[2]، قد يقول قائل: إذا عمل شخص عملاً صالحاً وهو غير مؤمن فهل إنه لا يقبل منه؟ والجواب أن القبول غير الجزاء، فإذا ابتكر عالم غير مؤمن علاجاً للسرطان أو وسيلة تخدم المجتمع فهل يكون له جزاء من الله؟ بعض الفقهاء يقولون: إن هذا العمل لوجه الله، فوجه الله هو محض الخير، وهذا فعل الخير، لكن دخول الجنّة مشروط بالإيمان؛ لذلك يكافئه الله بعمر طويل أو مركز اجتماعي أو مجد في الدنيا أو سعادة وخير. بل إننا قد رأينا أن حضور غير المؤمن حتّىٰ في قضايا المسلمين حضور واسع؛ فالمسلمون مرّوا بنكبات كالشيشان والكوسوفو وفلسطين، فمن الذي أنقذهم ووفّر لهم اللباس والمسكن؟ نرىٰ إسهامات المسلمين قليلة جداً، فأين نحن من «المسلم للمسلم عينه ويده ولسانه»، و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]؟ فأبناء المجتمعات الأُخرىٰ يتعاطفون ويتراحمون ولا يعتدون علىٰ حقّ الآخر، وكلٌّ يسير ضمن القانون ويتناصفون به، ونحن لا نريد أن نقول: إن مجتمعهم مثالي، لكن مجتمعنا يعجّ بالنقائص.

---

(١) آل عمران: ١٩٥. (٢) النساء: ١٢٤.

(٣) الحجرات: ١٠

وعلىٰ أيّة حال فالمرأة في شريعتنا لم تُظلم، وإذا ظـلمت فـإما مـن مـيراث اجتماعي، أو من أثر إحدى الحضارات التي تأثّرنا بها، أو من أسباب وضعيّة، أما الإسلام فلم يظلمها، فالله لا يظلم أحداً وهـو بـعباده غـفور رحـيم، وقـد كـرّم الآدميين[1].

المبحث السادس: الدور الحقيقي للمرأة في الإسلام، زينب أنموذجاً

ولنأخذ نموذجاً للمرأة وهي زينبعليها السلام التي يعبّر عنها أحد الشعراء بقوله:

يـاابـنة المـجد فـي ذرا آل فـهر	وابنة الوحي فـي مـدىٰ جـبريلِ
يـــانسيجاً بـــه مـزاج عـلـي	وهـدىٰ أحـمد وزهـو البـتولِ

وفعلاً هكذا كانت (سلام الله عليها)، يقول الشيخ الصدوق: كـانت لهـا نـيابة خاصّة عن الحسينعليه السلام[2]، فما السبب الذي أخرجها من بيتها وهي زوجة عبد الله ابن جعفر؟ وكيف خرجت من بيتها مع أولادها الاثنين (محمد) و(عون) اللذين قتلا في الطف؟

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠.

(٢) نقل في ذلك رواية في كمال الدين وتمام النعمة: ٥٠١ / ٧٢، ٥٠٧ / ٧٢، قـال: حـدثنا أحمد بن إبراهيم قال: دخلت على حكيمة بنت محمد بن علي الرضاعليه السلام أخت أبي الحسن العسكريعليه السلام في سنة اثنين وثمانين بالمدينة، فكلمتها من وراء الحجاب وسألتها عن دينها فسمت لي من تأتمّ به، ثم قالت: فلان بن الحسنعليه السلام، فسمته، فقلت لها: جعلني الله فداك، معاينة أو خبراً؟ فقالت: خبراً عن أبي محمدعليه السلام كتب به إلى أمه. فقلت لها: فأين المولود؟ فقالت: مستور. فقلت: فإلىٰ من تفزع الشيعة؟ فقالت: إلى الجدة أم أبي محمدعليه السلام. فقلت لها: أقتدي بمن وصيته إلى المرأة؟ فقالت: اقتداء بالحسين بن عـلي بـن أبـي طـالبعليه السلام، إن الحسين بن عليعليه السلام أوصىٰ إلى أخته زينب بنتَ علي بن أبي طالبعليه السلام في الظاهر، وكان ما يخرج عن علي بن الحسينعليه السلام من علم ينسب إلى زينب بنت علي تستّراً على علي بن الحسينعليه السلام.

وعنه بنصّه في وفيات الأيمّة (لمجموعة من علماء البحرين): ٤٤٠.

موقف لعبد الله بن جعفر

وقد حاول أحد غلمان عبد الله بن جعفر التزلّف له بعد واقعة الطفّ، فقال له ناعياً ولديه: هذا ما لقينا من الحسين بن علي. فأخذ عبد الله نعله وحذفه به وقال: يابن اللخناء، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألّا أفارقه حتىٰ أُقتل معه، والله إنه لممّا يسخي بنفسي عنهما ويعزّي عن المصاب بهما أنهما أُصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه. ثمّ قال: إن لم أكن آسيت حسيناً بيدي فلقد آساه ولداي[1].

خرجت زينب﵂، وأناط بها الحسين﵇ مجموعة من الوظائف منها قيادة الحملة مع ما فيها من الرجال والنساء، فالحسين﵇ يوظّفها لدور الإسلام في واقعة الطفّ، فنرىٰ موقفها في ليلة العاشر من المحرم وموقفها في صبيحته وموقفها بعد المعركة في مجلس ابن زياد ثم في مجلس يزيد، نراها تمارس دورها الإعلامي علىٰ أتمّ وجه، وهو دور بطولي شرحت فيه للناس ما صنع الأُمويّون، ثم مارست ذلك الدور في المدينة، ممّا اضطرّهم لأن يخرجوها من المدينة وينفوها منها إلىٰ مصر علىٰ رأي بعض الروايات أو إلىٰ الشام علىٰ رأي البعض الآخر[2]، والروايات متكافئة.

وهذا ليس مهمّاً، فزينب محفورة في قلب كلّ مسلم، يقول الشيخ الصدوق: دخلت على الحسين﵇ ليلة العاشر وهو يقرأ القرآن، فوضع القرآن على المحراب وتوجّه إليها واشترك معها في المصائب. وكانت شريكته في الكفاح، فعندما رجع الحسين ولم يبقَ أحد يجلب له فرسه أو يناوله سلاحه وقف بباب الخيمة وهو

---

(١) الإرشاد ٢: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٤، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧.

(٢) انظر: وفيات الأيمة: ٤٦٧، ٤٦٨، مستدرك سفينة البحار ٤: ٣١٦ ـ ٣١٧، من كتاب السيدة زينب.

يقول: «من يقدّم لي جوادي؟». فمرّت زينب بتثاقل وجاءته بالجواد وهي تتمتم بهدوء وتقول: أي أُخت تقدّم لأخيها فرس المنيّة؟ ما أجلدني وما أقسىٰ قلبي؟ جاءت بالجواد فلمح الحسين عليه السلام في عينيها دمعة، فأدناها إليه قال لها: «أُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة حسنة. أُخيّة تمسكي بحبائل الصبر»[1]. صاحت: والوعتاه ابن أمّ أراك تغتصب نفسك اغتصاباً[2]:

آه إن چـان تـريدني أمسـي	ابـطل النـوح وونـيني
إخـذ ذكـراك مـن گـلبي	واخـذ صـورتك مـن عـيني
أيـام الچـنت ويـاك	أنـاغيك وتـناغيني

ولم يُطل الإمام الحسين عليه السلام الوقوف معها؛ لأنه تأثّر وانفعل، فمسح بيده على كتفها وودّعها بسرعة، وكأنها تقول له: إن خرجت من الخيمة فلم تخرج من مشاعري. ثم خرجت إليه نصف الليل بعد مقتله:

منهو انصدع يا بين صدعي	لهدات تسعر تحت ضلعي
أخـبي عـن الشـفات دمـعي	واضمّ ونّتي حتى على سمعي

واذكرك بنصّ الليل والعي

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.



﴿١٥﴾

الجوار في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

يعتبر المفسّرون هذه الآية من أُمّهات الكتاب؛ لما فيها من مضامين أخلاقيّة ضخمة، وكلّ ما في القرآن الكريم عطاء بلا شكّ، لكن هذه الآية تعتبر من أركان الإسلام؛ لما تضمّنته من مكارم أخلاق وأُمور هامّة تدور حول قضايا اجتماعيّة وواقعيّة تمسّ المجتمع عبر تعرّضها لقضيّة خاصّة شخصيّة، وهذا ما سنطّلع عليه خلال البحث إن شاء الله.

المبحث الأول: معنى القربى وأقسامها

ولنبدأ بالآية جزءاً جزءاً، فنقول: ﴿وَالجَارِ ذِي القُرْبَى﴾، اللفظة في القرآن الكريم تارة تحتمل أكثر من معنى وتارة لا، أي يكون لها معنى واحد، وهذه الفقرة من الآية تحتمل أكثر من معنى، فيجب أن نلتمس القرائن والأدلّة لنتمكّن من تعيين المراد، فـ﴿القُرْبَى﴾ لفظ يقع على معنيين: القربى المادّيّة، والقربى المعنويّة:

---

(١) النساء: ٣٦.

القرابة المعنويّة

وهي تتمثّل في العقيدة أو الإسلام، فالمسلم قريب المسلم وأخوه، كمن له جار مسلم يشاركه في العقيدة فقط دون القرابة. فالجار المسلم له ثلاثة حقوق عليك: حق الجوار وحق الإسلام، وإذا كان قريبك فله حق القرابة أيضاً. فالله تبارك وتعالىٰ يأمرنا بالإحسان إلى الجار الذي تربطنا به عقيدة، وهذا الإحسان ليس له وصفة محدّدة عند المشرّع الإسلامي وإنما هو يترك ذلك للمجتمع؛ فعندما نقول لأحدنا: أحسن إلىٰ جارك، فإنه يفهم من أننا نطلب منه ألا يؤذي جاره ولا يُسيء إليه وأن يحفظ عرضه ويصون بيته وماله وأن يتفقّده في غيبته وجوعه. ونحن عندنا حضارة في هذا المجال عريقة إلىٰ حدّ أن عدي بن حاتم كان إذا رأىٰ قرية من النمل رجع وفتّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول: هؤلاء جيراني[١].

وأيمتنا أكّدوا كثيراً علىٰ هذا المعنىٰ باعتبارهم الروافد الحقيقيّة في الإسلام، فالإمام زين العابدين في رسالة الحقوق يخصّص فصلاً لحقوق الجار[٢]. وبطبيعة الحال فإن الإمام زين العابدين يمثّل رافداً من روافد الإسلام، وكان إذا جنّه الليل يشرف على القدور ويقول: «اغرفوا لآل فلان، اغرفوا لآل فلان»[٣].

وهذا معنىً سامٍ، فالجار ـ حتىٰ إذا كان شبعاناً ـ لكن حينما تهدي له ويهدي إليك فإن هذه الحالة تعتبر وسيلة من وسائل التقرّب والمودّة، وتعبيراً إنسانياً يمثّل

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.
(٢) رسالة الحقوق ضمن بحار الأنوار ٧١: ٧.
(٣) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

صورة حضاريّة مشرقة. ولكن ببالغ الأسف أقول: إن العقائد يجب أن تقرّب ما بين الناس لا أن تفرقهم، سيما إن كانوا متجاورين، فالعقيدة ينبغي أن تجمع بين الناس وتذوّب الخلافات وتخلق جوّاً ناعماً بينهم، والذي يحدث الآن أن بعض الجيران يمتنع عن أكل طعام تقدّمه إليه بحجّة أنه من ذبيحة ذبحت لأجل الحسين عليه السلام وأُهدي ثوابها إليه؛ فهو لغير الله. ونحن نقول لهم: بأي دليل ومدرك تمتنعون عن أكل هذا الطعام، مع أن جمهور المسلمين علىٰ وصول الثواب إلى الميّت من قراءة قرآن أو طعام يهدىٰ ثوابه إليه[1]؟ فهل من الخلُق الامتناع عن طعام يهدىٰ لسيّد شباب أهل الجنة؟ ولكن: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2].

القرابة المادّيّة

وهو القريب منك. وعلىٰ هذا الرأي ما هو مجال المسؤوليّة هنا؟ بعض الروايات ترىٰ أنه ما بينك وبين أربعين بيتاً[3]، وبعض الفقهاء يرىٰ أنه ما بينك وبين أربعين ذراعاً[4].

والواقع أن هذا لا يمكن تحديدهُ؛ ولذا فقد أوكل الشرع تحديده إلى العرف، فالشارع ليس له اصطلاح به، وما يفهمه العرف والرأي العام من كلمة (جار) هو المعوّل عليه، فحينما يقول: ابن محلّتي التي أسكنها هو جاري، فعندها تكون هي الحدّ؛ لأنه المعنى الذي تفاهم عليه العرف. وهذا هو الذي أمرنا الله عزّ وجلّ

---

(١) انظر: روضة الطالبين ٥: ١٨٥، حواشي الشيرواني والعبادي على تحفة المحتاج ٧: ٧٣، حاشية ردّ المحتار ٢: ١٦٦. (٢) القصص: ٥٦.

(٣) الكافي ٢: ٦٦٩ / باب حدّ الجوار، وسائل الشيعة ١٢: ١٣٢ / ١٥٨٥٥ ـ ١٥٨٥٨، فتح الباري ١٠: ٣٧٤.

(٤) انظر الخلاف (الطوسي) ٤: ١٥٢، وفيه: إذا أوصىٰ بثلث ماله لجيرانه فرّق بين من يكون بينه وبين داره أربعون ذراعاً. ومثله في المبسوط ٤: ٤١، المهذب (ابن البراج) ٢: ٩١.

بالإحسان إليه بأن نستر عورته وأن نشبع جوعته وأن نتعامل معه علىٰ أساس من الأخلاق؛ ولذلك كان الأئمة يستعيذون بالله من أن يكونوا بقرب جار يؤلمهم[1].

المبحث الثاني: معنى ﴿الجَارِ الجُنُبِ﴾

وهو إمّا البعيد عنك في العقيدة ككونه مسيحيّاً وأنت مسلم، وهذا لا يمنع من أن تلاقيه وتلقيَ عليه التحيّة ويلقيَها عليك، غاية الأمر أنك لا تحيّيه بتحيّة الإسلام وإنما تقول له: نهارك سعيد، أو مرحباً بك، أو طاب يومك، وما بمعنا هذا، وليس به بأس. وهذا جانب من الأخلاق التي أراد لها الشارع أن تنتشر بين الناس كوسيلة وطريقة لأداء حقّ الجيرة فالإحسان إلى الجار بهذا الشكل مطلوب ولو كان كافراً؛ لأننا نريد أن نبرهن لهم أننا علىٰ شريعة سمحاء، ويعرفوا بأننا لا نعاديهم لدينهم. وإذا كان البعض يرموننا بالعنصريّة متذرّعين بمواقفنا تجاه اليهود؛ فنحن نقول لهم بأنا لم نحارب اليهود لأنهم يهود، بل إنهم عاشوا ما بين أظهرنا ولم نحاربهم، لكن لمّا حاربونا وأخرجونا من ديارنا وقتلونا وسفكوا دماءنا حاربناهم، فنحن لم نحاربهم من أجل عقيدتهم، بل إنا نقرّ بالعقائد القادمة من السماء ونحترمها ونكرمها، غاية الأمر أنها ختمت بالدين الإسلامي، وهذا ما يتوجّب علينا أن نبلّغه للعالم، وعلىٰ أساسه نتعامل مع الآخرين بروح المواطنة.

آراء المفسّرين في معنى ﴿الصَّاحِبِ بِالجَنْبِ﴾

وفي ﴿وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ﴾ للمفسّرين عدّة آراء:

---

(١) في دعاء للسجاد: «اللهمّ إنّي أعوذ بك ... ومن جار سوء تراني عيناه وترعاني أُذناه؛ إن رأىٰ شرّاً طار به، وإن رأىٰ خيراً كتمه». انظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٨، ونسبه إلى الرسول في مجمع الزوائد ١٠: ١٨٣، المعجم الأوسط ٦: ١٩٩، وفيهما: وبالاً، بدل: كلّاً، وقد مرّ.

الرأي الأوّل: أنه رفيقك في الدراسة

وهذه من باب تطبيق المفهوم علىٰ مصاديقه، فالطالب يجلس مع طالب علىٰ كرسي واحد فيكون صاحبه بجنبه. فالمشرّع الإسلامي يأمر بأن تسود بينهما شريعة الأخلاق، فيجب أن أُساعده وأنفعه بكلمة، وإذا بدرت منه حركة غير موزونة أُرشده وأُوجّهه؛ لأنّ علاقة ما قد وقعت بيني وبينه ربطتني به، ويترتّب علىٰ هذه العلاقة التزامات منها أن أُحسن إليه. وعليه، فالمقصود به: شريكك في الدرس. وعلىٰ هذا المعنىٰ فتحنا أعيننا، ففي الحواضر الإسلاميّة التي تدرّس العلوم الإسلاميّة كالنجف مثلاً أو الأزهر الشريف أو قم أو العتبات المقدّسة الأُخرىٰ التي فيها جاليات مختلفة تجد أن روّاد هذه المدارس يشتركون في الدروس والأكل والحديث، وتسودهم روح الانسجام والمحبة وطلب العلم والخلق.

الرأي الثاني: أنه شريكك في العمل

كأن تكونا في معمل أو متجر أو ورشة، تشتركان في عمل واحد يربطكما بنوع من الارتباط. واللازم هنا ألّا يكون تعاملكما جافّاً خشناً، بل يجب أن يتّسم بالمرونة والعطاء الإنساني، فهذا جارك بالعمل، وهو صاحبك بالجنب.

الرأي الثالث: أنه رفيقك في السفر

وهو يتحقّق حتّىٰ ولو كان سفركما لفترة قصيرة؛ إذ خلال هذه الفترة قد يحصل بينكما حديث وتعارف، فلابدّ حينئذٍ من أن تعامله كما رسم الإسلام لك بحيث إنك تترك أثرك فيه فيحمل عنك انطباعاً حسناً إلى الحدّ الذي لو تركته معه فإنه سيشعر أنه قد افتقدك. وما كان خلاف هذا فليس من خلق الإسلام في شيء، بل إن خلق الإسلام أن تعطي رفيقك في السفر كما تأخذ منه.

وكان السجاد ﷺ إذا خرج في سفر مع قافلة انفرد عنها، ولما قيل له في ذلك

أجاب بأن الناس يعرفون أنه ابن رسول الله وسوف يكرمونه لأجل النبيﷺ بما لا يستطيع مكافأتهم بمثله؛ فلهذا ينفرد عنهم ولو تمكّن من مكافأتهم بمثل ما أكرموه به لما انفرد عنهم.

وهذا هو الذي نريد أن نكون عليه في سفرنا: أن نعطي كما نأخذ لا أن نأخذ فقط. ومن غير اللائق أنك تجلس إلىٰ جانب رفيق لك في سفر ثم لا تكلمه، بل لابدّ من مجاذبته أطراف الحديث وتجالسه علىٰ خوان واحد وتؤاكله، وهذا كلّه من الأعمال المحبّبة إلى الله[1].

الرأي الرابع: أنه الزوجة

وربّما يعترض معترض بأن الزوجة لا تحتاج إلىٰ توصية للعناية بها؛ فهذا أمر فطري، فكلّ إنسان منسجم مع زوجته يعتني بها ويهتم بأمرها؛ فكلاهما يكمّل الآخر. فما وجه توصية المشرّع إذن؟ فنقول له: إنه ليس كلّ الأزواج منسجمين، فضلاً عن أن البعض ربّما يكون قد انخدع بزوجه، زيادة علىٰ أن هناك من الرجال من يميل بطبعه إلى التطليق، فهو إما من ملل يصيبه أو أنه مذواق، كما ورد أن النبيﷺ سأل شخصاً عن زوجته فقال: يارسول الله طلّقتها وتزوّجت غيرها، ثم سأله بعد فترة فأجابه بالجواب عينه، فقال لهﷺ: **«إنك مذواق مطلاق»**[2].

وهذا كثيراً ما يحصل، فالرجل بعد فترة من زواجه يبدأ الملل بالتسلّل إليه فيهجر زوجته أو يلجأ إلىٰ إيذائها، والقرآن الكريم يقول: **﴿وَلا تَنسَوُا الفَضْلَ**

---

(١) قال رسول الله: «ثلاثة من الجفاء: أن يصحب الرجلُ الرجلَ فلا يسأله عن اسمه وكنيته، وأن يدعى الرجل إلى طعام فلا يجيب أو يجيب فلا يأكل، ومواقعة الرجل أهله قبل المداعبة».
قرب الأسناد: ١٦٠، وسائل الشيعة ١٢: ١٤٥ / ١٥٨٩٤، المعجم الصغير ٢: ١١٥، كنز العمّال ٩: ٣٦ ـ ٣٧ / ٢٤٨١٣ ـ ٢٤٨١٤.

(٢) وردت عدّة أحاديث بلعن المذواق المطلاق. انظر البحر الرائق ٢: ٤١٢.

﴿بَيْنَكُمْ﴾[١]. لماذا؟ لأن المرأة خلال هذه الفترة قد أعطت كلّ ما عندها وأنت كذلك، فأيام الفضل والمودّة بينكما موجودة فلا تنسياها، ولا تدعاها تذهب هباءً، هي أعطتك ما لم يظفر به أبوها منها وأنت كذلك، فلا وجه حينئذٍ لنسيان هذا: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾[٢].

والزوجة لابدّ أن تتّصف بمواصفات معيّنة كي تستحقّ تلك التوصية والرعاية، جاء رجل لرسول الله ﷺ فقال له: يارسول الله، أخطب المرأة الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[٣]؛ لأن ذات الدين يحملها دينها على رعاية زوجها وحفظ بيته في غيابه والتضحية من أجله، والزوج ينبغي أن يواجهها بمثل ذلك؛ لأنهما كليهما جزء النواة التي ستكوّن المجتمع الذي يصلح بصلاحهما ويفسد بفسادهما.

ودور الوصيّة هنا التذكير بما يجب لو طرأ على العلاقة نوع فتور أو تنافر؛ فإنه يجب مع ذلك ألّا يضيع أحدهما حقّ الآخر. وربّما كانت المشكلة هي أننا لم نلجأ إلى الحلّ من البداية، بل كان لجوؤنا إليه بعد وقوع المشكلة، ولو رجعنا إلى الآداب الإسلاميّة في اختيار الزوج والزوجة والتي يذكرها فقهاء المسلمين لاستغربنا من تطوّر الفكر الإسلامي في هذا المجال، ولوجدنا أن مكاتب الزواج التي أُنشئت حديثاً في أوروبا ليست حديثة عهد في الإسلام، بل هي معروفة ومقرّرة عنده منذ بدء نزول التشريع. ومن المواصفات التي وضعها الإسلام قوله ﷺ: «تخيّروا لنطفكم»[٤].

والبعض حينما يملك الثروة نراه يتزوّج من بلد أوروبي مع أن حضارتهم غير

---

(١) البقرة: ٢٣٧. (٢) الروم: ٢١.
(٣) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.
(٤) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

حضارتنا؛ ومن هنا قد لا يحصل الانسجام. وأمام زوال الفورة الجامحة التي دعتك إلى الزواج منها ترىٰ أنك شيء وأنها شيء آخر مختلف تماماً، وعندها يحصل الطلاق، والمتضرّر الوحيد هنا هم الأطفال، فلم هذا وأنت مسلم تعيش في بلد إسلامي، والله مكّنك من التزوّج ممّن تحفظك وبيتك في غيابك، هذه المرأة التي تشترك معك في دينك وعقيدتك وعاداتك وتقاليدك وأخلاقك؟

فالمقصود هنا: أن الإنسان يجب أن يختار من تلائمه في حياته كيلا يقع المحذور، فالعلاقة الزوجيّة ليست علاقة عابرة كي تتمّ بهذه الصورة، بل سيكون هناك رباط وأطفال بحاجة إلىٰ تربية ورعاية وعناية وتوفير جوّ معتدل لهم يعيشون فيه مراحل حياتهم ودراستهم كي نعدّهم للحياة. فإن لم يجد الطفل هذا فإنه سيلجأ إلى الشارع، وما الذي سيجده في الشارع؟ سيجد مجاميع المجرمين والقتلة وباعة المخدّرات، هؤلاء قتلة الخفاء وأصحاب معاول هدم الأُسر. وهو داء عضال ينبغي عدم الإعانة عليه، وإلّا فهل يرضىٰ أحدنا بأن يرىٰ أخاه يتلوّىٰ أمامه من هذا السّمّ؟ فمسؤوليّة المجتمع ككلّ التعاضد من أجل محاربة هذا الداء الوبيل ومجابهته بكلّ الوسائل، وأولىٰ وسائل مجابهته حفظ البيت من قبل الأب والأُم وعدم التفريط بهذه العلاقة؛ كي ينال الأطفال التربية الحقّة: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[1].

المبحث الثالث: أنواع المشي والاختيال فيه

﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً**﴾[2]، المختال: هو الذي تحسّه يمشي علىٰ قلبك لا على الأرض، فهو بمشيه هذا كأنه يمزّق قلب من يراه؛ لأنه يخالف الأمر الإلهي، وهو بعكس ﴿**عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً**﴾[3] وهو

---

(١) المائدة: ٢. (٢) النساء: ٣٦.

(٣) الفرقان: ٦٣.

تعبير شفّاف يصف عباد الرحمن دون عباد الهوىٰ والغرائز والأنانيّة. فالمتكبّر لا يعرف النبضة الإنسانيّة؛ والله بهذا يبغضه. فالاختيال إذن يتعلّق بحركة الجسم من مشي وتمطٍّ[١].

أنواع المشي ودلالاته

وقد بحث العلماء في هذا المجال الذي أطلقوا عليه اسم (علم الحركة الجسميّة) أو (كنسج) كما يسميه بيير ووسل في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه أي علم حركة الأجسام، والذي صدر عام (١٩٥٢م). والمشي له دلالات بحسبه:

١ - **مشية الشيخ**، قال الشاعر:

زعــمتني شيخاً ولست بشيخٍ ... إنـما الشـيخ مـن يـدبّ دبـيبا[٢]

وقال آخر:

حــنتني حـانيات الدهـر حـتىٰ ... كأنــي خــاتل أدنـــو لصـــيدِ

قريبَ الخـطو يـحسب مـن يـراني ... ـولست مــقيّداً ـ أنــي بــقيد[٣]

أي لتقارب خطاه تحسبه مقيّداً، فهذه مشية الشيخ.

المأمون يعرف آثار الخمرة على الإنسان

٢ - **مشية السكران**، وصاحبها يترنّح فيعرف بها أنه كذلك. دخل أحدهم على المأمون وأنشده:

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾.

(٢) العين ١: ٣٦٦ ـ زعم.

(٣) البيتان لحنظلة بن الشرقي، أبي الطمحان القَيني، وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهليّة، عُمِّر مئتي سنة. الآمالي (الطوسي) ١: ٣٥، الإصابة في تمييز الصحابة ٢: ٢١٠٦/١٥٦، كتاب العمر والشيب: ٧١، وفيه الطيخان، بدل: الطمحان، لسان العرب ١١: ١٩٩ ـ ختل، والترجمة من الإصابة.

إذا ما احتساها شارب ذو صبابة   تمشت به مشي المقيّد بالوحلِ[1]

فالتفت إليه المأمون وقال: يريبني وصفك لها. فقال له: ويريبني معرفتك بها. أي يبدو أنك تعرفها.

٣ – **مشية الرمل**، يروىٰ أن النبي ﷺ لما أراد العمرة مع أصحابه قال لهم: «إذا أردتم المرور بين الصفا المروة فأرملوا»[2]، أي اركضوا.

والسبب في ذلك أن قريشاً قالت: إن محمداً وأصحابه عندما ذهبوا إلى المدينة مرضوا ـ حيث إن في المدينة حمّى ـ واصفرّت وجوههم، فنستطيع القضاء عليهم. فأراد لهم ﷺ أن يظهروا قوّتهم للمشركين، وأن يبين لهم أنهم علىٰ خير ما يرام. وقد ذكر الفقهاء أن الشخص يستحبّ له أن يرمل عند السعي[3].

٤ – **مشية الخبب**، وهي كمشية الخيل إذا أسرعت في السير.

٥ – **مشية الخيزلىٰ**، وهي مشية فيها تكسّر كمشية النساء.

٦ – **مشية الهيذبىٰ**، وهي التي يهذب فيها[4]. قال أبو الطيّب في مقصورته:

ألا كــلّ مـــاشية الخـيزلىٰ   فــداء لمـــاشية الهـيذبىٰ

فمشية الخيزلىٰ مشية تتكسّر كمشية النساء، وهو ما يحاول أن يتظاهر به بعض

---

(١) ولمشي المقيد اسماء كثيرة ذكرها صاحب لسان العرب: فمنها الكردسة ٦: ١٩٦ ـ الكروس، الكرفسة ٦: ١٩٦ ـ كرفس، والحصحصة ٧: ١٦ ـ حصص، والرسيف ٩: ١١٨ ـ رسف، والطابقة ١٠: ٢١٣ ـ طبق، والحجل ١١: ١٤٤ ـ حجل، والتأملة ١١: ٦٨٠ ـ نأمل، وذكر صاحب القاموس المحيط: ٢٤٥ ـ كرسي أن منها الكربسة.

(٢) منتخب مسند عبيد بن حميد: ٢١٩ / ٦٥٥.

(٣) النهاية (الطوسي): ٢٤٥، السرائر ١: ٥٧٨، المجموع ٨: ٤٢ ـ ٤٣، روضة الطالبين: ٣٦٧ـ٣٦٨.

(٤) وهو ضرب من مشي الخيل، اسم من (هذب يهذب) إذا أسرع في السير، ويأتي بالدال بدل الذال. تاج العروس ١: ٥١٣ ـ هذب.

الشباب الذين حينما تنظر إليهم تبكي الرجولة الضائعة عنده، وكأنه قد نسي أنه يجب عليه أن يجعل نفسه فيما أعطاه الله من صفات لا فيما أعطى المرأة منها؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المتشبّهات من النساء بالرجال ولعن الله المتشبّهين من الرجال بالنساء»[1].

فكما نجد ذلك عن الرجال نجده عند النساء اللواتي يرتدين البناطيل ويركضن أمام الرجال في المنتديات والشوارع. فأين العفّة أيتها المرأة المسلمة؟ أنسيتِ أن جمالك في عفافك لا في مظهرك؟

وهاتان الكلمتان الواردتان في مقصورة المتنبّي إنما وردتا في أروع قصيدة، وصاحبها لا تنكر شاعريّته، لكن ببالغ الأسف أقول: إننا لا نكرّم أُدباءنا ولا نضعهم في مواضعهم التي تليق بهم؛ مما يضطرّهم ويلجئهم إلى التكسّب بالمدح، فبمدحهم الجبابرة يحصلون علىٰ لقمة عيشهم، أما لو ترفّع عن المدح فإنه لا يحصل علىٰ لقمة الخبز أبداً، ورحم الله القائل:

وما عكفت بقرباني علىٰ صنم ... أكرمت شعري لأهل البيت قربانا

فالعلم والأدب حريّان بأن يكرما.

فكلّ نوع من أنواع المشي يدلّ علىٰ شيء كما يقول بيير ووسل، كدلالته علىٰ الشيخوخة أو الرجولة أو الأُنوثة أو علىٰ قضايا فسلجيّة أو نفسيّة.

ابن القيّم يقسم المشي إلى عشرة أقسام

وهذا ليس بجديد علىٰ تاريخنا؛ فقد تعرّض له علماؤنا في مؤلّفاتهم، فابن قيّم الجوزيّة في كتابه (زاد المعاد)[2] يقسم المشي إلىٰ عشرة أقسام، وكلّ قسم له

---

(١) الكافي ٥: ٥٥٢ / ٤، مسند أحمد ١: ٣٣٩.

(٢) زاد المعاد ١: ١٦٨ ـ ١٦٩.

دلالته الخاصّة، ومنها الاختيال، وهو منهي عنه إلّا في الحرب، رأى الرسول ﷺ أبا دجانة الأنصاري في إحدىٰ المعارك يختال بمشيته، فقال: «إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلّا عند القتال في سبيل الله»[1]. والسبب في محبوبيّتها هنا أنك توحي بها لأعداء الإسلام عدم اكتراثك بهم، وهذا دليل القوّة. قال المعرّي:

سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً علىٰ رفات العبادِ

خفّف الوطء ما أظنّ أديم الـ ... أرض إلّا من هذه الأجسادِ[2]

فأنت بمشيتك الخيلائيّة وتصعير خدّك إنما تدوس علىٰ خدود من سبقك إلىٰ رمسه، خدود كريمة دفنت تحت التراب، وكلنا سيذهب إلى التراب. هذه هي الحقيقة المرّة المؤلمة، فالمتكبّر المتعجرف يقال له: لا تمشِ علىٰ رؤوس الناس بهذا النوع من الاختيال، بل امشِ رويداً رويداً: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[3]، وآية أُخرىٰ تقول: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[4].

إذن الاختيال هو عبارة عن المشي الذي يعبّر عن تيه وصلف وتكبّر، والمفسّرون يربطون بين عقب الآية وصدرها، ويقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[5] يعني أنه تعالىٰ أمر بمعاملة الجار باللطف والإنسانيّة ونهىٰ عن أن يكون المرء مختالاً فخوراً متكبّراً علىٰ الناس ومنهم جاره.

---

(١) الكافي ٥: ٨ / ١٣، شرح نهج البلاغة ١٧: ١١٤.

(٢) سقط الزند: ٩٧٤ ـ ١٩٧٥، شرح نهج البلاغة ١١: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) الفرقان: ٦٣. (٤) لقمان: ١٩.

(٥) النساء: ٣٦.

المبحث الرابع: الجوار جواران: عفوي ومتعمّل

وبعد الإلمام بمكارم الأخلاق في الآية نرجع إلى الجوار: ﴿وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ﴾ ما معناه؟ الجوار جواران: جوار عفوي، وجوار فيه تعمّل.

فالجوار العفوي أن يأتي أحد ويشتري بيتاً بجانبي فيصير بذلك جاري، أو يشتري قطعة أرض بجانب أحد فيصير جاره، فتترتّب له وعليه حقوق الجوار.

أما الجوار الذي فيه تعمل فهو أن يستجير بك أحد فيقول لك: أنا مطلوب أو معرّض لخطر وبيتك فيه أمان لي. وهذا المعنىٰ يضمنه الإسلام حتىٰ للمشركين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[1] فحتّىٰ لو كان هناك مشرك يستجير بالمسلمين فإنه يتعيّن على المسلمين أن يجيروه ويوفّروا له الأمان ويدعوه إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة[2]؛ فإن قبل فيها وإن لم يقبل فلا يُساء إليه وإنما يُخرج للمكان الذي يأمن فيه[3]. فالمشرك إذا طلب أن

---

(١) التوبة: ٦.

(٢) قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. النحل: ١٢٥.

(٣) ومن مفارقات التاريخ وعجائبه أن الخوارج كانوا يجيرون المشركين ولا يجيرون المسلمين، ففي (الكامل) للمبرّد أنّ أبا حذيفة واصل بن عطاء، رأس المعتزلة أقبل في رفقة من أصحابه، فأحسّوا في الطريق بجماعة من الخوارج، وكانوا يعترضون من يمرُّ بهم، فإن كان غير مسلم تركوه واستوصوا به خيراً، وإن كان مسلماً سألوه عن رأيه في أشياء منها عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، فإن أحسن فيه القول قتلوه، كما قتلوا عبدالله بن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه.

فقال واصل: دعوني وإيّاهم. فقالوا: شأنك. فخرجوا إليه يسألونه: ما أنتم؟ يستفهمون عن دينهم، فقال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله. فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلّمونا. فجعلوا يعلّمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلت أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين ـ أي بسلام منّا وأمان ـ فإنّكم إخواننا. قال: ليس ذلك لكم؛ إنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، فأبلغونا مأمننا. فقالوا: ذلك لكم. ثمّ ساروا معهم حتّىٰ بلغوا بهم مأمنهم. الكامل في اللغة والأدب ٢: ١٤٢.

انظر رائق الضمير ١: ٤١٤، ٢: ٢٠٦.

يجار فإنه يُجار، فما بالك بمسلم يطلب أن يجار؟ فهذا يجب أن يـجار بـطريق الأولويّة. وهذا المعنىٰ عـريق فـي حـضارتنا وليـس بـجديد، فـتأريخنا مـليء بالمفاخر، والذين يستجار بهم يموتون دون المستجير هـم وأطـفالهم وعـيالهم، ويضحّون بأموالهم، وهذه كانت سيرتهم، وهو خلق فـي صـميم تـاريخ العـرب ونفوسهم[1]. فحماية الجار من الأُمور الاجتماعيّة المتعارفة عند العرب، بل إنـه

---

(١) ومن ذلك ما ورد في حديث ذي قار، وهو أن كسرى لما غضب على النعمان بن المـنذر بسبب عدى بن زيد وزيد ابنه وضع النعمان وضائع له عند أحياء العرب، واستودع ودائع عندهم، فوضع أهله وسلاحه عند هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني، وتجمّعت العرب مثل بني عبس وشيبان وغيرهم وأرادوا الخروج على كسرى، فأتى رسول كـسرى بالأمان للنعمان، فخرج النعمان معه حتى أتى المدائن، فأمر به كسرى فحبس بساباط حتّى مات بالطاعون، وقيل: طرحه بين أرجل الفيلة فداسته حتى مات. ثم قيل لكسرى: إنه وضع ماله وبيته عند هانئ بن قبيصة الشيباني، فبعث إليه كسرى: إن أموال النعمان عندك، فابعث بها إليّ. فبعث إليه أن ليس عندي مال له. فعاوده كسرى فقال: هـي أمـانة عـندي ولست مسلّمها إليك أبداً. فبعث كسرى إليه بجيش كبير، فاجتمعت العرب عند هانئ بن قـبيصة، وأشاروا عليه أن يفرّق دروع النعمان على قومه وعلى العرب، فقال: هي أمانة. فقيل له: إن ظفر بك العجم أخذوها هي وغيرها، وإن ظفرت أنت بهم رددتها على عادتها. ففرّقها على قومه وغيرهم، وكانت سبعة آلاف درع.
وعبّأ بنو شيبان تعبئة الفرس، ونزلوا أرض ذي قار، ووقعت بينهم الحرب، وانهزمت الفرس وكانت وقعة ذي قار المشهور في التاريخ أنها يوم ولادة رسول الله ﷺ.
قال أبو تمّام يمدح أبا دلف العجلي:

إذا افـتخرت يـوما تـميم بـقوسها ... وزادت على ما وطـدت مـن مـناقبِ
فـأنتم بـذي قـار أمـالت سـيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجبِ

معجم البلدان ٤: ٢٩٣ ـ ٢٩٤. والقوس المشار إليه في البيت الأول هو قوس حاجب، وقصته أن القحط توالىٰ علىٰ مرابع مضر سبع سنين، حتّىٰ كادوا يهلكون، فلمّا رأىٰ حاجب بن زرارة سيّد تميم ذلك رحل إلىٰ كسرىٰ، وطلب منه أن يأذن لهم بأن ينزلوا في الريف من حدود بلاده، حتّىٰ يعيشوا وتحيا مواشيهم، فقال له: إنكم ـ معشر العرب ـ غُدُر، حـرصاء عـلى الفساد، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد وأغرتم على الرعيّة وآذيتموهم. فقال له: إني ضامن

حتّى الذي يعيش بين أظهرهم يتخلّق بأخلاقهم، يقول السموأل:

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليلُ

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليلُ

إذا المرء لم يُدنس من اللؤم عرضه فكلّ رداء يرتديه جميلُ

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلىٰ حسن الثناء سبيلُ

إذن، الجوار معنىً عريق في حضارتنا، وعندما جاء الإسلام أكّد هذا المعنىٰ وركّزه في النفوس، وأعطىٰ للجار حقوقاً كثيرة. وانطلاقاً من هذا المعنىٰ نلاحظ أن مسلم بن عقيل لما دخل إلى الكوفة ذهب إلىٰ بيت المختار بن أبي عبيد ونزل عنده، وعندما اشتدّت الأزمة وبدأ الوضع يصل إلىٰ مرحلة الجدّ، رأىٰ أن المكان غير مناسب فذهب إلىٰ دار هاني بن عروة، فكان أن أحسن جيرته وضيافته. وهانئ صحابيّ وقد عُمّر (٨٩) سنة، وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في غزواته وحروبه، وهو يزار اليوم كما يزار باقي الشهداء، وله زيارة خاصّة ضمن أعمال مسجد الكوفة؛ ممّا يدلّ علىٰ أن له موضع رضا واعتزاز عند أهل

☚ للملك ألّا يفعلوا ذلك. قال: ومن لي بأن تفي بما قلت؟ قال: أرهنك قوسي بالوفاء. فقبل منه. فلمّا جاء حاجب بقوسه، ورآه الأعاجم ضحكوا، وقالوا: بهذه العصا تفي للملك؟ فقال لهم كسرىٰ: ما كان ليسلمها لشيء أبداً. وأمرهم، فقبضوها منه، وأذن للعرب في أن يدخلوا الريف، ومكثوا في الريف مدّة. ثمّ مات حاجب، وبعدها زال القحط، وخرج أصحاب حاجب إلىٰ باديتهم، فجاء عطارد بن حاجب إلىٰ كسرىٰ، ليطلب قوس أبيه، فلمّا كلّمه في القوس، قال له: ما أنت بالّذي رهنتها عندي. قال: أجل أيُّها الملك. إنه قد هلك وأنا ولده، وقد وفىٰ لك بما ضمن عن قومه. فأمر كسرىٰ بردّها عليه.

العقد الفريد ٢: ١٩٣ ـ ١٩٤، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٣١، قصص العرب ١: ٨ ـ ٩ / ١. وفي هذه القصّة يقول بعضهم:

وأقسَمَ كُسرىٰ لا يسامحُ واحداً من الناسِ حتّىٰ يرهَنَ القوسَ حاجبُ

شرح نهج البلاغة ١٥: ١٢٨، ١٣٠، وانظر رائق الضمير ٢: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

البيت، والحسين ترحّم عليه ثلاثاً عندما بلغه مصرعه. وكان رئيس مراد، وهي قبيلة من القبائل الضخمة في الكوفة، وهم لم يتخلّوا عنه، لكن المصيبة أن شريحاً القاضي قد خدعهم، فهم عندما سمعوا بخبره حاصروا القصر، وجاء عمرو ابن الحجاج ـ وعنده ابنته رويحة زوجة هاني ـ وقال له: هذه شيوخ ورؤوساء مذحج، ونحن لم نترك جماعة ولم نخلع يداً عن طاعة، وقد بلغنا أن صاحبنا قتل. فالتفت عبيد الله بن زياد إلىٰ شريح وقال له: اذهب إليه...[1] القصّة.

الإيمان قيد الفتك

ومنذ دخل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة أخذ في مراقبة هاني، وعرف أنه لا يختلف إلىٰ المجلس، فقال: مالي لا أرىٰ هانئاً؟ حيث كان هاني منشغلاً هو وبعض من أصحابه في مبايعة مسلم وشراء الأسلحة والتهيؤ لقتال الأُمويّين، وكان عنده شريك بن الأعور الهمداني وقد جاء من البصرة مع عبيد الله بن زياد، فمرض فنزل في دار هاني بن عروة أيّاماً، ثم قال لمسلم: إن عبيد الله يعودني وإني مطاوله الحديث فاخرج إليه بسيفك فاقتله وعلامتك أن أقول: اسقوني ماء. ونهاه هاني عن ذلك.

فقالوا له: إنه مريض وبه وعكة، فقال: أنا أذهب إليه. فقالوا له: إن شريكاً مريض. فقال أعود شريكاً وهانئاً. فذهب ليعودهما، فلما دخل عبيد الله على شريك وسأله عن وجعه وطال سؤاله، رأى أن أحداً لا يخرج، فخشي أن يفوته، فأخذ يقول:

ما الانتظار لسلمى ان يحييها ... كأس المنية بالتعجيل اسقوها[2]

فكان شريك يتصوّر أن هذه فرصة يضرب بها مسلم عنق ابن زياد، لكن هذا الأُسلوب يرفضه أهل البيت فليس أُسلوب الرجال الغدر والطعن في الظهر بل

(١) انظر مثير الأحزان: ٢٣.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٢، مثير الأحزان: ٢٠.

هو أُسلوب الجبناء الذي يأبونه ﷺ. قيل للإمام علي عليه السلام: إنك تشتري درعاً للصدر فقط، وليس درعاً كاملاً، أفلا تخاف أحداً أن يطعنك من الوراء؟ قال: «إذا مكّنت عدوّي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقىٰ عليّ»[1].

فأنا أُواجهه وجهاً لوجه ولا أهرب من أحد، ولا أتبع هارباً؛ ولذا احتجّ مسلم بقول الرسول الأكرم ﷺ: «الإيمان قيّد الفتك»[2]، حينما طلب منه قتل عبيد الله غدراً. وكان أن خرج مسلم قبل الموعد المحدّد للنهضة بسبب الظروف التي مرّ بها؛ لأنه التفت وراءه بعد الصلاة فوجد خلفه ثلاثمئة شخص لا تربطه بهم رابطة عقد بيعة. ونحن لا نلقي باللوم علىٰ عواتق قوم لم يفعلوا شيئاً.

مصرع مسلم بن عقيل رضي الله عنه

علىٰ أيّة حال قبض علىٰ مسلم في نهاية المطاف في دار طوعة وجيء به إلىٰ عبيد الله بن زياد، فدخل ساكتاً، فقال له الحرس: سلّم على الأمير. فقال له: اسكت ويحك، ما هو لي بأمير. فالتفت إليه عبيد الله وقال له: سلّمت أم لم تسلم فأنت مقتول. فقال له مسلم: وإني لأرجو أن يرزقني الله الشهادة علىٰ يدي شرّ خلقه؛ فإنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة ولؤم وخبث الطويّة لأحد أولىٰ بها منك. فقال له: ياعاقّ ياشاقّ، أتيت فخرجت علىٰ طاعة إمامك وألقحت الفتنة. فقال له: الفتنة ألقحها أبوك عبد بني علاج، والذي شقّ عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد. فقال له: منّتك نفسك أمراً حال الله بينك وبينه وجعله لأهله. قال: ومن أهله؟ قال: أهله أمير المؤمنين يزيد. قال: رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم. قال: أوتظن أن لك في الأمر شيئاً؟ قال: ما هو بظنّ، ولكنه اليقين.

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٤٧٣.

(٢) تهذيب الأحكام ١٠: ٢١٤ / ٨٤٥، مسند أحمد ١: ١٦٦، مقاتل الطالبيّين: ٦٥.

فأخذ يشتم مسلم بن عقيل ويبهته، فقال له مسلم: ياعدوّ الله اقض ما أنت قاض. فأمر عبيد الله (لع) بكر بن حمدان أن يصعد به أعلى القصر ويرميه من فوقه. وكان مسلم موثق اليدين، فطلب منه أن يمهله حتّى يصلّي ركعتين، فصلّاهما ثم توجّه إلىٰ زرود ـ وكان فيها الحسين وآل عقيل ـ وصاح: السلام عليك يا أبا عبد الله، إن ابن عمّك بين أيدي القوم. يقول المؤرّخون إن الحسين قام وقال: «وعليك السلام ياغريب كوفان». ثم ضُرب بالسيف فلم تعمل الضربة فيه، ثم ضرب ثانية فسقط رأسه عن بدنه واُلقي ببدنه من أعلى القصر:

المكـدر كـضه وضـاعت اخـباره	رمـوه الكـوم مـن كـصر الأماره
هـاني انـچتل بـعده ويكت داره	مـظلمه ولا بـعد واحـد يـصلها

وكان آخر عهد الحسين به أن جاء أعرابي إلى خباء علي الأكبر، وهم في الطريق، فسأله: ماذا تريد؟ قال: اُريد خباء الحسين. ثم أقبل به إلى الحسين، وكان جالساً بين آل عقيل، قال: أبا عبد الله، إن عندي لخبراً، إن أحببت أن اُحدّثك به سرّاً، وإلّا جهراً. فقال الحسين: «ما دون هؤلاء سرّ». قال: أبا عبد الله، عظّم الله لك الأجر بمسلم، لقد خلّفته يجرّ في الأسواق، وينادىٰ عليه: هذا جزاء من عصى الأمير. فقام الإمام مختنقاً بعبرته، فتلقّته يتيمة لمسلم وتعلّقت بثيابه:

يا بويه عن الأهـل وينك	حال البـعد بـيني وبـينك
من غـبت لسّـه نـاطرينك	ما غفت عيني وحگ عينك

* * *

لم يُـبكِها عـدم الوثـوق بـعمّها	كـلّا ولا الوجـد المـبرّح فـيها

﴿١٦﴾

الهجرة والشهادة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

الآية الكريمة تتصل بمناسبتين في هذه الليلة:

الأولى: الهجرة، أي هجرة أبي الأحرار وسيد الشهداء عليه السلام بثقله وعياله من مكّة المكرّمة إلى كربلاء المقدّسة.

الثانية: الشهادة، وهي شهادة أبي الأحرار الإمام الثالث السبط أبي عبد الله الحسين عليه السلام في كربلاء.

والواقع أن هذين الأمرين قد تحقّقا معاً في مستهلّ هذا الشهر كما سنرى.

المبحث الأول: ما المراد بـ ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ في الآية؟

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ما هو ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي قُيدت الهجرة به؟ وبما يحدده المفسرون؟ هناك عدة آراء ومعانٍ يذكرها المفسرون:

السبيل إلى الله هو الجهاد في سبيله

المعنى الأوّل لـ ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ هو عنوان عام من ضمن أفراده الهجرة للجهاد

---

(١) الحج: ٥٨.

ومكافحة البغي والضلال، فمثلاً لو أن منطقة من مناطق الإسلام تتعرّض للبغي والضلال، فإنه يجب علىٰ المرء أن يخرج لمكافحة هذا البغي والضلال. وهو إمّا أن يمنعه بقلم أو لسان أو قتال، حيث أمر القرآن بقتال البغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾[1]. فمكافحة البغي من مظاهر الدفاع عن المجتمع، والباغي إنما يبغي على المجتمع، ويجب علىٰ جيوش المسلمين أن تخرج لقتاله، بل وقتال البغاة عامّة. وبعض العلماء يقولون: لم نكن نعرف أحكام قتال أهل القبلة إلّا من خلال عمل علي بن أبي طالب﵇، حيث قاتل البغاة، ولما سألوه: ماذا تقول عنهم؟ هل هم كفرة؟ قال: هم «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم»[2]. أي أنهم يصلّون إلى القبلة ويتشهّدون بالشهادتين.

ونلاحظ أدب الإسلام حيث يقول عنهم: «إخواننا»، علىٰ الرغم من محاربتهم له، فالأئمّة ميزان الحكمة والعدل والنبل.

وكذلك الهجرة تكون لدفع الضلال، فالضالّ يستهدف المجتمع بأكمله، فلابدّ أن يخرج من يكشف الضلال.

مكافحة البغي بالسيف وبالفكر

والواقع أنه يوجد نوعان من القتال: قتال بالسيف، وقتال بالفكر، وهذا موجود

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣، مع ملاحظة نوع الأُخوّة، وهي التي أشار إليها السجّاد﵇ حينما سأله سائل: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكى﵇ ثم مسح عينيه وقال: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقال﵇: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟». قال: لا بل في عشيرتهم؟ فقال﵇: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم». فقال له: فرّجت عني فرجّ الله عنك. وقد مرّ في الصفحة: ١٣٠ من هذا الجزء.

حتّىٰ عند المستعمرين، حيث إنهم لا يهتمون بالأُمور المادّيّة من إيجاد الأرض ووضع الأسلحة والمكان الذي ينزلون فيه بقدر ما يهتمّون بالتفكير بوضع قاعدة في رؤوس الناس، حيث يعتنقون فكرتهم ولا ينكرونها عليهم:

ما كان أهون شأنـه مستعمراً   لو لم يُقِم وسط العقول قواعدا

سبب الاختلاف بين العلماء وموقف الأمة إزاءه

فالحركات الإلحاديّة والاستعماريّة تستهدف دائماً الدخول إلى رؤوس من تريد أن تستعمره أولاً، ثم تدخل بعد ذلك إلىٰ المجتمعات، فمكافحة البغي إما من الخارج أو أن ينبثق من الداخل، فأي أُمة تتوجّه لقبلة واحدة وتعبد ربّاً واحداً، وتحمل كتاباً واحداً لابدّ أن تكون متماسكة، وإن حصل خلاف فغايته أنه خلاف في الفروع، وهو طبيعي، حيث إنه لا توجد بقعة من بقاع الأرض تخلو من اختلاف بين مفكّريها؛ لأن الاختلاف قد ينشأ من فهم النصّ أو من تطبيقه أو من القدرة علىٰ استيعاب مضمون النصّ.

والناس إزاء هذا الاختلاف قسمان:

قسم يقول: إنه ناتج من طريقة الفهم، وعلينا أن نترك هذا للعلماء.

وقسم يستغل ذلك فيشوّش الأُمور، ويفتح قضايا في مجتمعاتنا لا تغني ولا تسمن من جوع، ممّا يبثّ التفرقة بين الناس.

وهي الطريقة عينها التي استخدمها أعداء الخوارج، حيث كان المهلب بن أبي صفرة إذا أراد أن يقاتل الخوارج فإنه يلقي بذور مشكلة ما بينهم أوّلاً، فيدعهم يضرب بعضهم بعضاً، فمثلاً يستغل نصّاً من النصوص، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] أي أن الكفار وأصنامهم وقود النار. فالعالم يفهم المراد منه، أمّا الجاهل فيأخذه علىٰ ظاهره؛ ولذا فإنّ المهلب كان يستغلّ هذا

---

(١) الأنبياء: ٩٨.

فيبعث جماعة إلى الخوارج ويقول لهم: اسجدوا لقائدهم وقولوا: إنّا نعبدك من دون الله. فيقوم الخوارج فيقولون: إنهم عبدوك، والله يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي جميعكم كفّار فيقتلونهم[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ١٩٦ ـ ١٩٧، والقصة فيه كاملة: كان المهلّب يقول لبنيه: لا تبدؤوا الخوارج بقتال حتى يبدؤوكم ويبغوا عليكم؛ فإنهم إذا بغوا عليكم نُصرتم عليهم. فشخص عتاب إلى الحجاج في سنة (٧٧) هـ، فوجّهه إلى شبيب فقتله شبيب. وأقام المهلّب على حربهم، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا وافترقت كلمتهم. وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حدّاداً من الأزارقة كان يعمل نِصالاً مسمومة فيُرمىٰ بها أصحاب المهلب، فرفع ذلك إلى المهلّب فقال: أنا أكفيكموه إن شاء الله. فوجّه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري قائد الخوارج وقال له: ألقِ هذا الكتاب في العسكر والدراهم، واحذر على نفسك. وكان الحداد يقال له أبزي. فمضى الرجل، وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إليّ، وقد وجّهت إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال. فوقع الكتاب إلى قطري، فدعا بأبزي، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري. قال: فما هذه الدراهم؟ قال: لا أعلم. فأمر به فقتل. فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة، فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبيّن؟ قال قطري: فما حال هذه الألف؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً، ويجوز أن يكون حقّاً. فقال قطري: إن قتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً، وليس للرعيّة أن تعترض عليه. فتنكّر له عبد ربّه في جماعة معه، ولم يفارقوه.
وبلغ ذلك المهلّب فدسّ إليهم رجلاً نصرانياً، جعل له جعلاً يرغب في مثله، وقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك. ففعل ذلك النصراني، فقال قطري: إنما السجود لله تعالى. فقال ما سجدت إلا لك. فقال رجل من الخوارج: إنه قد عبدك من دون الله. وتلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. فقال قطري: إن النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم، فما ضرّ عيسى ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصرانيّ فقتله، فأنكر قطري ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره.
وبلغ المهلّب ذلك، فوجه إليهم رجلاً يسألهم، فأتاهم الرجل، فقال: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم، فمات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أمّا الميت فمؤمن من أهل الجنّة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة. وقال قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيزا المحنة. فكثر

وهذا اللون من استغلال النصّ أو استغلال قضايا تمزّق الأُمة يأتي من أحد أمرين: إما من شخص مستأجر من الخارج، أو من شخص ليس له القدرة على فهم النصّ، وغالباً ما تكون الأُمة في غنىً عن مثل هذه المشاكل التي يفتعلونها ويثيرونها، كالخلاف حول طول سفينة نوح عليه السلام[1]، واسم كلب أهل الكهف[2]، فهل هذه هي المسائل التي تهمنا؟

كما أن هناك قضايا تثار بأُسلوب استفزازيّ، فمثلاً أنا أعلم أن الخلافة حقّ طبيعي للإمام علي عليه السلام، وأعرف أنه توجد نصوص عليه، فحينما أُريد أن أُعبر عن ذلك فالواجب عليّ أن أُعبّر عنه بغاية من الأدب والاحترام، فإنّ الخصم على معتقدات أجداده، ومن الصعب تغيير قناعاته، فلا أستخدم أُسلوب الشتم والحمل عليهم؛ كيلا يشتموني. والعلّامة الحليّ كان عندما يمرّ به ابن تيمية يعبر عنه بالشيخ الأُستاذ، في حين أن ابن تيمية يعبّر عنه بابن المنجّس[3]؛ لأن العلّامة هو الحسن بن المطهّر. فهل هذا أدب فقيه وأدب مسلم؟ وهل أن الاختلاف بالرأي يدفعنا لذلك؟ إن لغة العلم يجب أن تكون محفوظة.

فالضلال له طريقه وطريقته الخاصّة في الهدم، فينبغي ألّا نثير قضايا في ظروف غير طبيعية. ولنقرّب المعنىٰ أكثر، فمثلاً هذا البلد (الكويت) واحة من واحات

☜ الاختلاف، وخرج قطري إلى حدود إصطخر، فأقام شهراً، والقوم في اختلافهم. ثم أقبل، فقال لهم صالح بن مخراق: يا قوم، إنكم أقررتم عين عدوكم وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة.

وخرج عمرو القنا ـ وهو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ـ فنادى: يا أيها المحلّون، هل لكم في الطراد، فقد طال عهدي به؟ ثم قال:

ألم ترَ أنا مذ ثلاثين ليلة ... جديب وأعداء الكتاب على خفض

فتهايج القوم، وأسرع بعضهم إلى بعض، وكانت الوقعة.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٢ ـ ٣٣، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٣٦٠، ٣٨٤، مناهل العرفان ٢: ١٩، الإتقان في علوم القرآن ٢: ٤٧.

(٣) الفوائد الرجاليّة ٢: ٢٦٣.

الحريّة ، المسجد له حريّته، والحسينية كذلك، فينبغي أن تكون المواضيع المطروحة في هذا الشهر مواضيع تستهدف وحدة المسلمين ونفي الشوائب وتصحيح الأخطاء مع التمسّك بالعقيدة وفتح حوار علمي. وهذا اليوم لفت نظري كلمة للأُستاذ محمد مساعد الصالح في جريدة القبس بعنوان (الفتنة الطائفية) حيث إنه يذكر كتاباً لمصطفى السباعي يذكر فيه أن الكذب كلّه مصدره الشيعة، والحال أنا أُناس عندنا أن الكذب في شهر رمضان إذا كان على الله ورسوله فإنه مفطر ومبطل للصوم[1]، ونعتبر الكذب من أكبر الجرائم، فروايات أيمّتنا تذكر أن المؤمن يطبع على كل خصلة إلّا الكذب والخيانة، فالمؤمن لا يكذب[2].

وأيضاً تجد جماعة يثيرون قضايا أُخرى في هذا الشهر، يا عباد الله اتقوا الله ولا تشقّوا وحدة المسلمين، فيجب احترام بعضنا بعضاً وألّا نفسح المجال لهؤلاء المرتزقة، ويجب علينا معالجة الإلحاد وفساد الخلق والانحلال والشبهات الداخلة على الإسلام، وأن نعالج القضايا بروح علميّة وليس بروح ضلاليّة غوغائيّة، وعلينا أن نتمسّك بكتاب الله وسنّة نبيّه‏ﷺ وأخلاق آل الرسول‏ﷺ، وليقل غيرنا مايقول، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[3].

وإذا أردت أن أُعبّر عن عقيدتي فليكن ضمن الخطوط الإسلاميّة العامّة، فالإمام زين العابدين‏ يقول: «أحبّونا حبّ الإسلام، فما زال حبّكم بنا حتىٰ صار شيناً علينا»[4].

فليكن تعبيرنا منسجماً مع القواعد الحقّة والروح الإسلامية.

---

(١) انظر: الانتصار: ١٨٤ / المسألة: ٨٢، الوسيلة إلىٰ نيل الفضيلة: ١٤٢، وغيرهما كثير.

(٢) انظر: الكافي ٢: ٤٤٢ / ٦، الخصال: ١٢٩ / ١٣٤، الدعوات: ١١٨ / ٢٧٥، تحف العقول: ٥٥، ٣٦٧.

(٣) المائدة: ١٠٣.

(٤) الإرشاد ٢: ١٤١، روضة الواعظين ١: ١٩٧، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٩١.

السبيل إلى الله هو الهجرة والفرار بالدين

المعنى الثـاني لـ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ هو الفرار بالدين، فمثلاً مسلم في بلد إسـلامي، ويضايق علىٰ دينه وعقيدته، فإنه يتعيّن عليه أن يفرّ بدينه، فالوطن الروحي هو الدين. فعليه إذن أن يخرج لمكان يأمن فيه على نفسه حينما يـريد أن يـمارس عباداته وطقوسه الدينيّة، فالظلمة يُخرجون الناس عن عقيدتهم ويـصبّونهم فـي القوالب التي يريدونها هم؛ لأن الدين له ضوابط، وهذه الضوابط لا تروقهم؛ حيث إنهم يريدون أُناساً إمّعات[1] وتبعيّة لهم؛ ولذلك يعتبر التضييق من المبرّرات التي تجيز للمسلم الفرار بدينه.

وقد ضرب لنا المسلمون الأوائل أمثلة سامية، حـيث هـاجروا إلى الحـبشة وهاجروا إلى المدينة بعد أن رأىٰ النبيﷺ أن مكّة أرض صلبة لا تصلح لأن يبذر فيها بذرة الإسلام فاضطرّ للانتقال إلى المدينة المنوّرة، وفعلاً اسـتقبله الأنـصار بحفاوة، وكانت أفضل المواقف.

سبيل الله هو الهجرة لطلب العلم

المعنى الثالث لـ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ هو الهجرة لطلب العلم؛ فأنا إنما أفـعل ذلك كـي أرجع إلى بلدي بحصيلة علميّة أخدم فيها بلدي، حيث إنه لا تـوجد فـي بـلدي المعاهد والكليّات العلميّة والثقافيّة فأضطرّ للهجرة وأتحمّل بذلك شظف العيش. وقد مارس المسلمون ذلك فدرسوا وامتهنوا المـهن، فـمثلاً عـلي بـن الحسـين الطاطريّ كان يبيع الثياب الطاطريّة ويخرج لطلب العلم، ونصر بن مزاحم صاحب

---

(١) الإمّعة: الذي لا رأي له ويتبع كل ناعق، ويقول لكل أحد: أنا معك، فهو يصفّق ويطبّل لكل ما يقوله غيره ويكون تابعاً له فيه دون نظر في الأمر. غريب الحديث (ابن سلّام): ٤٨، الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٤٣.

(وقعة صفين)، كان عطّاراً ويدرس علم التاريخ والرواية، والمقداد السيوري ـ من أجلّ علمائنا ـ كان يبيع السيور لأصحاب الخيل فيعيش منها ويدرس، ومنهم من كان يبيع السعد للعطارين حيث يدق السعد ويبيعه، ويتقوّت منه. وهكذا في مختلف المذاهب الإسلامية، وكانوا يتعرّضون لأنواع الشدّة والضيق في هجرتهم لطلب العلم مع أنهم كانوا في بلدانهم مرفّهين. وقد كان للسيد البروجردي ولد يدرس معنا، وكان يسكن بيتاً من غرفتين في شارع السلام لا يسكن فيهما إلّا الفقير، مع أنه في بلده يستطيع أن يسكن في أرقى البيوت. وهو حتى الآن يترك بلده ومافيه من نعيم ورفاهية ويرجع يعيش في أمكنة غاية في التواضع، وكل ذلك من أجل طلب العلم. فهذه هجرة في سبيل الله.

ثم انتقلت الآية: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾، والذي نستفيده هنا أن الذي يهاجر ـ سواءٌ قتل بجهاد أو مات ـ سواءٌ عند الله، و﴿أو﴾ للتسوية، مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. أي أن من يموت في الهجرة في سبيل الله حاله حال من يجاهد في سبيل الله ويقتل. وهكذا فهم العلماء[1]، ويعضده حديثٌ لرسول الله ﷺ: «من خرج مهاجراً من بيته إلىٰ الله ورسوله أو في سبيل الله فخرّ عن دابته فمات أو لدغته حيّة فمات أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله، ومن قُتل قعصاً[2] فقد استوجب المآب»[3].

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

وسبب نزول الآية أن أبا سلمة وعثمان بن مظعون الصحابيين ماتا في المدينة المنوّرة، فكان الناس يشيّعونهما ويقولون: إن هذين لو قتلا في ساحة الجهاد لكان

---

(١) انظر مجمع البيان ٧: ١٦٦، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٨٨.
(٢) القعص: الموت المعجّل، أو أن يضرب الرجل فيموت مكانه. لسان العرب ٧: ٧٨ ـ قعص.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٨٩.

أفضل لهما. فنزلت الآية [1]، حيث إنهما خرجا مهاجرَين من أوطانهما في سبيل الله، فلا فرق بين أن يقتلا أو يموتا، وكذلك حال أمثالهما.

أمير جزيرة رودس

كان عند أمير جزيرة رودس فضالة بن عبيد اثنان من المسلمين أحدهما جاهد وقتل، والآخر مات وهو من المهاجرين، فرأىٰ أن التشييع للذي قتل في ساحة القتال أكثر من تشييع الثاني، فقال لهم: أراكم تميلون إلى هذا. فقالوا: إنه قد استشهد حيث إنه قذف بنفسه في لهوات الحرب لأجل الشهادة. قال فضالة: والله ما أُبالي من أي حفرة من حفرتيهما بعثت. وقرأ الآية، وقال: إن الذي يخرج مهاجراً في سبيل الله سواء قتل أو مات حتف أنفه كلاهما سواء.

المبحث الثالث: معنى الرزق الحسَن

ثم قالت الآية ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾، ماهو الرزق الحسن؟

أولاً: هو رزق بدون تعب؛ لأن الرزق في الدنيا لا يأتي بدون تعب، فإذا حصلت على الأموال في الدنيا فإنها إنما تأخذ من عمرك ومن صحّتك، وأحياناً من موقعك الاجتماعي، حيث ستضطر إلى مجاملة البعض. فهذا الرزق فيه تعب، أما هناك فالرزق عطاء بدون عناء.

وثانياً: أن الرزق هناك دائم، أما هنا فالرزق منقطع، فالذي يعمل عملاً ما ربما يسائل نفسه: هل أنا أضمن استمرار هذا العمل؟ أمّا هناك فإن الله ضامن دوام الرزق: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[2]؛ لأن الرزق هناك لا يُخشى انقطاعه؛ حيث إن المتكفّل به رزّاق دائم العطاء.

وثالثاً: أنه رزق خالص لا شبهة فيه، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ليلة مصرعه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٨٨.   (٢) الرعد: ٣٥.

لابنته أُمّ كلثوم: «بنيّتي، إن الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عـقاب، وفـي الشبهات عتاب»[1].

فهذا الطعام قد يكون في مصدره شبهة، أو أنه جاءٍ مـن غـير مـصدره، أو أن الإنسان قد تهاون في طريق كسبه، وقليل من الناس يأكل حلالاً خالصاً؛ ولذلك يقول بعض الناس: لماذا يسيء أولادنا التصرف هكذا؟ ونقول له: أنت لا تتورّع عن أكل الحرام ولا تهتمّ لِما إذا كان أكلك من مصدر فيه شبهة أم لا، فالشبهات فيها عتاب.

والعرب كانت عندهم شبهة في هذا، فكانوا إذا وصلوا إلى الكعبة نـزعوا كـل ملابسهم وطافوا عراة، ويقولون: إن هذا الثوب ربما كان فيه خيط من حرام. وهذا شيء خاطئ؛ فأنت تستطيع أن تتجنّب الحرام، كما أن الحرام ليس في الثياب فقط، بل هو يخالط اللحم والدم والعظم. وليعلم أن الحرام يترك أثره علىٰ كل شيء في حياتنا، ومن أبسط آثاره المفارقات التي نراها.

المبحث الرابع: الفرق بين رازقيّة الله ورازقيّة العباد

ثم قالت الآية: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وهنا أُمور:

الأوّل: أن رازقيّة العبد في الأشياء المقدورة

فالله عزّ وجلّ يرزق ما لا يقوى العبد علىٰ أن يرزق مثله، فرزق العبد غيرَه إنما يكون في الأشياء المقدورة، وإلّا فهل يستطيع أن يرزقك العافية ولو للحظة؟ إنه لا يمكنه ذلك ولو بذلت له كل ما في الدنيا. فمثلاً لو تلف عـصبك البـصري، فـهل يستطيع أحد أن يردّه؟ وهو يستطيع أن يحميك من بعض الأشياء المنظورة، لكن الله يحميك منها كلّها ومن الأشياء غير المنظورة.

---

(١) الأنوار العلويّة: ٢٧١.

فالذي يعطيك عطاء لا يقوى الآخرون علىٰ أن يعطوك مثله هو الله عزّ وجلّ، فهو يرزقك ما لا يقوى العبد علىٰ مثله.

الثاني: أن العبد لا يمنح قدرة الانتفاع بما يعطي

فكلّ رازق من العباد لا يقوى على أن يعطيك القدرة على الانتفاع بهذا الرزق، فأنا أُعطيك المال لكن لا أضمن لك أن تبقى هذه الأموال عندك، ورحم الله دعبلاً الخزاعي، فإنه عندما أنشد قصيدته التائية:

مدارس آيات خلت من تلاوة

إلى آخر القصيدة، أعطاه الامام عشرة آلاف درهم رضويّة ـ أي مسكوكة باسمه بأمر من المأمون، وهي موجودة في متاحف العالم وفي سمرقند ـ وأعطاه أيضاً جبّة، فاعتزّ دعبل بالعطيّة للتبرك بها، لكن في الطريق خرج عليه قطّاع الطرق فسلبوه وأخذوا ماعنده، وكان من محاسن الصدف أن الذي سلب دعبلاً كان يقرأ هذا البيت:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً   وأيديهمُ من فيئهم صفراتِ

فقال له دعبل: لمن هذا البيت؟ قال لشخص يقال له دعبل. قال له: أتعرفه؟ قال: لا. قال: أنا دعبل. فأرجع مانهب إلى دعبل[1]. فالإمامعليه السلام أعطاه الهديّة، ولكنه لم يضمن له أن ينتفع بها.

وكذلك فإن العبد لا يضمن لك أن تنتفع به جسديّاً، فلو أعطاك طعاماً هل يمكنه أن يعطيك معدة سليمة للانتفاع بهذا الطعام؟ لكن الله إذا أعطى هذا يعطي معه القدرة على الانتفاع: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾[2]، وجزء من أجزاء التمكين القدرة على الانتفاع.

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام: ٩٤ ـ ٩٦.   (٢) الأعراف: ١٠.

الثالث: أن عطاء العبد لمنفعة

فالله عزّ وجلّ إذا رزق فلا لمنفعة، أمّا العبد فإنه إنما يرزقك لمنفعة شخصيّة وإن كانت أُخرويّة ، يعني أنه إذا فعل الخير لشخص فإنه لا أقلّ من أنه يريد الثواب على ذلك من الله، أو يريد طول العمر أو دفع بلاء، لكن الله يعطي ولا يريد شيئاً. ونرى البعض يعترض على حكم الله وإرداته، مع أنه تعالىٰ يعطي ولا يريد عوضاً.

الرابع: أن عطاء العبد من أُصول الأشياء التي خلقها الله

كل شيء يعطيه العبد فهو من عطاء الله، فإنّ أُصول الأشياء إنما خلقها الله، فأنت إذا أعطيت شخصاً برتقالة، فهل أنت الذي أعطيته إياها؟ لا، وإنما المعطي هو الله، فهو قد وفر القابليّة للأرض، وأعطى الاستعداد للنبات على النمو، ووفّر جميع العوامل من ماء ومناخ حتى اكتملت الثمرة ونضجت، فتكون قد أعطيت ماصنعه الله، فإنّ الله صانع أُصول الأشياء.

الخامس: أن العبد يمنّ عليك أن رزقك

فكل مرزوق يقع تحت منّة الرازق، فالعبد يمّن عليك أن رزقك، ويشعر الإنسان بشيء من الانكسار والذلّة حينها، أما الذي يأخذ من الله فلا يشعر بالانكسار، بل يشعر بالعكس، يقول أحد أدبائنا:

ربّ روحي طليقة في مناجا	تك والجسم مصّفدٌ مكبولُ
بَعُدَ الفرق بين روحي وجسمي	جسدي آثمٌ وروحي بتولُ
وأنا السائل الملحّ ويجلو	وحشة الذلّ أنك المسؤولُ

رجع

فالآية الكريمة ترتبط بالمناسبتين معاً : الهجرة والشهادة ، وهذان كلاهما وقعا في شهر المحرم، وقد تحقّقا لسيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين .. لأبي الدماء الطاهرة، حيث هاجر ليكافح البغي عند المسلمين حين قال: «إني لم أخرج أشراً

ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ»[1].

هاجر ﷺ من المدينة، وهجر أهله، واستشهد وقتل في سبيل الله، فجمع بين الهجرة والشهادة، وترك في المدينة دويّ العنفوان؛ حيث إنه عندما خرج من المدينة رفع رأسه وقال:

«لا ذعرت السوام في فلق الصبـ ـح مغيراً ولا دُعيت يزيدا
يوم أعطي من المهانة ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا

والله لا أُعطيكم بيدي اعطاء الذليل»[2].

إذن ترك أصداء المجد والعزّة بالمدينة وسكب دماء الشهادة بكربلاء مع بدور آل محمد ﷺ..وسقطوا على تراب كربلاء والنضال قد تجلّى على شقّين: شقّ عند الشهداء، والشقّ الثاني تجلّى عند عائلة رسول الله ﷺ حينما وقفت تبارك هذه الضحايا وتحمل جزءاً من عبء هذه الرسالة؛ حيث خرجت أُخته الحوراء زينب ﷺ عندما انتهت المعركة وجنّ عليها الليل وأقبلت تبحث مابين الضحايا عن جسد أبي عبد الله الحسين ﷺ.



(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) شرح الأخبار ١٤٤: ١٤٤، مثير الأحزان: ٢٧، تاريخ الطبري ٤: ٢٥٣، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٤٨، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٤، والبيتان لابن مفرّغ الحميري، وقد تمثل بهما ﷺ.



﴿١٧﴾

النفر في سبيل الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الحرب من وجهة نظر الإسلام والقوانين الوضعيّة

تعدّ هذه الآية من آيات فقه الحرب، وترتبط بالجزء غير المدنيّ من التشريع، فوجهة نظر الشرع في مسألة الحرب تختلف عن وجهة نظر القوانين الوضعيّة، التي تعرّف الحرب بأنها نزاع مسلّح بين دولتين أو فريقين لتحقيق مصالح وطنية. هذا التعريف نستفيد منه أن الحرب وضعيّة قائمة بالإمكان، فلا تثير حساسيّة عندهم؛ حيث إن المصالح الوطنيّة تتطلب ذلك، فالحرب لا تثير عندهم الكراهة أو الاشمئزاز، وقد نرى مادة في قانون الأُمم المتحدة تنصّ علىٰ أنه لا يجوز حلّ المشاكل بالنزاع المسلّح، لكن هذه لا تلتقي مع إمكانيّة حدوث الحرب.

أما تعريف الجهاد عند الاسلام فهو بذل المال والنفس لإعلاء كلمة الإسلام وإقامة شعائر الإيمان. فهناك فرق كبير؛ حيث إن التعريف السابق فيه إطار قومي، وهو ما لا يريده الإسلام للإنسان إلّا إذا كان قائماً علىٰ أساس الحقّ، فنحن نتنمي

---

(١) التوبة: ٣٩.

للقوميّة شئنا أم أبينا، يقول الإمام الصادق؛: «ليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبيّة أن يعين قومه على الظلم»[1]، بحيث يعتبر نفسه من الجنس الفلاني أو الدم الفلاني، والحال أننا أمّة واحدة: «كلّكم لآدم وآدم من تراب»[2]. فليس خلاف الدين أن تعتزّ بأهلك وقوميّتك، لكن بشرط ألّا يصل إلى درجة سلبيّة بحيث تعتبر الدم الذي تنتمي إليه هو سيّد الدماء.

فالإسلام عنده أن هويّة الحرب هويّة إيمانيّة؛ حيث يسمح بإقامة الحرب لإحياء شعائر الإسلام، وهي إرادة الخير للمجتمع وللإنسان، والخير هو حفظ دمه وماله وعرضه وكرامته، أي الأشياء التي لها علاقة بالمقوّمات الإنسانيّة. فالدفاع عنها يسميه الإسلام جهاداً. فهذه مسألة إنسانيّة تختلف عمّا وضعته القوانين الوضعيّة، حيث إن الإنسان يبذل ماله ودمه في سبيل أخيه الإنسان

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

والآية نزلت بسبب غزوة تبوك في شهر رجب سنة (٩) هـ، حيث كان الروم على حدود الجزيرة العربيّة في الشام، وكانوا يتصوّرون أن وجود العرب على حدودهم يشكّل عليهم خطراً، فأرادوا أن يبدؤوا بالقتال لدفع عدوان محتمل، فلمّا تحرّك الروم بلغ النبيّ؛ ذلك، وكان الوقت شديد الحرّ، فصعد النبيّ؛ ودعا الناس للنفير وأن ينبري المسلمون للقتال. وهنا استغلّ المنافقون الفرصة ومنهم عبد الله بن أُبيّ وجماعته ـ وهم شريحة كبيرة جداً في المدينة، وكانوا يسبّبون مضايقة للمسلمين ـ وكان هؤلاء المنافقون يهبّطون المعنويات ويقولون: إن الجوّ حارّ، وليس عندنا قابليّة على قتال الروم، وليس عندنا مثل أسلحتهم.

---

(١) الكافي ٢: ٣٠٨ ـ ٣٠٩ / ٧، وسائل الشيعة ١٥: ٣٧٣ / ٢٠٧٧٨، ورواه في مسند أحمد ٤: ١٠٧ عن رسول الله؛.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

وكان هؤلاء يعيشون حالة انهزام داخليّ، في حين أن الإسلام يعبّئ الفرد المسلم للدفاع عن الحقوق الإنسانيّة، والإسلام يعتبر الفرد ممثّلاً للمجتمع، أي أن مصالح المجتمع موجودة داخل الفرد؛ ولذلك لا يوجد انفصام بين الفرد والمجتمع، فالفرد جزء من المجتمع، والمجتمع إذا كان في خير فإنه ينعكس على الفرد، كالعضو في الجسم[1].

فالمنافقون كانوا يؤثّرون على المسلمين، وهذه كارثة، لكن النبيﷺ أصرّ على الاستنفار، وخرج معه جيش عدده ثلاثون ألفاً من المقاتلين، وتخلّف المنافقون ومنهم عبد الله بن أُبيّ. وكان من بين المسلمين من لا يملك سلاحاً ولا راحلة ومع ذلك التحق بالجيش، وكان أبو ذرﷺ قد جاء ماشياً على القدمين. يروي مسلم[2] في صحيحه، وغيرُه في غيره من الصحاح[3] قال: خلّف رسول

---

(١) قال رسول اللهﷺ: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً». عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧، وقالﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٢٠، وروى أيضاً في الصفحة عينها عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول اللهﷺ لعلي:«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا إنه لا نبي بعدي».
قال سعيد:فأحببت أن أُشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر، فقال: أنا سمعته. فقلت: أنت سمعته؟ فوضع اصبعيه على أُذنيه فقال: نعم وإلّا فاستكّتا.

(٣) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ ـ ١٤، الجامع الصحيح ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤، السنن الكبرىٰ (النّسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ ـ ٨١٤٣، فتح الباري ٧: ٦٠، وروى الحاكم في المستدرك ٣: ١٠٨، أنه قال معاوية لسعد بن أبي وقّاص: ما يمنعك أن تسبّ ابن أبي طالب؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول اللهﷺ لأن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم. قال له معاوية: ماهن يا أبا إسحاق؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت حين نزل عليه الوحي فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: «ربّ إن

الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: «يا رسول الله، تخلّفني في النساء والصبيان؟». فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي؟». فسكت الإمام﵇.

وهذه الواقعة تدلّ على أن النبي ﷺ لا يمكن أن يخرج دون أن يستخلف أحداً، فكيف نقول: إنه ﷺ قد خرج من الحياة ولم ينصّ على أحد؟ وقد أردت تصحيح الفكرة حيث إننا نريد أن نلتمس الدليل باستجابة سليمة؛ فالبعض يتلقّى الدليل باستجابة معوجّة، نقرأ في القرآن: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾[1]؛ حيث إن الكافر من المستحيل أن يدخل الجنّة كما أن من المستحيل أن يدخل الجمل في ثقب الأبرة، فنجد أن البعض يقول: إن الله إذا أراد ألّا يعذّب أحداً فعل، فإنّ الجمل عندما يذبح يجعل روحه في جسم بقرة وعندما تذبح البقرة يجعل روحها في جسم خروف وهكذا إلى الحيوان الصغير مثل النملة حتى تدخل في ثقب الأُبرة فيدخل الكافر الجنة.

ونحن حينما نقول للبعض: إن النبي ﷺ عنده نصّ بألّا يخرج دون أن يستخلف أحداً مكانه.

يكابر ويقول: إن الأدلّة غير ناهضة.

☚ هؤلاء أهل بيتي». ولا أسبّه ما ذكرت حين خلّفه في غزوة تبوك، غزاها رسول الله ﷺ فقال له علي: «خلفتني مع الصبيان والنساء؟». قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنه لا نبوّة بعدي؟». ولا أسبّه ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول الله ﷺ: «لأعطين هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويفتح الله على يديه». فتطاولنا لرسول الله ﷺ، فقال: «أين علي؟». قالوا: هو أرمد. فقال: «ادعوه». فدعوه فبصق في وجهه ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه. قال: فلا والله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة.

(١) الأعراف: ٤٠.

مع أننا نجد أن النبيﷺ يُوحىٰ إليه في كلّ شيء حتىٰ عند خروجه إلىٰ سفر، فكيف بخروجه من الدنيا؟

نرجع للآية، وصل النبيﷺ إلىٰ مشارف تبوك حيث الروم، فطلع أمير المنطقة يحمل وثيقة صلح وقبولهم بدفع الجزية، فقبل النبيﷺ ذلك منه، وأخذ الوثيقة وأخذ عليه تعهّداً بدفع الجزية. ثم ساروا فوجدوا أمير تبوك يصيد، فأمسكوه وأسروه، ودخلوا تبوك فاتحين واحتلّوها، وكان هناك قبائل عربيّة ترزح تحت أسر الروم فحرّروها من الأسر، وفرضوا لها مكانة محترمة وسنّوا لهم قانوناً بألاّ يُعتدىٰ عليهم، ثم رجعوا بالغنائم.

وقد استغرقت هذه العمليّة (٢٠) يوماً مع الذهاب والإياب، ولما رجع النبيﷺ للمدينة اتّخذ موقفاً صارماً وغاية في الشدّة ضد المنافقين، فقرّر مقاطعتهم؛ لأنهم وقفوا موقفاً سلبيّاً، وعدائياً ضدّ حماية الدين والمجتمع، وعالج هذا الموقف بصلابة حتى لا يتكرّر. وهؤلاء المنافقون مثلهم كمثل من أعان الأجنبي الذي يهدد مصالح الأمة والمجتمع، بل يحمله على كتفه بدلاً من أن يحمي أُمّته من هذا الأجنبي، فهذه خيانة وطنية.

﴿إِن لا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ إذا لم تخرجوا للقتال فسوف تعرَّضون للعذاب. وهذا المقطع يريد أن ينبّه الفرد إلىٰ أن حياته ليست كلّها نوماً وأكلاً وراحة، وإنما فيها القتال والدفاع عن الأُمة، وبدلاً من أن تستشعر اللذّة عليك أن تستشعر الخشونة، أي أن تعبّئ روحك وتهيّئها وتروّضها للأحداث الآتية، فأيّامك ليست كلّها نعيماً، فلا تنتظر الموت وأنت على فراشك. ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يرفع هذا الشعار: «والله ما أُبالي وقعت على الموت، أو وقع الموت عليّ»[1]؛ لأنّ

---

(١) مقاتل الطالبيّين: ٢١، جواهر المطالب ١: ٣٣٨، فيض القدير ٤: ٦٢٣.

الإنسان له حالات يكون الأولىٰ له فيها لباس الشهادة، في حين أنه في حالات أُخرى يكون الأولىٰ له فيها لباس العافية. وقد نجد مجموعة يُعبّر عنهم بـ(الحفاة) يحملون العصا وعليهم أسمال بالية فيحتلّون العالم ثمّ ينبسط ظلّهم وسلطانهم على العالم كلّه.

فهذه تعبئة الرسالة والنبوّة، فالفرد قد تصنع منه أُمّة، أو قد يتعرّض الفرد للطغيان فيتحوّل إلى كيان مسحوق ميّت، يقول أحد الشعراء:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ... ـيان موتى علـى الدروب تسيرُ

فالآية بصدد التعبئة.

المبحث الثالث: آراء المفسّرين في العذاب

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾، ما هو المراد من العذاب هنا؟ للمفسّرين فيه ثلاثة آراء سنستعرضها إن شاء الله:

الرأي الأوّل: أن الله يقطع عنهم المطر، حيث إنّهم في حاجة له. ولك أن تتصوّر هذه العقليّة، وهذا يعكس نفسيّة المفسّر التي فرضها على النصّ.

الرأي الثاني ـ وهو الصواب ـ: أن ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ بمعنىٰ يسلّط العدوّ عليكم. وهو الذي يناسب جوّ الآية، فأي عذاب على الأُمّة أعظم من أن يسومها عدوّها الخسف؟ ونرى الآن مايفعله اليهود بنا ومايفعله الصليبيّون بالمسلمين في البوسنة والهرسك، أو أن يخرج حاكم ظالم من داخل البلد فيسومهم سوء العذاب.

الرأي الثالث: أن يكون العذاب الأليم في الآخرة[1]؛ لأن الدنيا ليست بدار جزا وإنما الجزاء في الآخرة، وأن الأليم لا يكون في الدنيا وإنما في الآخرة، وأن الدنيـ

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن ٩: ٢٧٩.

مهما تمرّ فيها من شدائد فإنها تنتهي، أمّا العذاب في الآخرة فلا ينتهي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾[1]. فالعذاب الأليم يوم يعرض العاصي بين يدي الله عزّ وجلّ ويصدر حكم العذاب عليه.

المبحث الرابع: من مشاكل التفسير بالمأثور

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾، مدارس التفسير عندنا كثيرة أبرزها مدرستان: التفسير بالرأي، والتفسير بالمأثور. والأقسام الأُخرى ترجع في النهاية إمّا إلىٰ مدرسة التفسير بالرأي أو إلىٰ مدرسة التفسير بالمأثور.

وهذه الآية أُخضعت لمدرسة التفسير بالمأثور، وهذا من مشاكله أنه يكثر فيه الافتعال، فالآية تقول: إذا لم تنفروا للقتال فإن الله سيستبدلكم بغيركم. والفهم السليم للآية هو تهيئة جماعة لحمل الدين حملاً تطبيقيّاً، فمثلاً قد يقرأ شخص ما القرآن لأجل التبرّك، فعندما يقول القرآن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[2] و﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾[3] فهو يقرأ ذلك للتبرك، أما غيره فيقرؤه للتطبيق، فهو يتواضع عندما يقرأ: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، ويمشي مشياً عقلانيّاً عندما يسمع ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾، ويؤدي زكاته عندما يسمع ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهكذا. أي يتلقّى النصّ بعقليّة التطبيق.

فالبعض يفهم النصّ فهماً سليماً، وهو أن الله سيهيّئ جماعة يحملون الدين حملاً تطبيقيّاً. والبعض الآخر يقول: إنهم أهل اليمن[4] يقول: أبو روق: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أي أن الله سيجعل أهل اليمن يدخلون الإسلام، وسينصرون الإسلام

---

(١) النساء: ٥٦. (٢) البقرة: ٤٣.

(٣) لقمان: ١٨.

(٤) انظر: جامع البيان، المجلد: ١٣، ج ٢٦: ٨٦ / ٢٤٣٣٦ ـ ٢٤٣٣٧، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٥٨.

بدلكم حيث إنكم خذلتم الإسلام.

وآخر يقول بأنهم أهل فارس حيث إنهم سينصرون الإسلام[١].

أما الجبائي فإنه يقول: من يُسلم بعد ذلك من المسلمين.

حيث إنهم لم يتلقّوا النصّ تلقياً سليماً، والفهم السليم للآية أنه إذا لم يوجد من ينصر الدين فإنّ الله سيهيّئ من ينصره.

فمدارس التفسير بالمأثور تبرز فيها مشاكل، فهناك مثلاً مواقع نصّ عليها القرآن الكريم مثلاً: ﴿فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾[٢]، فمفسّر يقول: الوادي المقدّس في القدس، وأخر يقول: في سائر أنحاء الشام، وثالث يقول: الطور على ظهر النجف، ورابع يقول: في مكان آخر. فالمسألة تتبع الروايات، وعلينا أن نمحّص الرواية السليمة والواقعيّة.

وهذه من مشاكل التفسير بالمأثور؛ لأن فيه قضايا غريبة. ولنقرب المعنى أكثر، فقد كان يحيىٰ بن أكثم قاضي قضاة المسلمين يفسّر هذه الآية: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[٣] فقريش تقول للنبي ﷺ: إن الذين اتّبعوك هم الأراذل والغوغاء، فيفسّر الأراذل في الآية بأنهم الكنّاس والحجّام من غير العرب.

وذلك الذي يمارس التفسير فيجد فيه ثغراتٍ عليه أن يخرجها، فعندنا داء هو أن نعتبر قول شخص مصدراً من مصادر التشريع، فمثلاً هشام بن عبد الملك أعطى رأيه في قضيّة، وهو إلىٰ الآن متّبع، حيث يقولون: إن الدليل في ذلك هو قول هشام بن عبد الملك.

نرجع للآية: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أي يهيّئ لهذا الدين من يحمله حملاً

---

(١) انظر جامع البيان، المجلد: ١٣، ج ٢٦: ٨٦ ـ ٨٧ / ٢٤٣٣٨ ـ ٢٤٣٣٩، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٥٨.

(٢) طه: ١٢.

(٣) هود: ٢٧.

صحيحاً للتطبيق، فقسم من الناس لا يحمل من الدين سوىٰ ألفاظ، أما القسم الآخر فلا؛ حيث عندنا شباب في جبهات القتال في العالم الإسلامي يحملون عزيمة جبّارة، وبعضهم براعم في عمر الورد يُلقي نفسه في لهوات الحرب حيث يفجّر نفسه بالديناميت، في حين أن القسم الآخر جالس في بيته ويقول: ياربّ انتقم من فلان، مع أن الآية تقول: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

فالدنيا تحتاج إلى عطاء. دخل رجل على عمر بن الخطاب وقال: يا خليفة رسول الله، إن هذا شتمني. قال: كيف شتمك؟ قال: يقول لي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واجلس فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال له الخليفة: إنه لم يشتمك فأنت تأكل وتشرب. فقال: لنسأل أحد الأُدباء. فبعث خلف حسان بن ثابت، فلما وصل قال له: أفي هذا البيت شتم؟ فقال له: إنه ليس هجاءً فقط، بل أكثر من ذلك[2].

فالآية تقول: إذا لم تعبّئوا أنفسكم فإنه يستبدل قوماً غيركم جديرين بالحياة، يقفون بوجه الطغيان والظلم.

المبحث الخامس: مرجع الضمير في قوله: ﴿وَلا تَضُرُّوهُ﴾

ثم انتقلت الآية: ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾، بعض المفسّرين يعيد الضمير في ﴿وَلا تَضُرُّوهُ﴾ علىٰ الله عزّ وجلّ، أي إذا لم تنصروا دين الله فلا تضرّون الله وإنما تضرّون أنفسكم؛ فإنّ دين الله جاء لبنائكم وبناء نظام لمجتمعكم وعلاقاتكم، واستثمار طاقاتكم؛ فأنتم تضرّون أنفسكم بعدم اتّباعكم للدين. وتوجد أحكام

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) تاريخ المدينة ٢: ٥٢٦، ٣: ٧٨٦، البداية والنهاية ٨: ١٠٥، كنز العمّال ٣: ٨٤٤ / ٨٩١٩.

في نُظُم المعادن والزراعة والصناعة، ومنها ألّا تجعلوا طاقاتكم بيد الأجنبي بل استثمروها أنتم وإلّا تعرّضتم للضياع.

وهناك رأي يقول: إن الضمير يعود للنبي ﷺ، أي أن النبي ﷺ قد عصمه الله تعالىٰ من أذىٰ الناس، وإنما الأذى والاعتداء يقعان عليكم، والنبي لا يضره شيء؛ حيث إن الله تعالىٰ قد تكفّل لنبيه بحفظه.

المبحث السادس: إشكال حول قدرة الله تعالى على كلّ شيء

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الشيء الممتنع لذاته هل هو شيء حتى يمكن أن يكون في إطار قدرة الله عليه؟ ننقل هذه الحادثة: دخل أبو شاكر الديصاني على الإمام الصادق عليه السلام وقال له: ألك ربّ؟ قال: «بلىٰ، الله عزّ وجلّ ربّ السماوات والأرض». قال: أربّك قادر قاهر؟ قال: «بلى». قال: هل يستطيع ربّك أن يدخل هذا الكون في بيضة، بحيث لا تكبر البيضة ولا يصغر العالم؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «كم حواسّك؟». قال: خمس. قال: «أيها أصغر؟». قال: الناظر. قال: «وكم قدر الناظر؟». قال: مثل العدسة أو أقل منها. فقال له: «فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بماترى». فقال: أرى سماء وأرضاً ودوراً وقصوراً وبراري وجبالاً وأنهاراً. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إن الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقل منها قادر أن يدخل الدنيا كلها البيضة لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة»[1].

وهذا على قدر عقله، أما الجواب العلمي فهو أن الممتنع لذاته لا يعتبر شيئاً، فهذا نقص في المقدور حيث إنه ليس له قابلية[2]. نحن نريد أن نقول: إن هناك

---

(١) الكافي ١: ٧٩ / ٤، وفيه أن الديصاني سأل هشام بن الحكم عن ذلك، فأعياه الجواب، فاستمهله ثم عرض السؤال على الصادق عليه السلام، فأجابه بما أجابه. التوحيد: ١٢٠ / ١٠ ـ ١٢، وفيه أنه سؤال وجهه رجل لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) وهو ما يعبّر عنه بأنه نقص وقصور في القابل لا في الفاعل، فمن هذه الجهة يكون جواب

أشياء لا نعطيها للعقليّات العامّة حيث إنهم لا يفقهونها، فالإنسان البسيط هذا يريد أن يتعلّم الحكم الشرعي والمسألة الأخلاقيّة والآداب العامّة، فيجب ألّا أُدخله في قضايا لا علاقة له بها، وأن أُرفق ببنائه، فأنا لا أُدرّس صفّاً له مؤهّلاته.

فيجب الأخذ بنظر الاعتبار عقليّة الإنسان الذي أُخاطبه، وقد رأينا كيف سلك الإمام عليه السلام مع هذا الشخص؛ لأن الله بعث الأنبياء لمخاطبة الناس على قدر عقولهم[1]، وكذلك هو حال الأيمّة والمصلحين.

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلّا الأشياء التي هي ممتنعة لذاتها فهي ليست بشيء، فإنّ الله سوف يهيّئ للدين من ينصره.

عرفنا جوّ الآية وأنه جوّ جهاد حيث إن الله يخاطبهم ويعلمهم بأنه سيذلّهم إن لم يخرجوا، وبقي أن نقول: إن هذا هو الذي دفع الحسين عليه السلام للخروج مع أهل بيته وأنصاره. لكن يأتي مؤرّخ ويقول: ما الذي حدا بالحسين لأن يخرج؟ فخروجه قد سبب سفكاً للدماء. لكنه نسي أن معنىٰ هذا أن نقول للأنبياء عليهم السلام: لا تخرجوا؛ فإنّ في خروجكم سفكاً للدماء، وأن نقول للشعوب المغلوبة على أمرها: لا تتحركوا؛ لأن في تحرككم سفكاً للدماء. فهل هذا معقول ومقبول؟ إن هذا يتنافى وروح الإسلام، حيث إن الله أمر بالوقوف بوجه الظلم والطغيان، وأمر الفرد بأن

☚ الإمام عليه السلام جواباً إقناعيّاً لا علميّاً، وذلك لمناسبة ذهنيّة السائل. وإلّا فإنه لو كان ذا عقليّة علميّة لما سأل مثل هذا السؤال حتماً، إذ أنه حينها سيكون عارفاً بأن قصور البيضة عن قبول ذلك إنما هو قصور ذاتيّ فيها، وليس هو قصور من الفاعل ـ وهو الله جلّ وعلا ـ مطلقاً. ودليل سذاجة السائل اقتناعه بالجواب مع أن الذي دخل العين هو صورة العالم لا العالم نفسه، وبينهما بون شاسع وفرق واسع؛ فالصورة غير المادّة كما هو واضح من تقسيم الفلاسفة العلل إلى أربع: ماديّة وصوريّة وفاعليّة وغائية، والقسيم غير قسيمه حتماً كما نصّوا عليه وأثبتوه في محلّه.

(١) المحاسن ١: ١٩٥ / ١٧، الكافي ١: ٢٣ / ١٥.

ينفر، وإذا لم ينفر فإنه يعذّب عذاباً أليماً.

فالحسين ﷺ خرج وقال لهم: أنتم ملتفون حول الطغمة التي عاثت في الأرض فساداً «أفهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلون؟»[١]. ثم قال: «والله لا يدعوني حتىٰ يستخرجوا هذه العَلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة»[٢]. وفرام المرأة: خرقة الحيض[٣].

فهؤلاء سيسفكون دماءهم ويذلّونهم. فالإنسان عبارة عن موقف، فإذا لم يكن لديه موقف فإنه ليس بإنسان.

خرج الحسين ﷺ وطرح رسالته، واتّبعته هذه المجموعة الخيّرة المباركة، كان يحمل في صدره جيشاً، وفي داخله عزيمة وثّابة، وأقبل يطرح ما عنده من طاقات في المعركة، حيث كبح جماح الطغيان، وقد تهدّم العرش الأُموي من بعد فورته، وإن كان ﷺ قد دفع من أجل ذلك ثمناً غالياً، حيث قال بفعله هذا: إن الأُمة لا تعيش إن كانت فارغة من الكرامة. يقول ابن الحديد: إن الحسين ﷺ من الأولى أن تنطبق عليه هذه الأبيات:

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه	إليه الحفاظ المرّ والخلق والوعرُ
ونفس تعاف الضيم حتىٰ كأنه	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجله	وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ
تردّىٰ ثياب الموت حمراً فما أتىٰ	لها الليل إلّا وهي من سندس خضرُ[٤]

والتضحية التي قدّمها كانت غالية حتىٰ وصلت لطفل عمره (٦) أشهر، ورحم الله

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٤.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١، لواعج الأشجان: ٧٢.

(٣) لسان العرب ١٢: ٤٥١ ـ فرم.

(٤) الأبيات لأبي تمّام. شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩.

السيد حيدراً الحلي حيث يقول مخاطباً الهاشمين: إن التضحية هذه لم تبقِ لكم شيئاً، فيقول:

أيّها الراغب في تفليسة	بأمون قط لم تشكُ الكلالا[1]
اقتعدها وأقم من صدرها	حيث وفد البيت يُلقون الرحالا
وإذا أندية الحيّ بدت	تشعر الهيبة حشداً واحتفالا
قف على البطحاء واهتف ببني	شيبة الحمد وقل قوموا عجالى
طحنت أبناء حرب هامكم	برحى حرب لها كانوا ثمالى
وطئت آنافكم في كربلا	وطأة دكت على السهل الجبالا[2]

وهذه هي المعاناة التي عانت منها زينب أُخت الحسين عليه السلام.

---

(١) الأمون: الناقة الشديدة، وهي العُذافرة. العين ٢: ٣٤٤ ـ عذفر.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلّي ٢: ١٠٠.

﴿١٨﴾

المرأة بين الحقوق والواجبات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: ورقة حقوق المرأة والمناوئين للإسلام

تكثر هذه الأيام المؤتمرات والندوات التي تحمل شعار تجسيد حقوق المرأة، وهذه تحدث في أوروپا وغيرها، ونحن جعلنا من دورنا تلقّي الشعارات وإن لم تكن من متبنّياتنا. وبعض من مفكّرينا يرى أن المرأة في مجتمعاتنا لا تُعطىٰ كامل حقوقها الشرعية؛ والسبب أنّنا نمثّل امتداداً لشعب الجزيرة العربية، وهي تتعامل مع المرأة تعاملاً خاصّاً قائماً على أساس موروثاتنا، وهي إلىٰ الآن لم تأخذ حقّها كما ينبغي على الأُسس الإسلاميّة.

ونودّ أن نلفت النظر إلىٰ أن انكلترا قد سنّت فيها المحاكم الكنسيّة قانوناً يجوّز للرجل أن يعير زوجته لرجل آخر، وهذه المحاكم الكنسيّة ترتبط بالدين، وفي انكلترا أيضاً صدر قرار سنة (٥٦٧)م في مجلس النوّاب لا تُمنح المرأة بموجبه أي سلطة على أي شيء. والقانون الإسكُتلندي يمنع المرأة حتى من حيازة العهد

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

الجديد (الإنجيل)؛ متذرعاً بالقول: إنها غير نظيفة. وكانت المرأة في القرن الحادي عشر تباع في إنكلترا.

ونحن الآن في القرن العشرين ومع ذلك بدأت ألحظ بعض الظواهر، وسألت من المفكّرين الإنكليز وبعض المسلمين المقيمين: مانمط الزواج من المرأة في هذا البلد؟ وكيف يتم؟ فأجابوا: أيّ شخص يرغب في امرأة يضمها إليه. وبالعكس، فلا عقد أو وى شيء يربطهما، بل هي مجرّد علاقة تقوم على التواصل الجنسي فقط، ونادراً ما يتزوّجون في الكنيسة؛ فإن زالت عندهما الرغبة في بعضهما تركا بعضهما، ويبقى الأطفال ضائعين. وكذلك إذا كبر الأب أو الأمّ فإنهم يرمونهما في دور العجزة، فلا توجد إنسانيّة ولا حنان، فلا يشعر أب بابنه أو حفيده.

وهذا ما لا نريده، إذن فليُقَل: ظلمها المجتمع، لكن لا يُقَل: ظلمها الإسلام؛ فالإسلام ليس عنده مصلحة في أن يظلم نصف المجتمع.

المبحث الثاني: إشكالات حول دور المرأة في المجتمع الإسلامي

نأتي للآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾ أي للنساء من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات. وهنا إشكالات وآراء عديدة للمفسرين حول هذا، نلخصها بالآتي:

الأول: مسألة الطلاق

وهي إعطاء الرجل حقّ التخلية في الطلاق، فلمّا كان «الطلاق بيد من أخذ بالساق»[1]، فإن هذا قد يولّد حسّاسيّة؛ فمثل هذه الكلمة يمكن أن تضيّع المرأة. والحقيقة أنه توجد ثغرة منشؤها سوء فهم النصّ، فمع أن الرجل يملك حقّ الطلاق، لكن يجب أن نعرف كيف يقع، فالطلاق له شروط صعبة كيلا تنهدم الأُسرة؛ لأنه

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٣٤ / ١٣٧، مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ٣٠٦ / ١٨٣٢٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٧٢ / ٢٠٨١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٧: ٣٦٠.

إذا انهدمت الأُسـرة انـهدمت خـليّة مـن المـجتمع، وضـاع الأولاد، وبـالنتيجة سيصبحون مجرمين، أو أدواتٍ بأيديهم.

شروط الطلاق عند الإمامية

وعند الإماميّة أن طلاق السكران لا ينفذ؛ لأنّه لا يملك الإدراك، والإرادة هنا منعدمة؛ فهو باطل، وطلاق الثلاثة نعتبرها طلقة واحدة، والطلاق بغير لفظ الطلاق باطل، فإذا لم يقل: «أنت طالق» فإن الطلاق لا يقع، في حين أن عند غيرنا إذا قال الرجل لها: «أنت عليّ كظهر أُمّي» أو «أنت كأُمّي» فإنها تطلق. والطلاق عندنا لابدّ أن يكون في طهر لم يقربها فيه، وأن يُشهد على الطلاق، وأن تكون لديه الإرادة وأن يكون باللفظ المعيّن[1].

وقد وضع الاسلام عقبة وهي تصريحه بأن «الطلاق يهتزّ له العـرش»[2] وهـو «أبغض الحلال عند الله»[3].

فإذا حصل شيء من سوء التفاهم بين الزوجين فإن عليهما أن يتذكّرا أن هناك شيئاً فوق المزاج وفوق هذه الخلافات، وهو الولد والأُسرة، فـعلينا ألّا نـجعلهما ضحية، فإذا كنت لا تريدها فعليك أن تخـيّرها بين أن تبقيَها فتأخذ هي حقوقها المنصوص عليها، وبين الطلاق، فإن رضيت فهو الصلح، والصلح خير. وكذلك في حالات أُخرى حيث نرى أن المرأة عندما لا تريد الزوج فإنها تتركه، فهل الزواج موضوع تسلية؟ مع ما يترتب علىٰ ذلك من أنها تترك طفلها، وما ذنب هذا الطفل؟ هذا شيء يأباه الدين ويعاقب عليه، فهو يمنع من ظلم أبسط الحيوانات، فكـيف

(١) انظر شرائع الإسلام ٣: ٥٧٩ ـ ٥٩٣.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

بالإنسان وهو أشرف الكائنات؟ فإذا كان الزوج كذلك، فإنّ المرأة لها أن تشترط الوكالة على طلاق نفسها في صلب العقد، وهو حقّ يمنحها إيّاه الإسلام[1].

أسباب الطلاق

ومعلوم أن الطلاق يأتي غالباً نتيجة لسرعة الزواج، فالزوج حينما لا يدرس وضعه ولا وضع زوجته قبل الزواج فإن من الممكن أن تكون النتيجة هي الطلاق. أو أن البعض عنده مال ويريد أن يتزوّج من آل فلان، وهم أُسرة متميّزة، لكن بعد الزواج تبدأ التناقضات. ومثل هذا ما حدث بين زيد بن حارثة وزوجته، فزوجته تقول: أنا بنت عبد المطلب أما أنت فمولى. فأمره النبيﷺ بتطليقها.

فهذا اللون من التعالي ينبغي الابتعاد عنه، وأن يتزوج الإنسان من طبقته، والله أمرنا بالعدل، وهو وضع الشيء في مواضعه، وكذلك الزواج ينبغي أن يكون في مواضعه، فيجب أن أعرف الأُسرة التي تناسبني وأُناسبها. وكذلك الذي يريد تزويج ابنته فيجب ألّا يبحث عن المال فقط، فـ«ابنتك كريمتك، فانظر لمن ترقّها».

ولذلك لمّا دخل الأشعث بن قيس على الإمام أمير المؤمنين﵇ ـ وهو رئيس قبيلة ضخمة، وعنده أموال ـ يخطب إليه زينب﵍ رفض الإمام تزويجه منها؛ حيث إن الأشعث كانت له انحرافات كبيرة وخطيرة. وكان ذلك مدعاة له لأن ينقم على الإمام﵇ فيما بعد ويشارك في قتله، وهو الذي كان يقول لعبد الرحمن بن ملجم حينما أدركه الفجر: النجا النجا لحاجتك؛ فقد فضحك الفجر[2]. أي اقتله قبل أن يطلع الفجر. والأشعث له قضايا كبيرة.

---

(١) وذلك عند ارتكابه بعض الأُمور؛ من سفر طويل أو جريمة يسجن عليها، فتكون حينئذ وكيلة على طلاق نفسها، ولايجوز له عزلها إذا طلّقت. انظر منهاج الصالحين (الخوئي) ٢: ٢٨١ /المسألة: ١٣٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦: ١١٧، الطبقات الكبرى ٣: ٣٦، أُسد الغابة ٤: ٣٧.

والإمام ﷺ أراد أن يضرب لنا مثلاً: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه»[1].

فالأشعث ليس له دين، ومثل هذا عليّ أن أبعده، أمّا الملتزم ومن يتخلّق بأخلاق الاسلام فليس هناك مانع من أن أزوّجه.

ومع هذا كلّه يعد الأشعث بن قيس ـ وياللأسف ـ شيخاً من شيوخ الحديث، بل ومن شيوخ الإمام البخاري[2]، وسألني البعض: لماذا عندكم موقف سلبيّ من البخاري؟ فقلت له: على العكس، نحن نحترمه ونقدّر له جهده الذي بذله في تأليف هذه الموسوعة، لكن نحن لا نأخذ برواياته، وسأضرب لك مثلاً. قال: تفضل. قلت: عمران بن حطّان يقول لعبد الرحمن بن ملجم:

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها	إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره يوماً فأحسبه	أوفى البريّة عند الله ميزانا

ويرد عليه أحد كبراء شعراء السنّة وهو عبد القاهر التميمي فيقول:

إنّي لأذكره يوماً فالعنه	دهراً وألعن من يعطيه غفرانا[3]

ونحن نسأل البخاري: بمقدّساتك ودينك، لو كان عبد الرحمن بن ملجم هذا قد

---

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣.

(٢) انظر صحيح البخاري ٣: ١١٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦، ٧: ٢٢٤، ٢٢٨، ٨: ٤٢.

(٣) قال الأمير العلامة أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميري اليمني في (الحور العين) بعد أن نقل أبيات عمران هذه: فبلغت الأبيات القاضي أبا الطيب الطبري، فقال:

يا ضربة من شقيّ ما أراد بها	إلّا ليهدم من ذي العرش بنيانا
إنّي لأبرأ ممّا أنت قائله	عن ابن ملجم الملعون بهتانا
إنّي لأذكره يوماً فألعنه	وألعن الدهر عمران بن حطانا
عليك ثمّ عليه الدهر متّصلاً	لعائن الله إسراراً وإعلانا
فأنتُمُ من كلاب النار جاء به	نصّ الشريعة برهاناً وتبيانا

انظر الحور العين: ٢٠١.

قتل أبا بكر أو عمر، هل كنت تأخذ بروايته؟ قطعاً لا يأخذ. لكن هذا قاتل إمام المتّقين، ويمدحه ابن حطّان وهو شيخ من شيوخ البخاري، فهل تريدني أن آخذ بروايته[1]؟ فهذا هو عمران بن حطّان.

وكذلك حريز بن عثمان كان يجلس صباحاً ويتقرّب إلى الله بلعن الإمام علي ﷺ سبعين مرة، وهذا شيخ من شيوخ البخاري أيضاً[2]، فهو يسبّ رجلاً يقول عنه الرسول: «حبّك حبّي وبغضك بغضي»، و«من مات يحبّك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهليّة وحوسب بما عمل في الإسلام»[3].

فكيف آخذ بروايته، وهو ليس له نصيب من الإسلام؟

ومثال آخر أن روايات أيمّة أهل البيت ﷺ لا يؤخذ بها ويؤخذ برواية مروان ابن الحكم، ولنقف عند الروايات التي وضعها الأُمويّون، فهل أنت لا تدري أن الذين كتبوا التاريخ هم الأُمويون؟ فهذا والي الأُمويّين خالد بن عبد الله القسريّ على الكوفة ـ وهو أحد الذين كتبوا التاريخ الإسلامي ـ كان عنده كاتب، فقال له يوماً: عندي مشكلة. قال: ماهي؟ قال توجد روايات تمدح علي بن أبي طالب وتمدح الأنصار ـ وكان عند الأُمويين حساسيّة تجاه الإمام علي ﷺ وتجاه الأنصار؛ لأنهم كانوا معه يوم صفّين ـ فهل أذكرها؟ قال: لا، لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم.

فهل هذا يذكر لعلي بن أبي طالب ﷺ منقبة؟ بل إنه لا تطيب نفسه بذكر ولو رواية واحدة في تكريم هذا الرجل، وكلّ ما تجده روايات تطعن في الإمام علي

(١) انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥.　(٢) انظر صحيح البخاري ٤: ١٦٤.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، كنز العمّال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، جواهر المطالب ١: ٧٠.

وزوجته ﷺ، كرواية أن الرسول ﷺ دقّ عليهم الباب فلم يخرجوا إلى الصلاة إلى أن طلعت عليهم الشمس وهم لم يصلّوا، فهل يعقل أن الإمام عليّاً وفاطمة ﷺ تطلع عليهما الشمس ولم يصلّيا؟

إن هي إلّا كرواية أن النبي موسى ﷺ جاء إليه عزرائيل ليقبض روحه، فقال له: «ماذا تريد؟»، قال: «أريد أن أقبض روحك». فضربه موسى بعينه ففقأها، وردّه إلى ربه وهو أعور[1].

فنحن لا يمكن أن نقبل بهذا الحديث وأمثاله قطعاً.

أم أنك تريدني أن أبغض الذي يقول عنه النبي ﷺ: «من أحبّك فقد أحبّني، ومن أبغضك فقد أبغضني»[2]، و«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»[3]، ومن هو ابن عمّ الرسول ﷺ ونفسه كما جعله القرآن[4]؟ يجب أن تكون المقاييس علميّة ومحفوظة، ويجب أن يكون لدينا موقف من المرويّات ومن النظريات.. موقف من هذا اللون من الروايات التي تحاول دفع الناس إلى الابتعاد عن إمام المتّقين علي ابن أبي طالب ﷺ.

نرجع للموضوع، فإنّ هذا الرجل (الأشعث) إنما رفضه أمير المؤمنين ﷺ؛ لأن الزواج لابدّ أن يقوم على أسس صحيحة، فالله تعالى يريد منّا أن نتخيّر قبل أن نقدم على الزواج، ولابد من حفظ كرامة المرأة؛ لأنها هي عماد الأسرة، والإسلام

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

(٢) أُسد الغابة ٤: ٣٨٢، تهذيب الكمال ١: ٣٥٩، بشارة المصطفى: ٢٥٣.

(٣) صحيح مسلم ٧: ١٢٠، فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ ـ ١٤، الجامع الصحيح ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤، السنن الكبرىٰ (النّسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ ـ ٨١٤٣، فتح الباري ٧: ٦٠.

(٤) في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾. آل عمران: ٦١، انظر: مسند أحمد ١: ١٨٥، الجامع الصحيح ٤: ٢٩٣، ٥: ٣٠٢، وغيرهما كثير.

يعطيها كياناً لا حدود له ضمن فطرتها وقابلياتها.

الثاني: مسألة الميراث

وقضيّة الميراث تبرز كمشكلة أُخرىٰ هنا، حيث يُشْكل بعضهم بالقول: إن في مسألة الميراث في الإسلام ثغرات بالنسبة للمرأة، فلماذا تُعطىٰ مثلاً النصف، وفي بعض الحالات تحرم؟

أما مسألة إعطائها النصف فهي معروفة، حيث إن هناك قاعدة تقول: «الغُنم بالغُرم»[1]، أي أنك تأخذ بالمقدار الذي تخسره، فالرجل مسؤول عن تكاليف الحياة ومستلزماتها، والمصاريف والسكن، أما المرأة فليست مسؤولة عن ذلك كله، بل هي ليست مسؤولة حتى عن ثمن العلاج، فهي تدّخر المبالغ التي تدخل حيازتها، بخلاف الرجل.

وقد يسأل أحد: لماذا لا تعطون المرأة حصّة من الأرض، بل وفي بعض الحالات تحرمونها من نصيبها الأعلىٰ؟ لنوضّح ذلك، فإنّ المرأة لها نصيب أدنى ونصيب أعلى، النصيب الأدنى هو الثُّمن لزوجة مات زوجها وعندها أولاد منه، أما إذا لم يكن عنده أولاد فتأخذ الربع، وهو النصيب الأعلىٰ.

ميراث أبناء الأبناء وحجبهم غيرهم

وهنا مسألة هي أنه إذا مات الرجل وعنده أولاد من ابنه أو ابنته المتوفّيَيْنِ في حياته، فهؤلاء الأولاد هل يمنعون المرأة أن تأخذ نصيبها الأعلى وهو الربع، أم لا؟ الشوافع[2] والموالك[3] يقولون: إن ابن البنت لا يرث نهائيّاً ولا يحجب، أما عندنا فان الرجل إذا مات وعنده بنت قد ماتت وهذه لها بنت، فهذه البنت تمنع

---

(١) وتقابلها قاعدة: من له الغُنم فعليه الغُرم. بلغة الفقيه ١: ١٧٨.

(٢) المجموع ١٦: ٩٠. (٣) الثمر الداني: ٦٣٩ ـ ٦٤٠.

المرأة من الحصول على ميراثها الأعلىٰ، أي أنها حينئذ تأخذ الثمن[١]. فهذا ليس حرماناً بل هو توزيع، فهذه ابنتي ومن صلبي.

أما الجواب عن مسألة الأرض فهو أن هذه المسألة حسّاسة جدّاً؛ لأنـها وسـيلة الإنتاج الأُولىٰ فأنا مثلاً إذا كان عندي قطعة أرض فإنه لا يمكن لي أن أنساها، بل إن ذكراها تظلّ باقية في ذهني ولا تفارق رأسي. ولذلك عندما سئل الإمـام‍‌عليه السلام: لماذا لا تأخذ المرأة من رقبة الأرض؟ قال‍عليه السلام: «لئلّا يتزوّجن فتدخل[٢] عليهم من يفسد مواريثهم»[٣]. فالرجل إذا كان قد توفّي وبقيت زوجته، ثمّ تزوجت بآخر، فإن الأرض إذا كانت عندها، فإنه حتماً سيأخذها سواءً بإرث أو بكـونها مـلك زوجته، وهو أجنبيّ عنهم؛ فمن الممكن جدّاً حينها أن تحدث بينهم الكـثير مـن المنازعات.

وقد يسأل سائل: إن البنت إذا أخذت الأرض فكذلك ستتزوّج وتذهب الأرض، فلِم لَم تُحرم كذلك؟

فنقول له: إن المسألة تختلف؛ فإنّ البنت من صلبي؛ فهي بالتالي دمي ولحمي[٤]. فالمشرّع الإسلامي عندما منع الزوجة من موضوع الأرض فإنما منعها حـتى لا تحصل مشاحنات ومنازعات ومشاكل، ومن جملتها أن العـلاقات تـتعقّد بـين

---

(١) الناصريات: ٤١٣، كفاية الأحكام: ٢٩٢.

(٢) كذا، والظاهر أنها: فيدخلن. (٣) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٤.

(٤) كتب الرضاعليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: «علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئاً إلّا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه من العصمة ويجوز تغييرها وتبديلها. وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مـثله فـي الثبات والقيام». الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩.

المجتمع، والله يريدها أن تكون علاقات منسجمة وطبيعيّة، فهو لم يحرمها وإنما أراد أن ينظم العلاقات ويعطيها الحقّ الذي يتناسب مع تنظيم هذه العلاقات.

الزوجة تأخذ ثمن الأرض لا عينها

وهناك نظريّة عند بعض فقهائنا تقول: إن حق الزوجة في الأرض هو أن تأخذ ثَمَنها، حيث تُقوَّم الأرض وتأخذ ثمنها وتشتري به أرضاً في مكان آخر إن أرادت[1]. فليس في مسألة الميراث مشكلة من هذه الناحية؛ من حيث إن الزوج هو المسؤول عن البيت وتكاليف الحياة، فلا يوجب ذلك نقصاناً للمرأة، فكلاهما ذو إرادة، وكلّ ما في المسألة أنها ترتبط بالتنظيم الاقتصادي للمجتمع.

الثالث: مسألة الجهاد

والتساؤل حول قضيّة الجهاد هو: لماذا منع الإسلام المرأة من الجهاد ولم يكلّفها به؟ ولماذا خصّه بالرجل؟

ونقول: هل إن المرأة بتركيبها الجسدي هذا تستطيع أن تتحمّل تلك الشدائد؟ كما أن هناك حالتين من الجهاد: حالة جهاد ابتدائي، وحالة دفاع. وحالة الدفاع غير حالة الجهاد، فحالة الدفاع أن يتعرض بلدك إلىٰ هجوم من عدوّك فتضطرّ إلى الدفاع عنه، فلا يقتصر الدفاع حينئذٍ على الذكور بل حتى الإناث والصبيان. فهذه هي حالة ثانويّة، وهي الدفاع عن الوطن والأعراض.

أما الناحية الأُخرى فهي الجهاد الابتدائي، فإن الجيش الإسلامي خارج لإعلاء كلمة الإسلام ومحاربة المشركين، وليس هناك حالة اضطراريّة ، فللمرأة رخصة. والمجتمع فيه شقّان: مدني، وحربي. فالمدني هو المرأة حيث إنها مسؤولة عن البيت والأطفال، وتقوم بواجباتها وترعى نصف المجتمع، والرجل للحرب

---

(١) إيضاح الفوائد ٤: ٢٤١.

ليقوم بالالتزام تجاه نصف المجتمع.

فالإسلام لم يمنع المرأة من الجهاد، بل توجد بعض النساء أقوى من بعض الرجال، وقد ثبت علمياً ومن الواقع أن المرأة أحياناً أصلب بكثير من بعض الرجال. ونذكر رواية هنا هي أنه لما غزا اليهود المدينة أمر النبي ﷺ، فجمعوا النساء على الأُطم (المرتفعات) وطوّقوها حتى لا يهجم اليهود عليهن، وخرج المسلمون للقتال. وكانت صفيّة بنت عبد المطلب تترصّد فرأت يهوديّاً يدور حول الأُطم، وكان حسان بن ثابت معها، وكان غير شجاع، فقالت: هل رأيته؟ قال: نعم. فقالت: هذا سيف فاذهب واضربه لأنه سيرى عوراتنا ويعرف نقطة الضعف فيدل عليها مَن خلفه من اليهود فيهجمون علينا. فقال: لا، قد علمت ما أنا بصاحب هذا. فنزلت صفيّة وضربت اليهودي بعصا، ثم قالت له: إني قتلته وعليه بزّة كاملة (ما يحتاجه المقاتل)، فاذهب لأخذها. قال: لا، جنبيني هذا؛ فإني لا أستطيع أن أرى الدم[١]. فهذا رجل وهذه امرأة، وهذا طبعاً له علاقة بالتربية والتكوين.

فالبيئة التي يعيش فيها الإنسان تنعكس عليه، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[٢]، يعني عندما يأمر بالإعداد فإنه لا يأمر بشيء لا يمكن له أن يتحقّق، بل إنه يكون في إطار الإمكان، فالإمكان موجود؛ فإنه إذا رُبي في أجواء الرجولة فسيكون رجلاً قويّاً.

وعليه فإنّ الجهاد عندما فرض على الرجل فإنه لم يكن احتقاراً لقابليّات المرأة، مع أن الإسلام قد أعطاها عوض ذلك «جهاد المرأة حسن التبعل»[٣]، أي قيامها بواجباتها الأُسريّة فتشارك زوجها في بناء الأُسرة، فالإسلام يكرّم

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٢٦١، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٤٣٠، ٤٣٢، ١٨: ٣٧٩.

(٢) الأنفال: ٦٠.

(٣) الكافي ٥: ٩ / ١، كنز العمّال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣، ٢٤١ / ٤٤٣٠٨.

المرأة[1] بإناطته بها مثل هذه الأدوار

فالإسلام لم يسلب المرأة حقوقها مطلقاً، بل نحن من يسلبها ذلك، فإننا نُسمى مسلمين لكن ممارساتنا ليست ذات صبغة إسلاميّة، بل هي بعيدة عن الإسلام حيث لازلنا نعيش بعض أجواء الجاهلية حتى إزاء الأولاد والمجتمع. فموار يثنا تحتاج إلى تعديل، ونحن بحاجة إلىٰ الترويض على تعديلها، فعندما نمسك مسلماً ونقول له: هل تحسن أدبيّات السلوك الأُسروي حينما تدخل بيتك، وكيف تعامل زوجتك وأطفالك؟ فإنه قد لا يجد ما يجيبك به. والحال أنه توجد مجموعة قواعد ونظم في الإسلام حول ذلك، وظيفتها تقنين الحياة الأُسروية.

وها قد بينّا وضع المرأة في قمّة المسؤوليّة والتكريم من قِبل الإسلام، والدليل على ذلك أن المرأة لعبت أدواراً في تاريخ الإسلام لا تقلّ أهمّيّة عن الرجل؛ فقد أعطاها مكانة في الأُسرة، وفي مجال الحرب، وفي الأوضاع السلميّة. وتاريخنا حافل بالنجوم من النساء، حيث إن هناك نساء ضربن أسمى الأمثلة، ومن ذلك أنه دخل ابن عبّاس وجماعة على الإمام الحسين﵇ وقالوا له: إنك ستخرج وستقتل، فما حملك لهؤلاء النسوة؟ فأشار﵇ إلى جملة من خواصّه وقال: «أمرني رسول الله ﷺ»، أي ديني يأمرني بذلك، فهي عليها النصف ممّا أقوم به أنا، وهذه مؤهّلة للقيام بهذا، فأنا سأعطي دماً والمرأة ستعطي موقفاً.

وفعلاً كانت مولاتنا زينب﵃ في غاية الصلابة، وكانت تدير شؤون العائلة

---

(١) جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، من أبرّ؟ قال: «أمّك». قال: ثم من؟ قال: «أمّك». قال: ثم من؟ قال: «أمّك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك». الكافي ٢: ١٥٩ / ٩.
وكذلك قال ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمّهات». مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب (القطب الراوندي)، مسند الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١/٤٥٤٣٩.

بأجمعها، وترعى الرجال. يقول أحد أدبائنا:

يـا ابـنةَ المـجدِ فـي ذرا آل فـهر ... وابـنةَ الوحـي فـي مدىٰ جبرئيلِ

وابـنةَ الطـهرِ فـارق الجـاهليّا ... ت وأعـراقـها بـجذرٍ أصـيلِ

يـانسيجاً بـه مـزاج عـليّ ... وهـدى أحـمدٍ وصـبرِ البـتولِ

وحملت إلى جانب الحسين عبء النهضة، وسنرى كيف لعب لسانها دوراً في مجلس ابن زياد، ومجلس يزيد، وفي الكوفة، وفي السبا، وهي تعرب عن لسان أبيها. تأمّل هذه النبرة التي تنمّ عن قوّة الجنان وبُعد الإدراك، تقول ليزيد: «كِـد كيدك واسعَ سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا، وهل رأيك إلّا فند وصحبك إلّا بدد وأيّامك إلّا عدد يوم ينادي المنادي: ألا لعـنة الله على الظالمين؟». وهو لا يملك شيئاً أمامها فيقول: لعمري، إنها لسجّاعة. قـالت: «إن لي عن السجاعة شغلاً»[1]. فالتجأ إلى السباب والشتم، ورحم الله أحد أُدبائنا حيث يقول في أُرجوزة له:

وإن مـن أدهـى الرزايـا السـودِ ... وقـوفها بـين يـدي يـزيدِ

أتـوقف المـرأة مـن آل العـبا ... بـين يـدي طـليقها واعـجبا

وعندما شتمها قالت: «أنت أمير تشتم ظالماً، وأنا امرأة لا والد ولا عمّ ألوذ به». فأخرجوها، وعادت إلى الخربة ومعها لفيف الأُسرة، وجلبوا لهـا الرأس الذي ألحّت الطفلة على جلبه إليها، فتوجّهت زينب نحو الحسين... .

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٧، مثير الأحزان: ٧١، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، ١٦٠، بلاغات النساء (ابن طيفور): ٢٣.



﴿١٩﴾

عالم الغيب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول، ويشتمل على أمرين

الأوّل: الجمل تفيد معانيَ غير ما تفيده المفردات

كل لغة فيها مفردات وجمل، فالمفردة هي الكلمة، والجملة هي مجموعة الكلمات المترابطة والتي يكون بينها إسناد. وقد تؤدّي كلمة معنىً هو معنى الجملة عينه، غير أن الغالب أن الجملة أحياناً تعطي معنىً أكثر من المعاني التي تعطيها المفردات مستقلّة، فمثلاً المقطع الأوّل من الآية ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، عند تفكيكه نجد أن معاني المفردات غير معنى الجملة، فإن معنى الجملة ككلّ أن ميقات يوم القيامة عند الله لايعلمه أحد غيره، لكن لو رجعنا إلى المفردات مستقلّة عن بعضها لوجدنا أن كلمة ﴿عِلْم﴾ لها معنىً غير معنىَ كلمة (ميقات)، وكلمة (ساعة) لها معنىً غير معنىَ كلمة (يوم القيامة).

---

(١) لقمان: ٣٤.

الثاني: حول الوضع التعيّني والتعييني

هناك اصطلاحات في القرآن، لكنها ربما تفيد معانيَ غير تلك التي نألفها؛ فأي لفظ يجب أن نحقّق هل إنه كان مستخدماً زمن النبي ﷺ في معناه الحالي، أم لا؟ وهذا المعنى يذكره الأُصوليّون في بحث (التعيّن والتعيين)، فبعض المعاني يكون إطلاق لفظه عليه تعيينيّاً، كإطلاق لفظ الماء على هذا السائل الذي نشربه، وبعضها يكون إطلاق لفظه عليه تعيّنيّاً وذلك لكثرة استعماله فيه كإطلاق لفظ الماء على الخمرة. فكلّ لفظ علينا أن نؤرّخ المعنى الذي كان عليه أيام النبي ﷺ.

المبحث الثاني: هل يمكن ترجمة القرآن حرفياً؟

والذي نريده من هذه المقدمة هو أن نعرف أن الألفاظ الآن غير الألفاظ التي كانت في زمن النبي ﷺ، فلفظ الساعة يطلق في زمن النبي ﷺ على يوم القيامة، في حين أنه الآن يُطلق على هذا الجهاز الذي يقطع الوقت. فلا نستطيع إذن ترجمة القرآن حرفيّاً، بل لا بدّ من ترجمته معنويّاً؛ وذلك لأنه يوجد عندنا أُناس مسلمون غير عرب: أتراك وأكراد وأوربيون، ولكلّ أُمّة لغة، ونريد أن نوصل لهم معنى القرآن من خلال الترجمة. فترجمة القرآن حرفيّاً لا تؤدّي الهدف المطلوب.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى إن ألفاظ القرآن الكريم نفسها لها معنى أكثر من المعنى المضموني، فبعض الألفاظ تعطي للجملة معنى غير المعنى الذي يعطيه لفظ مرادف آخر، أي أنه لا يعطي الوقع والرنين أنفسهما. وكمثال على ذلك الشعر العربي، فمثلاً عمر بن أبي ربيعة ـ وهو شأن غيره من الشعراء أيضاً ـ يصوّر الحجيج عندما يخرجون من المزدلفة ويذهبون إلى منى ويركبون خيولهم أو رواحلهم، فيعبّر عن مشي الرواحل أو الخيول بالسيل، يقول:

وسالت بأعناقِ المطيّ الأباطحُ

فلفظة «سالت» تعطي معنى غير المعنى المألوف، فالمعنى لطيف «وسالت

بأعناق» ومعبّر أيضاً. فإذا ترجمناها إلى غير العربيّة فلا تعطي المعنى ذاته، بل وستفقد خاصيّتها. ولذلك فإن القرآن يجب إبقاؤه كما هو، لكن نشرح المعنى تحت النصّ القرآني.

حقيقة مصحف فاطمة

وهذا ما فعله الإمام أمير المؤمنين، فهو لم يخرج من بيته بعد وفاة الرسول حتى أكمل كتابة القرآن وكتب تحته شروحاً؛ لأنه كان يكتب الآيات التي تنزل على رسول الله ثم يسأله عن معانيها فيشرح له النبي ذلك، فيكتبه الإمام. فهذه الشروح هي التي كتبها مع القرآن، وهذا هو قرآن فاطمة الذي يهرّجون به علينا. فهؤلاء لا يبحثون عن الحقيقة، وإنما عندهم رسالة في تفريق المسلمين، بل ويأخذون عليها أجراً[1].

فالقرآن هو مابين الدفّتين، وهو قرآن المسلمين، وكان الإمام علي يقرأ القرآن مع شروحه لفاطمة يسلّيها به بعد وفاة والدها، فيشرح لها المعاني وشروح الأحكام والعقائد. فهذا هو مصحف فاطمة. يقول الإمام الصادق: «مافيه من قرآنكم حرف واحد»[2] أي ليس فيه من النصّ وإنما الشرح حيث إن النصّ كان على حِدة والشرح على حِدة.

المبحث الثالث: أهداف إخفاء موعد الساعة

نرجع للموضوع، فنقول: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، متى تقوم القيامة؟ ومتى

---

(١) عن قيس بن عباد قال: قرأت على علي ـ يريد: ابن أبي طالب ـ ﴿وطلح منضود﴾، فقال علي: «ما بال الطلح؟ أما تقرأ وطلع؟». قال: «وطلع نضيد». فقيل له: يا أمير المؤمنين، أنحكّها من المصحف؟ فقال: «لا يهاج القرآن اليوم».

انظر: التبيان ٩: ٤٩٥، جامع البيان، المجلد: ١٣، ج٢٧: ٢٣٤، كنز العمّال ٢: ٥١٩ / ٤٦٤٨.

(٢) بصائر الدرجات: ١٧٢ / ٣.

تنتهي الدنيا؟ هذا طبعاً ما لا يعرفه أحد إلّا الله، لكن لماذا أخفاه الله؟ لقد أخفاه الله تعالىٰ حتى يكون الناس مستعدّين للقاء ربّهم، فهم لا يدرون بأي ساعة يأتيهم الموت، والذي يكون على استعداد للقاء الله فإنه ينظّم أُموره؛ ولذلك يقول الإمام: «ما ينبغي لامرئ مسلم أن يبيت ليلة إلّا ووصيّته تحت رأسه»[1].

فأول هدف لإخفاء يوم القيامة هو أن يكون الناس على استعداد للقاء ربهم.

والهدف الثاني: أن تكون مساحة الأمل مفتوحة، فلو قلنا لأحد: إنك ستموت غداً فإنه سيتوقّف نهائيّاً عن العمل، وستتوقّف الدنيا بأكملها عن العطاء، وينتاب الناس اليأس. فلابد إذن من أن يعيشوا على الأمل؛ لأن باب الأمل مفتوح دائماً، وهو يفتح الحياة أمام الناس. فإذا عرف امرؤ ما أنه سيموت في الساعة الفلانيّة فإنه سيوقف كل معاملاته مع غيره وكذلك فإنّ جميع عقود العمل ستبطل، وستتحوّل الدنيا إلى جمود.

المبحث الرابع: هل الإنسان ينزل الغيث؟

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ قد يقول قائل: إن العلم الحديث استطاع أن يُنزل المطر الصناعي، والحال أن القرآن يحصر ذلك بالله.

فنقول له: كلّا، إن الإنسان لم يفعله، بل إن كلّ ما فعله هو أنه لقّح الغيم الموجود، وذلك مثل الصناعات التحويليّة كتركيب أجزاء السيارة. فإنه يعرف أن هذا البخار المنتشر ضمن الهواء يحتاج لنواة يلتفّ حولها فيتكاثف وينزل، فهو لم يفعل شيئاً سوى أنه درس الآليات.

وكذلك الزارع يتصوّر أنه هو الذي قد زرع، حيث إنه جاء بالحبّة، لكن الواقع

---

(١) النهاية (الطوسي): ٦٠٤، مجمع البيان ١: ٤٩٤، وسائل الشيعة ١٩: ٢٥٨ / ٢٤٥٤٤، ورواه في البحر الرائق ٩: ٣٠٥ عن رسول الله ﷺ.

أنه لم يخلق الحبّة ولا الأرض ولا الماء، وإنما هو ألقى الحبّة في الأرض وترك الأسباب الطبيعيّة تعمل. فالله تعالى هو الزارع[1].

إذن ﴿وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾ ينزّله بدقّة وبحكمة، وقد يقال: أغاث فلاناً، أي نجّاه، فهذا زرعه كاد يموت، فأنزل الله عليه المطر فأغاثه، فصار زرعه حيّاً، وحصل على الوارد.

هل المطر المدمّر غيث؟

وقد يقول قائل: لكن المطر أحياناً لا يغيث وإنما يدمّر، فكيف يصح أن نعبّر عنه بأنه غيث؟

ونقول له: إن هذا أيضاً غيث؛ لأن هناك من يغاث بالتأديب، نقرأ: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوه﴾[2]، وهذا ليس بعذاب، بل هو رحمة[3]، كيف؟ لأن عذاب الإنسان للإنسان بواعثه انتقاميّة كالحقد، أما الله تعالىٰ فلا يريد أن ينتقم من أحد، بل يريد أن يطهّره ويكفّر عنه سيّئاته، فهو رحيم بعباده، وهو ربّ العالمين، فليس عنده شهوة الانتقام. ونقرأ في رباعيّة الخيام حيث يقول لله: أنا أسمع في القرآن أنك توعد بالعذاب، وأنا أعجب لهذا العذاب في أي مكان يكون؟ فهل هو في مكان أنت موجود فيه وهذا مستحيل؛ لأن الرحمة توجد أينما توجد، أو في مكان أنت لست فيه وهو مستحيل أيضاً؛ لأنه لا يوجد مكان يخلو منك؛ فأنت في كل مكان؟ أي لا يوجد عذاب حتّى في ساحة العذاب، وإنما هو نوع من أنواع التأديب:

---

(١) قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾. الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) الكهف: ٢٦.

(٣) وقد ورد في الحديث القدسي: «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلّا الفقر». الكافي ٢: ٣٥٢ / ٨، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٨.

ربـــي أوعـدتني بأن جـزائـي لذنـــوبي العـــقابُ والنـــيرانُ
فـــتعجّبت مـــن وعـيدك هـذا وأنـــا بـــاكـــتناهه حـــيرانُ
أعـذابـي بـموطن مـنك يـخلو دلّـــني أيـن أيـن هـذا المكـانُ
أم مكـــان تـــحلّه ومـــحال حـــيثما أنت رحـــمة وحـــنانُ[1]

نرجع للموضوع، فالغيث حتى لو أحرق فإنه فيه تأديب، فإنّ الله أجلّ من أن ينتقم من العبد الضعيف، وهو تعالىٰ قد يسلّط شيئاً بسيطاً عـلى العـبد فـيشعره بمكانته وبحقارته، حتى الذي عنده جبروت تعفّر كرامته بالتراب.

المبحث الخامس: معرفة السونار جنس الأجنّة في الأرحام

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ وهنا يرد سؤال أيضاً هو أن «السونار» يعرف ما في الأرحام، وهل هو ذكر أم انثى، فهل هذا يعارضه؟

الجواب لا؛ فمراد الآية أنه تعالى يعلم ذلك حتّى قبل تخليق الأجنّة، ويعلم هل سيصوَّر في الرحم شيء أم لا، وكم هي مدّة الحمل، فهذا يـعلمه الله تـعالى قـبل وقوعه. كما أن السونار لا يعطي العدد الدقيق أيضاً، فمثلاً عرض في إنكلترا فلم لكلبة قرّر العلماء أنها ستحمل في كلّ مرّة (١٢) جرواً ولكنها ولدت (١٩) جرواً، وهذا مع وجود الآلات الدقيقة، فهم لم يستطيعوا أن يحصروا العدد حصراً دقيقاً.

بل حتّى لو حصروا العدد بدقّة، لكن خواصّ الجنين تبقى مجهولة لهم، فمسألة هل هو جميل أو قبيح؟ وهل هو واسع النفس أم ضيّقه؟ وهل خواصّـه النـفسيّة والجسديّة معروفة؟ شقيّ هو أم سعيد؟ كـلّ هـذا مـجهول بـالنسبة لهـم. يـقول الإمام ﷺ: «هل يعرف من حطب النيران أم هـو مـن سكـنة الجـنان المـرافـقين للأنبياء»، فهذه هي المعرفة الإلهيّة للأرحام.

---

(١) قد مرّ له في الصفحة: ١٠٦ من هذا الجزء بيتان في المعنى نفسه.

وكذلك فإن هذا الإنجاز ليس للإنسان وإنما هو من عند الله ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] فهو قد أعطى الخليّة القابليّة على أن تتطوّر، وكذلك أعطىٰ كل شيء.

ومن المشاكل حول هذه النقطة التي هي محل ابتلاء في الفقه؟ أن المرأة لو توفّي عنها زوجها حال حملها هل تقسم التركة أم لا؟ فإذا قال الورثة: نريد حقّنا في الميراث، فكم يتركون للحمل؟ هناك نزاع عند الفقهاء حول هذا، فبعض المذاهب الإسلاميّة تقرر أن يُترك له أربع حصص، وبعضها ثلاث وبعضها خمس؛ لاحتمال أن يكون في بطنها أكثر من واحد، وهناك من يعطيها سبع حصص. وهذه الحالات غير مطّردة؛ لأنه من النادر أن تلد المرأة خمسة أو سبعة فالمعروف المطّرد أنه اثنان. فالحالة الشاذّة لا يمكن أن نقيس عليها. وبعض الآراء الفقهيّة خاضعة للنقد؛ لأن أحكام الشارع المقدّس تؤخذ بحسب الأعمّ الأغلب، ولا تهتمّ بالشاذ؛ لأنه خارج عن الفرض؛ فهو غير مشمول بالحكم.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ البعض قد يتصوّر أن الظروف متّسقة ويقول: أنا أعيش في مناخ اقتصادي معروف ومستقرّ، فإني أربح الربح نفسه يوميّاً. وهذا خطأ، هناك عبارة لأحد الفلاسفة تقول: أنت لا تستطيع أن تعبر النهر نفسه مرتين؛ حيث إن هناك احتمال أن تغيّراً قد حصل في النهر من زيادة أو نقصان في الماء. فلا تتصوّر دائماً أن الظروف متساوية، فقد تربح يوماً وتخسر يوماً وتمرض يوماً ويتحول الحال إلى شيء آخر.

المبحث السادس: الإنسان يحنّ بفطرته إلى تربة مدفنه

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وهذا يرتبط بصميم موضوعنا، لأننا نعيش اليوم في كربلاء، فمع نزول الحسين عليه السلام واختياره ذلك، هل كان يعلم

---

(١) العلق: ٥.

أنه سيموت فيها، أم لا؟

فكل إنسان يحنّ إلى التربة التي سيدفن فيها؛ فهناك بعض من الروايات تقول: إذا أراد الله عزّ وجلّ أن يخلق الإنسان، فبمجرد سقوط نطفته في الرحم يوحي إلى ملك من الملائكة بأن يأخذ شيئاً من التربة التي سيدفن فيها ويمزجها بنطفته، فيظل يحنّ لتلك التربة التي أصبحت جزءاً من كيانه الجسدي والنفسي. نسأل الله أن يوفّقنا لأن نُدفن في التربة التي نحنّ إليها. يقول أحد أُدبائنا:

أيا رملة الوادي على أيمن الحمى	سلام على رمل الحمى وشعابِهِ
على منزل حطّ الأحبّة رحلهم	به وأراحوا الخدّ فوق ترابِهِ
وعهدي بأن القبر صمت ووحشة	فلا منشد لا سامع لخطابِهِ
ورمل عليّ بالغري طلاقة	وبشر وأُفق ضاحك برحابِهِ
فديت حمًى فيه شدوت مشاعري	وأهلي ثووا في مصرع من جنابِهِ
وغشّاه مطلول الخزامى بطيبه	وغذّاه نوع مغبط بسحابِهِ

ولذلك نجد أن بعض الظلمة يمنعون الإنسان حتى من أن يدفن بتربته وموضع حنينه الذي في قرارة نفسه فيروي غليله، فالإنسان يحنّ للتربة التي يدفن فيها، ولكنه قد يدفن فيها وقد لا يدفن. فكما أنه تعالى لم يعرّف الإنسان الوعاء الذي تكوّن فيه، فكذلك لم يعرّفه الوعاء الذي سيختتم به، وعليه فإنّ التربة التي خلقنا منها لم تكن باختيارنا، ولا الرحم؛ فوعاء الدنيا لم نختره وكذلك الوعاء الذي نعيش فيه، ووعاء الزمن أيضاً.

نعود فنقول: إن الإمام الحسين﵇ صرّح أكثر من مرّة بأنه سيدفن في كربلاء، وخطبته المعروفة في المدينة يقول فيها: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي

مصرع أنا لاقيه. كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً[1] لا محيص عن يوم خطّ بالقلم»[2].

فالإطلاق في ﴿مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هل هو باقٍ على اطلاقه، أم أنه مقيد؟ الجواب أنه مقيّد بما لم يُعلّمه الله للناس، فالله يعلّم الناس عن طريق الأنبياء وعن طريق الإلهام، وهناك طرق أُخرىٰ لإيصال العلم، والحسين عليه السلام أعلمه جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أن التربة التي سيدفن فيها هي كربلاء.

وفعلاً مرَّ الرسول صلى الله عليه وآله بهذه التربة وباركها وأشار إلى أنها ستكون محلاً لمصارع أولاده، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام كما يقول هرثمة بن أبي مسلم: كنت خارجاً مع جيش الإمام ـ وهو ليس من شيعة الإمام، لكنه شمله التجنيد ـ من بعد واقعة صفين، ونحن راجعون، فمررنا بكربلاء، فوقف الإمام علي عليه السلام وأخذ قبضة من تراب كربلا وشمّها وقال: «هذا - والله - مناخ ركابهم وموضع منيّتهم» فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الموضع؟ قال: «هذا كربلاء، يقتل فيه قوم يدخلون الجنة بغير حساب».

ودمعت عيناه، فرأيت التأثّر بادياً عليه، ولمّا عدنا أخبرت زوجتي ـ وكانت شيعة لعلي ـ بما حدث، فقالت: ويحك إنه لا يقول إلاّ حقاً.

يقول هرثمة: ثم شملني البعث مع جيش عبيد الله بن زياد، فلمّا وصلنا لكربلاء ذكرت كلام الإمام أمير المؤمنين فأقبلت إلى الحسين وأعلمته بما سمعت من أبيه، وقلت له: أنا مررت مع أبيك وقال كذا، فرفع الحسين رأسه وقال: «أنت لنا أم علينا؟». فقلت: يابن رسول الله، لا لكم ولا عليكم؛ خلّفت صبية أخاف عليهم

---

(١) السغب: الجوع. مختار الصحاح: ١٦١ ـ سغب.

(٢) مثير الأحزان: ٢٩، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

عبيد الله بن زياد. فقال ﷺ: «فامضِ حيث لا ترى لنا مقتلاً، ولا تسمع لنا صوتاً، فوالذي نفس الحسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلّا دخل النار»[1]. وبالفعل ترك المكان.

المبحث السابع: أسباب اتّخاذنا التربة الحسينية

فالحسين ﷺ أُخبر سلفاً بأن كربلا ستكون محلاًّ لشهادته وشهادة أهل بيته، وأن الله قد اختار هذه التربة الطاهرة لهذا الجسد الطاهر؛ لأن الله يختار لأوليائه البقاع الطاهرة. ونحن لهذا وغيره نحرص علىٰ أن نأخذ شيئاً من تربة هذه الأرض الطاهرة؛ لأن لها مكانةعند الله، وهي إضافة إلى ذلك جزء من الأرض صالح للسجود؛ باعتبار ما يعمّ الكلّ يعمّ الجزء. والغريب أنه إلىٰ الآن نقرأ اعتراضات علىٰ هذا كما في مقالة لاستاذ في جامعة معاصرة يقول فيه: «غريب أمر هؤلاء الشيعة، فعندهم الصلاة لا تصحّ إلّا أن يضعوا رؤوسهم على حجر». هؤلاء كيف يحملون شهادة دكتوراه؟ وإلّا أليست الأرض حجراً؟ إني لم أُقدس هذا الحجر وإنما الله أمرني بأن تكون جبهتي على الأرض، وهذه جزء من الأرض.

بل توجد هناك معانٍ وراء النصّ؛ حيث إن هذه التربة طاهرة بارك الله فيها، ونحن نتذكر مجنون ليلى حيث مرّوا عليه في المنطقة التي كانت تسكن فيها ليلى، وكان يأخذ من تراب المنطقة ويقبّله، فقالوا له: هذا عيب. فقال:

لا تقل دارُها بشرقيّ نجدٍ	كلّ نجد للعامريّة دارُ
فلها منزل بكلّ مكانٍ	ولها كلّ ومضة آثارُ

علىٰ أيّة حال فأنا لا أُقدّس الحجر، وإنما أعرف أن هذا المكان قد سُطرت عليه

---

(١) انظر: الإرشاد ١: ٣٣٢، شرح نهج البلاغة ٣: ١٦٩، وفيه: واهاً لك يا تربة ليحشرن منك قوم...، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٢، تهذيب الكمال ٦: ٤١١، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠١.

أروع طرق التضحية، فأعتزّ به ميدانيّاً. فالكعبة المشرّفة حجر، ولكننا نقدّسها ونقبّلها ونقصدها من مئات الآلاف من الكيلومترات؛ لأن الله أمر بتقديسها، ولأنها موطن الدعوة الإسلامية، ومنها ارتفع صوت بلال للأذان داعياً الأُمّة إلى «لا إله إلّا الله».

فهذا المكان (كربلاء) أعتبره مثالاً للشهادة ووعاءً مثّلت فيه أروع ملاحم التضحية، وهو جزء من الأرض فلا ينبغي الاعتراض على الحكم بجعلها موضعاً للسجود. نروي لك هذه الرواية، الملك صلاح الدين أُهديت له هدايا، ومن جملة الهدايا أُخرج له مروحة، فقيل: هذه هديّة لم يرَها الملك ولم يرَ آباؤه مثلها، ولا أشرف منها. فقال صلاح الدين: ايت بها. فرأىٰ فيها بيتين:

أنا من نخلة تجاور قبراً	ساد من فيه جملة الناس طرّا
شملتني عناية القبر حتى	صرت في راحة ابن أيّوب أمرا

فقال: هذه من نخلة مجاورة لقبر النبيّ ﷺ، ووقع عليها يلثمها ويقبّلها؛ لأنها قريبة من قبر النبيّ ﷺ.

فالحسين هو ابن رسول الله ﷺ، وفيه قال: «حسين منّي وأنا من حسين»[1]، فهذا دم رسول الله ولحم رسول الله وهؤلاء أولاد رسول الله ﷺ الذين صرّعوا، فهذه تربة مقدّسة طاهرة، وأنا عندي حرص وولاء، وإلّا فإنّي أستطيع أن أسجد على ورقة أو على سعفة أو على عشبة أو على كلّ ما يصحّ السجود عليه. فلماذا أنت تأخذ برواية عبد الملك بن مروان بأنه يصحّ السجود على السجّاد وتعتبر روايتك هذه محترمة، وعندما آخذ برواية عن الحسن أو الحسين عليهما السلام بأنه لا يصحّ السجود إلّا على الأرض تعدّ روايتي غير محترمة؟

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

والجواب أنه لا توجد لدينا موضوعيّة في الطرح والنقاش، مع أن الواجب يحتّم علينا أن نرجع للدليل بموضوعيّة، وألّا نحمل أفعال المسلمين على العبث والعاطفة، فيجب أن أحملها على الصحّة، وأرى دليله وأُناقشه. والمسلمون كانوا يأخذون خرائط[1] يضعون فيها جزءاً من تراب المدينة، فإذا ذهبوا للسفر سجدوا عليه؛ لأن تراب المدينة طاهر ومن الأرض؛ فيصحّ السجود عليه.

فالحسينﷺ يعلم أنه سيدفن في هذه الأرض، وهوﷺ استجاب للإرهاصات التي بُلِّغ بها، فلما قيل له: كربلا، قال: «انزلوا، فهاهنا محطّ رحالنا»[2]. فاختيارهﷺ لها وتخييمه بها كان استجابة لما قال له جده رسول اللهﷺ من أن مصرعه ومصرع أصحابه سيكون فيها.

وهناك رواية تقول بأن الحسينﷺ قد اشترى الأرض أربعة أميال في أربعة أميال، واشترط على أهلها أن يرشدوا زوّاره إلى قبره ويضيّفوهم ثلاثة أيام[3]. وتوجد رواية أُخرى تقول: إن الحسينﷺ اشتراها بستّين ألف درهم، وتصدّق بها على أهلها بشرط أن يرشدوا زوّاره وأن يستقبلوهم. وهكذا جعلهاﷺ وعاء للشهادة، ومثّل عليها أروع طرق التضحية؛ ولذلك تلعب كربلاء دوراً هامّاً في مشاعر المسلمين، فإنه لا يوجد مسلم لا ينشد لكربلاء وما جرى فيها للحسين وأهل بيته وأصحابه.

ستبقى كربلا في وجدان كل من قال: «لا إله إلّا الله»؛ لأن الحسينﷺ على هذا التراب أعاد تجسيد الإسلام، فإنّ الأُمويين يصعدون على المنبر ويقولون:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسلْ

---

(١) الخريطة: وعاء من أدم أو قماش تشرج على ما فيها. مختار الصحاح: ٩٨ ـ خرط.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٩، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٢١.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة ١٠: ٣٢١ / ١٢٠٩، مستدرك سفينة البحار ٨: ٣٨٧.

ويأتي الحسين عليه السلام ليجسّد كلمة «لا إله إلّا الله» على هذه التربة، كان عليه السلام يريد إعادة معالم الإسلام الذي أوشك أن يندثر على أيدي هؤلاء، وأعطى قباله ثمناً غالياً. فأصبحت كربلاء في مشاعر كلّ من يرتبط بآل رسول الله صلى الله عليه وآله، وستبقى ماثلة أمام أعيننا؛ لأنها تعيد لنا الأيام والليالي التي عاشها الحسين عليه السلام على هذه التربة هو وأهل بيته. يقول أحد المؤرّخين: لمّا نزل الحسين عليه السلام بكربلاء كانت أوائل جيوش عمر بن سعد قد وصلت، فجاءت له أُخته زينب والحزن يعلوها، فيسألها الحسين: «ماذا جرى؟»، قالت: أبا عبد الله، لقد استوحش قلبي من هذا الوادي. فوضع عليه السلام يده على عاتقها وقال: «لا يا أُخيَّة، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان»، فأنت قادمة لأداء الرسالة. وفعلاً صمدت بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن بقيت تلك الوحشة بعد الطفّ، وعندما تمرّ بذكريات الطفّ تنتفض.. عاشت بعد الحسين عليه السلام وطيوف كربلاء تلاحقها.



﴿٢٠﴾

المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

كل مجتمع من المجتمعات يخضع للسنن الطبيعية، حيث يوجد فيها الطيّب والأوسط والمتردّي، وهذه يقتضيها العلم والعقل، والتطبيقات التاريخيّة قائمة عليها. أمّا الذي يقول: إن الذي عاصر الرسولﷺ ولو لدقيقة واحدة فهو لا يصدر منه ذنب، ولا يصحّ عليه ذمّ، فهذا كلام غير علمي. نحن لا نريد أن ترمينا المجتمعات الخارجيّة بالبلاهة، فيقولون لنا: إذا كان من رأىٰ النبي فهو معصوم، فلماذا قامت قيامتكم على اعتقاد بعضكم باثني عشر معصوماً، فأنتم لاتقولون بالعصمة؟ إن هذا المجتمع الذي عاصر النبيﷺ له كرامة ومنزلة، ويتعيّن علينا أن نوقّره، لكن علينا أن نقيّمه، فالقرآن وضع المنهاج فقيّم الطيّب وغير الطيّب، وقيّم الذي يعمل العمل الصالح والذي لايعمل العمل الصالح، فلا نبتعد عن منهاج القرآن والسنّة والعقل.

---

(١) الأحزاب: ٦٠.

المبحث الأول: حول مسألة شتم الصحابة

فهذه هي إحدىٰ المشاكل في تاريخ المسلمين، فمثلاً مجلة لأحد المذاهب الاسلاميّة تصفنا بأنّا كفرة حيث إننا نشتم الصحابة. ونقول: نحن لا نشتم الصحابة، وليلاحظوا تاريخ التشيّع منذ أن تبرعم في الأذهان وإن رأينا أن علي بن أبي طالب أفضل الصحابة، ونحن نحترم الآخرين وإنجازاتهم، فنحن لم نشتم، فالذي بدأ بالشتم هم الأمويون حيث شتموا الإمام علياً ثمانين سنة، وقد عُدّت المنابر بـ(٧٠) ألف منبر كان علي بن أبي طالب يشتم عليها[١].

وقد يقول قائل: هناك طبقة مارقة هي التي تشتم.

فنقول: هؤلاء لا كلام لنا معهم، ولكن لنا كلام مع كلّ فقيه مسلم لا يقول: هؤلاء مارقون، بل يحترمهم ويقول هؤلاء خلفاء رسول الله ويعطيهم مكانة، مع أنهم يشتمون علي بن أبي طالب ويمجّدون قاتله. فهل ترىٰ أن هذا مما لا يشكّل عندنا ردّة فعل؟ فردّ الفعل جعل البعض يشتم، وإلّا فإنّ الشتم ليس من خلقنا[٢]، وإنما نحن نقيّم الآخرين، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾[٣] و ﴿الأعْرَابُ أشَدُّ كُفراً وَنِفَاقاً﴾[٤] و ﴿لا يَسْتَوِي أصْحَابُ النَّارِ

---

(١) انظر حول ذلك، وحول شتمه: المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٤٩٩ ـ ٥٠٠، كتاب المجروحين ١: ٢٦٨، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٢٠ ـ ٢٢٣، أخبار الدولة العباسية: ٤٥.

(٢) قال أمير المؤمنين موصياً شيعته ومحبّيه لمّا بلغه أن بعض أصحابه يسبّ أهل الشام أيام حربهم بصفين: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم؛ حتى يعرف الحقّ من جهله ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به».

انظر: نهج البلاغة /الكلام: ٢٠٦، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦١، المعيار والموازنة (أبو جعفر الإسكافي): ١٣٧.

(٣) التوبة: ٩٨.

(٤) التوبة: ٩٧.

وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾[1]، والسنّة النبويّة تقيّم، وهذا هو المنهاج العلمي. فالقرآن يبيّن لنا حقيقة الشرائح في المجتمع الذي عاصر النبيﷺ.

المبحث الثاني: وقفة مع أهل النفاق والذين في قلوبهم مرض

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ﴾، المنافقون الذين يبطنون ما لا يظهرون، ويبتغون الغوائل عند المسلمين. وهم شريحة كبيرة في المدينة، وكان النبيﷺ يراهم ويعرفهم، لكنه كان لا يريد فتح جبهة داخلية، حيث إنهﷺ كان مشغولاً بالجبهات الخارجيّة وقتال المشركين، فإذا فتح ثغرة في الداخل فإنّ وضع الإسلام يتغير؛ ولذلك سكت على مضض، فكانﷺ يعطيهم الأموال، وهم المؤلّفة قلوبهم، حيث كان يعطيهم من سهم الزكاة، ويروى أن عمر بن الخطاب قال له: نحن ديننا قوي، وإنما كنّا نجامل هؤلاء؛ فلماذا نعطيهم الآن؟ فأجابه النبيﷺ بأن الهدف أبعد من إسكات هؤلاء.

فالمنافقون شريحة كبيرة في المدينة، ولهم دور كبير في تخذيل المسلمين، ونحبّ أن نشير هنا إلى نقطة، وهي أنه إذا كان دين الدولة الإسلام، فهل هذا الدين شعار على الصدر، أو أنه تطبيق عمليّ؟ فعندما أقوم بفتح مؤسّسات إلحاديّة ، وأسمح لفئات إلحاديّة بالتحرك بكامل حريتها، وأُعطيها حقّ التصرف ضمن الدولة الإسلامية؛ كي أُعطي الشعب حرّيّته ويكون ديمقراطيّاً، ثم أقول: هذا المجتمع إسلامي، فهذا يعدّ خطأً، فالإسلام يقول: إن الذي يريد أن يحتفظ بعقيدته داخل نفسه فليحتفظ، لكن لايظهر الكفر. أما الذي يريد أن يلحد ويخرّب الدين باسم الديمقراطيّة والحريّة ، فهذا غير مسموح له؛ لأن فيه اعتداء على حريّة الجميع، وعلى عقيدة الجميع.

---

(١) الحشر: ٢٠.

والنقطة الأُخرى أن البعض يقول: إن دين الدولة الإسلام ثمّ يـعمد إلىٰ فـتح خمّارة أو مؤّسسة باسم الفنّ للمتاجرة بالجسد العاري، فكيف يجتمع الإسلام مع هذه الأشياء التي تنخر المجتمع والعائلة والفرد والأخلاق؟ فهذا لون من النفاق، فهو يظهر ما لا يبطن. فهذه ـ دين الدولة الإسلام ـ تقال ولا تطبّق.

وإن الذي يفعل هذا إنما يهزأ ويسخر، ولا سخرية في العقيدة الإسلامية، فإنّ الله جلّ وعلا أراد بهذه العقيدة صلاح الأُمّة وصلاح المجتمع، فهو عزّ وجل عندما فرض على المسلمين أن يكونوا متوحّدين في ظلّ دين الإسلام، لم يرد أن عليهم فتح ثغرات فيه.

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم شريحة معاصرة للنبي‌ﷺ، وهـؤلاء كـانوا يتربّصون الدوائر بالنساء، فيلاحقونهن للاعتداء عليهن. أمّا كيف ذلك فالمعروف أن العرب كانوا يستقذرون وجود الكنيف داخل بيوتهم، فكانوا يقضون حوائجهم خارج البيت، تقول الآية: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾[1]، فالغائط هو المنحدر، وإنما سمّي به ما يخرج من الإنسان من باب تسمية الحالّ باسم المحلّ. فالمنحدر الذي يُتوارىٰ فيه عن أعين الناس يسمىٰ غائطاً[2]. وإنما كانوا يستقذرون وجود الكنيف داخل بيوتهم؛ لانعدام الوسائل الصحيّة المعروفة اليوم والتي تمنع حصول الرائحة وما شاكل. أما النساء فيخرجن غالباً إلى الغائط عند الغروب أو الليل، فكان هؤلاء يتربّصون الدوائر عند خروج المرأة لقضاء حاجتها فيلاحقونها للاعتداء عليها. وكانوا يتّخذون ذلك تسلية، بل وفي كلّ مكان بحيث يصل الحدّ إلىٰ أن يقول أحد شعرائهم:

يـاحبّذا مكّـة مـن مـنزل ... وحـبّذا الكـعبة مـن مسـجدِ

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) الصحاح ٣: ١١٤٧ ـ غوط.

وحـــبّذا اللائـــي يـــزاحـمننا عـــند اسـتلام الحـجر الأسـودِ

فهو يلاحقّ المرأة حتىٰ في الكعبة. فهؤلاء الشريحة هم ﴿الَّذِينَ فِـي قُـلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فالذي لا يملك غيرة على زوجة جاره وعرضه لا غيرة له، وفي الحديث النبوي: «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[1]. فالإيمان يمنع الزنىٰ، وهـؤلاء مرضىٰ، والمرض الخُلقي أخطر من المرض الجسدي؛ فـالمرض الجســدي قـد لا يكون سريع العدوىٰ، أو تكون عدواه محدودة، أو لا يكون معدياً أصلاً، بخلاف المرض الخلقي الذي تكون عدواه كبيرة، وينتشر في المجتمع بسرعة.

هل المنافقون ومرضى القلوب والمرجفون فئة واحدة؟

نلفت نظرك إلى نقطة وهي أن للواو في: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّـذِينَ فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ﴾ رأيين عند المفسّرين:

الرأي الأوّل: أنها عاطفة، والعطف يقتضي التغاير، فالمحصّلة أن هـناك ثـلاث فئات. وهذا هو الرأي الصحيح.

الرأي الثاني: أنها مقحمة، أي ليس لها معنىً، فيصير: ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾و ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ و ﴿الْمُرْجِفُونَ﴾ كلّهم فئة واحدة، لكن لهم صفات ثلاثة.

لكن إقحام الواو يتسبّب في إثارة الكثير من التساؤلات والمشاكل في الآيات، كما وقع بين أبي الدرداء وبعض الصحابة مع معاوية، حيث كان معاوية يعدّ الواو في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[2] مـقحمة حيث تصبح: إن كثيراً من الأحبار والرهبان الذين يكنزون الذهب والفضّة، والواو

---

(١) الكافي ٢: ٣٢، ٥: ١٢٣ / ٤، صحيح البخاري ٨: ١٣، ١٥، ٢٠، ٢١.
(٢) التوبة: ٣٤.

تكون حينئذٍ لا معنىٰ لها، فيخصّص نزول الآية في النصارىٰ فقط، في حين أنـها عامّة في كلّ من يمنع الزكاة. فأراد معاوية بهذا أن يقذفها على اليهود والنصارىٰ، ويبرّئ ساحة المسلمين من أي شيء إن لم يدفعوا الزكاة؛ ولذلك اختلف بـعض الصحابة معه.

فالقول بأن الواو مقحمة غير مقبول؛ لأن القرآن منزّه عن الزيـادة، ولذا فـإن الإقحام غير وارد إطلاقاً، والواو هنا للعطف.

المبحث الثالث: من هم المرجفون؟

بعد هذه المقدّمة نرجع للآية ﴿وَالمُرْجِفُونَ فِـي المَـدِينَةِ﴾، وهـم بـاصطلاحنا المعاصر الرتل الخامس[1]، وهـم كـالعثّ داخـل جسـم المسـلمين، ووظـيفتهم التخذيل والتوهين، حيث يشيعون أن جيش المسلمين قد انهزم، أو أن النبي ﷺ قد قتل، كما حدث في يوم أُحد حيث صاح أحدهم: (قتل محمد)، و: جـاء جـيش المشركين من هنا.

وهناك قسم آخر منهم حاول أن ينعت أهل الصفّة ـ وهم مجموعة من الصحابة ليس لهم قدرة ماليّة علىٰ أن يشتروا بيوتاً أو يتأهّلوا؛ فلذلك وضعهم النبي ﷺ في الصفّة (وهي طارمة المسجد، وكانت مسقوفة بالبواري)، وكان المسلمون يأتونهم بالطعام ـ بأنهم هم الذين في قلوبهم مرض، فأشاعوا أنهم يلاحقون النساء، كـما نشروا إشاعات أُخرى لإحداث الانـهزام النـفسي عـند المسـلمين؛ ولإضـعاف المناعة عندهم بعبارات مثل: أسلحتكم محدودة، وطاقاتكم محدودة، وإن عدوّكم أقوىٰ منكم. وهكذا كانوا يبثّون الدعاية.

---

(١) أو الطابور الخامس، وأوّل من استعمله هتلر، وذلك أنه أطلقه علىٰ الجـواسـيس ورجـال المخابرات والاستخبارات الموجودين في ألمانيا آنذاك.

المرجفون وقضيّة الإفك وموقف الأمير عليه السلام منها

كما كانوا قد لعبوا دوراً خطراً في قضيّة الإفك، وهي حادثة عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله بعدما حملها صفوان، وبدأت الألسن تلوك عرض النبي صلى الله عليه وآله. وكان أن حاول البعض استغلال ذلك الموقف بما يتماشى مع نفسيّته، حيث نُسبت في ذلك أقوال للصحابة، ومنها أنهم نسبوا للإمام علي عليه السلام حينها أنه حينما بعث إليه النبي صلى الله عليه وآله وكلّمه حول ذلك قال له الإمام عليه السلام ـ حسب ما يدعون ـ: «النساء كثير»[1]. أي بوسعك أن تطلّقها وتتزوّج غيرها. وهذا ليس من خلق الإمام عليه السلام. فنحن نعرف معدن الإمام، والدليل علىٰ ذلك أنه دخل بين جبلين من الجثث في واقعة البصرة حتىٰ جاء إلىٰ هودج عائشة وهو في ذلك الجوّ الانفعالي، وقال لها: «**ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك**»[2].

ثمّ وضع لها بيتاً وعشرين خادمة، فتأمل النبل.

فالإمام علي عليه السلام لم تصدر منه هذه الكلمة أبداً، ومازنت زوجة نبيّ قطّ وهذه كتبنا وعقائدنا، فائتِ بواحد من الشيعة يتّهم زوجة نبي! والأربعة الذين رووا حادثة الإفك هم من غيرنا. ومع ذلك يتقوّلون علينا ويتّهموننا بأننا نتطاول علىٰ أُمّ المؤمنين، فما معنىٰ هذا؟ هل نتّهم عرض النبيّ صلى الله عليه وآله؟ طبعاً لا، أمّا أنها خرجت علىٰ إمامها وقاتلته فنعم، ونحن نقول الواقع، فالذين تخلّفوا عن أداء جزء من الحقوق الشرعيّة قاتلهم أبو بكر واعتبرهم الخصم مرتدّين، ونحن نقول: التي تقاتل إمامها، بم يمكن أن نصفها؟ وكيف يمكن أن نعتبرها؟ ولا تقل: تابت؛ لأن هذا شيء آخر.

والخلاصة أنه لا يوجد مسلم يؤمن بالله ورسوله يتجرّأ علىٰ قذف عرض

---

(١) مجمع الزوائد ٩: ٢٣٦، المعجم الكبير ٢٣: ١٢٤، مسند الشاميّين (الطبراني) ٣: ٣٣٤، الدّر المنثور ٥: ٢٨.

(٢) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

النبي ﷺ، فعرضه منزّه البتة.

فهؤلاء المرجفون في المدينة كانوا شريحة كبيرة، وكانوا يستخدمون حرب الإشاعات التي تعتمدها الآن الدول المتحضّرة. وقد قرأت إحصائيّة في بعض كتب التفسير أن إسرائيل عندها (٨٩٠) مؤسّسة للإشاعة والإعلام، فالإشاعة تلعب دورها في تحطيم الإنسان. وقد تجد وضيعاً ينشر رواية أو نظريّة تمجّد صنماً أو تسقّط الآخرين.

فهذه الشرائح الثلاث المعاصرة للرسول ﷺ ـ ومنهم المرجفون الذين هم أهل الإشاعات وبثّ التفرقة وإهدار كرامات الناس، ومحاولة الإطاحة بعلاقاتهم وبهم ـ ألا يجب أن نقيّمها؟ نحن نتّبع منهاج القرآن ومنهاج الرسول ﷺ في تقييم هؤلاء وغيرهم؛ ولذلك فإننا عندما نقرأ: «إن خير القرون القرن المعاصر للنبي ﷺ ثم الذي يليه فالذي يليه»[1] فإننا نرفض هذا؛ إذ أن في هذا القرن يوجد مؤمنون، وهم نعمة من الله، ويصعدون لمستويات عالية في الشرف، وكذلك يوجد ملحدون ومنافقون، فهل من اللائق وضع هؤلاء في مصافّ أُلئك المؤمنين؟

ثم قالت الآية: ﴿لَـنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي أنت مهادنهم الآن للمصلحة العامّة، أو ما نسميه بقاعدة «دفع الأفسد بالفاسد»، مثلاً أعرف أنْ لا ولاية لأحد على أحد، لكن أحياناً أتنازل عن شيء من حرّيّتي للمصلحة العامّة؛ فدفعت الأفسد بالفاسد؛ لأن القاعدة تقول: إن ذلك متعيّن، فالفاسد أهون من الأفسد. فالقرآن يقول للنبي ﷺ: أنت جاملتهم وهادنتهم من أجل دفع الأفسد بالفاسد، لكن هؤلاء إذا لم ينتهوا عمّا هم فيه لنغرينّك بهم. وفعلاً قد أغراه القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

---

(١) سنن أبي داود ٢: ١٧٩ / ٣٦٥٩، فتح الباري ٧: ٥.

وَالْمُنَافِقِينَ ﴾[1]، و ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾[2].

فسارع النبيﷺ إلى الإعلان عن استعمال القوّة مع هؤلاء؛ لا سيّما أن المسلمين قد اشتدّت شوكتهم وتنامت قوّتهم وزاد عددهم، وأصبح عندهم سلاح؛ فكان أن خاف هؤلاء وسكتوا.

المبحث الرابع: حول الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً ﴾

﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ هذا الاستثناء هل هو واقع على الزمن، أم على العدد؟

والجواب أنه واقع على العدد، أي لا يجاورك في المدينة إلّا القليل منهم، حيث إنه سيبقى منهم أفراد قليلون. ومعنى بقاء عدد قليل منهم في المدينة أن الآخرين الخارجين سوف يتعرّضون للعذاب عند خروجهم، فالخارج من بلده يتعرّض إلى الألم والعذاب، ومن لا وطن له لا وجود له، إذ أنه سيكون عرضة للإذلال وللكلام الخشن النابي؛ ولذلك كان الجهاد حتى دون الشبر من الأرض متعيّناً. غير أن البعض لا يملك هذا الحسّ:

من يهنْ يسهلِ الهوانُ عليهِ

فنجده ينسى وطنه وترابه، والحال أن الخروج من الوطن كخروج الروح من الجسد، ومن العقوبات التي توقع بالجناة التغريب، أي نفيهم خارج البلد، فيعيشون في حالة صراع نفسي وحنين دائب إلى وطنهم، فالوطن ليس تراباً فقط، بل هو عواطف ومشاعر تشدّك إليه وتجعلك تحنّ له.

المبحث الخامس: الجوار وأقسامه في واقع العرب والمسلمين

﴿لا يُجَاوِرُونَكَ ﴾ أي يخرجون، والقرآن نعتهم بالمجاورين، فكيف يتحقّق

---

(١) التوبة: ٧٣. (٢) الأحزاب: ٦١.

الجوار هنا؟ وما حدّه؟ هناك ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنه أربعون داراً، واستدلّوا عليه بأن رجلاً دخل على النبي ﷺ وقال: أنا جاورت جماعة، لكن كان أقربهم إليّ أشدّهم أذىً عليّ. فقال النبي ﷺ لأصحابه: توزّعوا على المساجد وقولوا: **«إن أربعين داراً جارٌ، وإنه لا يؤمن بالله ورسوله من لا يأمن جاره بوائقه»**[1].

أي أنه ﷺ حدّد الجوار بـ**«أربعين داراً»**. والبوائق: الأذىٰ. فجارك مثل عرضك. وكان هذا المعنىٰ متأصّلاً في حضارتنا العربية قبل الإسلام، ولمّا جاء الإسلام دعمه وأمضاه. لكن هذا الرأي **«أربعين داراً»** يبقى بعيداً الواقع وإمكان التطبيق نوعاً ما.

الرأي الثاني: أنه مدى الصوت، وهو مروي عن الإمام علي﴿﴾ بقوله: **«إن من يبلغه الصوت فهو جارك»**. بحيث إنك إذا صحت سمعوك، فهؤلاء هم جيرانك.

الرأي الثالث: أن جارك هو كلّ من يسكن معك في مدينتك.

وأقرب الآراء هو **«من يبلغهُ الصوت»**. فهذا الجار له أن تستر عورته، وتقضي حاجته، وألّا تعرّضه إلىٰ ضرر معتدّ به غير متعارف عند الجيران، فمثلاً مجاري تصريف المياه الموجودة في بيتك لو سبّبت الرطوبة لبيت جارك، فهذا ضرر غير معتدّ به، أمّا لو وضعت جداراً أمام بيته ومنع الشمس والهواء عنه وسبّب التسلّط عليه وعلىٰ عائلته، فهذا ضرر معتدّ ولابدّ من رفعه.

وهناك حقوق للجوار أبسطها ـ كما يعبر عنه الرسول الأكرم ﷺ ـ **«وألّا تؤذيه بقتار قدرك»**[2]. أي رائحة الطبخ التي تنتشر في بيتك، وجارك جوعان فقير، يقول

---

(١) قريب منه ما في الكافي ٢: ٦٦٦ / ١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٨٨، كنز العمّال ٩: ٥٨ / ٢٤٩٣٥، ١٨٥ / ٢٥٦١٣.

حاتم الطائي:

سلي الطارق المعترّ يا أمّ مالك	إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
أأبسط وجهي إنه أوّل القِرىٰ	وأبذل معروفي له دون منكري[1]

فأخلاق الإسلام تأمرنا ألّا نبيت شبعين وجيراننا جياع.

أحمى من مجير الجراد

وكذلك من حقوق الجار توفير الحماية له، وهذا المعنىٰ متأصّل في شبه الجزيرة العربية، فالذي يبني خيمة بجانب أحد فإنه قد جاوره ـ أي أخذ ضماناً بالحماية؛ لأنه جاره ـ ووصل الأمر إلىٰ حماية الجراد كما في قصة مدلج بن سويد المشهورة بمجير الجراد، والذي ضرب به المثل بذلك فقيل: أحمى من مجير الجراد. وكان قد وقع جراد قرب خبائه، وجاء قوم ليصيدوه، فتقلّد سيفه وأخذ رمحه وركب فرسه، ثم خرج إليهم قائلاً: أيكون الجراد في جواري وأنتم تريدون أخذه؟ لا يكون ذلك، ولا يقتل أحد جاري والسيف في يدي. فلم يقترب أحد، ثم قال: إن طار عن جواري فافعلوا مابدا لكم. فما زال يحرسه حتّى حميت الشمس عليه وطار، فقال: شأنكم الآن؛ فقد تحوّل عن جواري[2].

فهذا الرجل عنده أن حماية الجار أهمّ مبدأ في حياته، بل وأهم من حياته. ولمّا جاء الإسلام دعم هذا المعنىٰ وعززه.

المبحث السادس: مصرع مسلم بن عقيل ﷺ

وفي مثل هذه الليلة جاء مسلم بن عقيل ﷺ ـ لمّا بعثه الإمام الحسين ﷺ ثقة منه

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٧: ٢٩٣، وفي بعض المصادر: سلي البائس المقرور يا أمّ مالك. تاريخ مدينة دمشق ١١: ٣٧٤، البداية والنهاية ٢: ٢٧٣، السيرة النبويّة (ابن كثير) ١: ١١٢.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ١٥٢.

ببطولته وخبرته ـ وحيداً ومعه اثنان، ونزل في دار المختار بن أبي عبيد، فكتب يزيد إلىٰ عبيد الله بن زياد: أمّا بعد، فإن أنصاري في الكوفة قد كتبوا إليّ أن مسلم ابن عقيل دخل الكوفة وجمع الجموع، فسر حين يصل كتابي هذا حتىٰ تلقاه، فتخرجه أو تقتله أو تنفيه. وفعلاً خرج ابن زياد وسار الليل والنهار، إلى أن وصل إلىٰ مدخل الكوفة وتشبّه بالحسين ﷺ، فلبس ملابس سوداء وعمّة سوداء، وأخذ يسلّم على الناس بعصا في يده، والناس يقولون: مرحباً بك يابن رسول الله، قدمت خير مقدم. فساءه مارآه. فلمّا وصل إلى القصر قال الغلام الذي كان معه: تنحّوا إنه الأمير عبيد الله، فتراجعوا.

فالحسين ﷺ اضطر لأن يبعث مسلماً؛ لأنه كان يتحلّىٰ بكفاءات عالية، وقد برهن على ذلك حينما تعرّض لحالة لو تعرّض لها غيره لكان هدفاً للانهيار، لكنه ﷺ وقف وتحامل، ثم غيّر مكانه، فانتقل إلىٰ دار هاني بن عروة ـ وكان شيخ مراد، وكان يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ـ فقام بأداء حقوق الجوار، فلمّا علم عبيد الله بن زياد بذلك أرسل خلفه ثم سأله: أين مسلم؟ قال: والله لو كانت رجلي علىٰ طفل من أطفال آل محمد مارفعتها حتىٰ تقطع؟ قال: أدنوه منّي. فاستعرض وجهه بقضيب كان في يده حتىٰ أدماه، يقول الفرزدق في أبياته:

فإنّ كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلىٰ هانئٍ بالسوق وابن عقيلِ

إلىٰ بطل قد هشّم السيف وجهه ... وآخر يهوي من طمار قتيلِ

أصابهما فرخ البغيّ فاصبحا ... أحاديث من يمشي بكل سبيلِ

فوصل الخبر إلى مسلم بأن هاني قد أُسر وقُتل، فخرج فصلّىٰ بالمسجد، فرأىٰ وراءه عدداً لايتجاوز الـ(٣٠٠) شخص، فلمّا خرج إلى باب المسجد لم يرَ أحداً

يدلّه على الطريق، فخرج من أحد الأزقّة، وأخذ يمشي في الأحياء إلى أن وقف على باب دار امرأة وقد التهب قلبه عطشاً، فقالت له: من أنت ياهذا؟ قال: أنا عطشان وأُريد ماءً. فدخلت إلى الدار وأقبلت إليه بكأس من الماء، فتناوله مسلم وجرع منه جرعة وأرجعه، فخرجت وقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلىٰ. قالت: فما وقوفك على باب داري يرحمك الله؟ قال: أَمَة الله، ليس لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة. قالت: ما الخبر؟ قال: أنا مسلم بن عقيل تخلّى عنّي هؤلاء القوم. قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: على الرحب والسعة.

ثم أدخلته الدار، وأقبلت إليه بماء، فأسبغ وضوءه، ولم يزل قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتى أوشك عمود الفجر أن ينبلج، فدخلت إليه وقالت: سيدي، ما رأيتك رقدت منذ البارحة؟ قال: بلىٰ هوّمت عيناي فنمت ورأيت عمّي أمير المؤمنينعليه السلام في المنام وهو يقول: إنك صائر إلينا عن قريب. وإني لأظن أن هذا آخر أيّامي من الدنيا. ثمّ قام واستأنف صلاته، وما هو إلّا قليل حتّى سُمعت أصوات الخيل حول الدار، قالت: سيّدي أتاك القوم. قال: لا عليك، ناوليني سلاحي. فأخذ سيفه وخرج وهو يرتجز:

آليت لا أقتل إلّا حرّاً ... وإن رأيت الموت شيئاً نُكرا

أخاف أن أُكذب أو أُغرّا ... أو يخلط البارد سخناً مرّا

ردّ شعاع الشمس فاستقرا ... كل امرئ يوماً ملاقٍ شرّا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تُكذب ولا تُغرّ ولا تخدع، إن القوم بنو عمّك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك. فداروا حوله أربع فرق: فرقة بالرماح، وأُخرىٰ بالسيوف، وأُخرى بالحجارة، وفرقة توقد النار وتلقيها على رأسه، وطوعة وراءه تقول: جاءك القوم من حيث تحذر. وهو يقاتل والمرأة تلاحق خطواته. وقاتل

قتال الأبطال، وجعل يأخذ الفارس من علىٰ ظهر جواده ويتلقّاه بسيفه ويقتله إلى أن أُثخن بالجراح، فلمّا اشتدّ عليه الألم والجرح دمعت عيناه، فقال له عبيد الله بن العباس السلمي أو محمد بن الأشعث: إن الذي يطلب ماأنت تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبكِ. قال: ويحك، أو تظنّ أني لنفسي بكيت؟ والله إني ما لنفسي بكيت، ولا لها من القتل أرثي وإن كنت لم أُحبّ لها طرفة عين تلفاً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليّ، أبكي للحسين وآل الحسين(صلوات الله عليهم).

سيدي مسلم، لقد بكىٰ الحسين لأجلك حينما بلغه سلامك.

ثمّ أُخذ إلى القصر، فأمر عبيد الله بضرب عنقه[1].

وكان الحسين﴿ع﴾ آنذاك في زرود[2]، فلمّا أُصعد مسلم إلى أعلى القصر حوّل وجهه إلى جهة الحسين﴿ع﴾ وصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله، إن ابن عمّك بين يدي القوم لايدري متىٰ يقتل. فقام الحسين﴿ع﴾ مختنقاً بعبرته وقال: «وعليك السلام ياغريب كوفان». ثم دخل إلى خيمة النساء، وصاح: «زينب». قالت: لبّيك. قال: «عليّ بطفلة مسلم». فأخرجت إليه طفلته، فوضعها في حجره، وأخذ يمسح بيده علىٰ رأسها، رفعت رأسها إليه وقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامىٰ، لعلّه قد استشهد والدي؟ قال﴿ع﴾: «أنا أبوك، وبناتي أخواتك». قالت: ياعم أنت خير من أظلّت الخضراء وأقلّت الغبراء.

ولكن أجمل شيء للبنت إذا ناداها أبوها باسمها!



---

(١) انظر: روضة الواعظين: ١٧٦، ١٨٨، الإرشاد ٢: ٥٨، مثير الأحزان ٢٤، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٠، مقاتل الطالبيّين: ٦٩.

(٢) زرود: جبل رمل قرب جبل طيّئ يبعد عنه بمسيرة ليالٍ.معجم ما استعجم ٣: ٩١٤ ـ عالج.

﴿ ٢١ ﴾

الخلافة في الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

﴿إِذْ﴾ ظرف أو أداة توقيت للماضي، حيث إنه قد حصلت محاورة بين البارئ جلّ وعلا والملائكة.

المبحث الأول: نوع الجعل في الآية

وللمفسّرين إزاء هذه المحاورة نظريّتان: فقسم يذهب إلى أن مضمون هذه الآية عامّ، وقسم آخر يذهب إلى أن مضمونها خاصّ:

النظريّة الأولى: أن الجعل في الآية تكويني

وهي نظرية المضمون العامّ، وتقول: إن القرآن الكريم أشار إلى أن الله لمّا خلق الأرض جعل الإنسان خليفته في إعمار الأرض، فالإنسان هو الإدراك والعقل

---

(١) البقرة: ٣٠.

والثمرة للوجود، وهو سيد الموجودات، ولقد خلقه ليستثمر هذه الأرض ويشتغل بعمارتها بالصناعة والزراعة والتجارة وغيرها. فالآية مفادها عامّ حيث يشمل الإعمار من كافة الجوانب؛ إعمار الأرض بالفكر، والعمل، وأن العمل لابد أن يصدر عن فكر وعلم، والقرآن يعلّمنا ذلك: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1] فالبارئ جلّ وعلا رسم لنا لكل شيء طريقة حتىٰ يكون تصرّفنا عن علم؛ لأن الإنسان مهما كان عقله فإن مداركه محدودة، فالسماء تمدّه بالمعلومات والتوجيهات.

والذي نريد أن نشير إليه هو أن الله يريد للإنسان ألّا يعطّل الطاقات التي أودعها فيه من قوة وعقل، أو في داخل الأرض، فعليه ألّا يجمّد الطاقة التي في عقله. لكن للأسف أننا جمّدنا هذه الطاقة، ولنقرب المعنىٰ بضرب مثل، فلو أن شخصاً مثّقفاً يقرأ كتاباً ينسب لبعض الفرق الإسلاميّة أو غيرها رأياً من الآراء، فإنه يجب عليه أن يكلّف نفسه بأن يطالع ذلك في المكتبة الخاصّة بتلك الفرقة ليرىٰ مدىٰ مصداقيّة هذا الرأي وصحّته، وليرى هل إن هذا الكاتب صادق أم لا. فإن لم يكن ما نقله عنهم صحيحاً فالواجب تركه وعدم الأخذ به والوقوع في الخطأ. لكن للأسف الشديد نجد أن الفرق الإسلاميّة تحمل عن بعضها تصوّرات خاطئة، ولا يوجد عند أحد من أتباع هذه أو تلك استعداد لتصحيح هذه الانطباعات مع توفر العلم (الكتب، ووسائل التقنية الحديثة). وتوجد أحياناً نظريات وروايات تنقلها شخصيات كبيرة، فمثلاً تجد أحد العلماء الكبار يقول: إن الشيعة إذا حلّ شهر المحرم جلبوا زقّاً (قربة) وملؤوه ماءً أو عسلاً ويجتمعون عليه فيطعنونه، حيث يتصوّرون أنهم بعملهم هذا كأنهم يطعنون الخليفة الثاني.

---

(١) الإسراء: ٣٦.

وحتماً فإن من يجلّ الخليفة الثاني ويسمع هذه الرواية فسوف يحمل الحقد ويقول: لماذا يستخدم هؤلاء هذه الطريقة بحقّ صاحب رسول الله ﷺ والخليفة الثاني من بعده؟ ولم يكلّف نفسه لأن يرىٰ ما إذا كان هذا صحيحاً أم لا، بل إنه يفكّر بسمعه وليس بعقله. ياله من ببغاء عقله في أذنيه!

بل عليك يا أخي أن تقرأ وتنتقل إلى الواقع، حيث إن الله أمرنا بعمارة الأرض وعمارة الأديان وعمارة الأذهان وعمارة الأسواق، فالإنسان خليفة الله في الأرض، ومكلّف بإعمارها بكلّ أبعادها الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وليس مكلّفاً بخرابها، فالله منح الإنسان طاقات عليه أن يستخدمها بالعدل، فلم يعطِني طاقة للتخريب، خاصّة في المجتمع الذي هو بأمسّ الحاجة إلى المحبّة والمودّة والإلفة، وليس بحاجة إلى تحويله إلى كيان ملغوم متفجر.

نرجع لأصل الآية التي تذكر المحاورة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي بالجعل التكويني، أي أن الله تعالىٰ أخبر الملائكة أنه جلّ وعلا سيخلق من يخلفه أو من يقوم عنه بدور الخلافة للإعمار في الأرض. فالله أمرنا أن نعمل وفق القُدُرات التي عندنا بعد أن خلق لنا أُصول الأشياء. فإذا أعطانا طاقة دون أُصول الأشياء، فلن يمكن أن نستثمر تلك الطاقة. فمن غير تربة أو ماء أو بذر لا نستطيع أن نزرع الأرض. والإسلام لا يحترم من لا يعمل ويسقط شهادته ويعاقبه إذ أنه عرّض كرامته للهدر. فالله عندما خلق الإنسان أراد له أن يأكل رغيفه من الكرامة والعزّة، ولا توجد عزّة أفضل من اليد الكادحة[1]، حيث تأكل من تعبها وعرقها، فإذا عَطّل هذه الطاقات، فإنه لا يستحقّ أن يُعطىٰ لقب «خليفة في الأرض». ومن

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل ما أكل الرجل من كسب يمينه». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠، وقال: «أحلّ ما أكل الرجل من كسب يمينه». كشف الخفاء ١: ٥٨ / ١٤٦.

هنا فإنّ الأديان تقدّس من يصنع الحياة؛ لأنه جدير بها، حيث إن هناك إنساناً بصورة الحيّ لكنّه ميت في الحقيقة؛ لأنه قد جمّد طاقاته.

النظريّة الثانية: أن الجعل في الآية تشريعي

وهي نظرية المضمون الخاصّ، وتقول: إن الجعل في الآية تشريعي وليس تكوينيّاً، أي أن الله شرعها كأصل من أُصول الإمامة، وبالنتيجة أن الآية تكون ذات علاقة بنصب الإمام واختياره. ويميل إلى هذه النظريّة معظم الفقهاء والمفسّرين[1] في تاريخ الإسلام.

فبناء عليه يكون معنىٰ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾: أني مشرّع، وأن هذا المجتمع لا يمكن أن يعيش بصورة عفويّة، خلافاً لتلك النظريّة التي تقول: إن المجتمع يستطيع أن يعيش لوحده دون حاجة إلى نصب إمام، فالإنسان يستطيع أن يدبر أُموره بنفسه. وهذه النظريّة (عدم الحاجة إلى نصب إمام) خاطئة، وذلك بالاستقراء؛ فإن الأرض أو المجتمع إذا لم يتصدّ منه أحد لإدارة شؤونه فإنه سيتحوّل إلى فوضىٰ، وتتعطّل كلّ طاقاته؛ فلابدّ إذن من وجود شخص كالمحرك في إدارة الجهاز.

المبحث الثاني: النظريات في كيفيّة نصب الإمام

وبناء علىٰ هذه النظريّة، ماهي الطريقة التي نصل بها إلى نصب الإمام؟ المفسّرون لهم بحوث مطوّلة لا يمكن الخروج بنتيجة منها إلّا ممّن كان من أهل الاختصاص، ومَن عنده خلفيّة علميّة ليحاكم الآراء والنظريات، كما في كتب الفقه في باب الإمامة، وكتب العقائد والتفاسير كالقرطبي[2]. فهؤلاء عندهم عدة نظريات:

---

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن ١: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢.

الأولى: نظريّة إجماع الصحابة

وهي نظريّة إجماع الصحابة في صدر الإسلام، فإذا أجمع الصحابة على شخص كان هو الإمام. ومن هنا قالوا: إن الصحابة أجمعوا على خلافة أبي بكر، فكان أبو بكر هو الإمام. وهؤلاء يقولون: إن الإجماع كان من أهل الحلّ والعقد وهم ـ ماعدا الشيعة ـ يقولون: إن أهل الحلّ والعقد يجوز أن يكونوا واحداً، فإذا بايع انعقدت بيعته، بدليل أن الخليفة الثاني بايع الخليفة الأوّل فانعقدت بيعته، ثم بعد ذلك جاء الإجماع من قبل الصحابة. فهذا طريق، وهو الإجماع على واحد.

الثانية: النصّ على أكثر من واحد

فمثلاً يرشّح عشرة للخلافة، فيبقى الأمر بينهم حيث ينتخب بعضهم بعضاً إلى أن ينتخبوا واحداً يكون مؤهّلاً للخلافة.

الثالثة: النصّ على واحد فقط

وهي نظريّة الإمامية[1] ومفادها أن النصّ علىٰ واحد يكون من قبل الله فقط، وبأمره مع توسّط النبيﷺ، أي أن النبيﷺ ينصّ علىٰ من يخلفه، ومن يخلفه ينصّ على من يخلفه. لكن هذا النصّ الذي يأتي من غير النبي هل هو من طريق النبيّ أم لا؟ نوضّح الفكرة بأن نقول: إنّ الرسولﷺ لمّا نصّ على الخليفة من بعده فهل الخليفة الذي بعده يملك الحقّ في أن ينصّ على خليفة له، أم أنه ينقل قول النبيﷺ حيث يقول: أنت من بعدي، وإن فلاناً من بعدك؟ نحن عندنا أن النبيﷺ قد نصّ عليهم جميعاً، غاية الأمر أن الإمام يبلّغ النصّ، فالإمام عليعليه السلام لمّا نصّ على الحسنعليه السلام فإنه إنما نصّ علىٰ منصوص عليه من قبل الرسول، وهوعليه السلام إنما

---

(١) الاقتصاد (الخوجه الطوسي): ١٩٥، ٢١٥، دلائل الإمامة: ١٨ ـ ٢٠، الفصول المختارة: ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ٣١٠، أوائل المقالات: ٣٨، رسائل في الغيبة (المفيد) ٤: ٤.

أخبر بذلك فقط. فالقناة التي تصلنا برأي السماء هي النبيﷺ؛ حيث إنه ينصّ على الإمام من بعده.

الرابعة: التسلط بالقوّة

أي أن من كان غير مؤهّل للإمامة لكنه يتغلّب بالقوة ويأخذها فإن له الحقّ في الحكم، وعلى الناس مبايعته وطاعته، ولا يجوز لأحد أن يبيت ليلته دون أن يكون في عنقه بيعة له.

وكل هذه الآراء قابلة للمناقشة، وأنا أردت بيان القنوات الموصلة للإمامة وأنها أربعة.

المبحث الثالث: وجوب نصب الإمام شرعي أم عقلي؟

ونسأل: هل إن نصب الإمام يعتبر واجباً؟ وهل هو واجب شرعاً، أم عقلاً؟

والجواب: أن البعض (المذاهب الإسلاميّة الأربعة) يقول: إنه واجب، ووجوبه وجوب سمعيّ، أي سمعاً وليس عقلاً، أي أن العقل لا يحتّم نصب إمام، ولكن الله أمر بنصب الإمام فعلينا أن ننصّب إماماً، حيث قال سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[1]، فطاعة أُولي الأمر تستلزم نصبهم. فالدليل إذن سمعي أي وجوبه سمعي، وقد سمع من القرآن، والعقل يؤيّده.

أما عند الشيعة فإنّ الوجوب عقلي لكن يؤيّده الشرع، نقرّب المعنىٰ فنقول: بمقتضىٰ نظريّة اللطف[2] إن الله عندما خلق الخلق كان لابدّ أن يضع لهم من يدبّر

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) وهي نظرية ابتكرها الشيخ‏ﷺ، وخلاصتها «أن الله تعالى بلطفه ورحمته لا يترك هذه الأمّة المرحومة ـ أمّة محمدﷺ ـ أو فقهاءها إذا حصل اجتماع منها أو منهم على خطأ، وإنما يقوم بإبطال هذا الخطأ بمثل إلقاء الخلاف بينهم من قبل الإمامﷺ؛ لطفاً بعباده تعالى، ورحمة منه بهم. ولازم هذا أننا لو رأينا الأمّة أو الفقهاء قد أجمعوا على مسألة فإننا نستكشف – في هدي

شؤونهم، فإن لم يفعل فإنه يكون قد فعل المرجوح مع وجود الراجح؛ لأن الذي يدبّر أُمور المسلمين لابدّ أن تكون وظيفته أنه يقرّبهم للطاعة ويبعدهم عن المعصية ويعلّمهم النظام والهدىٰ والخير، وهذ الفعل مهم يتوقّف عليه صلاح المجتمع. فإذا ترك الله هذا فإنه يكون قد ترك الراجح وفعل المرجوح، وهذا قبيح عقلاً، وهو ما لا يجوز عليه تعالىٰ؛ لذلك فإنّ العقل يحكم بصحّة نظريّة اللطف، فمن اللطف أن يقرّب الله الناس للطاعة فإنه يريد هدايتهم، والهداية لها أسباب ومن هذه الأسباب أن ينصب لهم من يدبّر شؤون حياتهم. فهذا وجوب عقلي يؤيّده السمع، والآيات تعتبر إرشاداً إلى حكم العقل.

وعلىٰ أيّة حال فإن الثمرة هي أن الله قد رسم الطريق لنصب الإمام. وينقسم الناس فيه إلى معسكرين كما أسلفنا:

المعسكر الأول: الانتخاب، أي أن أهل الحلّ والعقد هم الذين ينصّبون الإمام[١].

المعسكر الثاني: النصّ من الله. وهذا ليس عند الشيعة فقط بل عند الحنابلة[٢] أيضاً، وجماعة من أهل الحديث[٣] والخوارج يذهبون إلى النصّ على اختلاف طويل.

ثمّ إن هناك نقطة يثيرها البعض وهي: هل يصحّ أن يكون خليفتان معاً بشرط تباعدهما[٤]؟ ويلاحظ أن الغرض من ذلك هو تصحيح خلافة معاوية، حيث إن

هذه النظرية – أن إجماعهم كان على حقّ ، إذ لو كان على خطأ لأوقع الله تعالى – من باب اللطف – الخلاف بينهم بإثارته من قبل الإمام عليه السلام».

دروس في أُصول فقه الإماميّة (الفضلي): ٢١٤.

(١) انظر شرح نهج البلاغة ٩: ٣٢٩.

(٢) الشافي في الإمامة ١: ٧، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٦٨، شرح نهج البلاغة ١: ٨٧.

(٣) انظر المصدر نفسه.

(٤) انظر نظم درر السمطين (الزرندي الحنفي): ١٤٠.

خلافته اجتمعت مع خلافة الإمام علي﵇. وهذه النظريّة لا تصمد أمام النقد أبداً.

المبحث الرابع: نظريتان حول علم الملائكة بإفساد الإنسان الأرض

نرجع للآية، فالملائكة تسأل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا أوّل شيء يثير التساؤل، وهو أن الملائكة من أين لهم المعرفة بأن الإنسان سوف يفسد في الأرض؟ فالمحاورة كانت بين الله والملائكة في وقت كان الإنسان فيه غير موجود؛ لأنه قبل خلق الإنسان بناء على الجعل التكويني، أي أن الله قد قال لهم: إني سأخلق إنساناً يخلفني في استعمار الأرض. فمن أين للملائكة الجزم بهذا الأمر، وهو الإفساد في الأرض؟ هناك نظريّتان حول تعليل ذلك:

الأولى: أنهم اطّلعوا على ذلك في غير كوكب الأرض

فالملائكة اطّلعوا على الإنسان في غير كوكب الأرض، وعلموا أن من شأنه ذلك. وهذه المسألة انشغل بها العلماء وهي أنه هل توجد حياة على غير الكرة الأرضية؟ أي هل هناك عوالم وأُناس غير عوالمنا؟ وهل هناك دنيا غير هذه الدنيا فيها بشر وقد اطّلعت عليها الملائكة، وأنهم يتّصفون بهذه الصفات حيث رأوهم يفسدون في الأرض، وكان أن سألوا الباريَ جلّ وعلا: هل تريد أن تكرّر التجربة على الأرض؟

وهذا رأي قائم على أن بعض الكواكب مسكونة، وسيتّضح لنا ذلك بمرور الزمن، ولا زلنا إلى الآن نسمع بين حين وآخر نبأ أنه تمّ اكتشاف موجات وأصوات معيّنة تدلّ على وجود كائنات حيّة في كواكب أُخرى من كوننا هذا. فهذه المسألة لازالت داخلة في نطاق الخيال العلمي، وكثير من المسائل أصبحت حقائق بعدما كانت في حيّز الخيال العلمي، وذلك بمرور الزمن.

والروايات تؤيد ذلك، وتقول: إن الله خلق ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنتم

في آخر تلك العوالم[1]، وروايات أُخرى تدل على أن الكواكب مسكونة. لكن هل وصل العلم لهذه الحقيقة؟ ومن هم السكان؟ وماشكلهم؟ ومالغتهم؟ وأين هم؟ قلنا بأن العلم سيوضّحه لنا في الأيام القريبة.

الثانية: أن الله أطلعهم على ذلك

فالله جلّ وعلا أطلع الملائكة على حقيقة الإنسان وقال لهم: إن الإنسان من طبيعته أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فهم بناء علىٰ ما أخبرهم به الله تعالى قالوا ذلك.

المبحث الخامس: تعريف الإنسان

يقول المفسّرون: إن هذه الآية فيها تعريف للإنسان، حيث إنه هو الذي يفسد ويسفك الدماء. والمعروف أنه توجد أربعة تعريفات يذكرها الفلاسفة للإنسان:

التعريف الأوّل ـ وهو مانص عليه الملائكة ـ : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ حيث إنه مفسد وسفّاك للدماء.

التعريف الثاني لسارتر (إمام الوجوديّة)، فهو يعرف الإنسان بأنه «العبث الزائد عن الحاجة»، مع أننا نعلم يقيناً بأن الله لا يخلق العبث. وهذا التعبير يدلّ على عدم وجود العلم؛ لأنه لا يوجد عالم يحترم فكره ويقول: إن الإنسان عبث «زائد عن الحاجة». وسارتر يستدل علىٰ ذلك بأن الوجود يمكن أن يستغني عنه، حيث إنه سيموت ويدفن، ولو كانت له حاجة لبقيَ. ونحن نقول له: إن الإنسان عندما يوضع في التراب فإنه لا يموت؛ حيث إن الذي وضع هو غلاف الإنسان وهو الجسم، فالإنسان هو الأنا (المجموعة من الفكر والأحاسيس والادراك)، وهو إنّما دخل لحكمة وخرج لحكمة، وقد زرع في دنياه الخير أو الشر.

---

(١) الخصال: ٦٢٥ / ٥٤، التوحيد: ٢٧٧ / ٢، بحار الأنوار ٨: ٣٧٥ / ٣.

التعريف الثالث: أن الإنسان هو الذي يستطيع أن يكذب. وهذا ناشئ عن تجربة مرّة؛ حيث إن صاحبه لابدّ أنه كان يعيش بين مجموعة من الكذّابين والدجّالين، فتصوّر أن الدنيا كلّها دجل وكذب. ومن هنا نعرف حرص الإسلام على خلق البيئة الصالحة للطفل، فيأمر أبويه أن يكونا صالحين، فأول بيئة يتفاعل معها الطفل هي الأُسرة، فإذا لم يكن للأبوين صدق وأخلاق؛ فإنّ أخلاق الولد ستفسد. فصاحب هذا التعريف عنده تجربة ناقصة تصوّر من خلالها أن الدنيا كلّها كذب. صحيح أنه يوجد كذب وانحراف، لكن ليس كلّ الناس كذابين ومنحرفين.

التعريف الرابع وهو للإمام أمير المؤمنين ﷺ، حيث إنه يعرّف الإنسان بأنه الذي يمثّل العالم الأكبر، وأن هذا منطوٍ فيه. وهذان البيتان المنسوبان للإمام ﷺ صريحان بذلك، وخير شاهد عليه:

«دواؤك منك ولا تشعرُ وداؤك فيك ولا تبصرُ
وتحسب أنك جرم صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ»[1]

فالإنسان يتوفّر في داخله على محصلة تمثّل العالم كلّه، فهو يأخذ من كلّ ما هو في هذا الكون؛ فمن المعادن الكون والفساد، أي يتكوّن ويفسد ويتحلّل والمعادن هكذا تتجزّأ وتتحلّل، ويأخذ من النبات النمو والتغذّي، ويأخذ من الحيوان الحسّ والحركة والغرائز، ويأخذ من الإنسانيّة الإدراك والتعقّل وسعة الذهن. فالدنيا فيها معادن ونبات وحيوان وإنسان؛ فلذا هو ممثّل لكلّ ما في الدنيا، وهذا ما يمثّله قول الإمام علي ﷺ:

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

---

(١) التفسير الأصفى ١: ٢٦، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ١٣٦، تاج العروس ٨: ٤٠٧.

أي يتجسّد العالم كلّه فيك، وأنت ممثّل للوجود بكلّ أقسامه.

نرجع للآية حيث إن الملائكة كانت ناظرة إلى جانب واحد من حياة الإنسان، فليس كلّ إنسان مفسداً، فكأنما هم يقولون: إن له قابليّة الفساد، أي ليس هو مفسداً بالفعل وإنما هو مفسد بالقوة، فحبّة الحنطة عندما تُرمى في الأرض فإنما هي نبتة بالقوة وحبة بالفعل.

فالإنسان يحمل البذرة، أي استعداداً للفساد.

فكأن مراد الملائكة: نحن عندنا عقل ولانفسد في الأرض، وليس عندنا غريزة، فلماذا تجعل الإنسان سيّد الأرض ولاتجعلنا نحن سادتها؟ ومن هنا جاء التأكيد على التربية حيث إن الإنسان عندما يولد تولد معه مجموعة استعدادات، وهذه الاستعدادات يمكن توجيهها بحيث يصير هذا الإنسان كوكباً متألّقاً ونوراً، ويمكن أن يصير أتعس من كلّ الحيوانات. ونحن عندنا نمط هو أفضل من الملائكة، وهذا يتبع طبيعة التربية ونوعها واستعدادات الشخص نفسه. وهناك نمط آخر ليس لديه رحمة، وهو لايشرب الماء إلّا وهو ممزوج بالدم، يقول أحدهم:

لا يشرب الماء إلّا من قليب دم   ولم ينم جاره إلّا على وجل

فهذا لايفرق عن الحيوان الذي يلغ بالدماء، فالإنسان لديه القابليّة للسموّ والقابليّة للانحطاط، يقول عبد الملك بن مروان: كنت إذا مشيت في بستان وسحقت جندباً (جرادة صغيرة تعيش على الزرع) فإنّ قلبي يوجعني، والآن يكتب لي الحجّاج بقتل مئات من الناس ولا أتألّم لذلك. فهذا مات حسّه وشعوره، وهو أمر يتبع تربيته التي ترعرع فيها.

المبحث السادس: فظاعة سفك الدماء

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، من هذا المقطع نستدلّ على فظاعة سفك الدم، حيث تعبّر

الآية الكريمة سفك الدم الحرام من أعظم الجرائم عند الله؛ ولذلك فإن الملائكة تقول: إن الإنسان له قابليّة سفك الدم، فهو وسيلة دمار في الأرض، فإذا سفك الدم فإنّ البشريّة ستؤول إلى الضياع.

وليعلم أن الدماء تتفاوت: فدم النبيّ ﷺ غير دم الشخص العادي؛ ولهذا فإن الله عزّ وجل فظّع قتل الأنبياء، ؤوصف اليهود بأنهم يقتلون الأنبياء بغير الحقّ[1]، حيث اندفعوا بغرائزهم لقتلهم ظلماً، وهم الذين يعد قتلهم قتلاً للأمّة وللمجتمع؛ فهم حَمَلة الرسالات. فالدماء تختلف، ومن هنا فإنّ شاعر الطف يقول:

قتلوا الحرام من الأئـ ـمة بالحرام من الشهور[2]

فالمحرّم عندما يهلّ علينا تتداعىٰ هذه المعاني، وتجيء ذكريات الفاجعة التي ألّمت بالأمّة الإسلاميّة، وكشفت عن مصارع آل محمد، وما يزال الدهر يحملها علىٰ جبينه علامة غير مشرّفة، يقول رجل: دخلت على الإمام الصادق في أيّام المحرّم، فوجدته متغيّر اللون كاسف البال، وفي عينيه أثر الدمع، قلت: سيدي، لا أبكىٰ الله لك عيناً؛ فإني أراك مغتمّاً، فماالخبر؟ قال: «أفي غفلة أنت؟ أما علمت أن الحسين أصيب في مثل هذا اليوم؟»[3].

فإنها تحمل تلك الوجوه الكريمة التي تمثّل رسول الله ﷺ، فنذكر كيف عفّرت فيه بالدماء والتراب. هذه هي ذكريات المحرّم، فلماذا لا أكون حزيناً ومتألّماً؟ وفعلاً إذا هلّ هلال الشهر تتحوّل بيوت آل محمد إلىٰ بيوت للنياح والنحيب والألم؛ حيث يذكرون تلك الفاجعة التي أُهرق فيها دم النبي ﷺ، ذلك أن

---

(١) قال تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. آل عمران: ١٨١.

(٢) مثير الأحزان: ٦١.

(٣) مصباح المتهجّد: ٧٢٤، وسائل الشيعة ١٠: ٤٥٨ / ١٣٨٤٤.

الحسين عليه السلام كان كما عبّر الشاعر عنه بلسان حاله:

يامسلمينَ خذوا دماءَ نبيِّكم ... من هامتي إن الحياة حرامُ

فالحسين عليه السلام جزء من النبي صلى الله عليه وآله، حسبما عبر عنه صلى الله عليه وآله في قوله: «حسين مني وأنا من حسين»[1]. فالدم الذي أُريق علىٰ تراب كربلاء هو دم الحسين، والإيحاءات متنوّعة تكشف عن ذكريات الطفّ حيث هذه المجموعة من سبايا آل محمد بعدما ذهب عنها الحماة، وهذه المجموعة من الديار التي كانت عامرة بذكر الله أصبحت خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامىٰ. وهذا هو المعنىٰ الذي كان الإمام السجاد عليه السلام إذا مرَّ عاشور آل محمد صلى الله عليه وآله يختنق بعبرته خصوصاً أنه يرى بعض الأماكن التي أصبحت خالية لم يبقَ فيها إلّا الأرامل واليتامىٰ، فيقول عليه السلام: «إذا مررت بدور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأنها خالية مافيها إلّا أرامل ويتامىٰ».

منازل كانت نيّرات بأهلها ... تولّىٰ عليها غبرة وقتامُ

ألا لا تزان الدار إلّا بأهلها ... علىٰ الدار من بعد الحسين سلامُ

وكانت زينب تجلس في دار الحسين عليه السلام وترى محاريب آل محمد صلى الله عليه وآله خالية، تلك المحاريب التي كانت عامرة بذكر الله،فتضع يتامىٰ الحسين إلىٰ جانبها:

يادار ارد انشدچ عن أهاليچ ... وعن البطل عبّاس راعيچ

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، تحفة الأحوذي ١٠: ١٩٠، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، صحيح ابن حبّان ١٥: ٤٢٨، المعجم الكبير ٣: ٣٢، ٢٢: ٢٧٤، موارد الظمآن (الهيثمي): ٥٥٤، الجامع الصغير (السيوطي) ١: ٥٧٥ / ٣٧٢٦ – ٣٧٢٧.



﴿٢٢﴾

بين الطور والنجف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

من أساليب القرآن الكريم أنه إذا أقسم ببعض الأشياء أحياناً فإنما يقسم بها لهدف، ففي كل كلمة من القرآن توجد ملاكات وأهداف، ومن هذه الأهداف بيان أهميّة الأشياءالتي يقسم بها، أو بيان شرفها، أو لفت النظر إليها. فالواو في صدر الآية الكريمة هي واو القسم، وهي داخلة على قوله تعالى: ﴿الطُّورِ﴾ الذي هو كل مرتفع إذا كان ذا نبات، أما إذا كان أجردَ ليس عليه نبات فإنه يسمىٰ جبلاً(٢). والتسمية تختلف باختلاف النبات؛ فإذا كان عليه زيتون فقط يعبرون عنه بطور زيتا، أمّا إذا كان عليه أشجار متنوّعة وخضرة فإنه يسمىٰ طور سينا(٣).

المبحث الأول: الأشياء التي تناولتها الآية بالقسم

ونحن نلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد أقسم بثلاثة أشياء:

الشيء الأول الذي أقسم به تعالىٰ هو قوله: ﴿الطُّورِ﴾، والسؤال هو: أيّ طور يُقصد به؟ وأين مكانه؟ وليعلم أن مسألة مكان الطور قد اكتسبت أهميّة؛ لما يرتبط

---

(١) الطور: ١ ـ ٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٥٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٩.

بها من أحداث حيث إنه المكان الذي حدثت عليه مناجاة النبي موسىٰ، والنداء من الله في هذه المنطقة ممّا يعطي هذا الموقع شرفاً وكرامة؛ ولذلك اختلفوا في موقعه. وعند تتبّع كتب تفاسير المسلمين للمذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ نرى أنهم يقولون: إنه في أرض الشام، وبعضهم يقول: في القدس، وآخر يقول: في القرية التي كان فيها شعيب[1]. ولم تذكر رواية واحدة عنهم أنه كان في النجف حسبما قالت به روايات[2] أهل البيت، وهي روايات صحيحة ومعتبرة.

محاولات النيل من الأئمة

فلماذا لم تذكر هذه الروايات أنه في النجف؟ قبل الإجابة لابدّ من توضيح مقدّمة، وهي أن كلّ مسلم يؤمن بالله ورسوله إذا رأىٰ منقبة لصحابيّ يجب أن يعتزّ بها، لماذا؟ لأنهم جداول يصبّون في بحيرة الإسلام، لكن الذي حدث لفضائل الإمام علي أن جاء الأُمويّون بعد مصرعه ثم العباسيّون، وكان لكلّ منهم حسابه الخاصّ معه، ذلك أن التاريخ يحدّثنا أن رسول الله كان يبعث الإمام عليّاً في الكتيبة فلا يرجع إلّا وقد علق الدم عليه بنياناً. وهو ممّا له تركة ثقيلة عند الأُمويّين والعباسيّين. ولا ننسَ أن نذكر المثل المشهور في حالنا هذه مع العباسيّين: «اتّقِ شرّ من أحسنت إليه»، مع أن الحيوان عندما تبرّه يألفك ويقربك، غير أن الإنسان خلاف ذلك؛ إذ يوجد أُناس من المعدن الذي إذا أحسنت إليه فلن ترى منه مكافأة إلّا بالإساءة؛ لأنه يظن أن إحسانك إليه نوع من التميّز عليه فينقلب عليك. والفترة التي كتب فيها التاريخ وتفسير القرآن الكريم ابتدأت في

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١١٤، ١٧: ٥٨ ـ ٥٩، زاد المسير ٥: ٣١٨، ٧: ٢١٥، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) انظر الميزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

عصر الأُمويّين والعباسيّين؛ ولهذا فإنهم إذا مرّوا بالإمام علي‌ﷺ انقلبت الحسابات، فصاحب (السيرة الحلبية) مثلاً التي تشرح تاريخ الإسلام، والقاري الحنفي في (شرح الشفاء)، والآلوسي في (شرح عينيّة عبد الباقي العمري)، والحاكم في مستدركه ـ وهم جزء ممّا نصّ عليه مؤرّخونا، ومنهم الأميني في الجزء السادس من موسوعته الغديريّة[1] ـ ينصّون على أن ولادة الإمام علي‌ﷺ كانت في الكعبة، والحاكم يقول: «الرواية متواترة»، أي رواها جيل عن جيل.

وكذلك جملة من المؤرّخين ذهبوا إلى أنه‌ﷺ ولد في بطن الكعبة[2]، لكن الآن لم نجد لهذا ذكراً في حياة الناس، فالمفروض أنه يشار إليه؛ لأنه من رجالات الإسلام، فمثلما يشار إلى مقام إبراهيم يشار إلى هذا الرجل، فإن ذكره رصيد للإسلام. والآلوسي عندما يمر بهذه الرواية يقول: «سبحان الذي يضع الأشياء مواضعها»؛ حيث إن هذا الرجل أراد أن يردّ الجميل فطهّر البيت من الأصنام وكسرها، وأراد الله أن يكافئهُ أيضاً:

لما دعاك الله قدماً لأن	تولد في البيت فلبيتهُ
جزيته بين قريش بأن	طهرت من أصنامهم بيتهُ[3]

أما قبره فإنّ التأريخ يضع ضباباً عليه، ويقول: إنه لم يعلم النعش أين[4]. ونقول لهم: إن أهل البيت‌ﷺ يعرفون ذلك، ويزورون هذا الموقع ويشيرون إليه وينصّون عليه، ونحن عندما نريد أن نرجع لقبور الأنبياء والأولياء كيف يمكن لنا أن نهتدي إليها؟ حتماً يكون ذلك عن طريق ذراريهم. يقول صفوان الجمال: صحبت الإمام

---

(١) الغدير ٦: ٢٢، وانظر ٢: ١٥، ٣٣. (٢) مروج الذهب ٢: ٣٤٨.

(٣) الغدير ٦: ٢٣.

(٤) تاريخ بغداد ١: ١٤٨، سبل الهدىٰ والرشاد (الصالحي الشامي) ١١: ٣٠٧، ونقل ذلك عن الصفدي في (تمام المتون).

الصادق، ولمّا مررنا بالغريّ في النجف وقف في مكان وصلّي ركعتين، ثم انتقل إلى مكان ثانٍ وصلّى ركعتين، ثم انتقل إلى مكان ثالث وصلّى ركعتين، فقلت: سيّدي، هذه الأماكن الثلاث هل لك أن تخبرني عنها؟ فقال: «بلىٰ، المكان الأوّل قبر جدّي علي بن أبي طالب، والمكان الثاني موقع صلب فيه رأس الحسين في طريقهم لمّا جاؤوا به إلى الكوفة، والمكان الثالث مكان منبر القائم»[1].

فكان أيمّة أهل البيت لايتركون فرصة تمرّ دون الإشارة إلى موقع القبر ودعوة الناس لتجديد العهد له. غير أن التأريخ حاول أن يلفّه وولادته بحالة ضبابيّة، فكانوا لايذكرونه بخير، يقول أحدهم: ما نفعل مع هذا الرجل؛ إن أحببناه قتلنا، وإن أبغضناه كفرنا[2].

على أيّة حال فروايات أهل البيت تنصّ على أن الطور في النجف، والذي يؤيّد ذلك أن مناجاة النبي موسىٰ حدثت على جبل من جبال الجنة، وجبال الجنة ذكر رسول الله أنها أربعة، وذكرها المؤرخون كذلك، وهي: الجودي (الذي رست عليه سفينة نبي الله نوح)، وجبل أُحد، وجبل لبنان، والرابع الطور[3]. فإذا أخذنا هذه الرواية وضممنا إليها رواية أن الطور هو وادي السلام، وهو مأوى أرواح المؤمنين وأن أرواح المؤمنين تذهب إلى الجنان[4]، تكون

(١) كامل الزيارات: ٨٤، تهذيب الأحكام ٦: ٣٥ / ٧١، وسائل الشيعة ١٤: ٣٩٩ / ١٩٤٥٤، دلائل الإمامة: ٤٥٩.

(٢) القول منسوب في مناقب آل أبي طالب وبحار الأنوار للشعبي، وفيه: «ما ندري ما نصنع بعلي بن أبي طالب: إن أحببناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفرنا!».
مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٤٨١.

(٣) رواها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٨، عن نبيّنا محمد.

(٤) وفيات الأيمّة: ٧٥.

نتيجة الجمع بين الروايات أن هذه هي المنطقة التي حدثت فيها المناجاة. وهذا لا نعتبره دليلاً ناهضاً، لكن توجد روايات عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام بخصوص ذلك، ففي كتاب (فرحة الغري) وغيره من الكتب[1] نصّ على أن الطور في الغري، وأن المناجاة حدثت فيه.

وحسبُ هذه التربة فخراً وشرفاً أنها قد حدثت عليها أُمور هامّة في تاريخ المسلمين، فهي لها دور كبير في حفظ اللغة العربية، فمدرسة اللغة العربيّة في النجف من أعمق المدارس، ويمكن الرجوع إلى المؤلّفات التي أُلّفت في هذا البلد والتي راعت حفظ اللغة، والجهد الذي انصبّ لأجل ذلك. ومن أهم الدروس التي يدرسها طالب العلم اللغة ومشتقّاتها، أي النحو والصرف والمعاني والبيان. وتوجد ريادة في النجف لتدريس العلوم الإسلامية، فآراء المذاهب الإسلاميّة تدرّس إلى جانب مذهب أهل البيت عليهم السلام بشكل مقارن من دون فرق بين مذهب وآخر، حيث يتمّ مناقشة الأحكام واستدلالاتها. في حين أننا نقرأ موسوعة إسلاميّة كبيرة فلا نجد فيها رواية لأهل البيت عليهم السلام. فلنسأل: من هم أهل البيت عليهم السلام؟ إنهم حملة القرآن، والبيت الذي هبط فيه الوحي، وفيه زغب جناح جبرئيل[2].

فالنجف احتضن رسالة الإسلام بحقّ، وفيه توجد مؤلّفات ضخمة تستعرض آراء المذاهب الإسلاميّة كـ(الخلاف) للشيخ الطوسي حيث يستعرض فيه بكلّ أدب واحترام آراء المذاهب الإسلاميّة ويشبعها ويقارنها بفقه أهل البيت عليهم السلام،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) ورد أن للحسن والحسين عليهما السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

وكمؤلّفات العلاّمة الحلّي والمقداد السيوري. وعندنا الفقه المقارن يـدرس الآن، في حين أنك لا تجد ذلك عند غيرنا من كتّاب المذاهب الأربعة فلا يمرّ أحد منهم برأي لأهل البيت‌ﷺ. مع أن هذا في الواقع يحطّ من قيمة الكاتب نفسه؛ لأن أهل البيت‌ﷺ هم النبع الصافي[1]. فالإمام الصادق‌ﷺ هو الجـذر والنـبع للـمذاهب الإسلامية؛ لأنه تلمذ له اثنان من أيمّة المذاهب الإسلاميّة الأربعة بصورة مباشرة، والآخران بصورة غير مباشرة[2].

---

(١) روي أن الحجّاج بن يوسف الثقفيّ كتب إلى الحسن البصريّ، وإلىٰ عامر الشـعبيّ، وإلىٰ عمرو بن عبيد، وإلىٰ واصل بن عطاء أن يذكروا ما عندهم وما وصل إليهم في القضاء والقدر؛ فكتب إليه الحسن البصري: أحسن ما انتهىٰ إلينا في القضاء والقدر ما سـمعته عـن أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب‌ﷺ وهو قوله: «أتظنّ أن الّذي هداك دهاك؟! إنما دهاك أسفلُك وأعلاك، والله بريء من ذاك».

وكتب إليه عمرو بن عبيد: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب‌ﷺ: «لو كان الوزر في الأصل محتوماً، لكان الموزور في القضاء مظلوماً».

وكتب إليه واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب‌ﷺ: «أيدلّك علىٰ الطريق، ثمّ يأخذ عليك المضيق؟! هذا في العقل لا يليق».

وكتب إليه عامر الشعبيّ: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب‌ﷺ: «كلّ ما حمدت الله عليه فهو منه، وكلّ ما استغفرت الله منه فهو منك».

فلمّا وصلت كتبهم إلى الحجّاج، وقرأ ما كتبوه إليه، قال: لقد أخذوها من عين صافية، ليس فيها كدر ولا وعر.

انظر: الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٣٢٩، كنز الفوائد: ١٧٠، المـيزان فـي تـفسير القرآن ١: ١٠٣.

(٢) وفيه وفي جدّه أمير المؤمنين‌ﷺ، قال ابن أبي الحديد: «ومن العلوم علم الفقه، وهو‌ﷺ ـ يعني أمير المؤمنين‌ﷺ ـ أصله وأساسه، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه:

أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما، فأخذوا عن أبي حنيفة.

وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة.

وأما أحمد بن حنبل، فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة.

فمقتضى القاعدة أن هذه المزيّة لهذه التربة ينبغي أن تكون موضع اعتزاز وفخر عند المسلمين؛ لأن هذا البلد خدم الإسلام بكل معارفه، والتربة قد احتضنت الإمام علياً عليه السلام، وهو عطاء للمسلمين كافّة.

فقسم الآية بـ﴿الطُّورِ﴾ إشارة إلى فضل هذه التربة، حيث نجد روايات تقول: إن هذه التربة ضجّت إلى الله، فجعلها الله مكاناً يُعبد به. وقد خصّها الله بفضل، كما خصَّ غيرها. فنحن نعتزّ بتربة المدينة لأنها مهد الرسول صلى الله عليه وآله، وكذلك نحن عندما نرىٰ هذا الرجل قد خدم الإسلام بكل ما أمكنه فإنّ التربة التي تضمّه ستصبح موضع اعتزازنا، فآثاره الروحيّة باقية إلى الآن، وهي ستبقىٰ مابقي الدهر؛ لأن الفكر والعطاء لا آمد لعمره. فمهما مرّت الدنيا فإنها لا تقضي على عطاء النبوة، وعلى رافد من روافد الإسلام؛ فلا يمكن أن يموت ودنياه دنيا خالدة ستبقىٰ مابقي الدهر. يقول أحد الشعراء:

سيدي يا أبا تراب يطيب الـ ... ـغرس فيه وتشرئبّ الجذورُ

فالقرآن يقسم بالطور، والروايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أنه هذه البقعة.

معنى الكتاب المسطور

الشيء الثاني الذي أقسم به تعالىٰ هو قوله: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، وفي تسميته

☚ وأبوحنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام، وينتهي الأمر إلى عليّ عليه السلام.
وأما مالك بن أنس، فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عبّاس على علي بن أبي طالب عليه السلام.
وإن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك، كان لك ذلك.
فهؤلاء الفقهاء الأربعة.
شرح نهج البلاغة ١: ١٦.

بالمسطور ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه تعالى عبّر عنه بالمسطور؛ لأن الملائكة تقرؤه باللوح، والناس يقرؤونه على الورق المسطور، أي في سطور.

ليس في القرآن تحريف

وهنا نقطة دقيقة، فالقرآن عندما يعبر عنه بـ﴿مَسْطُورٍ﴾ ـ أي مكتوب في سطور ـ يريد أنه لا سبيل إلى العبث به، فهو مابين الدفّتين، فإذا كانت الكتب السماويّة الأُخرىٰ قد حصل فيها عبث فالقرآن لم يحصل فيه ذلك العبث، وعليه أساطين علمائنا.

لكن هناك من يفسّر بعبث، وهناك من يقول: إن الإماميّة يقولون بوقوع التحريف في القرآن، ونحن نقول: إن القرآن مابين الدفّتين وإن وجدت روايات بهذا فهي غير معتبرة لا عندنا ولا عندهم. فليس في القرآن زيادة ولا نقيصة، فإن كان كذلك ـ أي أنه قد وقع فيه تحريف ـ فإنّ دستور الأُمّة الإسلاميّة كلّه باطل؛ ممّا يعني أنه تترتّب عليه لوازم فاسدة.

ونسأل: ما هو الهدف من القسم بالكتاب المسطور؟

والجواب: أن الهدف هو أن يدفعنا لقراءة القرآن فإنه المنبع الذي نستلهم منه كل احتياجاتنا ويغذّي أنفسنا بالخير. وكلّ الآيات لها معنىً نستفيد منه، فالذي يقرأ القرآن يخرج وهو يحمل الرحمة للناس والخلق، لكن بشرط أن يقرأه قراءة تدبر[1]؛ فمن هنا تُستلهم الهداية والقيم والمواقف. يروي عبد الله بن مسعود عن

---

(١) قال أمير المؤمنين ﷺ: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر».

وفي رواية أُخرى: «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣، معاني الأخبار: ٢٢٦ / ١.

رسول الله ﷺ أنه قال: «القرآن مأدبة الله»[1] حيث نأخذ منه النظريّات والتوجيه والهداية، ونأخذ منه حتى الأسلوب في الكتابة والفصاحة.

الرأي الثاني: الكتاب المسطور هو كلّ الكتب السماويّة ؛ ولذلك فإن الآية نكّرته وقالت: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، ولم تقل: «والكتاب المسطور». فهذا التنكير يفيد العموم أي كلّ كتاب نزل من السماء يحمل للناس الأحكام والتشريعات. ونفهم من هذا أن ديننا ليس فيه عداء للأديان الأُخرىٰ، فنحن نقرأ التوراة والإنجيل وليس لنا عداء معهم، لكن مع الأسف نقرأ لبعض حملة الأناجيل فنجد لهم مواقف عجيبة إزاء الإسلام حيث يقول أحدهم: إن محمداً مات سكرانَ فأكلته الخنازير. فهذا حقد غريب، مع العلم أن الإسلام وقف منهم غاية في الإنسانيّة فإنه لا يجد مصلحة في معاداتهم إلّا إذا كانوا يهدّدون الإنسانيّة، فالإسلام لا يقاتل أصحاب الأديان وإنما يقاتل الكافر لأنه خالٍ من المبادئ ويحارب الإسلام ويشكّل خطراً عليه. فنرىٰ الحقد على أهل البوسنة المسلمين، ومع الأسف نرىٰ المسلمين تحت هذه المطارق والتهديدات يتوزّعون أقساماً.

وأرعبتهم من الأعداء مطرقة ... فما استفاقوا لها إلّا وهم شُعَبُ

ورحم الله أحمد شوقي حيث يشكو الأُمّة في تائيّته التي يخاطب بها الخديوي عندما جاء إلى الحجّ:

إلى عرفات الله ياخيرَ زائر ... عليك سلام الله في عرفاتِ

إذا زرت بعد البيت قبر محمد ... وقبّلت مثوى الأعظَم العطِراتِ

---

(١) وسائل الشيعة ٦: ١٦٨ / ٧٦٤٨، مستدرك وسائل الشيعة ٤: ٢٣٢٥ / ٤٥٦٩ عن لب اللباب للراوندي، القاموس الفقهي: ١٧، وتمامه: «فتعلّموا من مأدبته».

فقل يارسول الله ياخيرَ مرسل أبثك ماتدري من الحسراتِ[1]

فهنا يطرح بين يدي رسول الله ﷺ آلامه ومشاكله من هذه الأُمّة التي تمزّقت وعادت شيعاً.

الرأي الثالث: أن الكتاب المسطور هو كتاب الأعمال، أي الصحيفة التي تسجّل تصرّفات الإنسان فيها يوميّاً، فيسجّل عليه كل قول وفعل. ويؤيد هذا المعنىٰ، أنه عُبّر عنه بـ ﴿**فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ**﴾ أي يُنشر بين يدي صاحبه يوم القيامة ﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾[2].

ونسأل أيضاً: لكن لماذا يقسم به الباريُ عزّ وجلّ؟

والجواب: أن الغرض واضح حيث إنه تعالى يريد أن يقول للإنسان: أنت ثمرة الوجود وسيّد الموجوَدات، وإني لم أخلقك عبثاً، فوراءك حساب؛ ولذا فيجب عليك أن تضع في حسابك أن هناك كتاباً يحصي عليك كل صغيرة وكبيرة. فكأن الهدف إشعار الإنسان وتنبيهه بأنه مسؤول:

ولو أنـا إذا مُـتنا تُـركنا لكـان المـوت راحـة كـلّ حـيٍّ
ولكـنّا إذا مُـتنا بُـعثنا ونُسأل بـعدها عـن كـلّ شـيٍّ

الشيء الثالث الذي أقسم به تعالىٰ هو قوله: ﴿**الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ**﴾، وهو الكعبة الشريفة، فقد خطّط الله للكعبة وبنيت في عهد آدم عليه السلام باعتباره أول نبي أُرسل للبشر، وبقي مكانها معروفاً ومميّزاً إلى أن حدث الطوفان حيث رفعت، ثم بعد الطوفان أمر الله نبيّه إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناءها، وعيّن له موضع البيت؛ ليبنيه على الأُسس السابقة: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ**﴾[3].

---

(١) ديوان أحمد شوقي ١: ٩٨. (٢) الإسراء: ١٤.
(٣) الحج: ٢٦.

ونسأل أيضاً: لماذا أقسم الله به؟

والجواب: أن الكعبة أُمّنا العقيديّة ، حيث إنها المكان الذي انطلق منه شعاع الأنبياء على امتداد التاريخ الإنساني. وبعد أن تحكّمت الجاهليّة كانت الكعبة الشريفة هي المكان الذي انطلق منه صوت «لا إله إلّا الله». فالنبيﷺ عندما دخل مكّة أمر بلالاً ـ وكان يحمل نبره السماء ـ فصعد وأذّن، واعتبرت قريش ذلك كارثة من الكوارث، حيث إن هذا معناه القضاء على تعدّد الآلهة. فحدث في مكّة نوع من الهرج والتأسّف، وبعضهم ولّى خارج مكة؛ كي لا يسمع صوت النداء.

فالقرآن الكريم أقسم بها؛ لأنها المنطلق، ولأننا نعود إليها في كلّ عقائدنا، ومنها انطلق الإسلام.

سبب تسميته بـ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

لكن لماذا عبّر عنها بـ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾؟

هناك قاعدة عند الأُصولين مفادها أن الأمر له صيغ متنوّعة، مثلاً حينما يريد الشارع أن يأمرنا بالصلاة فإنه قد يقول: «أعيدوا الصلاة»، أو يقول: «تعيدون الصلاة»، فهذان كلاهما أمر وإن كان الثاني جاء في صيغة الخبر. فـ﴿البيت المعمور﴾ أمر جاء في صيغة الخبر، حيث إنه تعالى يريد أن يقول: إن البيت ينبغي أن يعمر.

أنواع العمارة

والعمارة إما مادّيّة أو معنويّة:

فالعمارة المادّيّة أن يبنىٰ ويضاء وينظّف ويُتعاهد.

والعمارة المعنويّة أن يُتعاهد البيت بألّا يفرغ من العبادة، فإذا نقص الحجاج أو المعتمرون فإنّ الله يُكملهم من الملائكة؛ رعاية لهذه البقعة. وشرف هذه البقعة

انسحب إلى المنطقة بكاملها حيث إن حدود الحرم أوسع من البيت، فجاء شرفه من هذا المكان المشرّف. والسعادة الحقيقيّة هي أمام بيت الله، يقول أحد الأُدباء:

أيـها الفـارقون فـي غـمراتٍ ... نـال مـنها حـتّى أخسّ القـرودِ
هـاهنا يـطفئ الغـليل فـهيّا ... نـنزل الركب عـند نـبع بـرودِ
الجـنان المـفوّفات هـراء ... جـنب رمـل النـقا ووادي القـديدِ
السـعادات ليس إلّا بـدرب الـ ... ـله فـي دربـه الكريم السـعيدِ

فهناك السعادة الحقيقيّة حيث الكعبة الشريفة، وهي تجسّد هذا الجلال لك.

المبحث الثاني: موقف الأمويّين من البيت الحرام

لكن ماالذي صنعه الأُمويون بهذا البيت: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[1]؟ لقد ضربوه بالمنجنيقات وهدموا أركانه، وسالت الدماء في قلبه، وأحرقوا أستاره، فكيف تريدنا أن نتغاضىٰ عن هذا اللون من الاعتداء على البيت الطاهر؟ فهذا الذي من أجله خرج الحسين﵇ من مكّة. يقول السيد الحلّي:

وقد انجلىٰ عن مكّة وهو ابنها ... وبه تشرّفت الحطيم وزمزمُ
لم يدرِ أين يريح بُدنَ ركابه ... فكأنّما المأوىٰ عليه محرّمُ

فالحسين﵇ خرج من مكّة في اليوم الثامن من ذي الحجّة ـ يوم التروية ـ بعد أن حلّ إحرامه وحوّل حجّته إلى عُمرة مفردة، واستعدّ للخروج، فقيل له: ما أعجلك عن حجّك يا أبا عبد الله؟ فقال﵇: «لو لم يُعجّل لأُخذت»[2].

فهو﵇ يخبرهم بأنه غير مستعدّ لأن يبقىٰ في البيت حتى يقتل فيه، فتنتهك حرمة الكعبة وتجرح مشاعر المسلمين. وفعلاً خرج﵇ وصعد المنبر وخطب

---

(١) البقرة: ١٢٥.
(٢) مثير الأحزان: ٢٨.

خطبته الشهيرة: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أُجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

فهو ﷺ إذن خرج ليحافظ على حرمة الكعبة، وكان ما أراده ﷺ، فاحترم الكعبة، وخرج فلحق به صفوته وأهل بيته، فأراد الله تعويضه، فعوّضه بثلاث: جعل الدعاء مستجاباً تحت قبّته، وجعل الأيمّة في ذرّيته، وجعل الشفاء في تربته الطاهرة[2]، وخصّها بمنزلة عظيمة، فكأنّما قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[3] في حقّها، فجعل القبر يُطاف به، وجعل له في قلب كلّ مسلم مكاناً[4]، فهو ﷺ يطوف في فكر كلّ مسلم يتأمّله ليستلهم أرفع القيم والمواقف من هذه التربة التي جسّد عليها أسمىٰ أنواع الفضائل.

وهكذا نجد أن الله قد جعل قبره كعبة للمؤمنين يطوفون حوله، والأصوات تنادي: «أشهد لقد اقشعرّت لدمائكم أظلّة العرش مع أظلّة الخلائق»[5].

ونرىٰ كيف طاف التوّابون وغيرهم من بعض صحابة الرسول ﷺ، حيث مرّوا

---

(١) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨، كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

(٢) عدّة الداعي: ٤٨، وقد مرّ ذلك مفصّلاً في الصفحة: ٩٤ / الهامش: ٢ ـ ٣ من هذا الجزء.

(٣) إبراهيم: ٣٧.

(٤) قال الشاعر:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ـن بشرقها أو غربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا نحوي فمشهده بقلبي

(٥) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

بهذا القبر الكريم وطافوا حوله، فجابر بن عبد الله الأنصاري يقف على القبر ويقول لابن عطية: «ضع يدي على القبر، ألمسنيه». حتى إذا أحسّ ببرد ترابه صاح: «ياحسين، ياحسين». ثم قال: «حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك، وفُرّق بين رأسك وبدنك؟ أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، خامس أهل الكسا، وكيف لا تكون كذلك وقد رضعت من ثدي الإسلام، وربيت في حجر الإيمان؟».

وفي اللحظات التي كان جابر يزور، أطلّ الإمام السجاد ومعه السبايا، وماكادت السبايا يلمحن قبر الحسين حتى هرولن إليه وجلسن عنده، أخذت اللوعة مأخذها من قلوب بنات الزهراء، وأثّرت أثرها فيهن، وهو ما دفع الإمام السجاد إلى ألّا يطيل البقاء في تربة كربلاء، فلم يبقَ إلّا ثلاثة أيّام، فكلّموه في ذلك وقالوا له: إن العائلة لم تكتفِ بعد من الوداع، فلم لاتتركها لتتزود منه؟ فقال: «إني أرى ما لاترون». قالوا: وماترى؟ قال: «إني أخشى على عمّتي زينب أن تموت، فإنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر ودموعها جارية».

﴿٢٣﴾

وراثة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

هذا المقطع من الآية يتضمّن مجموعة من المباحث، فالآية تعالج مشكلة من المشاكل التي تمتد مع امتداد الإنسانية.

المبحث الأول: الجانب المدني والحضاري في حياة الإنسان

إن الفترة التي بدأت بنزول القرآن الكريم تعتبر نقطة فاصلة بين حضارتين: حضارة الإسلام، وحضارة الجاهلية، حيث نزل القرآن ليغيّر المجتمع، فجاء بقيم تختلف عن القيم الجاهليّة السابقة، ومن الصعب تبديل حضارة بحضارة، مع أن من السهل تغيير المدنيّة كسكن الإنسان حيث يمكن تغييره من الخيمة إلىٰ القصر، وكذلك وسائل النقل، ولكن من الصعب تغيير عادة لإنسان كان قد درج عليها هو وآباؤه وأجداده، فنحن نحتاج إلى زمن طويل لإجراء هذا التغيير؛ ولذا ينشأ

---

(١) النساء: ١٩.

التخلّف الحضاري. فالشقّ المادي من الحضارة من السهل تغييره لكن الشقّ الفكري يصعب تغييره، ويحتاج إلى فترة طويلة لتحقيقه؛ ومن هنا نشأت صعوبة معالجة القيم البدويّة التي كانت سائدة آنذاك عند نزول القرآن.

النظرة إلى المرأة هي انعكاس عن جملة من الأوضاع

وقيم الجاهليّة ومواريثها لانزال نعيشها إلى الآن، صحيح أننا مسلمون ونصلّي ونصوم، ولكن عند الرجوع إلى داخلنا نرىٰ الجاهليّة تعيش في صدورنا. ومن جملة هذه المسائل مسألة (النظرة إلى المرأة)، فنحن نعرف أن المجتمع البدوي ينظر إلى المرأة على أنها كيان ضعيف، لايصلح أن يكون ندّاً للرجل. وهذه النظرة هي انعكاس عن الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والعقيديّة:

الانعكاس عن الأوضاع الاقتصاديّة

إن الأوضاع الاقتصاديّة في الجزيرة العربيّة آنذاك كانت تقوم علىٰ أساس الابتزاز والسلب والنهب:

يُغار علينا واترين فيشتفى	**بنا وإذا غرنا نغير على وتر**
بذلك نقضي الدهر شطرين بيننا	**فلا ينقضي إلّا ونحن على شطرِ[1]**

فهذه حضارتهم إمّا أن يَنهبوا أو يُنبهوا، وهذه هي الصورة السائدة في المجتمع آنذاك؛ ولذلك نجد آثارهم طافحة بهذا المعنىٰ. وكان لهذا الوضع الاقتصادي انعكاسه البيّن؛ حيث إن الذي يقوم بالسلب والنهب هو الرجل أي ـ النصف الخشن من المجتمع ـ أما النصف الآخر فهو ضعيف غير منتج فلا يستحقّ الحياة؛ ولذلك نجد أحد شعرائهم يبرّر دفن البنت بقوله:

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مقاتل الطالبيّين: ٢٠٠، شرح نهج البلاغة ٣: ٣١٠، ٦: ١٦٠.

القبر أخفى سترة للبنات ودفنها يروى من المكرمات

ألم ترَ الرحمن عزّ اسمه قد وضع النعش بجنب البنات[1]

فهذه المجموعة الكوكبيّة في السماء نسميها بنات نعش، أي إذا وجدت البنت وجد النعش إلىٰ جانبها، أي نقتلها وهي حيّة.

الانعكاس عن الأوضاع الاجتماعيّة

أمّا بخصوص الانعكاس عن الوضع الاجتماعي، فقد حصلت مجموعة من القضايا جعلتهم يعتبرون البنت عاراً؛ فنتيجة الغزو بين القبائل يحصل السبي، والمرأة قد تُسبى؛ وهي حينئذ إمّا أن تتزوّج أو تتعلّق بمن يغزوها، فيقولون: إن هذه المرأة قد أورثت القبيلة عاراً، بوقوعها تحت طائلة السبي؛ ولذا فإن الأفضل لها ولنا أن تموت.

الانعكاس عن الأوضاع العقيديّة

أمّا الانعكاس عن الوضع العقيدي فقد جاؤوا بأُمور من وضعهم ما أنزل الله بها من سلطان، منها أن المرأة لاتساوي الرجل بل هي أقلّ منه؛ فلذا كانوا يحتقرونها ويستخدمون أبشع الوسائل في معاملتها. وحتىٰ عندما كانوا يريدون أن يعبّروا عنها فإنهم يستخدمون عبارات تناسب كونها منحطّة عن الرجل كما هو السائد في نظرهم. وهذا شيء غير طبيعي وغير فطري، ويؤدّي إلى تدهور المجتمع بضياع ودمار نصفه حيث إن المرأة تمثّل نصف المجتمع، بل المجتمع كلّه إن تجوّزنا؛ لأن ماينعكس علىٰ المرأة ينعكس على الأُسرة؛ إذ أنها عماد الأُسرة. وكانت هذه عادتهم الدائبة إلّا نادراً.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨، ذيل تاريخ بغداد ٣: ١٩٤.

تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يامن آمنتم برسالة السماء، بعد أن أصبحتم مؤمنين لا تظلّوا متمسّكين بالقيم التي كانت سائدة عندكم في الجاهلية، ولا تبقوا عليها؛ فإنها قد انتهت وينبغي قطع الحبال منها؛ فلا يجتمع الإسلام مع الجاهلية أبداً. غير أن المصيبة أنهم يجمعون بينهما، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1]، فمع أنه يشهد الشهادتين تجد محتواه ومضمونه يعيشان قيم الجاهليّة بكلّ أبعادها، فهو يؤمن بالله ويعبد عشرين إلهاً في داخله؛ حيث يعبد إله العصبية[2] والهوى[3] وإله الميراث الاجتماعي. فينبغي التفريق بين هذا، وذاك وأن يجرد الإنسان نفسه من المحتويات التي تقابل الإسلام وتجعله يتّخذ منها ندّاً للإسلام.

المبحث الثاني: نظرة الإسلام إلى المرأة

﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾ قبل الدخول للمقطع، قد يسأل سائل: أنتم

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من دعا إلى عصبية». سنن أبي داود ٢: ٥٠٣ / ٥١٢١، الجامع الصغير ٢: ٤٦٦ / ٧٦٤٨، النهاية في غريب الحديث ٣: ٢٤٦ ـ عصب، كنز العمّال ٣: ٥١٠ / ٧٦٥٧.

(٣) وقد قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٦.

وقال: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ الكهف: ٢٨.

وقال: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ طه: ١٦.

وقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ الفرقان: ٤٣.

وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ القصص: ٥٠.

وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ٢٣.

تنتقدون الجاهليّين بمعاملتهم المرأة، والحال أن معاملتها عندكم لاتختلف عما في الجاهليّة، فأنتم تروون عن الإمام علي عليه السلام «المرأة شرّ كلّها، وشرّ ما فيها أنها لابدّ منها»[١]، وأنهن نواقص الحظوظ والعقول والإيمان[٢]. وهذه غالباً تثار باعتبار أن الإمام عليه السلام يؤخذ على الإسلام وعلى القرآن. ففي الرواية: «المرأة شرّ» فاللام في «المرأة» إما للجنس ـ أي لجنس المرأة ـ أو للعهد أي لامرأة معهودة معروفة: فإذا كانت للجنس فكيف يعقل أن يعبر عليه السلام عن المرأة أن كلّ جنسها شرّ؟ فخديجة امرأة وهي من قام نصف الإسلام على كتفها وبمالها[٣]، وآسية بنت مزاحم امرأة وهي من خيرة المؤمنات، ومريم بنت عمران من خيرة النساء أيضاً، وفاطمة امرأة وهي من خيرة النساء، وكذلك المؤمنات الصالحات ممّن نعتزّ إلى الآن بمواقفهن كخولة بنت الأزور وأمّ عمارة التي لازالت مواقفها تهزّ الأعماق.

فهؤلاء النساء المؤمنات هل يعقل أن يعبّر عنهن الإمام عليه السلام بكونهنّ شراً؟ هذا لايصدر من الإنسان العادي. وعليه فتكون (ال) هنا للعهد، أي أن المقصود بهذا

---

(١) نهج البلاغة /الحكمة: ٢٣٨. قال ابن أبي الحديد في شرحه:
الأصل: «المرأة شرّ كلّها، وشرّ ما فيها أنه لا بدّ منها».
الشرح : حلف إنسان عند بعض الحكماء أنه ما دخل باب شرّ قط. فقال الحكيم: فمن أين دخلت امرأتك؟
وكان يقال: أسباب فتنة النساء ثلاثة: عين ناظرة، وصورة مستحسنة، وشهوة قادرة. فالحكيم من لا يردّد النظرة حتى يعرف حقائق الصورة. ولو أن رجلاً رأى امرأة فأعجبته ثم طالبها فامتنعت، هل كان إلّا تاركها؟ فإن تأبّى عقله عليه في مطالبتها كتأبّيها عليه في مساعفتها قدع نفسه عن لذّته قدع الغيور إياه عن حرمة مسلم.
وكان يقال: من أتعب نفسه في الحلال من النساء لم يتُقْ إلى الحرام منهن، كالطليح مناه أن يستريح.
قدع نفسه: منعها وحدّ من شهوتها. والطليح: المتعب. شرح نهج البلاغة ١٩: ٦٩.
(٢) انظر: الفقيه ٣: ٣٩ / ٣٤٧١، مسند أحمد ٢: ٦٧، صحيح البخاري ١:٧٨.
(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٤٥، بحار الأنوار ٤١: ٢٥.

امرأة بعينها معروفة وضعيفة، كما لو كان الإمام﵇ جالساً على دكّة القضاء واشتكىٰ إليه رجل زوجته، فقال له الإمام﵇: «المرأة شرّ كلّها، وشرّ ما فيها أنه لابدّ منها». فكأنه﵇ يخبره بأن اللابديّة من حيث إنه لا يستطيع تركها لأن أطفاله سيضيعون. فهذه حادثة خاصّة فلا تنسحب على الجميع.

فالسامع تصوّر أن كلّ امرأة شرّ، فيكون قد أخذ نصف الواقعة وترك النصف الآخر، وممّا يروىٰ في هذا المجال كما في مسند أحمد[1] وغيره[2] أن أبا هريرة دخل على عائشة، فقالت له: «يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرّة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه ـ يعني النبي ﷺ ـ فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذّبه في هرة، فإذا حدّثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدّث».

فهذا قد أخذ نصف الحديث وترك النصف الآخر المهم الذي بسببه عذّبت المرأة.

وكثير من النساء قد قمن بدور كبير وفعّال في الحركات الإصلاحيّة لا يقلّ عن دور مجموعة من الرجال، كما يقول الشاعر:

فلو كان النساء كمثل هذي ... لفضّلت النساء على الرجال[3]

فالمشرّع الإسلامي أعطىٰ للمرأة دوراً كما للرجل، غاية الأمر أنه يختلف

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٩٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذي ١: ٢٦١.

(٣) شجرة طوبى ١: ٢٤٩.

باختلاف الميادين، وفي الحديث الشريف: «النساء شقائق الرجال»[1] أي أنهن يمثّلن شطر المجتمع، فإذا كان للرجل دور خارج الدار فإنّ المرأة لها دورها داخل الدار[2].

أمّا معنى «ناقصات حظّ»، فهو أن البيئة الاقتصاديّة لاتنيط بالمرأة شيئاً من التكاليف، بل إن الرجل هو المسؤول عن تكاليف الحياة، والمرأة مكفولة؛ ولذلك فإن الإسلام يعطيها نصف الميراث بهذا الاعتبار، في حين أن الرجل ينفق ما يحصل عليه من نصيبه في الميراث.

وأمّا معنى «ناقصات إيمان»، فالصلاة من الإيمان، فأنا حينما أُصلّي ركعتين فإن إيماني يزداد، والمرأة تضطرّ في أيّام عادتها الشهريّة لأن تترك الصلاة، وكذلك في النفاس؛ فتكون من هذه الجهة أقلّ حظّاً في الإيمان من الرجل. لكن هذا لايعتبر نقصاً، فلو رجعنا للروايات الواردة لرأينا فيها نوعاً من توزيع الأدوار وتحديدها، وليست المسألة مسألة تفضيل ابداً.

ولذلك عالج القرآن هذه المسألة بالنصّ وبسيرة حملة القرآن؛ فهم نوافذ على القرآن؛ ولذلك فإن جملة من المذاهب الإسلاميّة تعتبر رأي الصحابي مصدراً من مصادر التشريع، وتعتبر رأي الصحابي رأي الإسلام؛ لأنه عاصر الشريعة وعاش مع الرسول ﷺ، ورأى سيرته.

وعليه فالإسلام لايعاملها معاملة الجاهلية، بل يعتبر الجنّة تحت أقدامها[3].

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «جهاد المرأة حسن التبعّل». الكافي ٥: ٩ / ١، الفقيه ٣: ٣٨٩ / ٤٥١٨، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٢، ونسبه في كنز العمّال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣، لرسول الله ﷺ.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، ١: ١٠٣ / ١١٩، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩، ميزان الاعتدال ٤: ٢٢٠.

ويكرّمها غاية التكريم. لكن بعض الناس يقول: ينبغي توفير متطلّبات الحياة المعاصرة للمرأة، فالإسلام لايوفّر ذلك لها. فماهي متطلّبات الحياة المعاصرة؟ إن متطلّبات الحياة المعاصرة حوّلت المرأة إلى غريزة، والإسلام ينشّئ المرأة كموقفٍ وليس كغريزة، وهي في ذلك سواء مع الرجل. وهناك فرق بين الموقف والغريزة.

أمّا الحضارة المعاصرة فالمرأة في نظرها مجرّد غريزة، فهي تراها دمية جميلة يتلهّىٰ بها الرجل، ويأخذ منها وطره ثم يرميها. في حين أن الإسلام ينظر إليها نظرة الندّ للندّ مع الرجل، ويتعامل معها بالمعاملة نفسها معه، ويرى أن الغريزة لامتداد النوع لا أكثر. فلا يُتصور أنهاتمارس حرّيتها في الحضارة المعاصرة، لا بل هي فيها عبارة عن قطعة تبدّل كلّ حين مع أنها هي الوسيلة لخلق المجتمع الطيّب والأولاد الصالحين فيه.

فمعطيات الحضارة المعاصرة لم تكرّم المرأة كما كرّمها الإسلام، فها نحن نلاحظها تكدح صباحاً ومساءً لغرض الحصول علىٰ رغيف الخبز في حين أن الإسلام يعتبرها مكفولة، وينيط الكدح والتعب بالرجل، ويفرّغ المرأة لتربية الأُسرة والقيام بأعمال لاتنافي فطرتها وأُنوثتها ولم يحتقرها. يقول أحد شعراء الإسلام:

نحن كالماء والهواء لحيّ	بنية الحيّ ماؤهُ والهواءُ
إن نأى بعضنا عن البعض فالأر	ض علىٰ كلّ مابها صحراءُ

فالمرأة شقيقة الرجل لتستمرّ الحياة الكريمة.

المبحث الثالث: معنى وراثة النساء

نرجع للآية، فقوله: ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾،فهنا صورتان:

الصورة الأُولى: أن العرب كانوا إذا مات الرجل منهم فإنّ أولياءه (وهم أُخوة الرجل أو أبناء عمّه أو أبناؤه من زوجة أُخرىٰ) يأخذون ميراثه، ومن جملة الميراث المرأة. ولو كان عنده ابن من زوجة ثانية فإنه يلقي رداءه علىٰ المرأة فيمنعها. وهو هنا له معها أحد ثلاثة أُمور:

إما أن يتزوّجها وهذا ما يعبّر عنه بنكاح المقت الذي ورد فيه النهي: ﴿**وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ**﴾[1]. وإنما حرّمه الشارع المقدّس لما يترتّب عليه من مفاسد كبيرة منها عدم احترام الأب، وتحوّل الأُسرة إلى بؤرة من بؤر الانحلال الخلقي؛ لذلك فإن الإسلام كرّم موطوءة الأب بألّا يدنو منها الولد. فكانوا يرثون المرأة وفق هذه الظاهرة كما يرثون المتاع.

وإما أن يزوّجها من يحبّ وإن لم ترغب هي فيه، ويأخذ هو مهرها المجعول لها مقابل نكاحها، ولا حقّ لأحد غيره فيه.

وإما أن يمنعها من الزواج نهائيّاً.

فجاء الإسلام وخاطبهم بأنهم أصبحوا مؤمنين؛ فلا يحلّ لهم أن يرثوا النساء كرهاً.

الصورة الثانية: لو أن امرأة يموت أبوها ويورّثها ميراثاً ضخماً، فإنهم يمنعونها من الزواج بحجّة أنها لو تزوّجت فستنتقل ثروتها إلى زوجها، وهذا معناه إخراج الثروه إلى نطاق آخر. فكانوا يحجرون عليها ويعضلونها ويمنعونها من الزواج ثم يأخذون أموالها. وهذا كان منتشراً بينهم، فلما جاء الإسلام نهاهم عنه: ﴿**لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً**﴾. والقرآن الكريم يُشعّ منه جانب خلقي، فإنه يريد أن يقول لهم: إن المرأة ليست من جملة الميراث، بل هي آدمي ولا تقيّم بالمال، لا كما

---

(١) النساء: ٢٢.

يراه بعض المذاهب الاجتماعيّة المعاصرة التي إذا مرت بالإنسان فإنها تعبّر عنه بأنه (ثمن + رأس مال). وهذا يعتبر أمراً غليظاً ليس فيه شفافيّة ولا تكريم للإنسان، والله قد كرّم بني آدم[1]. والإنسان إذا قتل تؤخذ لوليّه الدية، فالدية عمليّة تأديب وعقاب، وهي ليست تثميناً للإنسان. وهذا هو مضمون الوثيقة التي أعلنها النبي ﷺ حول حقوق الإنسان عندما حجّ حجّة الوداع، حيث قال وهو على المنبر: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. ثم قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه. ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم: لا نبيّ بعدي ولا أمّة بعدكم»[2].

وقيل لأبي عبد الله: حديث يُروى عنك؟ قال: «وما هو؟». قيل: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة». قال : «قلت ذلك، إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلي أقبلت»[3].

وهكذا نرى أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة؛ فالإنسان ثمرة الوجود وسيّد الكائنات، ولا يُقيّم بالمادّة.

﴿كَرْهاً﴾ أي أن فيه نوعاً من الإكراه والإجبار والابتزاز، من حيث إنهم يعتبرونها كائناً ضعيفاً لاحول له ولا قوة. وفي الحديث الشريف: «ما أكرمهن إلّا

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء: ٧٠.

(٢) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠٢، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.

(٣) انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

كريم ولا أهانهن إلّا لئيم»[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام في وصيته للإمام الحسن عليه السلام: «وظلم الضعيف أفحش الظلم»[2].

فأفحش الظلم أن تظلم ضعيفاً. والحال أن المرأة غير ضعيفة، لكنها كان ينظر إليها كذلك.

المبحث الرابع: ما معنى العضل في الآية؟ ومن المخاطب بها؟

ولنا أن نسأل: ما هو المقصود بالعضل في قوله جلّ وعلا: ﴿ولا تعضلوهن﴾؟ وهل الخطاب موجّه فيها للأولياء أم للأزواج؟ العضل هو المنع، والمفسرون حول هذا فريقان:

الأول يقول: إن الخطاب للأولياء، حيث إن بعض الأولياء يعضلهن بدون قصد، فمثلاً ينتظر شخصاً يحمل صفة الملائكة من وجهة نظره حتىٰ يزوّجه ابنته، بحيث يكون له رصيد ماليّ وثقافيّ، ومن أُسرة محترمة، إضافة إلى مجموعة كبيرة من المقترحات والامتيازات. صحيح أنه لابدّ من الرجل المناسب «ابنتك كريمتك» ويجب أن تخطب لها مثلما تخطب لابنك، لكن مع مراعاة الأُصول، وهي أنه إذا توفّرت حدود الكرامة فهي كافية في الموافقة على هذا القادم: «من جاءكم ممن ترضون دينه فزوجوه»[3].

وهذه نقطة الكفاءة، أمّا أن يضع الإنسان شروطاً خياليّة فإنه سيؤدّي بذلك إلى فساد المجتمع.

---

(١) الجامع الصغير ١: ٦٣٢ / ٤١٠٢، كنز العمّال ١٦: ٣٧١ / ٤٤٩٤٤.

(٢) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٣) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

وهذا نوع من أنواع العضل حيث إنك تعضلها أن تتزوج بالكفء؛ لأن تصوّرك أن هذا الكفء لايناسبك ولايصل إلى مستواك هو تصوّر خاطئ، ثم إنه ما مستواك أنت؟ كان مالك بن دينار من الأولياء المعروفين المتديّنين، فرأىٰ شخصاً من أُسرة استقراطيّة محترمة ـ وهم آل المهلب ـ يمشي مشية غير طبيعيّة، فقال له: لو تركت هذه المشية لكان أليق بك. قال له: أو لست تعرف من أنا؟ قال: بلىٰ. قال: كيف تعرفني؟ قال: أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت مابينها تحمل العذرة[1].

فوراءك الموت والقبر، وماذا سيحصل لجثّتك بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾[2]؟

فنهايتك هي القبر، وستذهب المحاسن والعيون، وستعبث بالجسم ديدان الأرض والهوامّ، ويحولك التراب إلى نوع مؤلم:

أعفر الثرىٰ بالألف برج مكوكب ... يضمّ الوجوه الزهر فضل نقابه

يقول الخيّام في إحدىٰ رباعيّاته ما معناه: إن تجلُ يد الربيع وكفّ السحب خدّ الأزهار فابتدر للشرب فإنها ستزدهي غداً بالعشب من جسمك.

فهذه الخضرة التي تجلوها يد الربيع هي عبارة عن أجزاء من جسمك قد تحوّلت إلى خضرة، فهو خدود وسواعد وعيون، فلماذا هذه الغطرسة والخيلاء؟ فالإنسان أخو الإنسان. فالآية تهيب بالأولياء ألّا يكونوا سبباً في الفساد بحيث يكثر العوانس والعزّاب.

الثاني ويقول: إنه خطاب للأزواج، فالزوج يعضل الزوجة ـ أي يُكرِهها ـ

---

(١) وهو كلام مقتبس من حِكم أمير المؤمنين ﷺ، يقول فيه: «ما لابن آدم والعجب؛ وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة؟». عيون الحكم والمواعظ (علي بن محمد الليثي الواسطي): ٤٧٩.

(٢) المرسلات: ٢٠.

ويستخدم معها المضارّة، بحيث ينغّص لها عيشها؛ فلا يطلّقها ولا يعاملها بإحسان. فهذا نوع من أنواع العضل.

فالقرآن يقول لهم: إن كنتم تؤمنون بالله فإنّ هذا الفعل منكم جاهلي: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فالبعض عنده زيادة في الخسّة، فيستخدم هذه القسوة حتىٰ تتخلّىٰ عن المال الذي أعطاه إيّاها، وتتنازل له عن حقّها دون أن يعرف أن هذه العلاقة وهذه العشرة يجب أن تنحو منحًى كريماً، وإنما يتصوّر أنها تقوم على النفع المتبادل.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، ففي الوقت الذي أكّد القرآن علىٰ حفظ حقوق المرأة، أراد أن يحفظ المعادلة فقال: إذا جاءت المرأة بفاحشة مبيّنة فيحقّ لك أن تعاملها معاملة غير طبيعية.

المبحث الخامس: معنى الفاحشة المبينة

والفاحشة المبينة فيها ثلاثة آراء:

الأول: أنها الزنا[١]، والحِجر الذي ينزل لهذا المستوىٰ حِجر غير نظيف. فالمرأة في هذه الحالة تفارق وتطلّق ويُضيّق عليها زوجها حتىٰ يأخذَ منها ماأعطاها. ويوجد رأي للإمام مالك بأن يأخذ منها جميع ماعندها[٢]، ورأي آخر أنه يأخذ منها بعض ماأعطاها[٣].

الثاني: أنها سوء العشرة[٤]، أي تنغّص عيشه دائماً، فليس عندها أخلاق تجامله بها، ولا تقضي أُموره، وتظهر عدم الطاعة. وبهذا تصيّر جوّ البيت جحيماً؛ ولذلك

---

(١) الفقيه ٣: ٣٢٢ / ١٠، إكمال الدين: ٢٥٤، صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ١٠٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٩٥، تفسير الثعالبي ٢: ١٩٥، فتح القدير ١: ٤٤١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١: ٤٧٧.
(٤) التفسير الصافي ١: ٤٢٤، الحدائق الناضرة ٢٥: ٥٢٧.

شرع الله الطلاق. والطلاق ليس سهلاً فهو يهتز له العرش[1]، لكن إذا تعذّرت الحياة الكريمة فمن حقّ الإنسان أن يأخذ بطريق الطلاق[2].

الثالث: أنها البذاء[3]، أي اللفظة النابية والكلمة التي تجرح الزوج؛ سواء كان بوجهه أو من وراء ظهره. وهذا ليس أُفق أُسرة محترمة، فالمفروض أن يكون الاحترام متبادلاً بين الزوجين، كي ينشأ الأطفال على الأخلاق الكريمة[4].

ثم انتقلت الآية ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإذا كانت أجواء الانسجام مخيّمة على الأُسرة فبوسعك أن تعاملها بمعروف، دخل رجل على رسول الله ﷺ فقال له: يارسول الله، أخطب المرأة الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[5].

وكذلك بالمقابل علينا بصاحب الدين؛ فإنه إذا أحبّ المرأة أسعدها، وإذا كرهها لم يظلمها؛ ذلك أن الذي عنده دين سيخضع لضوابطه ويتبناها، ولا يسيء العشرة. فالقرآن الكريم يأمر بالعشرة الكريمة؛ لأن الطفل بحاجة إلى أجواء كريمة ليعيش فيها. هذا مفاد الآية.

المبحث السادس: دور المرأة في واقعة كربلاء، زينب أنموذجاً

إذن أمر القرآن بمعاملة المرأة على أساس المساواة؛ وقد رأينا نمطاً من النساء لعب دوراً مشرّفاً في التاريخ، وسوف نعطي لمحات عن أُخت الحسين زينب ﷺ؛ المرأة التي لعبت دوراً كبيراً في معركة الطفّ، فإنّ عائلة الحسين ﷺ التي أخرجها

---

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٢) وما حيلة المضطرّ إلّا ركوبها. بحار الأنوار ٤٦: ٣٦٩.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٣٠٤، الأم ٥: ٢٥٢، المجموع ١٨: ١٧٨.

(٤) واختار ابن جرير أنه يعمّ ذلك كلّه من الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك. فهذا رأي رابع. انظر تفسير القرآن العظيم ١: ٤٧٧.

(٥) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

معه تبلغ (٢٤٠) نسمة، أوكل عليه السلام رعايتها إلى أُخته العقيلة زينب عليها السلام.. وهذه المرأة تحمل ميراثاً ضخماً؛ فعندها ميراث للكفاح ولتحمّل أعباء الحياة ورثته من جدتها خديجة التي وقفت إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله ومسحت ألمه وأفاضت عليه من حنوّها، وجنّدت كلّ طاقتها وما لديها من مال ومكانة اجتماعيّة في سبيل إنجاح دعوته، فوقفت إلى جانبه إلى أن أدّىٰ رسالة ربّه. وقد عبر النبي صلى الله عليه وآله عن العام الذي فقد فيه زوجته خديجة الكبرى وعمّه أبا طالب (رضي الله عنهما) بعام الحزن[1]، حيث إنه صلى الله عليه وآله فقد فيه عمادين.

وأُمّ زينب فاطمة عليها السلام التي كافحت عن الفكرة وهي في عمر الورد، ووقفت إلى جانب الإمام علي عليه السلام. فهذه أُسرة زينب التي انبثقت عنها شجاعة وخلقاً ومواقفَ. وهذه المرأة تحمل التضحية في كيانها؛ فقد رُبيت مع الحسين عليه السلام في بيت واحد، ولم يفصل بينهما إلاّ سنة في الولادة، وحتىٰ بعد زواجها من ابن عمّها عبد الله بن جعفر لم تفترق عنه. وكان بيتها من أضخم البيوت، وقد أعرضت عن هذه النعمة، وكان معها ولداها محمد وعون في الطفّ، وقتلا مع خالهما الحسين عليه السلام.

ولما انتهت واقعة الطفّ وقتل الشابّان، وبلغ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مقتلهما مع الحسين عليه السلام دخل عليه بعض مواليه ـ والظاهر أنه أبو اللسلاس ـ والناس يعزّونه فقال: هذا مالقينا ودخل علينا من الحسين، قتل أبناءنا. فحذفه[2] عبد الله بن جعفر بنعله ثمّ قال: يابن اللخناء، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألّا أُفارقه حتى أُقتل معه. والله إنه لممّا يسخي بنفسي عنهما ويهوّن عليّ المصاب بهما أنهما أُصيبا مع أخي وابن عمّي، مواسيين له، صابرين معه. تم أقبل

---

(١) إعلام الورىٰ ١: ٥٣، الدرجات الرفيعة: ٤٠٩، شجرة طوبىٰ ٢: ٢٣٦، لسان العرب ١٣: ١١٢ ـ حزن.

(٢) خذفه: رماه. المعجم الوسيط: ٢٢٢ ـ خذف.

على جلسائه فقال: الحمد لله عزّ وجلّ على مصرع الحسين إن لا تكن آست حسيناً يداي فقد آساه ولداي[1].

وهكذا ضحّت زينب﵀ ببيتها وأولادها، والتاريخ لم ينقل لنا أنها ذكرت أولادها عندما نزلت للساحة، وإنما نقل لنا أنها كانت تذكر الحسين﵇. وقد مرّت بمواقفَ تُهدّ منها الجبال، مع أن المرأة رقيقة إذا رأت مصرع أحد من أهلها فإنها تهدّ. فهذه المرأة تقف مابين تلك المصارع يوم الطفّ ولم يبدُ عليها شيء من الانهيار، وكانت غاية في الصلابة. وهذا هو الغرض الذي أراد الحسين﵇ إيصاله للذين اعترضوا عليه بالقول: لماذا تُخرج عائلتك. كان يقول لهم: «قد شاء الله أن يراهن سبايا»[2]. ولو لم تقف زينب هذا الموقف لاندثرت واقعة الطفّ.

وقد فوجئت عند دخولها لمجلس يزيد حينما رأت أن بعضهم يتصوّر أنهم خوارج، وقد شرحت لهم هذه النقطة، وبينت لهم بأنهم ليسوا بغاة وإنما هم أهل بيت النبي محمدﷺ، وأنهم حملة الدعوة، والبيت الذي جمع بين زعامة الدين والدنيا؛ ولذلك قالت له: «أظننت يايزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأسارى أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلانَ مسروراً حتىٰ رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لاتطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[3]؟

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٠٣، الإرشاد ٢: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٤، الغارات (الثقفي) ٢: ٦٩٥، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧، عمدة الطالب: ٣٧.

(٢) مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المحتضر: ٤١، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤، ينابيع المودة ٣: ٦٠. (٣) آل عمران: ١٧٨.

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن وأبديت وجوههن؟»[1]. يقول أحد الأُدباء:

ومــن هــي بــالسبْي لكـنها ... تــمرّغ مــن جـبهة المسـتبي

تــقول له ادعُ فــمهما دعـوت ... وبــارز بــمالك مــن مـنصبِ

ســتفنى ويــفنى دويّ النـفير ... ومــاحشّد الزيـف مـن مـوكبِ

وتــبقى هــنا دور آل النـبيّ ... مــخضّبة بــالشذا الأطـيبِ

فهذا الذي حدث، حيث وقفت إلى جانب الحسين عليه السلام، ووقفت في وسط المجلس تخطب إلى أن أنهت خطبتها. وسمعت زوجة يزيد[2] صوت زينب، وكانت واقفة وراء الستار عندما كانت زينب عليها السلام تخطب، وكانت تعتقد أن هؤلاء هم حقّاً من الخوارج، لكنها أدركت أنها تعرف صوت هذه المرأة، فهو صوت مألوف لديها وليس صوت أحد من الخوارج.

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

(٢) وهي هند ابنة عبد الله بن عامر بن حريث، وهي وأبوها عبد الله ممّن أقرّ للإمام علي عليه السلام بولايته، وقد عاشت هند فترة في بيت أمير المؤمنين عليه السلام حيث استودعها أبوها عنده، وقد تزوّجها يزيد.

﴿ ٢٤ ﴾

أسباب فشل حركة مسلم بن عقيل ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: المنهج التربوي في الإسلام

من مناهج الإسلام التربويّة تعبئة المجتمع لمواجهة الانحراف الذي يهدّد المجتمع، فكلّ مجتمع فيه انحرافات وجرائم، ولا يمكن أن يُسمح لها بأن تنتشر إلى أن تودّيَ بالمجتمع إلى الهلاك. فكما أن الوباء إذا انتشر فإنّ الجهات المعنيّة تتهيأ لمكافحته، فكذلك المشرّع الإسلامي ينظر إلى الوباء الخُلقي نظرة أخطر من الوباء الجسدي؛ حيث إن الوباء الخلقي سيعمّ كل أطراف المجتمع. ولذلك فإنه يجب عليك أن تهيّئ نفسك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما لون من ألوان التغيير يستشعره الإنسان؛ فيهبّ في وجه الانحراف: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته»، وهذا هو الشعار الذي طرحه الإسلام.

وهناك حالات وضوابط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث إنه يخضع لشروط في بعض الحالات مع أنه في حالات أُخرى لا يخضع لها.

---

(١) لقمان: ١٧.

المبحث الثاني: المراد من المعروف والمنكرفي الآية

كما أن هناك نزاعاً بين المذاهب الإسلاميّة حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمذاهب الإسلاميّة الأربعة تقول: إن المنكر ماأنكره الشارع والمعروف ما ارتضاه الشارع. أمّا الشيعة والمعتزلة فيقولون: إن المعروف ماهو معروف عند المجتمع والمنكر هو المنكر عند المجتمع. نضرب مثلاً لو أن الشارع لم يقل لي: إن خيانة الوطن قبيحة، فأنا أعرف ذلك ولا أحتاج إلى تنبيه حوله، وكذلك أعرف أن الصدق جيّد وحسن من غير أن يخبرني ويقول لي، وإنما الشارع يؤيّد هذا المعنىٰ أي يؤيّد حكم العقل، فهو قد صار معروفاً من قبل أن يأمر به وصار منكراً من قبل أن ينهىٰ عنه.

حالتا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطهما

وهناك حالتان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الحالة الأُولى: أن يكونا في قضية جانبيّة ـ أي قضيّة لاتمسّ المجتمع ـ ككلّ، كما لو أن شخصاً يتهاون في صلاته أو يشرب الخمر ـ أي أنه يقوم بعمل فردي ـ ففي مثل هذه الحالة فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يخضع لشروط:

الأول: أن الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر يجب أن يعرف أن ما يأمر به معروف وما ينهىٰ عنه منكر. فيجب أن يعرف ذلك قبل الإقدام عليه بالرجوع لأهل المعرفة، فلا يتسرع ليجرح عاطفة الإنسان. وكذلك لا تأمرْ بشيء قد تستحسنه فتتصوّر أنه شيء جيد وإنما الواجب أن ترجع إلى القواعد التي رسمها الفقهاء والعلماء حتىٰ تعرف أنه معروف أو منكر.

الثاني: أن تحرز تأثير أمرك وإنكارك، فعندما تنهىٰ أحداً عن شرب الخمر فعليك أن تعرف أن كلمتك لها تأثير عليه، فإذا عرفت أنه يتقبّل منك وأحرزت تأثير إنكارك عليه فانكر المنكر، واؤمر بالمعروف.

الثالث: ألّا يصل إليك أو إلى أحد من المسلمين ضرر.

الحالة الثانية: أن يكونا في قضيّة تمسّ المجتمع ككلّ، أو قضايا تمسّ صميم المجتمع، مثلاً توجد جريمة تمحق الدين، أو خيانة للوطن فإنّ هذه الشروط تلغىٰ حينئذ، وتتعيّن حالة الدفاع عن الدين والمجتمع، ويجب على من يسقط بهم الواجب أن يتهيؤوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو أدّىٰ بهم الأمر إلى الموت. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الحالات التي تمسّ صميم المجتمع والأُمّة كلّها يقتضيان أن تعبّأ الأُمة ككلّ.

وفي الحالة الأُولىٰ – الفرديّة ـ إذا قام به فرد فإنه يسقط عن الآخرين، أما هنا فإنّ المجتمع كلّه يعبّأ ـ أو على أقلّ التقادير من يسقط بهم الواجب ـ لأن القضيّة ذات علاقة بالمجتمع بأكمله، وستصيبه كلّه إن تركت دون أن تعالج، والقائم بهذا الأمر من أبناء المجتمع إنما يتحرّك لحماية نفسه بحمايته مجتمعَه. فالجسم الاجتماعي مثل الجسم البشري، إذا دخل إليه شيء يهدّده فإن أجهزته تعبّأ كلها ضدّ ذلك الغريب الداخل؛ حيث إن أجهزة المناعة في الجسد تتهيّأ جميعها للدفاع عن الجسد، وكذلك الجسد الاجتماعي يجب أن يعبّأ كلّه للدفاع عن نفسه.

المبحث الثالث: أسرار نهضة الحسين عليه السلام

وبعد هذه الإلمامة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نطرح أسرار نهضة الحسين عليه السلام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندنا محاورة بين مسلم بن عقيل عليه السلام وعبيد الله بن زياد لمّا جيء بمسلم وادُخل عليه، حيث اتّهم ابن زياد مسلم بن عقيل عليه السلام بأنه يهدّد أمن المجتمع فقال له: إيه ابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع فشتّتّ بينهم، وفرّقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض. قال: كلّا، لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم، وعمل

فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى الكتاب. فقال له ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لِمَ لمْ تعمل فيهم بذلك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟ قال مسلم: أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً. فقال له ابن زياد: يا فاسق، إن نفسك منّتك ما حال الله دونه، ولم يرَك الله له أهلاً. فقال مسلم: فمن أهله إذا لم نكن نحن أهله؟ فقال ابن زياد: أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كلّ حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم.

ثم قال له ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس. فقال له مسلم: أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة، لا أحد أولى بها منك.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعليّاً وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه، ثم أمر ابن زياد بأن يُصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلم: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني.

فصُعد به، وهو يكبّر ويستغفر الله ويصلّي على رسول الله ﷺ ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا وخذلونا. فضرب عنقه وأتبع رأسه جثته[1].

وهكذا نرى أن هذا الطاغية يقول لمسلم: إن مجتمع الكوفة مجتمع متحابّ متراصّ، وأنت قادم لبثّ التفرقة. وهذا هو الأسلوب الذي يثيره الظلمة حيث إنهم لا يهمّهم المجتمع وأنما هم يأكلون رؤوس المجتمع، ولكنه يريد تبرير عمله

---

(١) الإرشاد ٢: ١٩٧ - ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.

ويطرح خصمه ويعطي عمله بعداً اجتماعيّاً، وهو بهذا يريد أن يعبّئ الناس لمقاتلة مسلم. والآن لنلقِ الضوء على المفاهيم التي ألقاها مسلم على عبيد الله بن زياد، حيث بيّن له أنه يفتعل الغيرة على المجتمع، وأن أهل المصر قد كتبوا إلى الحسين عليه السلام بأن أباه «قد قتل خيارهم» حيث إن زياداً أرسله الأُمويون إلى الكوفة لتصفية أي جهة من الجهات لها علاقة بآل محمد صلى الله عليه وآله، واختاروه لأنه كان والياً عند الإمام علي عليه السلام حيث كان إداريّاً قديراً، وإنما أبقاه الإمام عليه السلام؛ لأن تصرفاته في ذلك الوقت لم تكن لتضرّ المجتمع.

ويشار إلى أن زياداً هو وإخوته قد ولدوا على فراش غير شرعي:

وأشهد أن أمّك لم تباشر ... أبا سفيان واضعة القناع[1]

والأبيات معروفة، وتاريخ المسلمين يشهد بذلك[2].

---

(١) البيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو من جملة ثلاثة أبيات هي:

إذا أودىٰ معاوية بن حرب ... فبشّر شعب قعبك بانصداعِ
شهدت بأن أمّك لم تباشرْ ... أبا سفيان واضعة القناعِ
ولكنْ كان أمراً فيه لبس ... على وجل شديد وارتياعِ

شرح نهج البلاغة ١٦: ١٩١، تاريخ مدينة دمشق ٥٦: ١٧٩.

(٢) مرَّ زياد يوماً من الأيّام في موكبه علىٰ أبي الأديان العدويّ، وكان شيخاً مكفوفاً، فقال: ما هذه الجلبة؟ قالوا: الأمير زياد بن أبي سفيان. فقال: والله، ما ترك أبو سفيان إلّا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمّداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً، فأرسل إليه بمئتي دينار، ثم مرَّ به من الغد في موكبه فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد. وبلغ ذلك معاوية، فكتب الىٰ أبي الأديان العدويّ:

ما ألبثتك الدنانير التي بُعثت ... أن لوّنتك أبا الأديان ألوانا
أمسىٰ إليك زياد في أرومته ... نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
لله درّ زياد لو تعجّلها ... كانت له دون ما يخشاه قربانا

وذات يوم كتب زياد رسالة إلىٰ عائشة، فتحيّرت ما الذي تكتب له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا كذب، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أم المؤمنين إلىٰ ولدها زياد. فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أمّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[1].

وهذا ينبّهنا إلى الموقف الذي ينبغي أن نتّخذه بحقّ ولد الزنا، فهو لا ذنب له وإنما أبواه جنيا عليه، والقرآن يقول: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[2]. وقد يقول قائل: إن له أثراً وضعيّاً حيث إنه غير متكوّن من ماء طاهر. لكن هذا شيء آخر، والحقّ أننا لا نحمّله تبعة غيره.

على أية حال اختاروا زياداً؛ لأنه يعرف المنطقة ويعرف من يتّصل بالإمام علي﵇ فيها، فأرسلوه للتصفية، فبدأ يقتل كلّ من والىٰ أهل البيت﵈، ويقتل على الظِّنّة والتُّهمة، كما كان قبله المغيرة بن شعبة وغيره من الولاة. فأيّ بؤرة لها علاقة بأهل البيت﵈ يقضون عليها، ففعلوا ما فعلوا بكثير من الشيعة، كما حصل لحجر ابن عدي الكندي﵁ وتسعة من أصحابه أحدهم ابنه، فقد أخرجوهم مكبّلين وذلك أنهم لم يصبروا على شتم الإمام علي﵇، حيث قال حجر بن عدي لزياد: إن من تشتم أحقّ بالمدح ومن تمدح أحقّ بالشتم. فقال له: لقد شققت عصا

☚ فأجابه أبو الأديان بقوله:

أحدث لنا صلة تحيا النفوسُ بها	قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا
أمّا زياد فقد صحّت مناسبه	عندي فلا أبتغي في الحقّ بهتانا
من يسدِ خيراً يصبْه حين يفعله	أو يسدِ شرّاً يصبْه حيثما كانا

شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٨.

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

المسلمين. وجاء بجماعة شهدوا عليهم بأنهم قد شقّوا عصا المسلمين، وشتموا الوالي، إلى غير ذلك من التهم، فساقوا العشرة وأخرجوهم قبيل الغروب من الكوفة وانتهوا بهم إلى مرج عذراء ـ وهو مكان يبعد عن دمشق أميالاً قليلة، وآثاره موجودة، وقبر حجر بن عدي موجود فيه، ويزار إلى الآن ـ وأخبروا معاوية بأمرهم، فقال: اعرضوا عليهم البراءة من أبي تراب؛ فإنّ تبرّؤوا فأطلقوا سراحهم، وإن لم يتبرّؤوا فاضربوا أعناقهم. وفعلاً عرضوا عليهم البراءة، فقال حجر: إن السيف أحبّ إلينا ممّا تدعوننا إليه.

أي نحن لا نشتم إنساناً نعتقد أنه لولاه لما أُرسيت الكثير من قواعد الإسلام، فلا سبيل إلىٰ البراءة من هذا الرجل.

فقالوا له: لا بد من قتلك. قال: أمهلوني حتىٰ أُصلّي ركعتين. فصلىٰ ركعتين، فقالوا له: نراك قد أطلت صلاتك، أفعلت ذاك جزعاً من الموت؟ قال: إن الله يعلم أنها أخفّ صلاة صلّيتها، ولكن لم لا أجزع وأنا أرىٰ كفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً؟ ثم قال: قدموا ابني لضرب عنقه. وهذا نموذج بلغ الغاية في التضحية والفداء، وفعلاً ضربوا عنق ابنه، وقتلوا عديّاً والثمانية الباقين، وحملوا رؤوسهم إلىٰ معاوية، ودفنت الأجساد هناك وأعادوا الرؤوس إليها بعد ذلك. يقول فيه أحد الشعراء:

عذراء هذي اللحود الهاجعات علىٰ	مشارف الشام تثوي تحتها الرممُ
صحائف تكتب التاريخ في جسد	من لحمه البيض والمرّان تلتهمُ
قد أورثت جسمه مجداً وأورثها	عاراً ويعرف سرّ الفرق من فهموا
تصارعا فالتقى السيف الجبان مع الـ	ـنحر الشجاع وما غير النُّهى حكمُ
وكان ما اصطرعا فيه وما اعتركا	أن يُعبد الله أو أن يُعبد الصنمُ

ولما وصل الخبر إلىٰ عائشة قالت: ياويل معاوية من حجر وأصحاب حجر[1]، هؤلاء قوّام الليل، فكيف يلاقي ربّه وهو يقتل هذه الأرواح الطاهرة؟

وهذا غير العشرات منهم، وهذا هو الذي يريده مسلم بقوله:

«وقتل خيارهم، واستبقى شرارهم». الشرار مثل عمرو بن حريث الذي جهّز لابن زياد فتوىً مؤدّاها أن الباغي إذا خرج على إمام زمانه يقتل. وكما يقول علماء المنطق: الكبرىٰ صحيحة، لكن نأتي للصغرىٰ لنعرف من هو الباغي ومن هو الإمام، فالحسين عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة، وسبط الرسول صلى الله عليه وآله، والإمام إن قام وإن قعد، ومن أخرجه الرسول صلى الله عليه وآله ليباهل به نصارى نجران، هذا الذي أعطاه الله كلّ هذه الصفات في نظر هؤلاء هو الباغي، وإمامه هو الذي يصعد على منبر المسلمين وهو يرنّح أعطافه ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم	وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة	فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّمُ[2]

فيزيد هذا إمام، والحسين باغٍ، فهل هذا إلّا التفاهة بعينها؟

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦٢، ١٦: ١٩٣، دفع شبه التشبيه (ابن الجوزي): ١٠٣، وفي الجميع أن الداعي عليه بالويل هو الحسن البصري. وقد ورد أن عائشة عنفت معاوية ولامته على قتله حجراً، مستشهدة بحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله في ذلك، رواه المناوي في (فيض القدير)، وفيه: «سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء». قال المناوي: «هم حجر بن عدي الأدبر وأصحابه، وفد على المصطفى صلى الله عليه وآله وشهد صفين مع علي أميراً، وقتل بعذراء من قرى دمشق وقبره بها. قال ابن عساكر في تاريخه عن أبي معشر وغيره: «كان حجر عابداً، ولم يحدث قطّ إلّا توضّأ، ولا توضّأ إلّا صلّى»...». انظر: تاريخ الطبري ٤: ١٩١، البداية والنهاية ٨: ٥٩، كنز العمّال ١٣: ٥٨٨، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٢٢٧، ٢٧٠، أسد الغابة ١: ٣٨٦، تهذيب الكمال ١٧: ٤٢، سير أعلام النبلاء ٣: ٤٨٤.
وهو القائل: ما قتلت أحداً إلّا وأعرف فيم قتلته ما خلا حجراً فإني لا أعرف فيم قتلته. فيض القدير ٤: ١٦٦ / ٤٧٦٥.

(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣٠١.

فأفتاه عمرو بن حريث بذلك حتى يبقيّه ويجزل له العطاء، ويقرّبه منزلة لديه.

«واستبقىٰ شرارهم» الذين ليس لديهم موقف ولا رجولة. وهنا نقطة يذكرها المؤرّخون وهي أن أهل الكوفة لا يحبّون الحسين عليه السلام وأن الذين قتلوه هم شيعته، ونقول: كلّا ليس الأمر كذلك، بل كلّ ما في الأمر أنه أمر طبيعي أن توجد نماذج من الأشرار فيها، لكن النموذج المميّز كان موجوداً أيضاً، وهو الذي وقف إلى جانب الحسين عليه السلام، فهذا حكم ليس فيه تحقيق ولا تثبّت.

«وجعل مال الله دولة بين جبابرتهم وأغنيائهم». وهو ما فعله هو وابنه عبيد الله من بعده، فإنه قد دفع خراج خراسان ـ وقدره عشرون مليون درهماً ـ إلى أخيه عبد الرحمن بن زياد، فلمّا رأىٰ هذا المبلغ قال: لا أدري كيف أنام وأنا عندي هذه الأموال؟ وقد كان للدرهم قوّة شرائيّة عالية. وقال: أنا حسبت لمئة سنة في كل يوم يدخل لي ألف درهم دون أن أحتاج إلى كراع أو سلاح أو عَرَض (سلعة) من العروض، والآن عندي وارد صافٍ ألف درهم إلى مئة سنة، فكيف أنام؟

وما مرّت أيام قلائل حتّى أضاع ماله ووصل الحال به بعد ذلك إلى أن باع الفضة التي كانت تحلّي القرآن. وكان ذات يوم راكباً حماراً ورجلاه تخطّان الأرض، فمرَّ به مالك بن دينار المعروف بالزهد وقال له: أين الأموال التي كنت تقول عنها: كيف أنام وأنا عندي هذه الأموال؟ قال: كلّ شيء هالك إلّا وجهه.

ومن باب «الشيء بالشيء يذكر» يروىٰ أن رجلاً سرق بضاعة، فجاء إلى السوق ليبيعها، فلمّا دخله سرقت منه، فقيل له: بكم بعتها؟ قال: برأس المال.[1]

فمسلم يقول: «جعل مال الله دولة»، فهذا المال انتُزِع من عرق المسلمين ووُضع تحت تصرّف هؤلاء، فهو يقول مخاطباً إيّاه: إننا جئنا لإصلاح الأمور؛ لأن

---

(١) أي أنه نهبها فنهبت منه، ولم يَدفع فيها شيئاً فلم يُدفع له فيها شيء.

هذه المبالغ أرغفة الفقراء وقد سرقتموها، فتفاقم الحال حتى وصل إلى حد أن السيف وصل إلى نحور الأبرياء فتركوا البلدة بعد أن أصبحت مسرحاً للجريمة والمجرمين، وهذا ما دفعنا لأن نتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«**وكنا أهل ذلك**». فإنه من أهل الرسالة الذين انبثق منهم الهدىٰ، وانطلق منهم الشعاع لينير الظلام. فما كان جواب ابن زياد؟ لقد قال: وما أنت وذلك؟ وأين كنت إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟

أليس هذا من العجب العُجاب؟ بل هو من أعجب العجب؛ فإنّ مسلماً من فقهاء أهل البيت﵈، وغاية في الطهارة والدين والخلُق، لكن هذه هي لغة هؤلاء.

فقال له: «أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً».

نعود للموضوع ونسأل: إذا كان مسلم قد خرج لتعبئة الجمهور، والجمهور في الكوفة يرىٰ الفضائح التي يمارسها الأمويّون، فما السبب الذي جعل حركته تنتهي بهذا الشكل وتمنى بالفشل؟

المبحث الرابع: آراء مرتجلة حول فشل حركة مسلم﵀

هنا تأتي الآراء المرتجلة، فتلعب دورها في تشويه الحقائق، وهناك عدة نظريات طرحت في هذا المضمار، نذكر منها نظريّتين هما:

النظريّة الأولى: أن هذا ناتج من غدر أهل الكوفة. وهذا غير صحيح؛ لأن الكوفة كسائر البلدان فيها الطيّب وفيها الخبيث، وفيها أحبّاء لأهل البيت﵈ أكثر من غيرها، وبها رجال صلبون أكثر من غيرها؛ ولذلك كافحهم الأمويون حيث أرسلوا إليهم ولاة قساة من نمط المغيرة بن شعبة وزياد وعبيد الله ابنه؛ لعلمهم

بصلابتهم وأن في هذا البلد أناساً موالين لأهل البيت. وكان فيه أصحاب الحسين، ففي الطفّ كان أغلب أصحابه من الكوفة إلّا اثنين أو ثلاثة كانوا من البصرة وأفراداً من الحجاز. وعندما جاء زياد إلىٰ الكوفة هجّر خمسين ألفاً من أهلها وألحقهم بخراسان، بسبب ولائهم لأهل البيت.

وهذا يدل على أن هذه المنطقة تمثّل عند الأُمويين مركز ثقل للتشيّع؛ ثم بعد ذلك فرضوا عليها أنواعاً من الضرائب وأجاعوها، ووصلت الحال إلى أنهم فرضوا الضريبة على الرهبان فيها وأخذوها منهم على الرغم من أن الإسلام لا يأخذ منهم شيئاً، وأرجعوا الضرائب الساسانيّة التي كانت على أيّام الساسانيّين، حيث كانت الضرائب تؤخذ ممّن يملك وممّن لا يملك؛ حتى أجاعوهم.

إن الإمام الحسن قد اشترط في عقد الصلح مع معاوية أن يؤخذ من خراج دار أبجر مليونا درهم لذراري المقاتلين مع الإمام علي حيث إن آباءهم قد قُتلوا في صفّين، فالمسؤول عنهم بيت المال إلى أن يكبروا. وعندما جاء الأُمويون منعوا عنهم ذلك، ولم يكن لهم طعام يأكلونه ولا لباس يرتدونه.

فالمنطقة لم تكن كما يتصوّرها البعض من أن الغدر متأصّل فيها. فلو كانت غادرة لما استعمل الأُمويون الأساليب الإجراميّة ضدّها. ولذلك فإن النظريّة التي تقول: إن حركة مسلم قد فشلت نتيجة غدر المنطقة نظريّة غير سليمة.

النظريّة الثانية: أن دهاء عبيد الله بن زياد هو الذي أفشل حركة مسلم بن عقيل. إن عبيد الله بن زياد لم يكن داهية، وقد قام بغلطة كبيرة هي دخوله للكوفة لوحده، ولم يكن معه أحد، وكان يمشي ليلاً ونهاراً ولا يترك وقتاً للراحة لا له ولا لمن معه حتى سقط بعض من جماعته في طريقهم إلى البصرة من التعب والإعياء إلى ان دخل الكوفة من ناحية النجف، وهو يضع على وجهه خرقة سوداء، وقد

اعتمّ بعمامة سوداء، وأمسك بيده خيزرانة، فكان إذا مرّ بجماعة سلّم عليهم بالعصا.

وتصوّر الناس أنه الحسين، فقالوا: قدمت خير مقدم. فساءه مارأى من كثرة الترحيب الذي لاقاه والذي كان في حقيقة الأمر موجّهاً إلى الحسين. وهكذا دخل الكوفة وحده، وسار منفرداً حتى وصل إلى القصر. بل إن النعمان بن بشير نفسه ـ والي الكوفة حينها ـ قد انخدع به وتصوّر أنه الحسين، فقال: يابن رسول الله، أنا لا أُقاتلك، وأنت في حلّ، فانصرف. فقال عبيد الله بن زياد: افتح لافتحت، فعرف أنه ليس الحسين، وأنه عبيد الله بن زياد.

فهذه غلطة شنيعة؛ لأن من الممكن أن يأتيه أحد ويضرب عنقه، ولكنهم لم يتعرّضوا له لأنهم قد تصوّروا أنه الحسين. فهذه غلطة وهي لا تنمّ عن دهاء أبداً، وإنما تنمّ عن اللامبالاة والإقدام في الأُمور بشكل غير مدروس، وقد تنمّ عن الجرأة أيضاً.

المبحث الخامس: الأسباب الحقيقيّة لفشل حركة مسلم

إذن ماهي الأسباب التي أدّت إلى انتهاء حركة مسلم بن عقيل؟ في الحقيقة هناك عدّة أسباب منها:

أوّلاً: أن حركة مسلم قد تقدّمت على توقيتها، لأن مسلماً عندما عبّأ الكوفة كان قد عبّأها على موعد معيّن حيث إنه حدد اليوم الذي ستنطلق فيه الشرارة الأُولى للنهضة، لكن الذي اضطرّه لتقديم الموعد هو مقتل هاني بن عروة حيث إنه فوجئ بذلك. ونلاحظ أن محاورة هاني مع عبيد الله يلوح منها أنه كان واثقاً من النصر، فعندما أُدخل على ابن زياد قال له: أتيت بابن عقيل، فجمعت له الرجال، واشتريت له السلاح، فادفع لنا ابن عقيل. فقال: والله لو كانت رجلي على طفل من

أطفال آل محمد ﷺ، لما رفعتها حتى تقطع.

ثم قال له: إن أباك زياداً كان صديقاً لي ومراعاة لأبيك فإني لا أُقابلك بمثل ما قابلتني به، بوسعك أن تخرج في أمان من الكوفة.

وهذا كلام شخص واثق من نفسه، فقال: أدنوه مني. فأدنوه إليه، فاستعرض وجهه بقضيب كان بيده، فشجّه فأدماه، ثم أدخله إلى غرفة من غرف القصر، ثم أرسل عمرو بن حريث للناس فقال: إنه في سلام. ونثرت عليهم دراهم ودنانير فانفضّوا.

فمسلم فوجئ بمقتل هاني؛ ولذلك عجّل الحركة، وإلّا فإنها لو بقيت على ميقاتها لكان أمرٌ آخرٌ غير ذلك قد حدث. وبعد ذلك جاءت الرايات؛ ابن أبي عبيد له راية، وعبد الله بن الحارث له راية، فسمع حملة الرايات بمقتل هاني ثم بمقتل مسلم، فرجعوا. فالنهضة كانت في غير وقتها.

ثانياً: مثاليّة مسلم ﵁، فلو كان مسلم من الذين لا يتقيّدون بالأخلاق، لقتل عبيد الله قبل ذلك؛ فقد كان بوسعه أن يتناوله بذبالة سيفه لأن مسلماً كان في بيت هاني، وكان هاني يحثّه ويصيح:

ما الانتظار بسلمى أن تحيّيها	كأس المنيّة بالتعجيل تسقيها
هل شربة عذبة أُسقى على ظمأ	وإن تلفت وكانت ميتتي فيها
فإن أحسّت سليمى منك داهية	فليس تأمن يوماً من دواهيها

وكان مسلم قابضاً على سيفه ويستطيع قتله، لكنه امتنع، فقال مهران غلام عبيد الله بن زياد: إنهم يتربّصون بك فاخرج. فلمّا خرج قال هانئ لمسلم: ما الذي منعك أن تقتله؟ قال: «الإيمان قيد الفتك». فهذه ليست من الرجولة، ونحن شعارنا:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا	ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فقال: والله لو قتلته لقتلت كافراً فاجراً. فأجابه بأن هذا صحيح لكنه لا يناسبني.

وهذا في الحقيقة هو خلق عمّه علي بن أبي طالب﵇، فإنه لمّا دخل البصرة بعد واقعة الجمل وقفت له امرأة بباب الدار وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم الله ولدك. فقال﵇: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»[1]. وكان فيها مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط. فهذا اللون من المثاليّة هو الذي دأب عليه أهل البيت﵈. ولا ننسَ أن عمرو بن العاص استقبل الإمام عليّاً بعورته فأدار وجهه وعاد عنه[2].

فهذه الأُسرة مثاليّة، ومسلم لم يقتله؛ لأنه يرى أن «الإيمان قيد الفتك»[3].

ثالثاً: تخلّف الأنصار عنه، فانتهى الأمر إلى فشل الحركة. فهو﵇ دخل المسجد ووراءه جمع غفير من المصلّين فصلّى بهم، فلمّا فرغ من الصلاة وأراد الخروج من المسجد لم يجد وراءه إلّا نفراً قليلاً قد توزّعوا، فخرج من أحد الأزقّة، فإذا ليس معه أحد يدلّه على الطريق. فأخذ يمشي في الأحياء إلى أن وقف على باب دار امرأة وقد التهب قلبه عطشاً، فقالت له: من أنت ياهذا؟ قال: عطشان وأُريد ماءً. فدخلت إلى الدار وأقبلت إليه بكأس من الماء، تناوله مسلم وجرع منه جرعة

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.

(٢) وكذلك فعل بسر بن أرطاة فتركه﵇، وفيه وفي عمرو بن العاص قال النجاشي:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه	له عورة وسطَ العجاجةِ باديهْ
يكفُّ بها عنه عليٌّ سلاحَهُ	ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويهْ
بدت أمسِ من عمروٍ فقنّع رأسه	وعورة بسر مثلها حذو حاذيهْ
فقولا لعمروٍ وابن أرطاة أبصرا	سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيهْ

انظر: الفصول المهمّة (ابن الصبّاغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

(٣) تهذيب الأحكام ١٠: ٢١٤ / ٨٤٥، مسند أحمد ١: ١٦٦، مقاتل الطالبيّين: ٦٥.

وأرجعه، فخرجت وقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلىٰ. قالت: ما وقوفك على باب داري يرحمك الله؟ قال: أمَة الله ليس لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة. قالت: ما الخبر؟ قال: أنا مسلم بن عقيل تخلّى عنّي هؤلاء القوم. قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: على الرحب والسعة.

ثم أدخلته الدار. أقبلت إليه بماء، أسبغ وضوءه، ولم يزل قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتى أوشك عمود الفجر أن ينبلج، دخلت إليه وقالت سيدي: ما رأيتك رقدت منذ البارحة؟ قال: بلىٰ هوّمت عيناي فنمت ورأيت عمّي أمير المؤمنين ﷺ في المنام وهو يقول: إنك صائر إلينا عن قريب. وإني لأظن أن هذا آخر أيّامي من الدنيا.

ثمّ قام واستأنف صلاته، وما هي إلّا لحظات حتّى سُمعت أصوات الخيل حول الدار، قالت: سيّدي أتاك القوم. قال: لا عليك، ناوليني سلاحي. فأخذ سيفه وخرج وهو يرتجز:

آليت لا أقتل إلّا حرّاً	وإن رأيت الموت شيئاً نُكرا
أخاف أن أُكذب أو أُغرّا	أو يخلط البارد سخناً مرّا
ردَّ شعاع الشمس فاستقرا	كل امرئٍ يوماً ملاقٍ شرّا[1]

فداروا حوله أربع فرق: فرقة بالرماح، وأُخرىٰ بالسيوف، وأُخرى بالحجارة، وفرقة توقد النار بأطناب العقب وتلقيها على رأسه، وطوعة وراءه تقول: جاءك القوم من حيث تحذر. وهو يقاتل والمرأة تلاحق خطواته إلى أن أُثخن بالجراح وأُخذ إلى القصر، وبقيت طوعة تنتظر خروج ضيفها، وبينما هي كذلك إذا بفلول

---

(١) انظر: روضة الواعظين: ١٧٦، ١٨٨، الإرشاد ٢: ٥٨، مثير الأحزان ٢٤، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٠، مقاتل الطالبيّين: ٦٩.

الناس قد رجعت، فسألتهم: أين ضيفي؟ فقيل لها: لقد ضرب عنقه.

وكان الحسين عليه السلام آنذاك في زرود، فلما أُصعد مسلم إلى القصر حوّل وجهه إلى جهة الحسين عليه السلام وصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله. قام الحسين عليه السلام مختنقاً بعبرته وقال: «وعليك السلام ياغريب كوفان». ورجع إلى داخل الخيمة، وأخرج صبيّة لمسلم وأجلسها في حجره وجعل يمسح على رأسها، قالت: عمّ، أراك تصنع بي ما يصنع باليتامى، لعله قد استشهد والدي؟



المحتويات